

بہارِ بختور

# انوارِ جاوید



# اولاد حارتنا نجيب محفوظ

"الناس تحملوا البغي في جلد ، ولاذوا بالصبر واستمسكو بالأمل، وآنوا ألما أضرب بهم العسف قالوا : لابد للظلم من آخر ، ولليل من نهار، ولنرين في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب."

هذا حكاية حارتنا ، أو حكايات حارتنا وهو الأصدق ، لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير الذى عاصرتة، ولكنى سجلتها جميعا أما يرويها الرواة وما أآثرهم جميع أبناء حارتنا يروون هذه الحكايات، يرويها آل أما يسمعها فى قهوة حية أو أما نقلت إليه خلال الأجيال، ولا سند لى فيما آتبت إلا هذه المصادر، وما أآثر المناسبات التى تدعو إلى ترديد الحكايات ، أما ضاق أحد بجاله، أو ناء بظلم أو سوء معاملة أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناصيتها المتصلة بالصحراء، وقال فى حسرة هذا بيت جدنا، جميعنا من صله، ونحن مستحقوا أوقافه، فلماذا نجوع وآيف نظام؟ ثم يأخذ فى قص القصص والاستشهاد بسير أدهم وجبل ورفاعة وقاسم من أولاد حارتنا الأجداد، وجدنا هذا لغز من الألغاز عمرٌ فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره، واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد، فلم يره منذ أعتزاله أحد، وقصة اعتزاله وآبره مما يحير العقول، ولعل الخيال أو الاغراض قد اشترت فى إنشائها على أى حال آن يدعى الجبلأوى وباسمه سميت حارتنا، وهو صاحب أوقافها وآل قائم فوق أرضها والأحكار المحيطة بها فى الخلاء سمعت مرة رجلاً يتحدث عنه فيقول " : هو أصل حارتنا، وحارتنا أص مصر أم الدنيا، عاش فيها وحده وهى خلاء خراب، ثم امتلكها بقوة ساعده ومزئلته عند الوالى، آن رجلاً لايجود الزمان بمثله، وفتوة تماب الوحوش ذآره " وسمعت آخر يقول عنه " : آن فتوة حقاً، ولكنه لم يكن آلفتوات الآخرين، فلم يفرض على أحد آتاوة، ولم يستكبر فى الأرض ، وآآن بالضعفاء رحيماً . " ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته، وهكذا حال الدنيا . وآنت ومازلت أجد الحديث عنه شائقاً لايمل، وآم جعلنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه ولكن دون جدوى وآم وقفت أمام بابه الضخم أرنو إلى التمساح المنحط المرآب أعلاه، وآم جلست فى صحراء المقطم غير بعيد من سوره الكبير فلا أرى إلا رءوس أشجار التوت والجميز والنخيل تكتنف البيت،

ونوافذه مغلقة لا تنم على أى أثر لحياة . أليس من المحزن أن يكون لنا جدّ مثل هذا الجدّ دون أن نراه أو يرانا؟ أليس من الغريب أن يحتفى هو فى هذا البيت الكبير المغلق وأن نعيش نحن فى التراب؟ وإذا تساءلت عما صار به وبنا إلى هذا الحال سمعت من فورك القصص، وترددت على أذنيك أسماء أدهم وجبل ورفاعة وقاسم، ولن تظفر بما يبيل الصدر أو يريح العقل، قلت إن أحداً لم يره منذ اعتزاله ، ولم يكن هذا بذى بال عند آآثر الناس فلم يهتموا منذ بادئ الأمر إلا بأوقافه وبشروطه العشرة التى آآثر القيل والقال عنها، ومن هنا ولد النزاع فى حارتنا منذ ولدت، ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم والغد، ولذلك فيس أدعى إلى السخرية المريرة من الإشارة إلى صلة القربنى التى تجمع بين أبناء حارتنا

آنا ومازلنا أسرة واحدة لم يدخلها غريب، وآل فرد في حارتنا يعرف سكانها جميعاً نساءً ورجالاً ومع ذلك فلم تعرف حارة حدة الخصام أما عرفناها، ولا فرق بين أبنائها التراع أما فرق بيننا، ونظير آل ساع إلى الخير تجد عشرة فتوات يلوحون بالنبايت ويدعون إلى القتال حتى اعتاد الناس أن يشتروا السلامة بالإتاوة، والأمن بالخضوع والمهانة، ولاحتقتهم العقوبات الصارمة لأدنى هفوة في القول أو في الفعل بل للخاطرة تخطر فيشى بها الوجه وأعجب شئ أن الناس في الحارات القريبة منا آلعطوف وآفر الزغارى والدراسة والحسينية يحسدوننا على أوقاف حارتنا ورجالنا الأشداء، فيقولون حارة منيعة وأوقاف تدر الخيرات فتوات لا يغلبون، آل هذا حق، ولكنهم لا يعلمون أننا بتنا من الفقر المتسولين، نعيش في القاذورات بين الذباب والقمل، نقنع بالفتات، ونسعى بأجساد شبه عارية، وهؤلاء الفتوات يروهم وهم يتبخثرون فوق صدورنا فيأخذهم الإعجاب، ولكنهم ينسون أنهم إنما يتبخثرون فوق صدورنا، ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير ونقول في حزن وحسرة

"هنا يقيم الجبلأوى" صاحب الأوقاف، وهو الجد ونحن الأحفاد.

شهدت:

العهد الأخير من حياة حارتنا وعاصرت الأحداث التي دفع بها إلى الوجود "عرفة" ابن حارتنا البار . وإلى أحد أصحاب عرفة

يرجع الفضل في تسجيل حكايات حارتنا على يدة، إذ قال لي يوماً " : إنك من القلة التي تعرف الكتابة، فلماذا لا تكتب حكايات حارتنا؟ إنها تروى بغير نظام، وتخضع لأهواء الرواة وتخرباتهم، ومن المفيد أن تسجل بأمانة في وحدة متكاملة ليحسن الانتفاع بها، وسوف أمدك بما لا تعلم من الأخبار والأسرار . " ونشطت إلى تنفيذ الفكرة اقتناعاً بوجهتها من ناحية، وحباً فيمن اقترحها من ناحية أخرى ، وأنت أول من اتخذ من الكتابة حرفة في حارتنا على رغم ما جرّه ذلك على من تحقير وسخرية، وآنت مهمتي أن آتب العرائض والشكاوى للمظلومين وأصحاب الحاجات . وعلى آثرة المتظلمين الذين يقصدونني فإن عملي لم يستطع أن يرفعني عن المستوى العام للمتسولين في حارتنا، إلى ما اطلعني عليه من أسرار الناس وأحزائهم حتى ضيق صدرى وأشجن قلبي، ولكن مهلاً، فإنني لا آتب عن نفسي ولا عن متاعبي، وما أهون متاعبي إذا قيست بمتاعب حارتنا ، حارتنا العجيبة ذات الأحداث العجيبة، آيف وجدت؟ وماذا آان من أمرها ؟ ومن هم أولاد حارتنا ؟

نجيب محفوظ

آن مكان حارتنا خلاء، فهو امتداد لصراء المقطم الذى يربض فى الأفق، ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى آنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطرق، آن سوره الكبير العالى يتحلق مساحة واسعة نصفها الغربى حديقة، والشرقى مسكن مكون من أدوار ثلاثة، ويوما دعا الواقف أبناءه إلى مجلسه بالبهو التحتانى المتصل بسلاملك الحديقة وجاء الأبناء جميعا، إدريس ، وعباس ، وروضوان وجيليل وأدهم ، فى جلابيهم الحريرية فوقفوا بين يديه وهم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسه، وأمرهم بالجلوس فجلسوا على المقاعد من حوله ، وراح يتفحصهم هنية بعينيه النافذتين أعين الصقر، ثم قام متجهاً نحو باب السلاملك، ووقف وسط الباب الكبير ينظر إلى الحديقة المترامية التى تزحمها أشجار التوت والجميز والنخيل ، وتعترش فى جنباتها الحناء والياسمين، وتتب فوق عصوفها مزققة العصافير. ضجت الحديقة بالحياة والغناء على حين ساد الصمت بالبهو وخيل إلى الأخوة أن فتوة الخلاء قد نسيهم، وهو يبدو بطولة وعرضه خلقا فوق الآدميين آنما من آوآب هبط وتبادولا نظرات متسالة، إن هذا شأنه إذا قرر أمراً ذا خطر، وما يقلقهم إلا أنه جبار فى البيت أما هو جبار فى الخلاء وأنهم حياله لا شئ . التفت الرجل نحوهم دون أن يبرح مكانه وقال بصوت خشن عميق تردد بقوة فى أنحاء البهو الذى توارت جدرانها العالية وراء ستائر وطفانس.

-أرى من المستحسن أن يقوم غيره بإدارة الوقف . . وتفحص وجوههم رمة أخرى، ولكن لم تنم وجوههم على شئ لم تكن إدارة الوقف مما يغرى قوماً استحبووا الفراغ والدعة وعردة الشباب، فضلا عن هذا فإدريس الأخر الأبر هو المرشح الطبيعى للمنصب، فلم يعد أحد منهم يتساءل عما عنالك، وقال إدريس لنفسه " : يا له من عبء ، هذه الأفكار لا حصر لها، وهؤلاء

المستأجرين المناآيد " أما الجبلاوى فاستطرد قائلاً:

-وقد وقع اختيارى على أحيكم أدهم ليدير الوقف تحت إشرافى.

عكست الوجوه وقع مفاجأة غير متوقعة، فتبدلت النظرات فى سرعة وانفعال، إلا أدهم فقد غض بصره حياءً وارتبأاً ، وولاهم الجبلاوى ظهره وهو يقول فى عدم آآرات:

لهذا دعوتكم-- .

تفجر الغضب فى باطن إدريس فبدا آآثل من شدة مقاومته ونظر إليه إخوته بخرج، ودارى آل منهم - عدا أدهم طبعاً

غضبه لكرامته باحتجاجة الصامت على تخطي إدريس، الذى آن تخطياً مضاعفا لهم، أما إدريس فقال بصوت هادئ آنما يخرج من جسم آخر:

ولكن يا أبى

قاطع الأب برود وهو يلتفت نحوهم

ولكن ؟

فغضوا الأبصار حذراً من أن يقرأ ما فى نفوسهم ، إلا إدريس فقد قال بإصرار

ولكننى الأخ الأبر

فقال الجبلاوى مستاء

أظن أننى أعلم ذلك ، فأنا الذى انجبتك

فقال إدريس وحرارة غضبه أخذة فى الارتفاع

للأخ الأبر حقوق لا تمضم إلا لسبب

فحدجه الرجل بنظرة طويلة آنما يمنحه فرصة طيبة لتدبر أمره وقال

-أوآد لكم إنى راعيت فى اختيارى مصلحة الجميع.

تلقى إدريس اللطمة بصبر ينفذ إنه يعلم أما يضيق أبوه بالمعارضه، وإن عليه أن يتوقع لطمات أشد إذا تمادى فيها، ولكن

الغضب لم يدع له فرصة لتدبر العواقب، فأندفع خطوات حتى آاد يلاصق أدهم، وانتفخ آالديك المزهو ليعلن للأبصار فوارق

الحجم واللون والبهاء بينه وبين أخيه، وانطلق الكلام من فيه أما ينطلق نثار الريق عند العطس بغير ضابط:

إنى وأشقائى أبناء هاتم من خيرة النساء، أما هذا فإبن جارية سوداء

شحب وجه أدهم الأسمر دون أن تند عنه حرآة، على حين لوح الجبلاوى بيده قائلاً بنبرات الوعيد

تأدب يا إدريس

ولكن إدريس آانت تعصف به عواصف الغضب المجنونة فهتف

وهو أصغرنا أيضاً، فدلنى على سبب يرجحنى به إلا أن يكون زماننا زمان الخدم والعبيد؟-

اقطع لسانك رحمة بنفسك يا جاهل-.

إن قطع رأسى أحب إلى من الهوان

ورفع رضوان رأسه نحو أبيه وقال برقة باسمه

نحن جميعا أبنآؤك، ومن حقنا أن نخزن إذا افتقدنا رضاك عنا . والأمر لك على أى حال . . وغاية مرامنا أن نعرف السبب

وعدل الجبلاوى عن إدريس إلى رضوان، مروضا غضبه لغاية فى نفسه ، فقال

-أدهم على دراية بطباع المستأجرين ويعرف آثرهم باسمائهم، ثم إنه على علم بالكتابة والحساب .  
وعجب إدريس من قول أبيه أما عجب أخوته، متى آنت معرفة الأوشاب ميزة يفضل من أجلها إنسان، ودخول الكتاب  
أهون

ميزة أخرى؟ وهل آنت أم أدهم تدفع به إلى الكتاب لولا يأسها من فلاحه فى دنيا الفتوة . وتساءل إدريس متهكما:  
اتكفى هذه الأسباب لتبرير ما يراد بى من مذلة؟

فأشار الجبلاوى نحوه بضحر وقال

-هذه إرادتى ، وما عليك إلا السمع والطاعة .

والتفت الرجل التفاتة حادة صوب أشقاء إدريس وهو يسأل ؟

ما قولكم ؟

فلم يحتمل عباس نظرة أبيه، وقال وهو وأجم

سمعاً وطاعة

وسرعان ما قال جليل وهو يفض طرفه

أمرك يا أبى- .

وقال رضوان وهو يزدر ريقه الجاف

على العين والرأس

عند ذلك ضحك إدريس ضحكة غضب تقلصت إلى أساريه حتى قبحت وجهه وهتف

يا جبناء .. ما توقعت منكم إلا الهزيمة المزرية، وبالجن يتحكم فيكم ابن الجارية السوداء

فصاح الجبلاوى مقاطعا عن عينين تتطاير منهما النذر

إدريس!

ولكن الغشب آن قد اقتلع جذور عقله فصاح بدوره

ما أهون الأبوة عليك ، خلقت فتوة جباراً فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جباراً، ونحن أبناءك تعاملنا أما تعامل ضحاياك-.

العديدين

اقترب الجبلاوى خطوتين فى بطاء التوثب، وقال بصوت منخفض وقد أذرت أساريه المتقبضة بالشر:

اقطع لسانك

ولكن إدريس واصل صياحه قائلاً

-لن ترعيني ، أنت تعلم أننى لا أرتعب، وأنك إذا أردت ان ترفع ابن الجارية على فلن أسمعك لحن السمع والطاعة.

ألا تدرك عاقبة التحدى يا ملعون؟-.

الملعون حقا هو ابن الجارية

فعلت نبرات الرجل واخشوشنت وهو يقول

إنها زوجتى يا عرييد، فتأدب وإلا سوت بك الأرض .. وفزع الأخوة وأولهم أدهم لداريتهم بيطش أبيهم الجبار ، ولكن إدريس

آن قد بلغ من الغضب درجة لم يعد يدرك معها خطراً أنه مجنون يهاجم ناراً مندلعة، فصاح

إنك تبغضنى ، لم آن اعلم هذا، ولكنك تبغضنى دون ريب، لعل الجارية هى التى بغضتنا إليك، سيد الخلاء وصاحب- .  
الأوقاف والفتوة الرهيب، ولكن جارية استطاعت أن تعبت بك، وغداً يتحدث عنك الناس بكل عجيبة يا سيد الخلاء  
قلت لك اقطع لسانك يا ملعون- . .

لا تسبنى من أجل أدهم طوب الأرض يأبى ذلك ويلعنه ، وقرارك الغريب سيجعلنا أحدىة الأحياء والحوارى- .  
فصاح الجبلاوى بصوت صك الأسماع فى الحديقة والحريم

أغرب بعيدا عن وجهى . .

هذا بيتى، فيه أمى ، وهى سيدته دون منازع

لن ترى فيه بعد اليوم وإلى الأبد

وأفهر الوجه الكبير حتى حآى لونه النيل فى احتدام فيضانه، وتحرك صاحبه آلبنيان مكوراً قبضة من صوان، وأيقن الجميع أن إدريس قد انتهى، ما هو إلا مأساة جديدة من المآسى التى يشهدها هذا البيت صامتا . أم من سيدة مصونة تحولت بكلمة إلى متسولة تعيسة . وأم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحا يمل على ظهره العارى أثار سياط حملت أطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه والرعاية التى تحوط الجميع عند الرضا لا تشفع لأحد وإن عز جانبه عند الغضب لهذا أيقن الجميع إن أدريس قد انتهى حتى إدريس بكرى الواقف ومثيله فى القوة والجمال قد انتهى . وتقدم الجبلاوى خطوتين أخريين وهو يقول:

لا أنت أبى ولا أنا أبوك، ولا هذا البيت بيتك، ولا أم لك فيه ولا آخر ولا تابع، أمامك الأرض الواسعة فاذهب مصحوباً بغضى- .

ولعنتى وستعلمك الأيام حقيقة قدرك وأنت تهيم على وجهك محروما من عطفى ورعايتى

فضرب إدريس البساط الفارسى بقدمه وصاح:

-هذا بيتى ولن أعادره.

فأنقض عليه الأب قبل أن يتقيه، وقبض على منكبه بقبضة المعصرة، ودفعه أمامه والآخر يتراجع مقهقراً ، فعبرا باب



السلامك وهبطا السلم وإدريس يتعثر ثم اخترق به ممراً تكتنفه شجيرات الورد والحناء مفروشا بالياسمين حتى البوابة الكبيرة فدفعه خارجا وأغلق الباب وصاح بصوت سمعه آل من يقيم في البيت .  
الملاك لمن يسمح له بالعودة أو يعينه عليها  
ورفع رأسه صوب نوافذ الحریم المغلقة وصاح مرة أخرى  
-وطالقة ثلاثا من تجترئ على هذا.

## 2

منذ ذلك اليوم الكئيب وأدهم يذهب آل صباح إلى إدارة الوقف في المنطرة الواقعة إلى يمن باب البيت الكبير، وعمل بهمة في تحصيل أجور الأحكار وتوزيع أنصبة المستحقين وتقديم الحساب إلى أبيه، وأبدى في معاملة المستأجرين لباقة وسياسة ، فرضوا عنه على رغم ما عرف عنهم من مشااسة وفضاظة ، وأنت شروط الواقف سرّاً لايدرى به أحداً سوى الأب، فبعث احيار أهم للإدارة الخوف أن يكون هذا مقدمة لا يثاره في الوصية، والحق أنه لم يبد من الأب قبل ذلك اليوم ما ينم عن التحيز في معاملته لأبنائه، وعاش الأخوة في وئام وانسجام بفضل مهابة الأب وعدالته، حتى إدريس - على قوته وجماله وأسرافة أحيانا في اللهو - لم يسئ قبل ذلك اليوم إلى أحد من أخوته، آن شابا آريما حلوا المعشر حائزا الود والإعجاب ، ولعل الأشقاء الأربعة آنوا يضمرون لأدهم شيئا من افحساس بالفارق بينهم وبينه، ولكن أحداً منهم لم يعلن هذا ولا اشتم منه في آلمة أو إشارة أو سلوك، ولعل أدهم آن أشد غحساسا منهم بهذا الفارق، ولعله قارن آثيراً بين لوهم المضئ ولونه الأسمر، بين قوتهم ورقته، بين سمو أمهم ووضاعة أمه، ولعله عانى من ذلك أسى مكتوما والمأ دفيناً، ولكن جو البيت المعبق بشذى الرياحين الخاضع لقوة الأب وحكمته ، لم يسمح لشعور سيئ بالاستقرار في نفسه ، فنشأ صافي القلب والعقل.

وقال أدهم لأمه قبيل ذهابه إلى إدارة الوقف:

بارآيني يا أمى ن فما هذا العمل الذى عهد به إلى غلا امتحان شديد لى ولك

فقالت الأم بضراعة

-ليكن التوفيق ظلك يا بنى، أنت ولد طيب والعقبى للطيبين.

ومضى أدهم إلى المنطرة ترمقه العيون من السلامك والحديقة من وراء النوافذ، وجلس على مقعد ناظر الوقف وبدأ عمله

، وآآن عمله أخطر نشاط إنسانى يزاول فى تلك البقعة الصحراوية ما بين المقطم شرقا والقاهرة القديمة غربا ، واتخذ أدهم من الأمانة شعارصا وسجل آل مليم فى الدفتر لأول مرة فى تاريخ الوقف، وآآن يسلم أخوته رواتبهم فى أدب ينسيهم مرارة الحنق ثم يقصد آباء بحصيلة الأموال وسأله أبوه يوما:

آيف تجد العمل يا أدهم ؟

فقال أدهم بخشوع

-ما دمت قد عهدت به إلى فهو أعظم ما فى حياتى.

فشاعت فى الوجه العظيم البشاشة، إذ أنه على جبروته آآن يستخفه طرب الثناء، وآآن أدهم يجب مجلسه، وإذا جلس إليه اختلس منه نظرات الإعجاب والحب، وآآم آآن يسعده أن يتابع أحاديثه وهو يروى - له ولأخوته - حكايات الزمان الأول ،

ومغامرات الفتوة والشبابا إذ هو ينطلق فى تلك البقاع ملوفا بنبوته المخيف غازيا آل موضع تطأه قدماه وبعد طرد إدريس ظل عباس ورضوان وجيل على عادتهم من الاجتماع فوق سطح البيت، يأألون ويشربون ويقامرون، أما أدهم فلم يكن يطيب له الجلوس إلا فى الحديقة، آآن عاشقا للحديقة منذ درج، وآآن عاشقا للنأى، ولازمته تلك العادة بعد اضطلاعهم بشئون الوقف، وإن لم تعد تستأثر بجل وقته، فكان إذا فرغ من عمله فى الوقف افترش سجادة على حافة جدول، واسند ظهره إلى جذع نخلة أو حميرة، أو استلقى تحت عريشة الياسمين، وراح يرنو إلى العصفير وما أآثر العصفير أو يتابع اليمام وما أحلى اليمام، ثم ينفخ فى النأى محأآيا الزقزقة والهديل والتغريد ، وما أبداع المحأآة، أو يمد الطرف نحو السماء خلال الغصون وما اجمل السماء، ومرّ به أخوه رضوان وهو على تلك الحال فرمقه بنظرة ساحرة وقال:

ما أضيغ الوقت الذى تنفقه فى إدارة الوقف!

فقال أدهم باسما

لولا إشفاقى من إغضاب أبى لشكوت- . .

فلنحمد نحن المولى على الفراغ

فقال أدهم ببساطة

هنيئًا لكم- . .

فسأله رضوان وهو يدارى الامتعاض بالابتسام

-أتود أن تعود مثلنا ؟

خير ما تمضى الحياة فى الحديقة والنأى ؟

فقال رضوان بمرارة

آن إدريس يود أن يعمل  
فغض أدهم بصره وهو يقول

- لم يكن عند إدريس وقت للعمل ولا اعتبارات أخرى غضب ، أما السعادة الحقة ففي هذه الحديقة تجدها.  
- ولما ذهب رضوان قال أدهم لنفسه " : الحديقة وسكانها المغردون، والماء ، والسماء، ونفسى النشوى هذه هي الحياة الحقة آننى أجد فى البحث عن شىء ما هذا الشىء؟ الناي احيانا يكاد يجيب ولكن السؤال يظل بلا جواب، لو تكلمت هذه العصفورة بلغتى لشفت قلبى باليقين وللنجوم الزاهرة حديث آذلك ، اما تحصيل الإيجار فنشاز بين الأنغام."  
- ووقف أدهم يوما ينظر إلى ظله الملقى على الممشى بين الورود، فإذا بظل جديد يمتد من ظله وأشياء بقدم شخص من المنعطف خلفه، بدأ الظل الجديد أنما يخرج من موضع ضلوعه . والتفت وراه فرأى فتاة سمراء وهى تم بالترجع عندما آتشت وجوده فأشار بالوقوف فوقفت وتفحصها مليا ثم سأها برقة.

من انت ؟

فأجابت بصوت ملعثم

أميمة- . .

إنه يذآر الاسم ، فهو لجارية ، قرية لأمه، وآما آانت امه قبل أن يتزوج منها أبوه

ومال إلى محدثها آآر فسألها:

ماذا جاء بك إلى الحديقة ؟

فأجابت مسيلة الجفنين

حسبتها خالية- . .

-لكن ذلك محرم عليكن

فقال بصوت لم يكد يسمع

-أخطأت يا سيدى.

وتراجعت حتى توارت وراء المنعطف، ثم ترامى إلى أذنيه وقع أقدامها المسرعة، وإذا به يغمغم متأثراً " ما أملحك "! وشعر بأنه لم يكن قط أدخل فى خلائق الحديقة منه فى هذه اللحظة ، وإن الورد والياسمين والقرنفل والعصافير واليماما ونفسه نعمة واحدة وقال لنفسه " : أميمة مليحة " حتى شفتها الغليظتان مليحتان، وجميع أخوتى متزوجون عدا إدريس المتكبر، وما أشبه لونها بلونى، وما اجمل منظر ظلها وهو مفروض فى ظلى أنه جزء من جسدى المضطرب بالرغبات ولن يسخر أبى من اختيارى وإلا فكيف جاز له أن يتزوج من أمى؟

رجع أدهم إلى إدارة الوقف بقلب مفعم بجمال غامض آالعبير وحاول آثيرا أن يراجع حساب اليوم، ولكنه لم ير في صفحة عقله إلا السمراء، ولم يكن عجيبا أن يرى أميمة اليوم لأول مرة فالحریم في هذا البيت آالأعضاء الباطنية يعرفها صاحبها على نحو ويعيض بفضلها ولكنه لا يراها، واستسلم أدهم إلى تيار أفكاره الوردية حتى انتزع منه على صوت مرعد قريب آأما انفجر في المنظرة نفسها وهو يصيح:

أنا هنا ، في الخلاء يا جبلاوى، العن الكل، اللعنة على رؤوسكم نساءً ورجالاً، واتحدى من لم تعجبه آالماتى ، سامعنى يا جبلاوى؟

وهتف أدهم " إدريس " وغادر المنظرة إلى الحديقة فرأى أخاه رضوان متجها نحوه في اضطراب ظاهر ، وبادره قائلا:  
إدريس سكران، رأيتك من النافذة محتل التوازن من السكر، أى فضائح تخبئ الأقدار لأسرتنا؟  
فقال أدهم وهو يغضى آلماً  
قلبي يتقطع أسفا يا أحي.

وما العمل ؟ إن آارثة تهددنا

آلا ترى يا أحي أنه يجب علينا أن نحدث أبانا في الأمر ؟

فقطب رضوان قائلا

أبوك لا يراجع في أمر، وحال إدريس هذه لا شك ضاعفت من غضبه عليه

فغمغم أدهم في آآبة

-ما آان أغنانا عن هذه الآحزان.

أحد على الاقتراب.-

منه، فتساءل أدهم في قلق وهو يشعر بأن ملابسات الحديد تدفعه إلى مأزق

نعم ، النساء يبكين في الحریم ، عباس وجليل معتكفان من الكدر ، وأبونا وحده في حجرته لا يجرؤ

-آلا ترى أنه ينبغي أن نعمل شيئا؟

يبدون أن آل واحد منا يود أن يلود بالسلامة، ولا يهدد السلامة مثل طلبها بأى ثمن، غير أنى لن اجازف بمرازى ولو.-

انطبقت السماء على الأرض، أما آرامة أسرتنا فتتمرغ الساعة في التراب في ثوب إدريس

لماذا قصدتني إذن؟ بين يوم وليلة انقلب أدهم غراب بين ينعق وتنهد قائلا:

إني برىء من آل هذا ، ولكن لن تطيب لى الحياة إن سكت- . .

فقال رضوان وهو يهم بالذهاب

-لديك من الأسباب ما يوجب عليك العمل!

ومضى راجعا وليث أدهم وحده وأذناه ترددان هذه العبارة " لديك من الأسباب " .. نعم إنه المتهم دون ذنب جناه آلقلة  
التى

تسقط على رأس لأن الريح أطاحب بها، وآلما أسف أحد على إدريس لعن أدهم، واتجه أدهم نحو الباب ففتحه فى رفق  
ومرق منه . رأى إدريس غير بعيد يترنج رداثراً حول نفسه، يقلب عينين زائغتين، وقد تشعث رأسه وانحسر جيب جلبابه عن  
شعر صدره، ولا عثرت عيناه على أدهم توثب للانقضاض أنه قطة لحت فأراً، ولكن أعجزه السكر، فمال نحو الأرض وملا  
قبضته تراباً ورمى به أدهم فأصاب صدره وانتثر على عباءته وناداه أدهم برقة:  
أخى- .

فزمجر إدريس وهو يترنج

حرس يا آلب يا بن الكلب، لا أنت أخى ولا أبوك أبى، ولأدآن هذا البيت فوق رعوسكم

فقال أدهم متودداً

بل أنت آآرم هذا البيت وأنبله

فقهقه إريس من فيه دون قلبه وصاح

لماذا جئت يا ابن الجارية؟ عد إلى أمك وأنزلها إلى بدروم الخدمز

فقال أدهم دون أن تتغير مودته

لا تستسلم للغضب ، ولا توصلد الأبواب فى وجه الساعين للخيرك

فلوح إدريس بيده ثائراً وصاح

-ملعون البيت الذى لا يطمئن فيه إلا الجبناء الذين يغمسون اللقمة فى ذل الخنوع، ويعبدون مذهم، لن أعود إلى بيت أنت

فيه رئيس، فقل لأبيك إننى أعيش فى الخلاء الذى جاء منه، وإننى عدت قطاع طريق آما آن وعرييدا أثيما معتديا آما

يكون وسيشيرون إلى فى آل مكان أعيث فيه فسادا ويقولون " ابن الجبلاوى " بذلك أمرغم فى التراب يا من تظنون

أنفسكم سادة وأنتم لصوص.

وتوسل أدهم قائلاً:

أخى آفق، حاسب نفسك على آل آمة توجب اللوم، ليس الطريق مسدودا فى وجهك إلا أن تسده بيدك، وإنى أعدك-.

بأن يعود آل شئ طيب إلى أصله

فخطا إدريس نحوه بصعوبة آآن ريجآا ترجمه وقال:

بأى قوة تعدنى يا ابن الجارية؟

فقال وهو يرمقه بآذر

بقوة الأخوة- . .

الأخوة كذفت بها فى أول مرحاض صادفنى

فقال أدهم متألما

ما سمعت منك من قبل إلا الجميل- . .

طغيان أبىك أنطقنى بالحق- .

لا أحب أن يراك الناس على هذه الحال

فأرسل إدريس ضحكة معرودة وصاح

يدى، طردنى أبوك دون حياء فليتحمل- .

العواقب

وسيرونى على أسوأ منها آل يوم ، العار والفضيحة والجريمة ستحل بكم على

ورمى بنفسه نحو أدهم فتنحى هذا عن موقفه دون تردد، فكاد إدريس يهوى على الأرض لولا أن استند إلى الجدار، ولبث

يلهث حائقا، وينظر فى الأرض مفتشا عن حجر، فتراجع أدهم بخفة إلى الباب ودخل وأغرورقت عيناه من الحزن، وآآن صياح

إدريس مازال صاحبا، وحانت منه التفاتة نحو السلامك فلمح أباه خلال الباب وهو يعبر البهو فمضى نحوه وهو لا يدرى،

متغلبا على خوفه بجزئه ، ونظر إليه الجبلاوى بعينين لا تفصحان عن شىء ، وآآ يقف بقامته المديدة ومنكبىه العريضين

أمام صورة محراب نقشت على جدار البهو خلفه، وأحنى أدهم رأسه قائلا:

السلام عليكم- . .

فتفحصه الجبلاوى بنظرة عميقة ثم قال بصوت نفذ إلى أعماق قلبه

صرح. بما جئت من أجله

فقال أدهم بصوت مهموس

أبى ، إن أحنى إدريس.

فقاطع الأب بصوت آضربة الفأس فى الحجر

لا تآآر اسمه أمامى.

ثم وهو يعضى إلى الداخل

توالى مشرق الشمس ومغيبها على هذه البقعة الخلاء وإدريس يتردى فى مهاوى الشقاوة فى آل يوم يسجل فى آتابه حماقة جديدة آن يدور حول البيت ليقذفه فأقذع الشتائم أو يجلس على آتب من الباب عاريا أما ولدته أمه آنما يتشمس وهو يترنم بأفحس الأغاني . وآن يتجول فى الأحياء القريبة فى خيلاء الفتوات يتحدى آل عابر ينظرات هجومية ويتحرش بكل من يعترض سبيله، والناس يتحاشونه آظمين، وهم يتهامسون " ابن الجبلاوى ( ولم يحمل لغذائه هما، فكان يمد يده بكل بساطة إلى الطعام حيث وجده فى مطعم أو على عربة، فىآل حتى يكتظ ثم يمضى دون شكر من ناحية أو محاسبة من الآخرين، وإذا تاقت نفسه إلى العريضة مال إلى أول حانة تصادفه ، فتقدم إليه البوظة حتى يسكر، ثم ينطلق لسانه آنافورة بأسرار أسرته وأعاجيبها وتقاليدها السخيفة وجنبها المهين، منوها بثورته على آبيه جبار هذه الأحياء جميعا ، ثم يدخل فى قافية ليغرق فى الضحك، ويغنى إذا لزم الحال ويرقص وتتناهى مسرته إذا ختمت السهرة بمعآة، ثم يذهب مشيعا بالتحيات، وفى آل مكان اشتهر بهذه السيرة فتحاشاه الناس ما استطاعوا، ولكنهم سلموا بأمره أنه مصيبة من مصائب الدهر، ونال الأسرة من ذلك ما نالها من الغم والكرب وغلب الحزن أم إدريس فشلت واحتضرت، وجاء الجبلاوى ليودعها فأشارت نحو بيدها السليمة محتجة وفاضت روحها فى آسى وغضب وخيم الحزن على الأسرة آحيوط العنكبوت، فتوالت سمر الأخوة فوق السطح، وسكت ناى أدهم فى الحديقة.

وبما تفجر الأب عن ثورة جديدة آنت ضحيتها تلك المرة امرأة إذا تعالى صوته الجهيز وهو يلعن نرجس الخادمة ويطردها من البيت، وعلم فى نفس اليوم أن أعرا الحمل ظهرت على المرأة فققرت حتى أقرت بأن إدريس اعتدى عليها قبل طرده، وغادرت نرجس البيت وهى تصوت وتلطم خديها، وهامت على وجهها سحابة النهار حتى عشر عليها إدريس فألحقها برآبه دون ترحيب، ودون جفاء ، آذلك إذا لم تكن تخلو من نفع عند الحاجة.

على أن آل مصيبة وإن جلت لا بد يوما أن تُؤلف، لذلك أخذت الحياة تعود إلى مجراها المألوف فى البيت الكبير أما يعود السكان إلى ديارهم عقب زلزال آرهمم على الفرار منها . عاد رضوان وعباس وجليل إلى ندوة السطح أما عاد أدهم إلى سهرة الحديقة يناجى الناي فيناجيه، ووحده أميمة تضئ خواطره وتدفع مشاعره وصورة ظلها المعانق لظله ترسم بوضوح فى مخيلته، فقصد مجلس أمه فى حجرها حيث آنت تطرز شالاً ، فأفضى إليها بذات نفسه إلى أن قال:

إن أميمة يا أمى قريتك.

فابتسمت أمه ابتسامة باهتة دلت على أن فرحة الخير لم تستطع التغلب على عناء مرضها وقالت  
نعم يا أدهم ، إنها فتاة طيبة ، تصلح لك أما تصلح لها وستسعدك بمشيئة المولى  
ولما رأت توردها البهجة في وجنتيه استدرأت قائلة

لا ينبغي أن تدللها يا بني حتى لا تفسد حياتك ، وسأخاطب أبك في الأمر لعلني أنعم برؤية ذريتك قبل أن يدراني-  
الموت

وعندما دعاه الجبلأوى إلى مقابله وجدته يتسم ابتسامة لطيفة حتى قال لنفسه " : لا شئ يعادل شدة أبي إلا رحمته." **وقال الأب:**

-ها أنت تطلب زوجة يا أدهم ، ما أسرع الزمن، وهذا البيت يحتقر المساكين ، ولكنك باختيار أميمية، تكرم أمك، لعلك  
تنجب ذرية صالحة ، لقد ضاع إدريس ، وعباس ، وجليل عقيمان ورضوان لم يعيش له ولد حتى اليوم، وجميعهم لم يرثوا  
عنى إلا آبريائي، فاملاً هذا البيت بذريتك وإلا ذهب عمرى هباء.

وآنت زفة أدهم التي لم يشهد لها الحى نظيراً من قبل وحتى اليوم يجرى ذآرها مجرى الأمثال في حارتنا . تدلت ليلتذاك  
الكلوبات من غصون الأشجار ومن فوق السور حتى بدا البيت بحيرة من نور وسط الخلاء المظلم، وأقيم سراقق فوق  
السطح للمغنين والمغنيات وامتدت موائد الطعام والشراب في البهو والحديقة والخلاء المتصل بمدخل البيت الكبير . وبدأت  
زفة أدهم من أقصى الجمالية عقب منتصف الليل سار فيها آل من يجب الجبلأوى أو يخافه حتى انتظم الجميع، وخطر  
أدهم في جلبا حريرى لاسة مزرآشة بين عباس وجليل، أما رضوان فسار في المقدمة، وعلى الميني وعلى اليسار  
حاملوا الشموع والورود، وتقدم الموآب مجموعة ضخمة من المنشدين والراقصين، وتعالى الغناء ، وتبعته تأوهات المطربات  
وتحيات المعجبين بالجبلأوى وأدهم، حتى استيقظ الحى ودوت الزغاريد وسار الموآب من الجمالية فالعطوف ثم أفر  
الزغارى والمبيضة، ينهال عليه الترحيب حتى من الفتوات، وحطب من حطب ، ورقص من رقص، ووزعت الحانات البوطة  
بجانا ، فسكر حتى الغلمان، وتهاوت الجوز من جميع الغرز في طريق الموآب هدية للمحتفلين فعبق الجو بحسن آيف  
والهندي.

وفجأة لاح إدريس أما انشقت عنه الظلمة في آخر الطريق لاح عن المنعطف المفضى إلى الخلاء على ضوء الكلوبات التي  
تتقدم الموآب فتوقف حاملوا الكلوبات عن السير وانتشر التهامس باسم إدريس ولحنته أعين المنشدين فاعترض الخوف  
حناجرهم فكفت عن الغناء وراء الراقصون فجمدت أوساطهم وسرعان ما سكتت المزامير، وخرست الطبول، وغاضت  
الضحكات وتساءل آثيرون عم يفعلون، فهم إن استكانوا لم يأمنوا الأذى وإن ضربوا لم يضربوا إلا ابن الجبلأوى ، ولوح  
إدريس

بنبوته وهو يصيح:



لمن الزفة يا حثالة الجبناء ؟

فساد الصمت واشربأت الأعناق نحو أدهم وإخوته، وعاد إدريس يتساءل

متى أنتم لابن الجارية أو لأبيه أصدقاء؟

عند ذاك تقدم رضوان خطوات وهتف قائلاً

أخى من الحكمة أن تدع الزفة تمر

فصاح إدريس مقطباً

رغد العيش بالكرامة والأخوة

فقال رضوان بإشفاق

أنت آخر من يتكلم يا رضوان، أنت أخ خائن وابن جبان، وذليل يشترى

لا شأن للناس باختافاتنا.

ففقهه إدريس قائلاً

الناس يعلمون بخريكم ، ولولا جنبهم العريق ما وجدت هذه الزفة زامراً أو منشداً

فقال رضوان بعزم ثابت

أبوك عهد إلينا باخيك ، ولا بد أن نحفظه

فعاد إدريس يقهقه وهو يتساءل

أريت أنك تدافع عن نفسك لا عن ابن الجارية؟-

أين رشادك يا أخى؟ بالحكمة وحدها تعود إلى بيتك-..

إنك آاذب ، وأنت تعلم أنك آاذب

فقال رضوان فى حزن:

-لن ألومك فيما يخصنى ، ولكن دع الزفة تمر بسلام.

فكان جوابه أن انقض على المواب الكثور الهائج، وأخذ نبوته يرتفع ويهوى فتتحطم الكلوبات وتتصدع الطبول وتبعثر الورود

،

وراح الناس يولون مذعورين آالرمال أمام العاصفة ، وتكاتف رضوان وعباس وجليل أمام أدهم فتضاعف غضب إدريس.

-يا أنذال ، تدافعون عمن تكرهون خوفا على الطعام والشراب..

وهجم عليهم .. فتلقوا ضرباته بنبايتهم دون أن يردوا عليها وهم يتراجعون، وإذا به يرمى بنفه فجأة بينهم فيثور سبيلا إلى

موقف أدهم فعلا الصوت فى النوافذ، وهتف أدهم وهو يتحفز للدفاع عن نفسه.

إدريس ، لست عدوًّا لك فارجع إلى عقلك  
ورفع إدريس نبوته، وهنا صاح صائح " الجبلاوى " وصاح رضوان مخاطبا إدريس  
-أبوك قادم.

فوثب إدريس إلى جانب اطريق والتفت إلى الورا فرأى الجبلاوى قادمًا وسط هالة من الخدم يحملون المشاعل وعض  
إدريس على أسنانه ثم هتف ساخرًا:

-سأهبك عما قريب حفيدا من الزنا تقر به عينك.

واندفع نحو الجمالية والناس توسع له على الجانبين حتى ابتلعتة الظلمة وبلغ الأب موقف الإخوة وهو يتظاهر بمدوء تحت  
الآف الأعين المحدقة فيه، ثم قال بلهجة امرأة.

-ليعد آل شئ إلى أصله.

ورجع حملة الكلوبات إلى مواقعهم، ودقت الطبول، وعزفت المزامير، ثم غنى المنشدون، ورقص الراقصون، واستأنفت الزفة  
مسيرها.

وسهر البيت الكبير حتى الصباح فى طرب وشراب وغناء، وعندما دخل أدهم حجرته المظلة على خلاء المقطم وجد أميمة  
واقفة إلى جانب المرأة والنقاب الأبيض مايزال يغطى وجهها . آن مخمورًا مسطولا لا تكاد تحمله قدماه، فاقترب منها وهو  
يذل جهدًا شديدًا ليتمالك أعصابه، ورفع النقاب عن وجهها الذى طالعه فى أحسن رواء، وهوى برأسه حتى لثم شفيتها  
المكترتين، ثم قال بلسان مخمور:

-لتهن الهموم جميعا مادمت حسن الختام.

واتجه نحو الفراش يستقيم خطوة ويترنح خطوة، حتى استلقى على عرض السرير باللاسة والمرآوب، وآنت أميمة تنظر  
إلى صورته المنعكسة على المرأة وهى تبتسم فى إشفاق وحنان.

## 5

وجد أدهم فى أميمة سعادة لم يعرفها من قبل، ولبساطته أعلن عن سعادته بأقواله وأحواله حتى تندر به إخوته، وعند  
ختام آل صلاة آن ييسط يديه هاتفا " : الحمد لصاحب المنن، على رضى أبى الحمد لله على حب زوجتى ، الحمد له على  
المنن المترلة التى أحطى بها دون من هم أجدر منى بها، الحمد له على الحديقة الغناء والنأى الرفيق، الحمد له . " وقالت  
آل امرأة من نساء البيت الكبير إن أميمة زوجة واعية، فهى ترعى زوجها أنه أهما، وتوادد حماته وتخدمها حتى أسرتها،

وتولى سمكها العناية التامة أنه قطعة من جسدها، أما أدهم فكان زوجها مترع القلب بالمحبة وحسن المعاشرة، وأما شغلته إدارة الوقف عن جزء من ملاهية اليربئة فى الحديقة من قبل، فقد شغل الحب بقية يومه، واستبد به حتى نسى نفسه، وتوالت أيام هائنة، وامتدت فوق ما قدر رضوان وعباس وجيليل الساخرون، ولكنها ارتطمت فى النهاية بذاك الهدوء الحكيم أما تنتهى مياه الشلال المتدفقة الراغية المزبدة فى النهر الرصين، وعاد التساؤل يحتل مكانه فى قلب أدهم، فشىر بأن الزمن لا يمر فى غمضة عين، وأن النهار يعقبه الليل، وأن المناجاة إذا تواصلت إلى غير نهاية فقدت آل معنى، وأن الحديقة ملهاة صادقة لا يحدر به أن يهجرها، وأن شيئاً من هذا لايعنى بحال أن قلبه تحول عن أميمة ، فما تزال فى صميمة، ولكن للحياة أطواراً لا يخبرها المرء إلا يوماً بيوم.

وعاد إلى مجلسه عند القناة وأجال بصره فى الأزهار والعصافير ممتنا ومعتذراً ، وإذا بأميمة تلحق به مشرقة بالبهجة، فجلست إلى جانبه وهى تقول:

نظرت من النافذة لأرى ما أحرك، لماذا لم تدعنى معك؟  
فقال باسم:

-خفت أن أتعلبك.

-تتعينى ؟ طالما أحببت هذه الحديقة أتذآر أول لقاء لنا هنا ؟

وأخذ يدها فى يده، وأسند رأسه إلى جذع النخلة مرسلأ طرفه إلى الغصون، وإلى السماء خلال الغصون وعادت تؤآد له حبها للحديقة، وآلأ أمعن فى الصمت أمعنت فى التوآيد، إذ أهما آآنت تراه الصمت بقدر ما تحب الحديقة، وآآن حديث حياتها أطيّب حديث، ولا بأس بالوقوف بعض الوقت عند أهم الأحداث فى البيت الكبير، خاصة ما يتعلق بزوجات رضوان وعباس وجيليل، ثم تغير صوتها مائلا نحو العتاب وهى تقول:

أنت تغيب عنى يا أدهم ؟

فابتسم إليها قائلاً

-آيف وأنت ملء القلب!

-ولكنك لا تصغى إلى ؟

هذا حق ومع أنه لم يرحب بمقدمها فإنه لم يضق به، ولو هممت بالرجوع لأمسك بها صادقاً، والحق أنه يشىر بأنها جزء لا يتجزأ منه وقال المعتذر:

-إن أحب هذه الحديقة، لم يكن فى حياتى الماضية أطيّب من جلستها، وتكاد أشجارها الباسقة ومياهها المفضضة

وعاصيرها المزفرقة تعرفنى أما أعرفها، وأود أن تقاسمبنى حبها، أرايت إلى السماء آيف تبدو خلال الغصون؟

فرفعت عينها مقدار لحظة ثم نظرت إليه باسمة وقالت:

إنها جميلة حقاً ، وجديدة بأن تكون أطيب ما في حياتك

فآس من قولها العتاب دون إفصاح وبأدائها قائلاً

-بل آنت آذلك قبل أن أعرفك.

والآن ؟

فضغط على يدها بجنو قائلاً

لا يتم جمالها إلا بك

فقالت وهي تحد بصرها نحوه

من حسن الحظ أهما لا تؤاخذك على انصرافك عنها إلى

فضحك أدهم وجذبها نحوه حتى التصق خدها بشفتيه، ثم سأها

أليست هذه الأزهار أجدر بالفتاتنا من الكلام عن زوجات إخواني ؟

فقالت أميمة باهتمام

الأزهار أجمل ولكن زوجات إخوانك لا يكففن عن الحديث عنك، إدارة الوقف، دائماً إدارة الوقف، وثقة أبيك فيك، بيدئن

ويعدن-.

في هذا

وقطب أدهم غائبا عن الحديقة ، وقال بحدة:

لا شئ ينقصهن-! .

-الحق إن أخاف عليك العين

فهتف أدهم غاضباً:

لعنة الله على الوقف ، أرهقني وغير القلوب على وسليني راحة البال، فليذهب في داهية

فوضعت أصبعها على شفوية وهي تقول

وقد تجر وراءها نفعا لا يخطر بالبال- . .

-جرت حتى الآن المتاعب . . وحسيناه مأساة إدريس

لا تكفر بالنعمة يا أدهم ، إن إدارة الوقف شأن خطير،

-فابتسمت ، لكن ابتسامتها لم تنم عن بهجة وإنما دارت بها اهتماما جديا تجلى في نظرة عينيها وقالت.

-انظر إلى مستقبلنا أما تنظر إلى الغصون والسماء والعصافير، وواظبت أميمة على مشاركته جلسته في الحديقة، ولم

تكن تعرف الصمت إلا في النادر، لكنه اعتادها أما اعتاد الأصغاء بنصف انتباه أو دون ذلكن وعند الحاجة يتناول الناي لاينفخ

فيه ما شاء له الطرب، واستطاع أن يقول في رضى تام أن آل شئ طيب حتى شقاوة إدريس باتت شيئاً مألوفاً لكن المرض اشتد على أمه، وعانت آلاماً لم تعرفها من قبل تقطع لها قلبه، وآنت تدعوه إلى جانبها آثيراً فتسبغ عليه آرام الدعاء، ومرة قالت له بتوسل حار " : ادع ربك دائماً أن يقيك الشر ويهديك سواء السبيل، ولم تدعه يذهب، وظلت تراوح بني

الأنين وبين مخاطبته وتذآيره بوصيتها حتى فاضت روحها بين يديه وبكاها أدهم ، وبكتها أميمة، وجاء الجبلاوى فنظر في وجهها ملياً ثم سجاها باحترام وقد تجلت في عينيه الحادثين نظرة آئيبه مليئة بالشجن. وما آاد أدهم يعود رويداً إلى مألوف الحياة حتى ارتطم بتغير طارئ على أميمة لم يعرف له علة، بدأ بانقطاعها عن مجلسه في الحديقة فلم يسر بذلك أما آن يتوهم أحياناً، وسألها عن سر انقطاعها فأتلت بأعذار شتى العمل أو التعب، ولاحظ أنها لم تعد تقبل عليه بالاندفاع المعهود ، فإذا أقبل هو عليها لاقته دون عاطفة حقيقة، آنما تجامله، وآأهما بماملته عناء، وتساءل عما هناك ! لقد مر بشئ شبيه بهذا ، ولكن حبه صمد له وتغلب عليه، وآآن بوسعه أن يقسو عليها، وود أحياناً لو يفعل ذلك ولكن منعه انكسارها وشحوبها ومغالاتها في التأذب معه أحياناً تبدو حزينة، وأحياناً تبدو حائرة ومرت باغت في عينيها نظرة نافرة حتى رأبه الغضب والجزع معا وقال لنفسه " : فلا صبر عليها قليلاً، إما ينصلح حالها أو فلتذهب في ألف داهية."

وجلس إلى أبيه في مخدع الرجل ليعرض عليه حساب الشهر الختامى.

وتفحصه الأب دون أن يعنى بمتابعته وسأله:

مالك ؟

فرفع أدهم رأسه نحوه في دهشة وقال

لا شئ يا أبى

فضيق الرجل عينيه وتمتم

خبرنى عن أميمة

فانخذلت عيناه تحت نظرة أبيه النافذة وقال

بخير ، آل شئ طيب

فقال الجبلاوى بضجر

صارحنى بما عندك- .

فصمت أدهم مليا ، وهو يؤمن بان أباه قادر على معرفة آل شئ  
ثم قال معترفاً:

تغيرت آثييراً ، وتبدو آالنافرة  
فتجلت فى عيني الأب نظرة غريبة وقال  
هل وقع بينكما خلاف ؟-  
أبدأ

فقال الجبلاوى فى ارتياح وهى يتسم  
-يا جاهل ، ترفق بما ، لا تقترب منها حتى تدعوك، سوف تكون أبا عما قريب.

## 6

جلس أدهم فى إدارة الوقف يستقبل مستأجرى الأحكار الجدد، وأحدأ بعد أفر، وقد وقفوا طابوراً، أوله أمامه وأخره فى نهاية  
المنظرة الكبيرة، ولما جاء أفر المستأجرين سأله أدهم دون أن يرفع رأسه عن دفتره فى عجلة وضجر:  
-اسمك يا معلم ؟  
-إدريس الجبلاوى

فرفع أدهم رأسه فى فزع فرأى أخاه واقفا أمامه، ثم وقف متوثباً للدفاع عن نفسه وهو ينظر نحوه بجذر، لكن إدريس بدا  
فى مظهر جديد لا عهد لأحد به، بدا رث الهيئة هادئاً، متواضعاً، حزين الطرف مأمون الجانب ، آالشوب المنشى بعد نقعة فى  
الماء، ومع أن هذا المنظر استل من نفس أدهم آل حنق قديم إلا أنه لم يطمئن إلى السلامة آل الاطمئنان، فقال فى  
تحذير مشوب بالرجاء.

إدريس- !

فأحنى إدريس رأسه قائلاً فى رقة عجيبة

-لا تخف لست إلا ضيفك فى هذا البيت إذا وسعنى أرم أخلاقك.

أهذا الكلام اللطيف يصدر عن إدريس حقا ! هل أدبته الآلام؟ الحق أن خشوعه مخزن آفجوره، وألا تعد استضافته له تحدياً  
للأب؟ لكنه جاء دون دعوة منه، ووجد نفسه يشير إليه بالجلوس على مقعد قريب من مقعده ، فجلس معا وهما يتبادلان  
النظر فى غرابة حتى قال إدريس:

أندسست فى جموع المستأجرين لأتمكن من الانفراد بك

فتسأل أدهم في قلق

ألم يرك أحد؟-

لم يرن أحد من البيت، اطمئن إلى هذا ، لم أجد لأدر صفوك ولكني الجأ إلى لطف اخلاقك

فغض أدهم عينيه متأثراً وقد تصاعد الدم إلى وجهه، فقال إدريس

لعلك تعجب لما غيرني، لعلك تتساءل أين ذهب تكبره وصلفه، فأعلم أنني قاسيت آلاما لا يقدر عليها أحد، ورغم هذا آله-.

فأنتى لا أقف موقفى هذا من أحد سؤالك إذ أن مثلى لاينسى آبرياءه إلا حيال الخلق اللطيف

فغمغم أدهم قائلاً:

-خفف الله عنك وعننا، فكم نغص مصيرك حياتى وأدراها.

-آن ينبغى أن أعرف هذا من أول الأمر، ولكن الغضب جننى وفتكت الخمر بكرامتى، ثم اجهزت حياة التشرذم والبلطجة

على الرمق الأخير من انسانيتى، أعهدت مثل ذلك السلوك فى أخيك الأول ؟

أبدًا ، أنت خير أخ وأنبل إنسان!

فقال إدريس بصوت المتوجع

حسرة على تلك الأيام، لست اليوم إلا شقياً، اخبط فى الخلاء جاراً ورائى ارمأة حبلى، اشبع فى آل مكان باللعنات،-

واترى رزقى بالمنكر والعدوان

-إنك تمزق قلبى يا أحمى.

معذرة يا أدهم ، لكن هذه هى طويتك التى خبرتها منذ قدم، ألم أحملك صغيراً على يدي، ألم أشهد صباح ويفاعتك-.

وألمس فيها نبلك وسجاياك الحميدة؟ لعنة الله الغضب حيثما احترق

لعنة أبدية يا أحمى

تنهد إدريس وهو يقول وأتما يخاطب نفسه

-شدّ ما أسأت إليك، أن ما حاق بي من شر وما سيحيق لهُو دون ما استحق من جزاء.

خفف الله عنك ، اتدرى أنتى لم اياس أبداً من عودتك؟-.

حتى فى أبان غضب أينا جازفت بمخاطبته فى شأنك

فابتسم إدريس عن أسنان علاها الإصفرار والقذارة وقال:

هذا ما حدثتني به نفسه ، قلت إن يكن ثمة رجاء فى مراجعة أبى فلن يتأتى عن سبيل سؤالك

فلمعت عينا أدهم وهو يقول

إنى المس الهداية فى روحك الكريمة، إلا ترى أنه قدر أن الآوان لكى نخاطب والدنا فى الأمر ؟

فهز إدريس رأسه الأشعث في يأس وقال

أأبر منك بيوم يعرف أآثر منك بسنة، وأنا أأبرك بعشر سنوان لا بسنة واحدة، فأعلم أن أبانا يغفر آل شئ إلا أن يهينه- .  
أحد، لن يعفو عني أبوك بعد ما آن، ولا أمل لي في العودة إلى البيت الكبير  
لا شك فيما قاله إدريس، وهذا مازاده حرجا وضيقا وتمتم في آآبة:  
ماذا في وسعي أن أفعل من أجلك ؟  
فابتسم إدريس مرة أخرى قائلا

-لا تفكر في مساعدات مالية، فإني واثق من أمانتك آمدير للوقف وأعلم أنك إذا مددت لي يد المعونة فسيكون من حر مالك، وه ما لا أقبله، أنك اليوم زوج وغداً أب، وأنا لم اجثك مدفوعا بفقرى، ولكنى جئت لأعلن لك ندمى عما فرط منى في

حقك، ولاسترد مودتك، ثم أن لي رجاء.  
فتطلع إليه أدهم باهتمام وتساءل:  
قال يا أحدى ما رجأوك؟

فأدنى إدريس رأسه من أحيه أنما يخشى أن تسمعه الجدران وقال  
أريد أن أطمئن على مستقبلى بعد أخ خسرت حاضرى، سأأون أباً مثلك، فما مصير ذريتي؟- .

ستجدنى رهن اشارتك في آل ما استطيع  
فربت إدريس آتف أدهم بامتنان وقال

أريد أن أعرف هل حرمنى أبى من حقى في الميراث؟- .  
آيف لي بمعرفة هذا، ولكن أن سألتنى عن رأى  
فقاطعه إدريس قلقا

إنى لا أسأل عن رأىك ولكن عن رأى أبىك- .  
إنه أما تعلم لا يصارح أحداً بما يدور في رأسه  
ولكنه دون شك قج سجله في حجة الوقف  
فهز أدهم رأسه دون أن ينس فعاد إدريس يقول  
آل شئ في الحجة- .

لا علم لي بها، وأنت تعلم أن احداً في بيتنا لا يدرى عنها شيئاً . وعلمى في الإدارة يسير تحت إشراف أبى الكامل  
فحدجه إدريس بنظرة حزينة وقال



-الحجة فى مجلد ضمخ، وقد لحتة مرة فى صبأى وسالت أبى عما فىه - وآنت وقتذاك قره عىنه - فقال لى إنه يضم آل شىء عنا، ولم نعد إلى الحدىث عنه، ولم ىسمح لى بذلك حىن بدأ لى أن اسأل عن بعض ما جاء فىه، ولا أشك الآن فى أن مصبرى قد تقرر فىه.

فقال أدهم وهو ىشعر بأنه ىنحصر فى رآن ضىق:  
-الله أعلم.

-إنه فى الخلوة المتصلة بمخدع أبىك، ولا شك أنك رأىته بأها الصغىر فى نهاية الجدار الأىسر، وهو باب مغلق دائما، لكن مفتاحه مودع فى صندوق فضى صغىر فى درج الخوان القرىب من الفراش، أما المجلد الضخم فعلى ترابىزة فى الخلوة الضىقة.

فرفع أدهم حاجبىة الخفىفتىن فى انزعاج وتمتم:

-ماذا ترىد ؟

فقال إدرىس متنهداً

إن آن ثمة راحة بال باقىة لى فى هذه الدنىا فهى رهن بمعرفتى ما سجل فى الحجة عنى

فقال أدهم فى ارتىاع

أهون على أن أسأله عما فى الشروط العضرة صراحة

-لن ىجىب، وسىغضب وربما اسء بك الظن، أو خمن الدافع الحقىقى وراء سؤالك فثار سخطة، وآم آآره أن تخسر ثقة أبىك جزاء أحسانك إلى، وهو لاشك لاىرىد أن ىذىع شروطه العشرة، ولو أراد ذلك لعرفناه جمىعا، لفلا سىبل مأموتا إلى الحجة إلا السىبل الذى وصفه لك . وهو مىسور جداً عند الفجر حىن ىتجول أبوك فى الحدىقة.

فامتقع وجه أدهم وهو ىقول:

ما أفظع ما تدعونى إلىه یا أحدى

فدارى إدرىس خىبته بابتسامة شاحبة وقال

لىس جرىمة أن ىطلع ابن على ما ىخصه فى حجة أبىه- .

لكنك تطلب إلى سرقة سر ىحرص أبونا على صونه

فتنهده إدرىس بصوت مسموع وقال

قلت لنىسى عندما قررت الجوء إليك " : ما أصعب أن أفنع أدهم بعمل ىعتبره مخالفا لإرادة الأب، ولكن داعبنى أمل قوى

فقلت لعله ىقدم إذا لمس مدى حاجتى إلى معونتة، ولىس فى الأمر جرىمة وسىمر بسلام، وستجد أنك انتشلت روحا من

الحجىم دون أدنى خسارة.

ليحفظنا المولى من الأخطار-..

أمين لكنى أتوسل إليك أن تنقذني من العذاب

نفض أدهم في جزع واضطراب ، فنهض إدريس في أثره وابتسم ابتسامة دلت على تسليمة باليأس وقال:

أزعجتك حقاً يا أدهم ! من أمارات تعاسى أننى لا ألقى شخصاً حتى تدرجه المتاعب على وجهه أو آخر، بات إدريس لعنة-.

ساحرة

آم يعذبني عجزى عن مساعدتك أنه عذاب ما بعده عذاب

فدنا منه حتى وضع يده على منكبه في رقة، ثم لثم جبينه في عطف وقال

لا يسأل عن تعاسى إلا نفسى، لماذا احملك فوق ما تطيق؟-.

دعنى أترك بسلام وليفعل الله ما يشاء

قال إدريس ذلك ثم ذهب.

7

دبت الحيوية في وجه أميمة لأول مرة منذ عهد قصير، فسألت أدهم باهتمام:

ألم يحدث أبوك عن الحججة من قبل ؟

آن أدهم متربعا على الكنبه، ينظر من النافذة إلى الخلاء الغارق في الظلمة فأجابها

لم يحدث احداً عنها قط-..

لكن أنت-.

لست إلا أحد أبنائه الكثيرين

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقال

لكنه اختارك أنت لتدير الوقف

فالتفت نحوها قائلاً بحدة

قلت إنه لم يحدث احداً عنها قط

فابتسمت مرة أخرى آنما لتلطف حديثه، ثم قالت بمكر

لا تشغل بالك، إدريس لا يستحق ذلك، إن إساءاته لك لا تُنسى أبداً

فحول أدهم رأسه نحو النافذة وقال بجزن

إدريس الذى جاءنى اليوم غير إدريس الذى اساء إلى، إن منظره النادم الحزين لا يبرح مخيلتى- .  
فقالت بارتياح ظاهر

هذا ما أدرأته من حديثك، وهو سر اهتمامى بالأمر، ولكنك تبدو ضيق الصدر بخلاف عاداتك  
آن ينظر إلى الظلام الكثيف، لكن رأسه المشغول لم يستجب له فقال

لا فائدة ترجى من الاهتمام- .

لكن أخاك النادم يسألك الرحمة-.

العين بصيرة واليد قصيرة-.

نفسك يوما وحيدا أمامهم-.

أنت تهمين بنفسك لا بإدريس

فهزت رأسها أئما تزيح عنه نقاب المكر وقالت

يجب أن تحسن علاقتك به، وبأخوته، وإلا وجدت

من حقى أن أهتم بنفسى، ومعنى هذا أن اهتم بك وبما فى بطنى، ماذا تريد المرأة ؟ وهذا الظلام ما أشد آثافته، حتى

المقطم العظيم قد أبتلعه وأراح نفسه بالمصت وإذا بها تسأله

ألا تذار أنك دخلت الخلوة أبداً ؟

فأجاب خارجا من صمته القصر

-أبدا ، أحببت فى صباى أن أدخلها فمنعنى ابى، ولم تكن أمى تسمح لى بالاقتراب منها.

-لا شك أنك أنت تتمنى دخولها ؟

ما حدثها فى الأمر إلا وهو ينتظر أن تدفعه عنه لا أن تجيز به إليه آن بحاجة إلى من يؤاد له صواب موقفه من أخيه، آن

بحاجة ماسة إلى ذلك، ولكنه آمن ينادى فى الظام خفيرا فيخرج إليه قطاع طريق.

وعادت أميمة تسأله:

-والخوان الذى به الصندوق الفضى هل تعرفه ؟

آل من دخل الحجرة يعرفه، لماذا تسالين عنه؟

-تزرحت من مجلسها على الكنية مقتربه منه وسألته باغراء

بربك ألا تود أن تطلع على الحجة ؟

فأجاب بجدة

آلا ، لماذا أود ذلك ؟

منذا يقاوم الرغبة فى الاطلاع على المستقبل  
تعنين مستقبلك أنت ؟-.

مستقبلى ومستقبلك ، ومستقبل إدريس الذى حزنت عليه رغم ما سبق منه ضدك  
المرأة تعرب عما فى نفسه، وهذا مايشير حنقه ومد رأسه نحو النافذة آنما يهرب منها وهو يقول  
لا أود ما لا يود أبى

فرفعت حاجبيها المزججين متسائلة

لماذا يخفى هذا الأمر ؟-!

ذلك شأنه ، ما أآثر أسئلتك الليلة

فقال وآنما تخاطب نفسها

المستقبل ! نعرف مستقبلنا ونقدم احساناً آبيراً إلى إدريس التعيس، لن يكلفنا هذا آله إلا قراءة ورقة دون أن يدرى أحد،-.  
واتحدى أى صيق أو عدو أن يثبت علينا سوء نية فى عملنا هذا أو انه يمس من قريب أو من بعيد والدك المحبوب  
وآن أدهم يراقب نجما فاق الأنجم بضياءه اللامع فقال متجاهلا قولها:  
ما أجمل السماء ! لولا رطوبة الليل جلست فى الحديقة أراقبها من خلال الغصون- . .

لا شك أنه ميز البعض فى شروطه

فهتف أدهم

ما أزهدي فى امتياز لايجر وراءه إلا المتاعب

فقال متنهدة

-لو آنت أعرف القراءة لذهبت بنفسى إلى الصندوق الفضى.

تمنى لو آن ذلك آذلك، وتضاعف حنقه عليها وعلى نفسه، بل شعر بأنه قد وقع فى المحذور فعلا وأنه يفكر فيه آحدث  
مضى، وتحول نحوها مقطبا فبدأ ودجهه على ضوء المصباح المرتعش بالنسيم المتسلل من النافذة متجها ، ضعيفا رغم  
تجهمه وقال:

لعنت حين أفضيت إليك بالخبر- . !

لا أريد ب شرًا، ومبحتى لوالدك مثل محبتك له-.

دعيك من هذا الحديث المتعب، فى هذه الساعة تستحب الراحة- . .

العمل السهل

فنفخ قائلا

يبدو أن قلبى لن يرتاح قبل الافدام على هذا

اللهم أرجع إليها عقلها!

فرمقته بنظرة المتحفزة ثم سالته

ألم تخالف أباك باستقبالك إدريس فى المنظرة ؟

فاتسعت عيناه دهشة وقال

-وجدته أمامى فلم يسعنى إلا استقباله.

هل أخبرت والدك نبأ زيارته ؟-.

ما أثقلك الليلة يا أميمة

فقال بصوت الظافر

-إذا جاز لك أن تخالفه فيما قد يضرك فكيف لا تخالفه فيما يفيدك ويفيد اخاك ولا يضر أحداً؟

بوسعه أن يقطع الحديث لو شاء، ولكن المنحدر آن شديد الانحدار، والحق أنه لم يترأها تسترسل فى حديثها إلا لأن جزاءً

من نفسه آن بحاجة إلى تأييدها، وتساءل فيما يشبه الغضب:

ماذا تعنين ؟-.

أعنى أن تسهر حتى الفجر، أو حتى يخلو المكان لنا

فقال بامتعاض

ظننت الحمل قد أفقدك عاطفتك وحدها، ولكن ها هو يفقدك عقلك أيضا- .

أنت مقتنع بما أقول وحق من خلق الروح فى بطنى، ولكنك خائف، والخوف لا يليق بك

فأفهر وجهه أفهراً منقطع الأسباب بالتراخى السارى فى داخله وقال

سندآر بهذه الليلة أول زعل فرق بيننا

فقال برقة عجيبة

أدهم ، دعنا نفكر جادين فى الأمر- .

لن نجنى خيراً-.

-هذا قولك ولكنك سترى

شعر بوهج النار وهو يقترب منها . قال لنفسه : إذا احترقت فلن تجدى دموعى فى أخمادها، وحول رأسه إلى النافذة

فخيل إليه أن سكان ذلك النجم اللامع سعداء لبعدهم عن هذا البيت زتمتم بصوت ضعيف:

لم يجب أح أباه أما أحبه- . .

لم أبعدك عما يسيئه-.

أميمة ، ما أحوجك إلى النوم-.

أنت الذى طيرت النوم من عيني-.

أملت أن أسمع عندك صوت العقل-.

ما اسمعتك غيره

وسائل نفسه بصوت منخفض آلهمس

ترى هل أندفع نحو الخراب ؟

فريتت يده الملقاة على مسند الكنية وقالت بعتاب

مصيرنا واحد يا نآر الحب!

فقال فى استسلام دل على أنه اتخذ قراره:

فقال بانطلاق:

-ستقرأ مصيرك فى الحجة..

ومد بصره نحو النجوم الساهرة . وقطع السحاب المستضيئة بنورها الهادئ، وخيل إليه أنها مطلعة على نجواه فغمغم " : يا

لطف السماء، ثم سمع أميمة وهى تقول فى نبرات مداعبة:

-دعنى أرد إليك الجميل.

## 8

أنت علمتى حب الحديقة،

وعند الفجر غادر الأب حجرته قاصداً الحديقة ، آن أدهم بأقصى الردهة يترقب أميمة خلفه ممسكة بكتفه فى الظلام، تابعا

وقع الأقدام الثقيل المتزن ولكنهما لم يتبينتا اتجاهها فى الظلام، وآان من عادة الجبلأوى أن يسير فى هذه الساعة دون

حاجة إلى ضوء أو رفيق، وسكت الصوت فالتفت أدهم نحو زوجه هامسا:

ألا يحسن بنا أن نعود ؟

فدفعته وهى تهمس فى أذنه

-على اللعنة أن آنت أضمر سوءاً لإنسان.

فتقدم بخطوات حذرة، فى اضطراب أليم، ويده قابضة على شمعة صغيرة فى جيبيه، وجعل يتحسس الجدار حتى مست

يده مصراع الباب .

وهمست أميمة :

-سابقى هنا لأرقب المكان، اذهب مصحوبا بالعناية.

ومدت يدها فدفعت الباب حتى انفتح ثم تراجع، ومضى أدهم نحو الحجرة بخطواته الحذرة فتقلى من داخلها رائحة مسكية شديدة النفاذ، ورد الباب وراءه ووقف يحملق في الظلام حتى تبين له خصائص النوافذ المطلة على الخلاء، وهي تنضح بنور الفجر، شعر أدهم بأن الجريمة - أن آن ثمة جريمة 0 قد وقعت بدخوله الحجرة، وأن عليه أن يتم عمله، سار مع الجدار الأيسر، مرتطما أحيانا بالمقاعد، ماراً في طريقة بباب الخلوة، حتى بلغ نهايته، ثم مال مع الجدار الأوسط وما لبث أن عثر على الخوان، جذب الدرج، وتحسس ما بداخله حتى وجد الصندوق، ثم شعر بحاجة إلى الراحة ليأخذ نفسه . ورجع إلى باب الخلوة ففتش عن ثقبه، ثم وضع فيه المفتاح وأجاره، وفتح الباب، وإذا به يتسلل إلى الخلوة التي لم يدخلها أحد قبله إلا الأب، رد الباب، فأخرج الشمعة، ثم أشعلها، فرأى مربعا ذا سقف عال لا منفذ فيه إلا الباب، مفروش الأرض بسجادة صغيرة، وعند ضلعه الأيمن ترايريزة أنيقة عليها الجلد الكبير الذى ثبت فى الجدار بعلاقة من صلب، ازدارد أدهم ريقه الجاف بشئ من الألم أنه وعكة أصابت اللوزتين، وعض على أسنانه، أتما لعصر الخوف السارى فى أوصاله المرعش للشمعة فى يده واقترب من التريزة وهو يحملق فى غلاف الجلد المزخرف بخطوط مموهة بالذهب، ثم مد يده ففتحه، وجد مشقة فى ترايز ذهنه ونفض الاضطراب عنه وبدأ يقرأ بالخط الفارسى " باسم الله. "

لكنه سمع الباب وهو يفتح بغتة، انجذب رأسه نحو الصوت بقوة ودون وعى أن الباب شده إليه وهو يفتح رأى الجبلاوى على ضوء شمعه يسد الباب بجسمه الكبير ملقيا على نظرة باردة قاسية، حملق أدهم فى عيني أبيه فى صمت وجمود ، وتخلت عنه قوى الكلام والحرآة والتفكير، وأمره الجبلاوى قائلا:

-اخرج.

ابقظه الرعب من تجمده فتحرك ، وتخلى الأب عن الباب، فغادر أدهم الخلوة والشمعة ما تزال تحترق فى يده ، ورأى أميمة واقفة وسط الحجرة صامته، والدمع ينحدر تباعاً من مقلتيها، وأشار له الأب أن يقف إلى جانب زوجته ففعل، ثم خاطبه بصرامة قائلا:

عليك أن تجيب على أسئلتى بالصدق

فقطت أساريه بالامثال ، وسأله الرجل

من الذى أخبرك بالكتاب ؟

فقال أدهم دون تردد آوعاء تحطم فسأل ما فيه

-إدريس .

متى ؟-.

-صباح الأمس

آيف تم اللقاء بينكما ؟-.

-أندس بين المستأجرين الجدد وانتظر حتى انفراد بي

لماذا لم تطرده ؟-.

عز على طرده يا أبى

فقال الجبلاوى بحدة

لا تخاطبنى بالأبوة

فاستجمع أدهم قواه قائلاً

-إنك أبى رغم غضبك ورغم حماقتى.

أهو الذى أغراك بفعلتك ؟

وأجابت أميمة دون أن يوجهه إليها السؤال

-نعم يا سيدى.

أخرسى يا حشرة ) ثم موجهها الخطاب إلى أدهم .. ( أجب-.

آن يائسا حزينا نادما وود لو يطمئن على مستقبل ذريته

وفعلت هذا من أجله.

آلا .. اعتذرت له عن عجزى

وماذا غيرك ؟-.

فتنهذ أدهم يائسا وتمتم

الشيطان!

فسأله ساخرًا

هل أخبرت زوجتك بما جرى بينك وبينه ؟

هنا انتحبت أميمة فنهزها الجبلاوى أن تحرس، وحث أدهم على الإجابة بإشارة من إصبغه ، فقال

-نعم.

وماذا قالت لك ؟

لاذ أدهم بالصمت آى يزدرد ريقه فصاح به



أجب يا وضع- . .  
وجدت بها رغبة فى الاطلاع على الوصية وظنت أن ذلك ين يضر أحدًا  
فحدجه باحتقار شديد وقال  
وهكذا انصعت إلى خيانة من فضلك على من خير منك  
فقال أدهم بصوت الآنين  
-لن يسعنى دفاع عن ذنبى ، لكن مغفرتك أأبر من الذنب والدفاع.  
تتأمر على مع إدريس الذى طردته إآرامًا لك ؟- .  
لم اتامر مع إدريس، لقد أخطأت ، ولا نجاة لى إلا بمغفرتك  
وهتفت أميمة بتوسل  
سيدى..

قاطعها قائلاً

إحرسى يا حشرة

وجعل يردد عينيه بينهما عابسًا ، ثم قال بصوت رهيب

أخرجنا من البيت

وهتف أدهم

أبى

فقال الرجل بصوت غليظ

-غادرا البيت قبل أن تلقيا خارجا.

## 9

وفتح باب البيت الكبير ليشهد هذه المرة خروج أدهم وأميمة مطرودين . خرج أدهم يحمل بقجة ملابس، وتبتعته أميمة  
حاملة بقجة ثانية وأطعمة خفيفة.

خرجوا ذليلين حزينين بأعين بلا أملن وعندما سمعا صوت الباب وهو يغلق خلفهما ارتفع صوتهما بالنحيب، وقالت أميمة  
وهى تنشج:

الموت ما أستحق من جزاء!

فقال أدهم بصوت متهدج

-لأول مرة تصدقين، ولكن الموت دون ما أستحق آذلك.

وما آادا يبتعدان قليلا عن البيت حتى دوت ضحكة ساخرة مخمورة، فنظرا نحو مصدرها، فرأيا إدريس أمام آوخه الذى بناه من الصفائح والأخشاب وقد جلست امرأته نرجس وهى تغزل صامته، آآن إدريس يضحك فى سخرية وشماته حتى ذهل أدهم وأميمة فوقفا يحملقان فيه ، وراح إدريس يرقص ويفرقع بأصابعه حتى ضجرت نرجس فأوت إلى الكوخ ، تابع أدهم بعينين محمرتين من البكاء والغضب ، أدرك فى لحظة المكر الذى مكره فتكشف له عن حقيقته الخبيثة المجرمة، وأدرك أيضا مدى حمقه وغبائه الى يرقص له المجرم شماته وفرحا، هذا هو إدريس الذى استحال شرًا مجسدًا وغلبي دمه حتى فار فأغرق مخه وقبض على حفنة من تراب ورماه بها وهو يصيح بصوت محتنق بالغضب.

-يا قدر ، يالعين، أن العقرب بالقياس إليك حشرة مستأنسه.

فأجاب إدريس بمزيد من حرآاته الراقصة ، هز رقبته يمنة ويسرة ، ولعب حاجبيه ومازال يفرقع بأصابعه وتضاعف غضب أدهم فصاح:

الفساد والدناءة والوضاعة هذه هى صفات المخادعين الكاذبين ، فراح إدريس يهز وسطه بمثل الرشاقة التى هز بها رقبته ويرسم بفيه ضحكة صامته قبيحة، فصاح أدهم دون التفات إلى أميمة التى حاولت أن تدفعه إلى المسير -حتى الدعارة تجرهما يا أقدر من خلق!

فمضى إدريس يهز عجيزته وهو يدور حول نفسه فى بط ودلال فأعمى الغضب أدهم برمى بالبقجة أرضا ودفع أميمة التى همت بالتعلق به وجرى نحوه حتى قبض على عنقه وشد عليه بكل قوته لم يبد على إدريس أنه تأثر بالمنقض ولا بقبضته، وواصل الرقص وهو يتأنق فى تأودة، وحن جنون أدهم فانهال على إدريس ضربا ولكن إدريس ازداد عبثا وراح يغنى بصوت آريه:

=حطة ا بطة يا دقن القطة.

وتوقف بغته وهو يزجر، ثم دفع أدهم فى صدره دفعة قوية تفهقر على أثرها يترنح ثم احتل توازنه فسقط على ظهره ، وهرعت إليه أميمة صارخة فساعدته على النهوض وأخذت تنفض الغبار عن ثوبه وتقول:

-مالك أنت وهذا الوحش، فلنبتعد عنه!

وتناولت البقجة صامتا، وحملت زوجته بقجتها وابتعدا حتى طرف البيت الآخر، وآآن الإعياء قد نال منه فرمى بالبقجة وجلس عليها وهو يقول " : لنسترح قليلا " ، فجلست المرأة قبآلته وقد رجعت تبكى، وإذا بصوت إدريس يترامى إليهما قويا آلرعد

وصاحبه يقف ناظرًا إلى البيت الكبيرة نظرة التحدى ويصيح:

-طردتني إرأما لأحقر من أنجبت، أرأيت آيف آن سلوآه نحوك، ها أنت ترميه بنفسك إلى التراب، عقاب بعقاب والبادى  
أظلم، آى تعلم أن إدريس لا يقهر، فلتبق وحدك مع ابنائك العقماء الجبناء، لن يكون لك حفيد إلا من يسعى فى التراب  
ويتقلب فى القاذورات، غدا يسرحون بالبطاطة واللب، غدا يتعرضون لصفعات الفتوات فى العطوف وآفر الزغارى، غداً يمتزج  
دمك بأحقر الدماء، وتقع أنت وحيداً فى حجرتك تبدل وتغير فى آتابك آيف شاء لك الغضب والفشل وتعانى وحدة  
الشيخوخة فى الظلام، حتى إذا جاء الأجل فلن تجد عينا تبكيك.  
ثم التفت صوت أدهم وواصل صياحه الجنون:  
وأنت أيها الضعيف آيف تلقى الحياة وحدك ! لا قوة فىك تؤيدك ولا قوى لديك تعتمد عليه، وماذا تفيدك مبادئ  
القراءة-..

والحساب فى هذا الخلاء ؟ ها .. ها .. ها  
ولم تزل أميمة تبكى حتى ضاق بها أدهم فقال فى فتور:  
آفى عن البكاء  
فقالته وهى تحفف عينيها  
سأبكى آثراً ، أن ا الآئمة يا أدهم-..  
لست دونك اثما ، لو لم تلقى منى ضعياً نذلا ما وقع الذى وقع-.  
الذنب ذنبى وحدى  
فهتفت بغیظ  
إنك تحملين على نفسك لتتقى حملتى عليك.  
فباخت حميتها فى اتهام نفسها وأحنت رأسها ملياً ثم عادت تقول بصوت ضعيف  
لم آن أتصور أن تبلغ قسوته هذا الحد-..  
إنى أعرفه ولا عذر لى  
فترددت قليلاً ثم قالت  
آيف أعيش هنا وأنا حبلى ؟  
فى هذا الخلاء نعيش بعد البيت الكبير، لیت للدموع جدوى، ولكن ليس أمامنا إلا أن نقيم آوخوا لنا  
أين ؟  
فنظر فيما حوله، ووقف نظره قليلاً صوب آوخ إدريس، ثم قال بقلق

لا يجوز أن نتعد آثرا عن البيت الكبير ولو اضطررنا إلى البقاء غير بعيد من آوخ إدريس، وإلا هلكنا وحدنا في أطراف هذا-.

الخلاء

ففكرت أميمة قليلا ثم قالت بوجه مال إلى الاقتناع برأيه:

مرمى بصره ، لعله يرق لحالنا

فتأوه أدهم قائلا

نعم ، ولكن نبقى على

-الحسرة تقتلني ، ولولاك لتوهمت ما بي أبوسا، هل يجفوني قلبه إلى الأبد؟ لن أتطاول عليه إدريس ، هيهات، لست

إدريس في شئ، فهل ألقى نفس المعاملة؟

فقالت أميمة في حنق:

لم تعرف هذه الأحياء أبا مثل أبيك

فتساءل بعينين حادتين

متى يتوب لسانك ؟

فانفعلت قائلة

والله ما ارتكبت جريمة ولا إثما، خبر من تشاء بما فعلت وبما نلت جزاء ما فعلت وأراهنك على أنه سيضرب آفا بكف،

والله-.

ما عرفت الأبوة أبا آبيك

ولا عرفت الدنيا رجلاً مثله، هذا الجبل ن وهذه الصحراء، وهذه السماء تعرفه، ومثله يجين عند التحدى- . .

بهذا الجبروت لن يبقى في البيت أحد من أبنائه-.

نحن أول الخارجين فنحن شر من فيه

فقالت بامتعاض

لست آذلك، لسنا آذلك.

الحكم الصحيح لن يكون إلا عند الامتحان

لاذ آالهما بالصمت لم يكن بالخلاء حتى يُرى، إلا بعض المارة العابرين عن بعد عند سفح الجبل، وآانت الشمس ترسل

أشعة حامية من سماء صافية فتغمر الرمال المترامية حيث يلمع الحصا أو قطع الزجاج المتناثرة ، ولم يكن من قائم إلا

الجبل في الأفق، وصخرة آبيرة في الشرق آأها راس جسم مطمور في الرمال، وآوخ إدريس عند الطرق الشرقى للبيت

الكبير ينغرس في الأرض متحدثاً بهيئته الزرية، آن الجول آله يندر بالشقاء والتعب والخوف وتنهدت أميمة بصوت مسموع وقالت:

سنتعب آثراً حتى تتيسر لنا الحياة  
فرنا أدهم إلى البيت الكبير وقال  
وستعب آثر حتى يفتح لنا هذا الباب مرة أخرى.

## 10

شرع أدهم وأميمة في إقامة آوخ لهما عند الطرف الغربى للبيت الكبير، آنا يجيئان بالأحجار من المقطم، ويجمعان الصفائح من سفح الجبل، ويلتقطان الأخشاب من مشارف العطوف والجمالية وباب النصر، وتبين لهما أن بناء الكوخ سيستغرق وقتاً طويلاً مما قدرا . وصادف ذلك نفاذ الزاد الذى حملته أميمة من البيت من حبن وبيض وعسل أسود، فقر أدهم أن يبدأ بالسعى فى سبيل رزقه ، ورأى أن يبيع بع ثيابه الثمينة ليشتري بثمانها عربة يد لبيع البطاطة والملانة والخيار وغيرها على حسب المواسم، وعندما أخذ فى جمع ثيابه أجهشت أميمة فى البكاء من شدة التأثر، ولكنه لم يستجب لعواطفها، فقال وهو بين السخط والسخرية:

- لم تعد هذه الثياب تناسبنى، أليس من المضحك أن أسرح ببطاطة وأنا متلفع بعباءة مزرآشة من وبر الجمل؟  
ثم شهده الخلاء وهو يدفع عربته نحو الجمالية، الجمالية التى لم تنس بعد زفته وانقبض قلبه وانحبس صوته فكف عن النداء وآادت تغرورق عيناه ، واتجه نحو الأحياء البعيدة متهرباً وآان يواظب على المشى والنداء من الصباح إلى المساء حتى آلت يدها وانجرد نعلاه وسرت الأوجاع فى قدميه ومفاصله، وآم آآن يشق عليه مسامومات النسوان، أو أن يضطره الأعياء إلى افتراش الأرض لصق جدار، أن أن يقف فى رآن ليفك حصره، بدت الحياة غير حقيقية، وآيام الحديقة وإدارة الوقف والمخدع المظل على المقطم الآساطير، وجعل يقول لنفسه " : لاشئ حقيقى فى هذه الدنيا، هى البيت الكبير، هى الكوخ الذى لم يتم، هى الحديقة هى عربة اليد، هى المس واليوم والغد، لعلى أحسنت صنعا بالإقامة قبالة البيت حتى لا أفقد الماضى آما فقد الحاضر والمستقبل، وهل من عجب أن أخسر الذآارة آما خسرت آبى وآما خسرت نفسى؟ فإذا عاد أول الليل إلى أميمة فليس إلى الراحة يعود، ولكن ليواصل العمل فى بناء الكوخ، ومرة جلس فى حارة الوظائف عن الظهر ليستريح فنفس، واستيقظ على حرآة فرأى غلمان يسرقون عربته فنهض مهددا . ورآه غلام فنبه أقرانه بصفير ودفع العربة ليشغله بما عن مطاردتهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين آآجراد، وغضب أدهم غضباً شديداً حتى قذف فوه المهذب بسيل من أقذع الشتائم، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذى لوث بالطين وتضاعف

غضبه دون أن يجد له متنفساً فراح يقول بتأثر وانفعال " : لماذا آن غضبك آالنار تحرق بلا رحمة؟ لماذا آانت آبرياؤك آحب إليك من لحمك ودمك؟ وآيف تنعم بالحياة الرغيدة وآنت تعلم أننا ننداس بالأقدام آالحشرات؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنهما فى بيتك الكبير أيها الجبار ! وقبض على يدى العربة وهم يدفعها بعيدا عن الحارة اللعينة، وإذا بصوت يقول متهكما: -بكم الخيار يا عم ؟

رأى إدريس واقفا يبتسم ابتسامة ساخرة، رافلاً فى جلباب مقلم بألوان زاهية، وعلى رأسه لاسة بيضاء، رآه باسمًا ساخرًا لا نائراً ولا هائجا فضاقت لمنظره الدنيا فى عينيه رغم ذلك، ودفع العربة ليذهب ، ولكن إدريس اعترض سبيله وهو يقول فى دهشة:

ألا يستحق زبون مثلى حسن المعاملة ؟

فارتفع رأس أدهم فى عصبية وهو يقول

دعنى وشانى

فأمعن إدريس فى السخرية متسائلا

ألم تجد خيراً من هذه اللهجة تخاطب بها أخاك الأبر ؟

فقال أدهم بلهجة المتصبر

-يا إدريس أما آفاك ما فعلت فى ؟ لا أريد أن تعرفنى أو أن أعرفك.

آيف يتأتى هذا ونحن فى حكم الجيران ؟

ما أردت جوارك ولكنى قصدت أن أبقى قريبا من البيت الذى .. فقاطعه هازئًا!

الذى طردت منه

فسكت أدهم وقد تجلى الضيق فى شحوب وجهه، فاستطرد الآخر قائلا

النفس تتعلق بالمكان الذى تطرد منه ، أليس آذلك ؟

فلم يخرج أدهم عن صمته ، فقال الآخر

فاعلم بأنى لن أسمح لك بالعودة وحدك-.

ولو انطبقت السماء على الأرض

إنك تطمع فى العودة إلى البيت ما ماآر، إنك ضعيف حقا ولكن ملىء بالمكر، ألا

فتساءل أدهم ومنخراه يتحرر آن من الحنق:

ألم يكفك ما فعلت فى ؟-.

ألم يكفك أنت ما فعلت فى ؟ من آجلك طردت وآنت آوآب البيت المنير-.

المتعجرفة

فقهة إدريس قائلاً

بل طردت بسبب نفسك

وطردت أنت بسبب نفسك الضعيفة، فلا مكان في البيت الكبير للقوة ولا للضعف، فانظر إلى استبداد أبيك ، أنه لا يسمح-

باجتماع القوة والضعف في نفس ألا نفسه هو، أنه القوى لحد الفتك بفلذات آبه، الضعيف لحد التزوج من أم أمك فقطب أدهم غاضبا وقال بتهدج:

دعني اذهب ، وتحرض إذا شئت بقوى مثلك- .

أبوك يتحرض بالأقوياء والضعفاء

فصمت أدهم وازداد عبوسا فقال إدريس هازئا

لا تريد أن تتورط في تجريحه، هذا مكر من مكر، ودليل على أنك مازلت تحلم بالعودة

ثم تناول خيارة وأخذ ينظر إليها باشمزاز ثم قال

آيف سولت لك نفسك أن تسرح بهذا الخيار الملوث ! ألم تجد عملاً أشرف من هذا ؟-

إني راض عنه

بل اضطررتك الحاجة إليه، على حين ينعم أبوك بالعيش الرغيد، فكر قليلا في الأمر، أليس من الآرم لك أن تنضم إلى

فقال أدهم في ضجر

لم اخلق لحياتك-! .

انظر إلى جلبابي ! ان صاحبه يرفل فيه أمس دون وجه حق

فلاح التساؤل في عيني أدهم وقال

وآيف حصلت عليه ؟-

آما يفعل الأقوياء

أسرق أم أقتل ؟ وقال بحزن

لا أصدق أنك أخي إدريس!

فقال وهو يقهقه

لا تعجب مادمت تعلم أنني ابن الجبلاوى

فهتف أدهم في نفاذ صبر

هلا أوسعت لى الطريق؟-!

آما تشاء لك حماقتك

ومأ جيبه بالخيار، وألقى عليه نظرة ازدراء، ثم بصق على العربة ومضى

ووقفت أميمة تستقبله وهو يقترب من الكوخ ، آانت الظلمة تغشى الخلاء، وفي داخل الكوخ شمعة تحترق آأنها رمق فى

صدر محتضر ، أما فى السماء فالنجوم تزهر، وععلى ضوءها يبدو البيت الكبير أشبح عملاق، أدرات أميمة من صمته أنه

على حال يستحسن معها تجنبه، قمت إليه وز ماء ليغسل أطرافه وجاءته بجلباب نظيف ، وغسل وجهه وقدميه وبدل

جلبابه ثم جلس على الأرض ومد ساقيه، واقتربت منه فى حذر، فجلست وهى تقول بلهجة الاسترضاء:

ليتنى اتحمل عنك بعض تعبك

وآأنها حكّت أجرب فصاح

اخرسى يا أصل الشر والتعاسة

فتزحزحت بعيداً عنه حتى آادت تحتفى، ولكنه صاح

إنك خير من يذآرنى بغفلتى وحماقتى، ملعون اليوم الذى رأيتك فيه

فجاءه فى الظلام انتحايها ولكنه ضاعف من غضبه فقال

سحقا لدموعك ! إن هى إلا عرق الخبث الذى يمتلىء به جسدك

فجاءه صوتها البآآى قائلاً

ىكل قول يهون بالقياس إلى عذابى- .

-لا تسمعنى صوتك وأبعدى عن وجهى

وآور ثوبه المخلوع ورمأها به فتأوهت قائلة " : بطنى " ! وسرعان ما برد غضبه ، وأشفق من العواقف، وأنست هى من

صمته

تراجعا فقالت بصوت المتوجع:

سأذهب بعيدا آما تريد

وقامت فمضت تبتعد حتى صاح بها

هل تريب الوقت مناسباً للدلال ؟

ثم تحفز للقيام وهو يصيح

-ارجعى لا رجعت إليك الراحة.

واحد بصره فى الظلام حتى رأى شبحتها يعود فأسند ظهره إلى جدار الكوخ ورفع رأسه نحو السماء، وود لو يطمئن على



بطنها ولكن أبت آبرياؤه ، أجل ذلك إلى اجل قريب .. ثم مهد له بقوله:  
-إغسلي بعض الخيار للعشاء.

## 11

مجلس لا يخلو من الراحة ، لا نبت فيه ولا ماء ولا عصافير تزقرق فوق الغصون، لكن أرض الخلاء الجرداء المشأسة تكتسى في الليل حلة غامضة بخالها الحالم ما يشاء، وفوقه قبة السماء المرصعة بالنجوم والمرأة داخل الكوخ والوحدة ناطقة والحزن آآلمر المدفون تحت الرماد، وسور البيت العالى يعاند المشتاق، وهذا الأب الجبار آيف السبيل إلى إسماعه انبىى ومن الحكمة نسيان الماضى، لكن ليس لنا من زمن غيره، لذلك آرهت ضعفى ولعنت نذالتي ورضيت الشقياء رفيقا وسألد له أبناء، والعصفورة التي لا تصدوها قوة عن الحديقة أسعد من أحلامى وعيناي احترقتا شوقا إلى المياه الجارية بين شجيرات الورد وأين عبير الحناء والياسمين أين، أين خلوا اباب والنای أين، أيها القاسى، مضت نصف عام فمتى يذوب ثلج قسوتك؟

وعن بعد ترام صوت إدريس مغنيا بصوت آريه " : عجايب والله عجايب " ، وإذا به يوقد ناراً أمام آوخته فاشتعلت آآها شهاب

هوى فانغرس في الأرض، وآآنت زوجة تذهب وتجيء ببطنها المتدلى لتقدم طعاما أو شاربا ولطمته موجة سكر فصاح في السكون موجهها الخطاب إلى البيت الكبير " : هذا أوان الملوخية والفراخ المحمرة، اطفحوها سماً يا أهل البيت " ، ثم عاد إلى الغناء.

وقال أدهم لنفسه متأسفا " : آآما خلوت إلى نفسى في الظام جاء الشيطان فاشعل ناره وعربد فأفسد على خلوتى " ، وظهرت أميمة عند باب الكوخ فعلم أنها لم تنم على خلاف ظنه، وآآنت من الحمل فى إعياء ومن الجهد والفقير على حال لا تسر ، وقالت برقة واشفاق:

آلا تنام ؟

فقال فى ظهر

دعيني للساعة الوحيدة التي تطيب فيها الحياة- . .

ستسعى بعربتك فى الصباح البآآر فما آحوجك إلى الراحة-.

فى وحدتى آرتد سيدا أو شبه سيد، آتأمل السماء واتذآر الأيام الخالية

فتنهدت بصوت مسموع وقالت

أود لو رأيت أباك ذاهبا من البيت أو راجعا إليه أن أرمى بنفسى تحت أقدامه وأن استغفره  
فقال أدهم فى جزع

قلت لك مراراً أن تقلعى عن هذه الأفكار، فليس بهذه الوسيلة يمكن أن نسترد عطفه  
فصمت مليا ثم قالت همسا

إن أفكر فى مصير الشئ الذى فى بطنى- . .

ولا شغل لى إلا هذا رغم أنى لم أعد إلا حيوانا قدرا

فتمتت بجزن

والله إنك خير الرجال جميعا

فضحك أدهم ساخرا وقال

لم أعد إنسانا، فالحيوان وحده هو الذى لا يهمله إلا الغذاء- . .

لاتحزن ، آم من رجل بدأ مثلك ، ثم تيسر له العيش الرغيد فملك الدآآين والبيوت- .

اراهن على أن أوجاع الحبل قد بلغت رأسك

فقالت باصرار

ستكون رجلا ذا شأن وسينشأ وليدنا فى أحضان النعيم

فضرب أدهم آفا بكف وتساءل ساخرا

أأبلغ ذلك بالبوظة أم بالحشيش ؟- .

بالعمل يا أدهم

فقال فى سخط

-العمل من أجل القوت لعنة اللعنات . أنت فى الحديقة أعيش لا عمل لى إلا أن انظر إلى السماء أو انفخ فى الناي، أما

اليوم فلست إلا حيوانا أذفع العربة أمامى ليل نهار فى سبيل شئ حقير نأآله مساء ليلفظه جسمى صباحا، العمل من

اجل القوت لعنة اللعنات الحياة الحقة فى البيت الكبير، حيث لا عمل للقوت وحيث المرح والجمال والغناء.

وإذا بصوت إدريس يقول:

=نظقت بالحق يا أدهم، العمل لعنة، وهو ذل لم نعهده، ألم أعرض عليك الانضمام إلى ؟التفت أدهم نحو الصوت فرأى شيخ

غدريس واقفا على قرب منه هكذا يتسلل فى الظلام دون أن يشعر به فيتصنت إلى الحديث ما شاء له التنصت، ويشترك

فيه إذا حلا له ذلك، ووقف أدهم منفعلا وهو يقول:

عد إلى آوخك

فقال إدريس بلهجة جدية مفتعلة

-إن مثلك أقول إن العمل لعنة لا تليق بكرامة الإنسان..

إنك تدعوني إلى البلطجة وهى قذارة فكيف يعيش الإنسان؟

فلم يرتح إلى محادثته فصمت، وانتظر إدريس أن يتكلم فلم يتكلم ، فقال

لعلك تريد رزقا بلا عمل؟ ولكن ذلك سيكون حتما على حساب الآخرين

وثابر أدهم على صمته فعاد الآخر يقول

أم لعلك تريد رزقا بلا عمل دون أن يضار به أحد؟

وضحك ضحكة آريهة وقال

هذه فزورة يا ابن الجارية؟

وصاحت أميمة بغضب-.

-عد إلى آوْحك واخز الشيطان-."

ونادته امرأته بجدة ، فرجع من حيث أتى وهو يترنم " : عجائب والله عجائب

وتوسلت أميمة إلى زوجها قائلة:

تجنب الاشتباك معه بأى ثمن- . .

أن أجدّه فجأة فوق رأسى دون أن أدري آيف جاء

وساد صمت اتخذنا منه مسكنا لانفعالهما . وعادت أميمة تقول برقة

=قلبي يحدثنى باننى سأجعل من آوْحنا بيتًا شبيهاً بالبيت الذى طردنا منه، لن تنقصه الحديقة ولا البلابل، وسيلقى

وليدنا فيه آل راحة ومرتعة.

فوقف أدهم يبتسم ابتسامة لم ترها فى الظام، وقال ساخرًا وهو ينفض التراب عن جلبابه:

الخيار القشطة، الخيار السكر ، والعرق يتصبب من جسدى والغلمان يتسلون بمعاستى، والأرض تأل قدمى فى سبيل

ملاليم، ودخل الكوخ فتبعته وهى تقول

-لكن سيأتى يوم المرح والغناء- . .

لو أنت تشقين ما وجدت وقتا للأحلام

ورقد آل منهما على خيشه محشوة بالقش، وهى تقول

ليس الله بقادر على أن يجعل من جوْحنا بيتا آل البيت الذى طردنا منه؟

فقال أدهم وهو يتشاءب

أمنيّتي أن أعود إلى البيت الكبير  
ثم وهو يتشاءب بدرجة أعلى  
العمل لعنة  
فقال بصوت هامس  
-ربما ، ولكنها لعنة لا تزول إلا بالعمل!

## 12

وذات ليلة استيقظ أدهم على تأوهات عميقة . ولبث وهو بين النوم واليقظة حتى تبين صوت أميمة وهي تتوجع هاته " : أه يا ظهري .. أه يا بطني . " فجلس من فوره وهو يحملق صوبها ، ثم قال :  
هذا حالك هذه الأيام ثم ينجلي عن لا شيء ، اشعلى الشمعة  
فقالت وهي تنن  
-أشعلها بنفسك هذه المرة جد .  
فقام يتحسس موضع الشمعة بين أدوات الطهي حتى عثر عليها، فأشعلها، وثبتها على الطبلية، فبدت أميمة على الضوء الخافت جالسة متكئة على ساعديها، تنن، وترفع رأسها لتتنفس بصعوبة ظاهرة.  
وقال الرجل بقلق :  
هذا ما تظنيه ألما شعرت بوجع  
فقالت بوجه متقلص  
آلا ، أنا متآادة أن هذه المرة جد  
وساعدها حتى أسند ظهرها إلى جدار الكوخ ثم قال  
-لأحضر لك الداية .  
صحتك السلامة، ما الوقت الآن ؟  
مضى أدهم خارج الكوخ، وجعل ينظر إلى السماء، ثم قال  
هو شهرك على أى حال ، تجلى حتى أذهب إلى الجمالية  
-الفجر قريب، لن أغيب إلا مسير الطريق .  
واندفع يسير على عجل نحو الجمالية، ثم عاد يشق الظلام وهو قابض على يد الداية العجوز ليهدئها السبيل، وعند اقترابه

من الكوخ ترمى إليه صراخ أميمة الذى مزق السكون، فخفق قلبه وأوسع خطاه حتى تشكت الداية، ودخلا الكوخ معا، فخلعت المرأة ملاءتها وهي تقول أميمة ضاحكة:

جاء الفرج، وما بعد الصبر إلا الراحة

وسألها أدهم

آيف حالك؟

فقال في صوت الآنين

آآد أموت من الألم، جسمى يتفكك، وعظامى تنكسر، لا تذهب . فقلت الداية-:

-بل ينتظر فى الخارج بسلام

وغادر أدهم الكوخ إلى العراء فلمح شبحاً واقفاً عن قرب عرفه قبل أن يتبينه، فانقبض صدره، ولكن إدريس قال مصطنعاً لهجة الأدب:

جاءها الطلق؟ مسكينة، مرت زوجى بهذه الحالة أما تعلم منذ زمن قصير، إنه ألم آآذب لا يلبث أن يزول، ثم تتلقى-

نصيبك من عالم الغيب أما تلقيتُ هند، إنها طفلة ساحرة ولكنها لا تكف عن التبول والبكاء . تجلد

فقال أدهم على مضض وضيق:

الأمر لصاحب الأمر

فصدرت عن إدريس ضحكة خشنة وتساءل

جئت لها بداية الجمالية؟-

نعم-

ماراً ببيتها

قال أدهم بعد تردد

امرأة قدرة ، طماعة ، جئتُ بها أيضا فغالت فى تقدير أتعابها فطردتها، وماتزال تدعو علىّ ألما رأتنى

-ما ينبغى أن تعامل الناس هكذا.

يابن الأآبر، علمنى أبوك أن اعامل الناس بالفضاظة والقسوة، وارتفع صوت أميمة بصراخ آآنما هى صدى للتمزق الذى

يقع فى جوفها، فانطبقت شفقتنا أدهم على ما هم بقوله، واقترب من الكوخ قلقاً، وهتف بصوت رقيق

شدى حيلك

فردد إدريس قوله بصوت مرتفع

شدى حيلك يا امرأة أذى

فأشفق أدهم من سماع زوجه هذا الصوت، لكنه دارى حنقه قائلاً  
يحسن بنا أن نقف بعيداً عن الكوخ- .

تعال بنا إلى آوخي أقدم لك الشاي، وترى هند وهى تغطى فى النوم  
لكن أدهم ابتعد عن آوخته دون أن يتجه نحو آوخ الآخر، وهو يلعبه فى سره فى غيظ مكتوم، فتبعه إدريس وهو يقول  
إنه تغير خطير، من فوائده أن تشعر بالرابطة التى يمزقها أبوك فى يسر وبلادة فنفس أدهم  
عن ضيقه بقوله

ستكون أبا قبل طلوع الصبح،  
هذا الكلام يضايقنى.

ربما ، لكن لاهم لنا غيره

فسكت أدهم متردداً ، ثم قال بشئ من الإشفاق  
إدريس، لماذا تتبعنى وأنت تعلم ألا مودة بيننا؟  
فقهقه غدريس عالياً وقال

يا لك من طفل قليل الحياء، لقد أيقظنى صراخ زوجك من أحلى نومه فلم أسمح لى نفسى بالغضب، وعلى العكس جئت-  
لأقدم لك المعونة إن أنت فى حاجة إليها، وأن أبك لىسمع الصراخ أما سمعته لكنه عاود النوم آمن لا قلب له  
فقال أدهم فى ضجر:

-حسبنا ما آتب لنا من مصر، ألا تستطيع أن تتجاهلنى أما أتجاهلك ؟

-إنك تكرهنى يا أدهم لا لأننى أنت السبب فى طردك ولكن لأننى أذآرك بضعفك، إنك تكره فى نفسك الأئمة، أنا فلم يعد  
لى من مبرر لكراهيتك، بل أنت اليوم عزائى وتسليتى، ولا تنس أننا جيران، وأول من سكن هذا الخلاء من الأحياء، وسيدب  
عليه أولادنا جنباً إلى جنب.

إنك تتلذذ بتعديى

فصمت إدريس ملياً حتى مى أدهم نفسه بالخلاص، ولكنه عاد يسأل بلهجة جدية  
لماذا لا تتفق؟

فقال أدهم وهو يتنهد

-لأننى بياع على قد حالى وأنت رجل هوايتك الضرب والاعتداء.

وعاد صراخ أميمة يعلو ويشدد فرفع أدهم رأسه متوسلاً، فأدرك من توه أن آثافة الظلام قد خفت، وأن الفجر تسلق الجبل،  
وهتف أدهم:

ما ألعن الألم!

فقال إدريس ضاحكا

ما أجمل الرقة، خلقت لإدارة الوقف والنفخ في الناء- .

اسخر ما شئت ، إنى متالم-!

لماذا ؟ حسبت امرأتك هى المتلأمة

فصاح أدهم من فرط جزعه

دعنى وشأنى

فتساءل الآخر فى هدوء مغيظ

أتريد أن تصير أبا بلا ثمن ؟

فلزم أدهم الصمت وهو ينفخ فقال إدريس متعاطفا

-أنت حكيم، وقد جئت أعرض عليك عملا تستعين به على إسعاد المخلوقات القادمة ، إن هذا الذى نسمع مقدمات

تشريفة الأول وليس الأخير، فإن شهواتنا لا تقنع إلا بأن تبني فوقنا تلاً من الذرية الصاخبة، ما رأيك؟

-الضياء يلوح فاذهب لتستوفى نومك.

وتعالى الصراخ، متتابعاً متواصلاً حتى ضاق أدهم بموقفه فرجع إلى الكوخ الذى شق عنه الظلام، وبلغه وأمية ترسل تنهدة

عميقة مثل ختام أغنية حزينة اقترب من باب الكوخ وهو يتساءل:

-آيف الحال عندآم ؟

فجاءة صوت الداية وهو يقول " : انتظر " ، تحفز قلبه للارتياح عندما خيل إليه أن الصوت يوحى بالظفر، ومالبت أن

لاحت المرأة

فى الباب وهى تقول:

-رزقت بذآرين.

توامين ؟-.

فليرزقك الله برزقهما

وصحت أذنيه ضحكة إدريس من وراء ظهره وسمعه يقول

إدريس الآن أب لأننى وعم لذآرين

ومضى نحو آوخته وهو يعنى " : البخت والقسمة فىن يادى الزمان قلبى " وعادت الداية تقول

ترغب الأم فى أن يسميا قدرى وهمام- .

فراح أدهم يغمغم وقد استخفه السرور  
-قدرى وهمام ، قدرى وهمام.

13

قال قدرى وهى يجفف وجهه بذيل جلبابه:

فنجلس لتناول طعامنا- . .

فقال همام وهو ينظر نحو الشمس المائلة للغروب

نعم سرقنا الوقت

تربعا على الرمال تحت سفح المقطم، وحل همام عقدة المنديل الأحمر المخطط فكشف عن خبز وطعمية وآرات، وراحا  
يألان وينظران بين حين وآخر نحو أغامهما، التى هام بعضها على وجهه، وقعد البعض ليحتر فى راحة وسلام، لم يكن ثمة  
ما يميز بين الشقيقتين فى الملامح والقسمات، غير أن نظرة الصائد المتجلية فى عيني قدرى أضفت على سحنته حدة  
ميزته بطابع خاص، وعاد قدرى يقول وهو يطحن الطعام المحتشد فى فيه:

لو آن هذا الخلاء لنا دون شريك لرعينا اغنامنا مرتاحى البال

فقال هماما باسما

ولكن هذا الخلاء مقصد الرعاة من العطوف وآفر الزغارى والحسينية، ومن الممكن ان نصادقهم فنتقى شرهم

فضحك قدرى ضحكة هازئة انطلقت من فيه مع فتات من طعامه وقال

-هذه الحوارى عندها جواب واحد لمن ينشد صداقتها هو الصفعات . لكن..

جلبابه وانطحه فى جبينه فينقلب على وجهه أو-.

على قفاه

لا لكن يا ابن إبي ، أنى أعرف طريقة واحدة، وهى أن اجذب الرجل من

-لذلك لا نكاد نحصى أعداءنا.

-ومن آلفك بإحصائهم؟

وتابع همام جديا أو غل فى الابتعاد فراح يصفر له حتى توقف وادار عائدا فى صمت الحكيم وانتقى عوداً من الكرات ومسحه

باصابعه فدفعه فى فيه متلذذاً ، ثم قال وهو يتمطق:

-ولذلك تجدنا وحدنا ، ويمضى الوقت الطويل دون أن نتكلم.



وما حاجتك إلى الكلام وأنت تغنى طوال الوقت؟

فنظر همام إليه بثقة وقال

يخيل إلى أنك تضيق بهذه الوحدة أحياناً.

ساجد دائماً عدلاً للضيق، الوحدة أو غيرها

وساد صمت وضح فيه التمتع، ولاحت عن بعد جماعة عائدة من الجبل نحو العطوف، تسير على غناء ، منشد آلخادى

والآخرون يرددون فقال همام:

هذه الناحية من الخلاء امتداد لحينا، ولو ذهبنا شمالاً أو جنوباً، فأغلب الظن أن لن نعود

فضحك قدرى ضحكة مجلجلة وقال

لن تجد واحداً يجرؤ على منازلتي

فقال همام وهو ينظر نحو الأغنام

سنجد في الشمال وفي الجنوب أناساً يودون قتلى، ولكن

-لا يمكن إنكار شجاعتك، ولكن لا تنس أننا نعيش بفضل اسم جدنا وسمعة عمنا المخفية رغم ما بيننا وبينه من خصام.

لم يجهر بمعارضة واتجه بصره نحو البيت الكبير الذى لاح عن بعد في الغروب

هيكلاً ضخماً مطموس المعال، وقال

فعد قدرى ما بين حاجبيه احتجاجاً ، ولكنه

هذا البيت ! لم أشهد له مثيلاً، في خلاء بكتنفه من جميع النواحي ، وعلى مقربة من حوار وأزقة اشتهرت بالجبروت-!

والمشآسة ، صاحبه جبار بلا جدال، هذا الجد الذى لم ير أحفاده وهم على بعد ازرع منه

فاتجه بصر همام ناحية البيت، ثم قال:

إن إباناً لا يذآره إلا مصحوباً بالاجلال والآبار- .

وعمنا لا يذآره إلا مصحوباً باللعنات

فقال همام باشفاق

-هو جدنا على أى حال.

وما جدوى ذلك يا غلام؟ إن إباناً يكدح وراء عربته، وأما تكد طوال النهار وشطراً من الليل، ونحن نعاشر الأغنام حفاة

شبه- .

عراة، أما هو فقابع وراء الأسوار، بلا قلب، متمتع بنعيم لا يخطر على بال

فرغا من الطعام ، نفض همام المنديل ولفه ثم دسه في جيبيه، واستلقى على ظهره متوسداً ذراعيه، مرسلًا ناظره إلى

السماة الصافية، وهى تفطر هدوء المغيب، والحدای تولى فى الآفاق، ونهض قدرى فانتحى جانبا لبيول، وقال:

يقول أبونا إنه آن يخرج آثراً فى الماضى فيمر بهم فى ذهابه وإيابه، أما اليوم فلا يراه أحد، وآئنا يخاف على نفسه

قال همام بنبرات حاملة

-آم تمنيت أن أراه.

أوبعمنا، أو بكليهما معا، إني أعجب لوالدى آيف لا يذآره إلا بالإجلال-.

رغم ما ناله على يديه

لا تحلم بأن ترى شيئاً حارقاً، ستجده شيئاً بأينا

الظاهر أنه آن شديد التعلق به ، أو أنه امن بعدالة ما نزل به من عقاب-! .

أو أنه مازال يطمع فى عفوه-.

أنك لاتفهم أبانا، إنه رجل ودود العشر

عاد قدرى إلى مجلسه وهو يقول

إنه لا يعجبني، وأنت لا تعجبني ، أوآد لك أن جدنا شخص شاذ لا يستحق الاحترام، ولو آانت به ذرة من خير ما جفا-.

لحمه هذا الجفاء الغريب، إني أراه أما يراه عمنا لعنة من لعنات الدهر

فقال همام باسمًا:

تتباهى به أنت ، أعنى القوة والبطش

فقال قدرى بجدة

لعل أرذل ما فيه هو ما

لقد نال هذه الأرض هبه بلا عناء ثم طغى واستكبر.

لا تنكر ما أعترفت به منذ قليل أن الوالى نفسه لم يكن بوسعه أن يعيش وحده فى مثالا هذا الخلاء

وهل تجد فى الحكاية التى رويت لنا مسوغا حقا لغضبه على والدينا؟-!

إنك تجد أهون منها سبباً آفياً للبطش بالناس

تناول قدرى الكوز ومضى يشرب حتى روى، ثم تجشأ وقال

ما ذنب الأحفاد ؟ أنه لايدرى ما رعى الغنم، سحقا له، أود لو أعرف وصيته، وماذا أعد لنا؟

فتنهذ همام وقال بصوت حالم

ثروة تريح من العناء، آى يفرغ المرء لقلبه، ويمضى العمر فى يسر وطرب.

أنك تردد قول أبينا نشقى فى التراب والطين ونحلم بالناى فى ظل حديقة غناء، الحق أقول إني أعجب بعمى آآثر من-.

أبي

فجلس همام وهو يتشاءب ثم نهض يتمطى، وقال:

على أى حال صرنا شيئاً ، لنا مأوى يسعنا ورزق يحفظ علينا الحياة ، وأغنام نرعهاها، نبيع لبنها ونسمنها لنبيعها أيضاً،  
ومن-.

شعرها تغزل أمنا الكساء

-والناى والحديقة ؟

فلم يجب، واتجه نحو الأغنام بعد أن تناول عصاه الملقاه عند قدميه، ووقف قدرى، وصاح موجهًا خطابه إلى البيت الكبير فى  
عبث:

أسمحت بأن نرثك أم ستعاقبنا فى موتك أما عاقبتنا فى حياتك؟-.

أجب يا جبلاوى

وردد الصدى " : أجب يا جبلاوى."

## 14

ورأيا عن بعد شخصاً يتجه نحوهما لم تضح معالمه، ومضى القادم يقترب رويداً حتى تبيناه، فأنتصبت قامة قدرى بجرأة  
تلقائية وشعت عيناه الجميلتان بنور ابتهاج . ولحظ همام أخاه باسمًا ، ثم نظر إلى الأغنام فى غير مبالاة وهمس بلهجة  
تنبيه:

الظلام غير بعيد

فهتف قدرى باستهانة

-فليأت الفجر إذا شاء.

وخطا خطوات نحو الأمام ملوحًا بذراعيه فى ترحاب للفتاة، وأخذت تدنو من موقفها، مجهدة من المشى، لطول المسافة من  
ناحية ومقاومة الرمال لشبشبها من ناحية أخرى، متطلعة نحوهما يبصر لامع يعكس مع فتنة العينين الخضرواين جرأة،  
وبدت ملتفة بملاءمها اللف حتى الكتفين، مطلقة الرأس والعنق عاريين فعبث الهواء بصفيرتها، وارتفع صوت قدرى بسرور  
مسح عن وجهه امارت الحدة:

أهلاً بئند

فأجابت بصوت رقيق

أه بك ) ثم مخاطبة همام ( مساء الخير يا ابن عمى  
فقال همام باسماء

-مساء الخير يا بنت العم، آيف حالك ؟

وتناول قدرى يدها وسار بها نحو الصخرة الكبيرة القائمة على بعد امتار من موقفهما، ودار حول الصخرة حتى ضلعتها  
المواجهة للجبل فصارا فى منعزل عن الخلاء ومن فيه . وجذبها نحوه فأحاطها بذراعيه ثم قبل ثغرها قبلة طويلة حتى  
تماست ثناياها وغابت الفتاة فى لحظة استسلام مذهلة، واستطاعت أن تتخلص من ذراعيه، وأن تقف مضطربة الأنفاس  
فتحكم لف ملاءتها، وتتلقى نظرتة المهاجمة بنظرة باسماء، ولكن الابتسامة اختفت آنما لحاظرة خطرت، وتقوست  
الشفتان فى تبرم ثم قالت:

جئت بعد معرأة، أف هذه الحياة لا تطاق

فقطب قدرى لا درآه ما تعنى وقال بحدة

-لا تبالى بشئ ، أننا أبناء الحمق، أبى الطيب رجل غيى ، وأبوك الشرس لا يقل عنه غباء، أنهما يودان أن يورثانا الكراهية،  
فيا للغباء ! خبرينى آيف تيسر لك الجئى؟  
فنفخت وقالت:

-مضى اليوم آليام السابقة فى نقار متواصل بين أبى وأمى، وصفعها مرة او مرتين فصرخت تلغنه وصبت غضبها على قلة  
فحطمتها ، ولكن غضبها اليوم وقف عند هذا الحد، إنها آثيراً ما تمسك بخناقته متحدية لطماته، وتدعو عليه إذا غلبت على  
أمرها، أما إذا غلبته الخمر فلا سلامة غلا البعد عن وجهه . آثيراً ما أشعر برغبة فى الهرب، وبكراهية شديدة لهذه الحياة،  
ولكنى أروح عن نفسى بالبكاء حتى تؤلى عيناى، ما علينا، انتظرت حتى ارتدى ثيابه وذهب فتناولت الملاءة ولكن أمى  
تعرضت لى تحاول منعى آلعادة، ولكنى تخلصت منها ومضيت إلى الخارج.

فتناول قدرى يدها بين يديه وتساءل:

ألا تخمن أين تذهبين؟

- لا أظن ، لايهمنى، إنها على أى حال لا تجرؤ على إخبار أبى فضحك قدرى ضحكة مقتضية وسألها  
ماذا تظنينه يفعل لو عرف ؟

فرددت ضحكته فى حيرة ولكنها قالت

يبالى أن يقول إننى-.

أعلى شئ فى دنياه، ولعل هذا هو أصل متاعى

إنى لا احشاه رغم شدته، بل أقول لك إنى أحبه، وهو يجبنى فى سذاجة لا تتفق وحدة طبعه، ولا

جلس قدرى على الأرض أسفل الصخرة ودعاها إلى الجلوس بأن ربت الموضع جانبه، فجلست وهي تتخفف من حبكة الملاءة، ومال نحوها فلثم خدها . ثم قال:

يبدو أن غزو أبي أيسر من غزو أبيك، ومع ذلك فشد ما يبدو فظا إذا جاء ذآر لأبيك ، أنه ينكر عليه صفات ضحكت قائلة وهي تذآر ما تردده عن ذآره

بنى آدم ! آذلك ينكر أبى عليه

فحدجها بنظرة استنكار فقالت

أبوك ينكر على أبى فظاظته، وأبى ينكر على أبىك طبيته، والمهم أنهما لم يتفقا على شئ

فدنت عن رأس قدرى حراة أنما ينطح الهواء، وقال بتحد

لكننا سنفعل ما نشاء

فقالت هند وهي تنظر نحوه بعطف واشفاق

-أبى يستطيع أن يفعل ما يشاء آذلك!

وأنا قادر على أشياء آثيرة، ماذا يريد لك هذا العم السكير؟

فضحكت على رغمها، وقالت بلهجة تشى الاحتجاج والمداعبة معا

تكلم عن أبى بأدب

وواصلت الكلام وهي تقرصه فى أذنه

طالما ساءلت نفسى عما يريد لى، فخييل إلى أحيانا أنه يكره أن يزوجنى من أحد

فحملق فيها منكرآ فعاتت تقول

رأيته مرة يرمى بيت جدنا بنظرة غاضبة ويقول " : إذا آآن قد رضى لأبنائه وأحفاده الهوان فهل يرضى به لحفيدته؟ لا مكان

لائق بمنذ إلا هذا البيت المغلق . " ومرة قال لأمى إن فتوة آفر الزغارى يرغب فى الزواج منى ففرحت أمى فصاح بها حانقآ

"يا وضيعة .. يا خسيسة، من يكون فتوة آفر الزغارى هذا؟ " أن آحقر خادم فى البيت الكبير أشرف منه وانظف، فسألته

أمى فى حسرة : فمن تراه الجدير بها؟ فصاح " علم ذلك عند الطاغية المتوارى خلف أسوار بيته، أهما حفيدته، وليس فى

الأرض من هو أهل لها ! أريد لها زوجا مثلى أنا . فقالت أمى على رغمها : أتريدها أن تكون تعيسة مثل أمها؟ فهجم عليها

آلوحش وراح يراؤها بشدة حتى جرت خارج الكوخ.

هذا هو الجنون بعينه- . .

إنه يكره جدنا ، ويلعنه آما ذآره، لكنه فى أعماقه يتيه إذلالا بأبوته

فكور قدرى قبضته وجعل يضرب بها فخده ويقول

لعلنا آنا نكون أسعد حالاً لو لم يكن ذلك الرجل جداً لنا، فقالت بمرارة-: .  
لعلنا-.

فجذبها إلى صدره بشدة تناسب الحدة في قوله وضمها إليه بقوة  
واستبقاها هكذا بين يديه ريشما ترم فترة الانتقال بين الشواغل المتعبة وبين الهيام الموعود، وقال:  
-اعطيني فالك.

عند ذاك تراجع همام من موقفه عند الصخرة ، واتجه بخفة نحو الأغنام وهو يبتسم في حياء وأسى ، خيل إليه أن الهواء  
يشمل بأنفاس الحب، وأن الحب ينذر بالمآسى، لكنه قال لنفسه " : صفا وجهه ورق، لا يرى على هذا الحال إلا خلف  
الصخرة،

فمن لنا بقوة هذا الحب السحرية لتزيل متاعبنا؟ " هنا السماء تشجب في استسلام، وانفاس المغرب تتردد في خمول  
والسحرة تزحف آنعمة وداع وانبه، وهناك تيس يثب على عترة، وعاد همام يحدث نفسه " : ستفرح أمى يوم تلد هذه  
العترة، ولكن ميلاد إنسان قد يجي بالكوارث، فوق رؤسنا لعنة من قبل أن نولد، وأعجب عداوة هى التى لا تجد لها من مبر  
إلا أنها بين أخوين، إلى متى نعاني من هذه الكراهية، لو نُسى الماضى لابتهج الحاضر، ولكننا سنظل نتطلع إلى هذا البيت  
الذى لا عزة لنا إلا به ولا تعاسة إلا بسبب منه، وعلقت عيناه بالتيس فابتسم ومضى يدور حول الغنم وهو يصفر ويلوح  
بعصاه، وحانت منه التفاتة نحو الصخرة الكبيرة الصامته فبدت في وقفها أنها لا تبالى شيئاً في الوجود.

## 15

استيقظت أميمة أعادتها عندما لم يبق في السماء إلا نجمة واحدة ونادت أدهم حتى استيقظ متاوها، ونهض الرجل فغادر  
غرفته مثقلا بالنعاس إلى غرفة خارجية متصلة بها حيث ينام قدرى وهمام فأيقظتهما، وبدا الكوخ في مظهره الجديد ناميا  
ممتداً أنه بيت صغير، وأحاط به سور ضم غليه فراغا خلفيا لإيواء الأغنام وانتشرت على السور أفرغ اللباب فلطفت من  
جفاء منظره، ودلت على أن أميمة لم تياس بعد من تحقيق حلمها القديم بأن تهذب ما استطاعت آوخها على مثال البيت  
الكبير، واجتمع الرجال في الفناء حول صفيحة مملوءة بالماء، فغسلوا وجوههم، وارتدوا جلابيب العمل، وحمل الهواء من  
داخل الكوخ رائحة احتراق خشب، وبكاء الأخوة الصغار ، وأخيراً جلسوا حول الطبلية أمام مدخل الكوخ يألون من حلة  
فول

مدمس، وآان جو الخريف رطيبا مائلا للبرودة في هذه الساعة المبكرة ولكنه لاقى أجساما قوية صمدت حيال نزواته، وعن  
بعد بدا آوخ إدريس وقد آبر وامتد آذلك، أما البيت الكبير فقام في صمت منطويا على ذاته آانما لا يربطه سبب فهذا العالم

الخارجى ، وجاءت أميمة تحمل آوزين لبن محلوب لتوه فوضعتة على الطبلية وجلست، وعند ذاك سأها قدرى بسخرية:  
لماذا لا تبيعن اللبن إلى بيت جدنا الموقر ؟

فالتفت إليه أدهم برأسه الذى وخط المشيب فوديه وقال

آل وأنت سآآت، السكوت غاية ما نرجو عندك من خير، وقالت أميمة وهى تطحن ما فى فيها- . :  
آن لنا أن نخلل الليمون والزيتون والفلفل الأخضر، أنت ياقدرى تبتهج فى أيام التخليل وتشارك فى حشو الليمون  
فقال قدرى بمرارة

آنا نبتهج ونحن صغار حتى بلا سبب- . .

فسأله أدهم وهو يعيد الكوز إلى موضعه

وماذا يشقيك اليوم يا أبو زيد الهلالي ؟

فضحك قدرى ولم يجب أما همام فقال

يوم السوق قريب، ينبغى أن نفرز الأغنام

فهزة الأم رأسها بالإيجاب على حين وجه الأب خطابه إلى قدرى قائلا

يا قدرى لا تكن فظا، لا أقابل شخصا يعرفك إلا شكاك إلى، أخشى أن تعيد سيرة عمك فى هذه الحياة-! .

أوسيرة جدى

فاتقدت عينا أدهم استياء ، وقال:

لا تذار جدك بسوء، هل سمعتنى أفعل ذلك؟ ثم أنه لم يسئ إليك

فقال قدرى باستنكار

أساء إلينا ما دام أساء إليك- . .

اسكت ، نقطنا بسكوتك- .

بسببه آتبت علينا هذه الحياة، وهى أيضا مصير بنت عمنا

فقال أدهم فى عبوس

مالنا وماها ، أبوها علة الكارثة

فهتف قدرى

أعنى أنه ما آن يصح أن تنشأ نساء من دمنا فى الخلاء، والعراء، ثم خبرنى أى رجل ستتزوج هذه الفتاة؟

ليكن الشيطان نفسه، لا شأن لنا بها، لا شك أهما مفترسة مثل ابيها- . .

ونظر نحو زوجه آأما ينشد تأييدا فآالت أميمة

نعم ، مثل أبيها

فبصق أدهم قائلاً

ملعونة هي وأبوها!

فتساءل همام

ألا يفسد هذا الحديث علينا طعامنا؟-

فقال أميمة برقة

لا تبالغ، إن أسعد الأوقات وقت اجتماعنا

هنا ترامى إليهم صوت إدريس ألهدير وهو يلعن ويسب ، فقال أدهم بتقزز

-بدأت صلاة الصبح.

وتناول آخر لقمة ونهض، ثم اتجه نحو عربته وراح يدفعها أمامه وهو يقول : ترأتكم بعافية فردوا عليه / مع السلامة . ومضى

الرجل مبتعداً صوب الجمالية، وقام همام فمضى نحو الحظيرة من ممشى جانبي، وما لبث أن تعالى ثغاء الأغنام ووقع

أظلافها فملأت الممشى في طريقها إلى الخارج ونهض قدرى آذلك فتناول عصاه ولوح لأمه موداً ولحق باخيه . وعندما

اقتربا من آوخ إدريس تصدى لهما فتساءل ساخراً:

بكم الرأس يا جدع؟

فحدجه قدرى بنظرة حب استطلاع على حين تجنب همام النظر إليه وعاد إدريس يتساءل في إنكار

ألا يتفضل أحدآم بالجواب ا ابني بياع الخيار؟

فقال قدرى بحدة

إذا أردت الشراء فاذهب إلى السوق

فتساءل إدريس مقهقها

وإذا قررت الاستيلاء على إحداها؟

وجاء صوت هند من الداخل وهي تقول

أبي ، لا نريد فضائح

فأجابها مداعباً

اهتمى بشأنك أنت، ودعيني لسلالة الحوارى!

فقال همام

نحن لا نتعرض لك فلا تتعرض لنا- . .



أن تكون بين الأغنام لا وراءها

فقال همام محتدًا

أه صوت أدهم ، آان ينبغى

أمرنا أبى بألا نجيب على تحرشك بنا

فقهقه إدريس عاليا وقال

جزاه الله آل الخير، لولا أمره هذا لكنت فى الهالكين ) ! ثم بلهجه خشنة . ( إنكما تعيشان عزيزين بفضل اسمى، لعنة الله- .

عليكم جميعا غورا من وجهى

وواصل سيرهما وهما يلوحان من حين إلى حين بعصويهما، وليث همام ممتقع اللون من الانفعال فقال لقدرى:

هذا الرجل مقيت، ما أقدره، حتى فى هذه الساعة المبكرة تنفث أنفاسه رائحة الخمر

فقال قدرى وهما يوغان وراء الأغنام فى الخلاء

أنه يتكلم آثيرا، ولكنه لم يمد لنا يدا بأذى

فقال همام محتجا

بل استولى آآر من مرة على بعض أغنامنا- .

-إنه سكير، وهو للأسف عمنا، لا مهرب من الاقرار بذلك

وساد الصمت قليلا وهما يتجهان نحو الصخرة الكبيرة، وفى السماء سحب متفرقة، والشمس ترسل أشعتها فتغمر الرمال

الترامية ، وضاق همام بكتمان ما يود قوله فقال:

ستخطئ خطأ آبيرًا إذا وصلت أسبابك بأسبابه

فاشتعلت عينا قدرى بنظرة غاضبة وهتف

لا تحاول نصحى ، حسى أبوك.

فقال همام وهو لم يفق بعد من إهانات إدريس:

حياتنا موفورة المتاعب فلا تزدها

فصاح قدرى

فلتسحقكم المتاعب التى تخلقونها بأنفسكم، أما أنا فأفعل ما أشاء

وآن قد بلغا الموضوع الذى يسرحان عنده الغنام فالتفت همام نحو أخيه وتساءل

أتظن أنك ناج من عواقب أفعالك ؟

فقبض قدرى على منكبه بقبضته وصاح

- ما أنت إلا حسود.

فدهش همام . دهمه قول أخيه الذى لم يتوقعه، ولكنه آن متعوداً من ناحية أخرى على مفاجأته ومفرقاته، ورفع يده عن منكبه وهو يقول:

اللهم أحفظنا

فتشيك قدرى يديه على صدره وهو يهز رأسه ساخرًا فقال همام

خير ما أفعل أن أترآك لنفسك حتى تندم، لن تقر بخطأ، ولن تقر به إلا بعد فوات الفرصة- .  
وأولاه ظهره متجهًا نحو جانب الصخرة الظليل، ووقف قدرى مكفهر الوجه تحت الأشعة الحامية

## 16

جلست أسرة أدهم أمام الكوخ تتناول عشاءها فى ضوء النجوم الخافت، وإذا بحدث يقع لم يشهد له الخلاء مثيلاً مذ طرد أدهم، فتح باب البيت الكبير وخرج منه شبح حاملاً مصباحاً، وتطلعت العين إلى المصباح فى دهشة انعقدت لها الألسنة، وتابعته وهو يتحرك فى الظلام آكواب أرضى، وعندما توسط المسافة بين البيت والكوخ ترازت الأبصار على الشبح لتبينه على ضوء المصباح المنعكس حتى همس أدهم " : هذا عم آريم بواب البيت " ، وتضاعفت الدهشة عندما أيفنوا من أنه يقصدهم فوقفوا جميعاً، بعضهم اللقمة فى يده والبعض اللقمة فى فيه بلا حراك، وبلغ الرجل موقفهم فوقف رافعا يده وهو يقول:

- مساء الخير يا سيدى أدهم.

ارتجف أدهم لدى سماعه الصوت الذى انقطع عنه منذ عشرين عاماً، فدعا من أعماق ذاآرته نبرات الأب العميقة وشذا الياسمين والحناء وحنينا وأشجانا فمادت به الأرض وقال وهو يقاوم دموعه.

مساء الخير يا عم آريم

فقال الرجل بتأثر غير جاف

لعلك أنت وأهلك بخير- . .

الحمد لله يا عم آريم

فقال الرجل برقة

أود أن أعرب لك عما بنفسى ولكنى آلفت فقط بأن أبلغك بأن سيدى الكبير يدعو أبناك همام إلى مقابلته فوراً  
وساد الصمت، فتبادلوا النظرات ، ولتفهم الحيرة ، وإذا بصوت يتساءل

-همام وحده؟

التفتوا ساخطين نحو إدريس الذى بدا عن آتب وهو يصغى غير أن عم آريم لم يجن ورفع يده تحية ورجع صوب البيت الكبير  
تارآا الجميع فى ظام، وتغيط إدريس منه فصاح به:

اترآنى بلا جواب يا ابن اللثيمة؟

وأفاق قدرى من ذهوله فتساءل غاضبا

ولماذا همام وحده؟

فردد إدريس تساؤله

نعم لماذا همام وحده

فقال له أدهم، ولعله وجد فى مخاطبته متنفسا عن أزمته

عد إلى آوخك ودعنا فى سلام- . .

سلام؟ إنى أقف حيث آشاء

وتطلع همام إلى البيت الكبير صامتا، وقلبه يخفق بشدة خيل إليه معها أن المقطم يردد صداه، وقال له أبوه بتسليم

اذهب يا همام إلى جدك مصحوبا بالسلامة

فالتفت قدرى إلى أبيه يسأله بجدة وتحد

وأنا؟ أأست أبناك مثله؟- .

لوم على فلست أنا الداعى

فقال إدريس محتجا

لا تتكلم آما يتكلم إدريس يا قدرى، إناك ابنا مثله بلا أدنا ريب، ولا

لكن بوسعا أن تمنع تمييز آخ عن آخيه- . .

هذا شأن لا يعناك ) ثم مخاطبا همام ( يجب أن تذهب وسىأتى دور قدرى، إنا واثق من ذلك

فقال إدريس وهو يهم بالذهاب

إننا أب ظالم مثل أبناك، مسكنا قدرى، لماذا يعاقب دون ذنبا؟ لكن اللعنة تنزل أول ما تنزل فى أسرتنا بالمتازنا، آلا-!

لعنة الله على هذه الأسرة الجنونة

ومضى فابتعلته الظلمة، وعند ذاك هتف قدرى:

إننا تظلمنا يا أبنا- . .

لا تُعد أقواله، تعال يا قدرى، واذهب يا همام

فقال همام بخرج:

وددت لو آآن معى أأى- . .

سلىأق بك

فصأق قدرى بأأق

أى أألم هذا ! لماذا أأره على؟ إنه لم يعرفه آأما لم يعرفنى فلماذا بأأأه بالدعاء؟

فدفعه أدهم همام قأألا

أذهب

فسار همام، وهمست أميمة

أأفظك العناىة

وأأأأنت قدرى بأآىة ولكنه أأألس من ذراعىها ومضى فى أأر أأىه فصأق به أدهم

عد يا قدرى ولا أأامر بمسأأبك

فقال قدرى بأأب

-لن أأرجعنى قوة على الأرض.

وعلا صوت أميمة بالبكاء، وبكى الصغار فى الأأأل، وأوسع قدرى أأأاه أأى لأأق بأأىه، وعلى أأب منه فى الأألام رأى

أأب إدرىس سىسر ممسكا بىد هند، ولما بلأوا باب البىأ دفع إدرىس قدرى إلى سىسر همام وهند إلى بىمىنه وأأراجع

أأأوات وهو بىصىأ:

أأأ يا عم أأرىم ، أأاء الأأفاد للقاء أأهم

وأأأ الباب وأأهر على عأأته عم آرىم وبىده المصباح، وقال بأأب

فلىأأفضل سىدى همام بالأأأول

هأأ إدرىس

مأأ بأآىة

فقال عم آرىم بأأب

وهذا أأأوه قدرى، وهذه هند وهى صورة مكررة من أمى أأى

أأأ أأعلم يا سىدى إدرىس أنه لا بىأأل هذا البىأ إلا من بؤذن له

وأأشار إلى همام فأأأل، وأأعه قدرى أأأأاً بىد هند ولكن علا صوت من الأأىقة عرفه إدرىس وهو بىقول بصرامة

أذهبأ بعارأما أىها الملوأان

تسمرت أقدامهما ، وأغلق الباب، وانقض إدريس عليهما فقبض على منكبيهما بقبضته وتساءل بصوت متهدج من الغضب  
-أى عار يعنى؟

وصرخت هند ألما، على حين تحول قدرى فجأة نحو إدريس ورفع يديه عنه وعن هند، فأفلتت هند وولت هاربة فى الظلام ،  
وتراجع إدريس بخفة إلى الورا ثم وجه إلى قدرى لكمة فتحملها الشاب رغم قوتها ووجه إليه لكمة أشد، واندفعا يتبادلان  
الضرب والرآل بقسوة ووحشية تحت سور البيت الكبير، وصاح إدريس:

سأقتلك يا ابن العاهرة

فصاح قدرى

سأقتلك قبل أن تقتلنى

وتبادلا الضربات حتى سال الدم من فم قدرى وأنفه، وجاء أدهم جريا آلمجنون وصاح بأعلى صوته

اترك ابنى يا إدريس- . .

فصاح إدريس بحقد

سأقتله بجرمته- . .

لن أدعك تقتله، ولن أدعك تعيش أن قتلته

وجاءت أم هند مولولة وهى تصيح

فرت هند يا إدريس ، أدرآها قبل أن تختفى

ورمى أدهم بنفسه بين إدريس وقدرى وصاح بأخيه

قبل أن تختفى

وجذب قدرى إليه، ورجع به مسرعا وهو يقول

أفق، إنك تقا تل بلا سبب، بنتك طاهرة لم تمس لكنك أرعبتها ففرت، أدرآها

اسرع ، ترآت أمك فى حالة اغماء- . .

أما إدريس فانطلق فى الظلام وهو يصرخ بأعلى صوته : هند .. هند

17

تبع همام عم آريم فاجتاز المشى تحت عريشة الياسمين متجهين نحو السلامك .. بدا الليل فى الحديقة شيئا جديدا،  
لطيفا رطبا مترعا بنشوات الأزهار والرياحين فانسكب بروعته فى أعماق روحه، وامتأ الشاب بشعور جلال وافتتان ، وحين

مودة عميقة للمكان، وبأنه مقبل على أجل لحظات عمره، وتراءت لعينه أنوار وراء شيش بعض النوافذ، ونور قوى ينبعث من باب البهو فارشا على أرض الحديدية تحت شكلاً هندسياً فخفق قلبه وهو يتخيل الحياة خلف النوافذ وفي الأبهاء، آيف تكون ومن يجيها ، وزاد قلبه خفقانا حينما تمثلت لحاظه هذه الحقيقة العجيبة وهي أنه مخلوق من سلالة هذا البيت ونطفة من هذه الحياة، وأنه جاء ليلقاها وجها لوجه في جلاباب أزرق بسيط وطاقيه باهتة، منتعلا أديم الأرض، ورقيا في سلم السلامك، فمالا إلى جناح الشرفة الأيمن نحو باب صغير فتح على سلم فصعدا في صمت لاينم عن حياة حتى بلغا ردهة طويلة مضاعة بمصباح يتدلى من سقف مزارش، واتجها نحو باب آبير مغلق يتوسط الردهة، وقال همام لنفسه في تأثر بالغ : في موضع من هذه الردهة، لعله هذا الموقع عند رأس السلم، وقفت أمت منذ عشرين عاما لتراقب الطرية أية ذآرى تعيسة ! ونقر عم آريم على الباب الكبير مستأذنا للقادم، ثم دفعه برقة وتنحى لهمام جانبا وهو يشير له بالدخول، ودخل الشاب في أناة وأدب ورهبة، فلم يسمع صوت الباب وهو يغلق وراه، ولم يشعر إلا شعورا غامضا بالنور المضئ في السقف والأرآن، أما وعيه آله فقد انجذب نحو الصدارة حيث تربع الرجل على ديوان، لم يكن رأى جده من قبل، ولكنه لم يشك في هوية الجالس أمامه، فمن يكون هذا الهائل إن لم يكن جده الذى سمع عنه الأعاجيب؟ واقترب من مجلسه وهو يتلقى من عينيه الكبيرتين نظرة استلت من ذآرته جميع ما فيها، ولكنها بثت في قلبه في الوقت نفسه طمأنينة وسلاماً. وانحى حتى آادت تمس جبهته طرف الديوان، ومد يده، فأعطاه الآخر يده، فلمها من الأعماق، وقال بشجاعة غير متوقعة:

مساء الخير يا جدى

فجاءه الجواب من صوت جهورى لم يخل من أنغام رحمة

أهلا بك يا بنى ، اجلس

واتجه الشاب نحو مقعد إلى يمين الديوان وجلس على حافته فقال الجبلاوى

-خذ راحتك في مجلسك.

فتزحزح همام إلى الداخل وقلبه يرتوى من المسرة، وتحرات شفناة بشكر مهموس ثم صاد الصمت، ولبث ينظر في نقوش

السجادة تحت قدميه، وهو يشعر بموقع النظرة المسددة نحوه أما نشعر بموقع الشمس منا دون أن نراها، وإذا بذهنه

يتجه فجأة نحو الخلوة القائمة إلى يمينه ، فلحظ بابها بخوف وآآبة، وإذا بالرجل يسأله:

ماذا تعرف عن هذا الباب ؟

فارتجفت أوصاله، وعجب آيف يرى آل شىء، وقال بخشوع

-أعرف أنه فاتحة مآساتنا.

وماذا ظننت بجدى لدى سماعك الحكاية ؟

وفتح فاه ليتكلم فبادره الرجل  
أصدقنى القول- . .

فأثرت به اللهجة إلى حد أن قال فيما يشبه الصراحة  
بدا لى تصرف والدى خطأ آبيراً ، أما بدا لى عقابهما صارما شديداً  
فابتسم الجبلاوى قائلاً

هذا هو شعورك على وجه التقريب؟ إني امقت الكذب والخداع، ولذلك طردت من بيتي آل من لوث نفسه  
فاغرورقت عينا همام . فقال الجد  
بدا لى أنك شاب نظيف ، ولذلك استدعيتك  
فقال همام بصوت رطبته الدموع  
شكراً يا سيدى  
فقال الجد بمهوء

رأيت أن أعطيك فرصة لم تتح لأحد ممن فى الخارج، وهى أن تعيش فى هذا البيت، وأن تتزوج به، وأن تبدأ حياة جديدة- .  
فيه

فتتابعت دقات قلب همام فى نشوة من الأفراح ، ولبت ينتظر انعاما جديدة يستكمل بها هذا اللحن البديع آالسميع الذى  
ينتظر الجواب بعد أن طرب للقرار ، ولكن الرجل لاذ بالصمت، وتردد همام قليلاً ثم قال:  
الشكر لك- . .

إنك تستحق

واختلج نظر الشاب بين جده وبين السجادة، ثم تساءل فى اشفاق  
وأسرتى؟

فقال الجبلاوى فى عتاب

قلت ما أريد بوضوح

فقال همام باستعطاف

إنهم يستحقون رحمتك وعطفك

فتساءل الجبلاوى بشئ من البرود

ألم تسمع ما قلت؟

-... بلى ، ولكنهم أمى وأبى وأخوتى، إن أبى رجل

ألم تسمع ما قلت ؟

وشى الصوت بالضجر فغلب الصمت ، وإذا بالرجل يقول إيذانا بانتهاء الحديث  
-ارجع إليهم لتستأذن ، ثم عد.

وقام همام فلثم يد جده ومضى، وجد عم آريم ينتظر، فتحرك الرجل وتبعه الشاب في شسكون، ولما انتهى إلى  
السلاملك، رأى همام فتاة في منطقة الضوء بأول الحديقة، وقد سارعت إلى الاختفاء، غير أنه لمح منها العارض والعنق  
وقامة ممشوقة، وعاد صوت الجد يتردد في أذنيه وهو يقول : أن تعيش في هذا البيت وأن تتزوج به . بفتاة آهذه الفتاة  
وعيشة خيرها أبي ، آيف هانت عليه المقامرة . وآيف وبأى قلب تحمل الحياة بعد ذلك وراء عربة اليد؟ وهذه الفرصة  
السعيدة آأها حلم ، حلم أبي منذ عشرين عاما، ولكنى مثقل الرأس.

18

عاد همام إلى الكوخ فوجد أسرته جالسة تترقب عودته، وأحاطوا به مستطلعين وساله أدهم بلهفة:  
ماذا وراءك يابني؟

ولاحظ همام أن قدرى معصوب العين فقرب رأسه من وجهه ليتحقق من الأمر فقال لأدهم بأسى  
نشبت معرفة حامية بين أخيك وبين ذلك الرجل

وأشار بيده نحو آوخ إدريس الذى بدا غارقا في الظلمة والصمت على حين قال قدرى بغضب  
آل ذلك بسب التهمة الخبيثة الكاذبة التى قذفت بها من داخل البيت

واشار همام نحو آوخ إدريس وتساءل فى قلق  
ماذا يحدث هنالك ؟

فقال أدهم بحزن

الرجل وزوجه يبحثان عن ابنتهما الهاربة

فصاح قدرى

من المسئول عن ذلك إلا الرجل الفظ اللعين ؟

فتوسلت أميمة قائلة

اخفت من صوتك

فصاح قدرى فى حنق



ماذا تخافين؟ لا شيء إلا الطمع فى عودة لن تتحقق صدقينى إنك لن تغادرى هذا الكوخ حتى الممات  
فاحتد أدهم قائلاً

آفى هذيانا، أنت مجنون وحق خالق الكون، ألم تكن تريد أن تلحق بالفتاة الهاربة؟-  
وسألحق بها-.

اسكت، لقد ضقت بحماقاتك

وقالت أميمة بجزع

لن تطيب لنا الحياة بجوار غدريس بعد اليوم

والتفت أدهم نحو همام وسأله

قلت ماذا وراءك؟

فقال همام بصوت لا أثر للسرور فيه

دعانى جدى إلى الإقامة فى البيت الكبير

وترقب أدهم بقية للحديث فلما لم ينبس الشاب تساءل فى ياس

ونحن، ماذا قال عنا؟

فهز همام رأسه فى حزن وهمس

لا شيء

فحك قدرى ضحكة آلدغة عقرب وسأله فى سخرية

-وماذا جاء بك؟

نعم ماذا جاء بى ، لا شيء ، إلا أن السعادة لم تخلق لينعم بها أمثالى.

وقال بحزن:

لم أقصر فى تذايره بكم

فقال قدرى بحنق

شكرًا ، ولكن ماذا جعله يؤثرك علينا؟-.

أنت تعلم ألا شأن لى فى ذلك

وقال أدهم وهو يتنهد

لاشك أنك يا همام خيرنا جميعاً!

فهتف قدرى بمرارة

وأنت يا أبي الذى لم تذاره إلا بخير لا يستحقه  
فقال أدهم

أنت لا تفهم شيئاً . .

هذا الرجل أسوأ من ابنه إدريس

فتوسلت أميمة قائلة

أنت تقطع قلبى، وتغلق أبواب الأمل فى وجهك

فصاح قدرى باستهانة

لا أمل إلا فى هذا الخلاء، أدرأوا هذا وأريحوا أنفسكم، إياسوا من هذا البيت اللعين، أنا لا أخاف هذا الخلاء، حتى إدريس .-

نفسه لا أخافه، وبوسعى أن آيل له من الضربات أضعاف ما يكيل لى، أبصقوا على هذا البيت وأريحوا أنفسكم

وساءل أدهم نفسه " : أيمكن أن تمضى هذه الحياة على هذا النحو إلى الأبد؟ ولماذا ايقظت يا أبى طموحنا إليك قبل أن

ترضى العفو لنا؟ وأى شئ يمكن أن يلين قلبك إذا آن ذلك الزمن الطويل لم يلنه؟ وما جدوى المل إذا آن ذلك العذاب آله

لم يزرنا لرحمة من نحب؟ " ، وقال الرجل بصوت آلغروب:

خبرنى يا همام عما لديك

فقال همام فى حياء

قال لى اذهب فأستأذن ثم عد

وشى الظلام بمحاولة فاشلة من أميمة لكنم انتحابها، وتساءل قدرى فى خبث

وماذا يؤخرك ؟

فقال أدهم فى حزم

اذهب يا هماما مصحوبا بالسلامة والبرآات

وقال قدرى بلهجة جدية آاذبة

اذهب يا شهم ولا تلق بالا إلى أحد

فصاح أدهم

لا تمزأ بأخيك الطيب

فقال قدرى ضاحكا

إنه شرنا جميعا

فهتف همام بحدة

إذا قررت البقاء فلن يكون هذا إرأاما لك أنت  
فقال أدهم بقوة  
بل اذهب دون تردد  
وقالت اميمة خلال دموعها  
نعم .. اذهب بالسلامة  
فقال همام  
آلا يا أمى ، لن اذهب  
فتساءل أدهم  
أجنتت يا همام ؟- .  
آلا يا أبى .. الأمير يحتاج إلى تفكير ومشاورة- .  
لا حاجة بك إلى ذلك .. ولا تحملنى ذنبا جديدا  
فقال همام بعزم وهو يشير نحو آوخ إدريس  
يخيل إلى أن أحداثا ستقع  
فقال قدرى ساخرًا  
إنك أضعف من ان تدفع شرًا عن نفسك فضلا عن الآخرين  
فقال همام بازدرأء  
خير ما أفعل ان اتجاهل ما تقول  
فعاد أدهم يقول برجاء  
اذهب يا همام  
فاتجه همام نحو الكوخ وهو يقول  
- سأظل إلى جانبك .

19

لم يبق من الشمس إلا الشفق ، وانقطعت السابلة، وانفرد بالخلاء قدرى وهمام والغنام، مر النهار فلم يتبادلا طواله إلا ما تقتضيه ضرورة الشراة فى العمل، وغاب قدرى شطراً آبيراً من النهار فحمن همام أنه يتشمم أخبار هند، وليث وحده فى

ظل الصخرة على آتب من الغنام، وفجأة وفي شئ من التحدى سأل قدرى همام:

خبرني عما أنتويت من ذهابك إلى جدك او عدو لك؟

فقال همام بامتعاض

هذا شان يخصني وحدي

فاحتدم الغيظ في قلب قدرى، ولاحت بوادره في وجهه آطلائع الظلام فوق المقطم وتساءل

لماذا بقيت؟ ومتى تذهب؟ متى تجد الشجاعة لإعلان نيتك؟-

بل بقيت لأتحمل نصيبى من العناء الذى خلقتة فضائك

فضحك قدرى ضحكة آسرة وقال

هكذا تقول لتدارى حسدك!

هز همام رأسه آالمتعجب وقال

إنك تستحق الرثاء لا الحسد

فاقترب قدرى منه وأطرافه ترتجف من الحنق وقال بصوت مخنوق بالغضب

ما أبغضك حين تتظاهر بالحكمة

فحدجه همام بنظرة احتقار دون ان ينبس ، فعاد الآخر يقول

يجب أن تحجل اليحاة لانتساب أمثالك إليها

فلم يغض همام من بصره تحت النظرات المتقدة التى تنصب عليه وقال بثبات

-اعلم أننى لا أخافك.

هل وعدك البلطجى الأآبر الحماية؟-

إن الغضب يجعل منك شيئاً حقيراً تعانفه النفس

وفجأة لطمه قدرى على وجهه، لم تدهمة اللطمة فردها بأشد منها وهو يقول:

-لا تتماد في جنونك.

وانحنى قدرى بسرعة فالتقط حجراً وقذف به اخاه بكل ما اوتى منقوة، وبادر همام ليتفادى من الحجر ولكنه أصاب جبينه،

ندت عنه أمة وحمد في موقفه والغضب يشتعل في عينيه، وإذا بالغضب يختفى منهما فجأة آانه شعلة ردمت بتراب آثيف،

وإذا بفرغ قاتم يحل فيهما فبدت العينان وآأنهما تنظران إلى الداخل ، وترنح ثم أنكفأ على وجهه وتبدل قدرى حالا بعد

حال، فزايله الغضب وتراه حديداً بارداً بعد انصهار، ورآبه الخوب، ترقبه بلهفة أن ينهض النمكفى أو أن يتحرك ولكنه لم

يرحم

لهفته، وانحنى فوقه، ومد إليه يده يهزه في رفق ولكنه لم يستجب وسواه على ظهره ليخلص انفه وفاه من الرمال فاستلقى الآخر محمق العينين ولا حراك به، ورآع قدرى إلى جانبه، وراح يهزه ، ويدلك صدره ويديه، وينظر بفرع إلى الدم المتدفق بغزارة من جرحه وناداه برجاء فلم يجب . وبدا صمته آثيفا عميقا أنه جزء لا يتجزأ من آيانه آجموده الذى بدا غريبا عن الحى والجماد معاً، لا إحساس ولا انفعال ولا اهتمام بشئ، آنما ألقى إلى الأرض من مكان مهول فلم يمت إليها بسب، عرف قدرى الموت بفطرتة فراح يشد شعر رأسه فى يأس، ونظر فيما حوله خائفا، ولكن لم يكن هناك من حى إلا الأغنام والحشرات وجميعا انصرفت عنه دون آثار سينتشر الليل ويستحكم الظلام وقام بعزم، فجاء بعصاه واتجه إلى موضع بين الصخرة الكبيرة وبين الجبل، وراح يحفر الأرض ويرفع التراب بيديه، ويواصل العمل بعناد وهو يتصبب عرقا، وترتجف

منه الأوصال، وهرع نحو أخيه هزه وناداه للمرة الخيرة دون أن يتوقع جوابا، وقبض على أسفل ساقيه وجره حتى أودعه الحفرة، وألقى نظرة وهو يتنهد، وتردد مليا، ثم أهال عليه التراب، ووقف يجفف عرق وجهه بكم جلبابه، وآلما رأى بقعة دم فى الرمال غطاها بالتراب وارتمى على الأرض من شدة الإعياء، وشعر بقوته تتخلى عنه، وبرغبة فى البكاء، ولكن الدموع استعصت عليه، وقال غلبنى الموت لم يدعه ولم يقصده ولكنه يجئ أما يجلو له، ولو أنه انقلب تيسا لغاب فى الأغنام، أو ذرة من رمال لاختفى فى الأرض . مادمت لا أستطيع أن أرد الحياة فلا يجوز أن أدعى القوة أبداً، وهيهات أن تمحى تلك النظرة من رأسى ابداً، إن الذى دفتته لم يكن من الأحياء ولا من الجمادن ولكنه من صنع يدي.

## 20

عاد قدرى إلى الدار يسوق الأغنام، ولم تكن غربة أدهم بموقفهما وجاء صوت أمه من الداخل وهى تتساءل:  
لماذا تأخرتما عن موعدآما ؟

فدفع الأغنام إلى المشى المفضى إلى حظيرتها وهو يقول

غلبنى النوم، ألم يحضر همام ؟

رفعت اميمة صوتها ليعلو على أصوات الطفلين قائلة

آلا ، ألم يكن معك ؟

فازدرد ريقا جافا وقال

غادرنى منذ الظهر دون أن يخبرنى أين هو ذاهب ، فظننته رجع إلى هنا- .

فتساءل أدهم وآان قد وصل ومضى يُدخل العربية إلى الفناء

هل تشاجرتما؟

أبدًا

-أظنك أنت السبب في ذهابه، ولكن أين هو؟

خرجت أميمة إلى الفناء، على حين أغلق قدرى باب الحظيرة وراح يغسل وجهه ويديه من ماء طشتت تحت الزير لابد من مواجهة الموقف .. الدنيا تغيرت ولكن اليأس قوة، وانظم إلى والديه في الظلام وهو يجفف وجهه بطرف جلبابه ، وتساءلت أميمة:

أين ذهب همام؟ لم يغب آهذه المرة من قبل؟

فوافقها أدهم قائلاً

بلى خبرنا آيف ولماذا ذهب؟

وارتعد قلب قدرى لصورة خطرت برأسه لكنه قال

آنت جالسا في ظل الصخرة فلاحت متى التفاتة فرأيته يبتعد صوب حيننا، وهممت أن أناديه ولكنى لم أفعل

فقال أميمة في حسرة

-ليتك ناديته ولم تستسلم لزعلك.

ونظر أدهم حائراً في الظام حوله، فرأى ضوءاً خافتاً خلال آوة في آوخ إدريس دلت على أن الحياة دبت فيه من جديد، ولكنه لم يأبه لذلك، وثبت بصره على البيت الكبير وتساءل:

اتراه ذهب إلى جده؟

فقال أميمة بغنكار

لا يفعل ذلك دون إخبارنا

فقال قدرى بصوت شاحب

لعل الحياة منعه!

فسدد أدهم نحوه نظرة ارتياب منقبض الصدر لخلو صوته من السخرة والعدوان وقال

دفعناه إلى الذهاب فأبى

فقال قدرى في إعياء

-تخرج من القبول أمامنا.

ليس هذا من خلقه، وأنت مالك آلالمريض؟

فقال قدرى بحدة

حملت عبء العمل وحدى  
فهتف أدهم فى ضيق المستغيث  
الحق أقول أن قلبى غير مطمئن  
فقال أمية بصوت مبسوح  
سأذهب إلى البيت الكبير لأسأل عنه  
فهز أدهم منكبيه فى يأس وقال  
لن یرد عليك أحد، ولكنى أوآد لك انه لم يذهب  
فنفتحت أمية فى آرب وقالت  
شيئا يا رجل، فتنهد أدهم بصوت مسموع فى الظام وقال : فلنفتش عنه فى- .  
آل ناحية

رباه ، لم يضطرب هكذا قلبى من قبل، افعل  
فقال قدرى:

لعله فى الطريق إلینا  
فهتفت امية

لا ينبغى أن ننتظر

ثم مستدراة فى جزع وهى تنظر صوب آوخ إدریس  
ایكون إدریس قد صادفه فى طريقه ؟

فقال أدهم بامتعاض

غريم إدریس قدرى لا همام- ! .

إنه لا يتردد فى القضاء على أى منا، إنى ذاهبة إليه

فحال أدهم بنیها وبين الذهاب وهو يقول

-لا تزيدى أمورنا تعقيدا، أعدك إذا لم نعر عليه أن اذهب إلى إدریس وأن اذهب إلى البيت الكبير.

وحدج شبح قدرى بنظرة قلبية، ما باله واجما ؟ أليس عنده آآثر مما قال؟ وأین أنت يا همام؟

اندفعت أمیمة لتغادر الفناء، فمال أدهم نحوها وأمسك بمنكبها وإذا بباب البيت الكبير يفتح، فتطلعوا نحوه، وبعد قليل لا ح

شبح عم آريم وهو يقترب منهم فخرج إليه أدهم وهو يقول " : أهلا بك عم آريم، فحياه الرجال وقال:

سیدی الكبير يسأل عما آخر همام؟

فقالت أميمة بيأس

لا ندرى أين هو حتى ظنناه عندآم-.. .

سيدي يسأل عما أخره

فهتفت أميمة

-اعوذ بالله من أوهام قلبي.

وذهب عم آريم وأخذت أميمة تحرك رأسها في اضطراب ينذر بالانفجار، فساقها أدهم أمامه إلى حجرهما الداخلية حيث علا بكاء الصغيرين، وصاح بوحشية.

فأخنى

فوقه هامسا

لا تغادري الحجرة ، سأعود به، ولكن إياك أن تغادري الحجرة، وعاد إلى الفناء فعثر على قدرى جالسا على الأرض خبرني ماذا تعرف عن أخيك؟

فرفع رأسه نحوه بشدة ولكن شيئا منعه من الكلام فعاد الرجل يسأله

خبرني يا قدرى ماذا فعلت بأخيك ؟

فقال الشاب بصوت لا يكاد يسمع

-لا شيء.

وارتد الرجل نحو الداخل ثم رجع بمصباح فأشعله ووضع على عربته فسقط نوره على وجه قدرى فتفحصه الرجل برهة وقال:

وجهك ينذر بالشقاء

وجاء صوت أميمة من الداخل مختلطا بأصوات الطفلين ليقول آلاما لم يميزه أحد فصاح أدهم

اسكتي يا أولية، موتي إن شئت ولكن في صمت!

وعاد إلى تفحص ابنه، وبغته ارتعدت أطرافه، وأمسك بطرف آمه وقال في فزع

-دم ما هذا ؟ دم أخيك ؟

فحملق قدرى في آم جلبابه ثم انكمش بجرآة لا إرادية، وحنى رأسه في يأس، اعترف قدرى بجرآته اليائسة، فجذبه أدهم حتى أقامه، ثم دفعه إلى الخارج دفعة بقسوة لم يعهدها من قبل، وغشى عينيه ظام فوق الظلام المحيط.



دفعه نحو الخلاء قائلاً:

-سنمिल نحو خلاء الدراسة آيلا نمر أمام آوخ إدريس.

وأوغلا فى الظلام، وقدرى يسير المترنح تحت قبضة أبيه الناشبة فى منكبهن وتساءل أدهم وهو يجد فى السير بصوت أدرآه الهرم.

ولكنه لم يكن يشعر-

بها، وآان ألمه شديدا ولكنه لم يفصح عنه، وود أن الشمس لا تطلع أبداً

خبرنى هل ضربته؟ بأى شئ ضربته؟ وعلى أى حال ترآته؟ لم يجب قدرى، آآنت قبضة أبيه شديده

ارحمنى وتكلم، ولكنك لم تعرف الرحمة، وقد قضيت على نفسى بالعذاب يوم انجبتك، أنا الذى تطاردنى اللعنات منذ-

عشرين عاما وها أنا أطلب الرحمة ممن لا يعرفها

فانفجر قدرى بأيا حتى ارتجف منكبه فى قبضة أدهم القاسية، وظل يرتجف حتى سرت عدواه إلى أدهم، لكنه قال:

أهذا جوابك؟ لماذا يا قدرى لماذا؟ آيف هان عليك؟ اعترف فى الظلام قبل أن ترى نفسك فى ضوء النهار

فهتف قدرى

-لا طلع النهار!

-نحن أسرة الظلام، لن يطلع علينا نهارا .. وآنت أحسب الشر مقيما فى آوخ إدريس، فإذا به فى دمنا نحن، إن إدريس

يقهقه ويسكر ويعربد، أما نحن فيقتل بعضنا البعض، ربا .. هل قتلت آحاك؟

-أبداً!

فآين هو ؟-!

ما قصدت قتله

فصاح أدهم

-لكنه قتل!

واجهش قدرى فى البكاء واشتدت قبضة أبيه، إذن قتل همام، زهرة العمل وحبيب الجد، آآنه لم يكن، لولا الألم المفترس ما

صدقت وبلغا الصخرة الكبيرة فساله أدهم بصوت غليظ:

آين ترآته يا مجرم ؟

فسار قدرى نحو الموضع الذى حفره لأخيه ووقف عنده فيما بين الصخرة والجبل وتساءل أدهم

آين آحوك ؟ لا أرى شيئاً

فقال قدرى بصوت لا يكاد يسمع

هنا دفنته

فصرخ أدهم

-دفنته!

واخرج من جيبه علبة ثقاب وأشعل عوا تفحص الموضع على ضوءه حتى رأى قطعة من الأرض قلقة المستوى أما رأى مسحب الجثة الذى انتهى عندها، تأوه أدهم من الألم، وراح يزيع التراب بيدين مرتعشتين.

وواصل عمله فى جو رهيب حتى مست أصابه رأس همام ، وغرز يديه إلى ما تحت ابطيه وسحب الجثة فى رفق، وجثا على رآبتيه إلى جانبها واضعا يديه على رأسه، مغمض العينين، مثالا للتعاسة والخيبة، وزفر من أعماقه ، ثم غمغم:

إن حياة أربعين عاما من العمر تبدو سخفا سقيما أمام جثتك يا بنى

وقام بغتة، ونظر نحو قدرى وهو يقف أمام الجثة من الناحية الأخرى، فعانى لحظات آراهية عمياء، وقال بصوت غليظ سيعود همام إلى الكوخ محمولا على عنقك

فجفل قدرى متراجعا، ولكن الرجل سارع إليه دائرا حول الجثة ثم قبض على منكبه وهتف

احمل أخاك

فقال قدرى بصوت آالآنين

لا استطيع- .

إنك استطعت قتله-.

لا استطيع يا أبى-.

له، لا ام له ، لا أخ له-.

لا استطيع

فشد قبضته عليه وقال

لا تقل أبى ، قاتل أخيه لا أب

-على القاتل أن يحمل ضحيته.

حاول قدرى أن يفلت من قبضة أدهم ولكن أدهم لم يمكنه ، وانمال فى عصبية على وجهه باللكمات فلم يتفاد من لكمة أو يتأوه من ألم وآف الرجل، ثم قال:

لا تضيع الوقت، أمك تنتظر

وارتعد قدرى لدى ذآر أمه ، فقال برجاء

دعنى اختفى

فجذبه نحو الجثة وهو يقول

-هلم نحمله معا.

تحول أدهم إلى الجثة ووضع يديه تحت ابطنى همام، وانحنى قدرى واضعا يديه تحت الساقين، رفعا الجثة معا، وسارا فى بطء نحو خلاء الدراسة، اوغل أدهم فى مشاعره الأليمة حتى فقد أى شعور بالألم أو بسواه، ولبت قدرى يعانى الما من خفقان قلبه وارتجاف أطرافه، وامتلاً أنفه برائحة ترايبية نفاذة على حين سرى مس الجثة من يديه إلى أعماقه، وآان الظلام غليظا بينا نضح الأفق بأنوار الأحياء الساهرة، وشعر قدرى باليأس يكتم أحر أنفاسه فتوقف قائلا لأبيه:

سأحمل الجثة وحدى. . .

ووضع ذراعا تحت الظهر وأخرى تحت الفخذين وسار يتبعه أدهم

22

وعندما اقتربا من الكوخ جاءهما صوت أميمة متسائلا فى جزع.

هل وجدتماه؟-

فصاح أدهم بصوت أمر

-اسبقينى إلى الداخل.

وسبق قدرى إلى الكوخ ليتآد من اختفائها، ووقف قدرى عند مدخل الكوخ لا يريد أن يتحرك، وأشار له أبوه بالدخول فامتنع

قائلا فى صوت هامس:

لا استطيع أن القاها

فهمس الأب حانقا

استطعت ما هو افظع

فتشبث قدرى بموقفه وهو يقول

آلا ، هذا افظع- . .

ودفعه أدهم امامه بجزم فاضطر إلى التحرك حتى بلغ الحجره الخارجية

وانقض أدهم على أميمة بسرعة فكتم براحتة الصرخة التى أوشكت على الإفلات من فيها، وقال بقسوة:

لاتصرخى يا ولىة، لاينبغى أن نلفت الأسماع حتى نتدبر الأمر ، فلنقاس المقدور صامتين، ولنتحمل الألم صابرين، الشر- .  
من بطنك ومن صلبى خرج، واللعة حقت علينا جميعا  
وسد فاهها بقوة، وحاولت التخلص من يده عبثا، ارادت أن تعضها فلم تتمكن، اضطربت أنفاسها وخارت قواها فسقطت  
مغشيا عليها.

ولبت قدرى واقفا يحمل الجثة فى صمت وخزى مرآزا بصره على المصباح ليتجنب النظر إليها، واتجه أدهم نحوه فساعده  
على وضع الجثة على الفراش، ثم ساجها برفق، ونظر قدرى إلى جثة اخية المسجاة على الفراش الذى اقتسماه طوال  
العمر فشعر بأنه لم يعد له مكان فى الدار، وحرآت اميمة راسهان ثم فتحت عينيها فبادر أدهم إليها وهو يقول بحزم:  
-إياك أن تصرخى.

وارادت أن تنهض فساعدها على النهوض وهو يحذرهما من إحداث صوت، وهمت بالارتقاء على الفراش فحال الرجل دون  
ذلك، فوقفت مغلوبة على أمرها، واندفعت تنفس عن آربها بشد شعرها بقسوة فانتزعت منه خصلات بعد خصلات، ولم  
يبال الرجل بما تفعل، وقال بغلظة:

افعلى ما يريحك ولكن فى صمت

فقال بصوت مبسوح

ابنى .. ! ابنى

فقال أدهم فى ذهول

هذه جثته، لم يعد ابنك ولا ابنى، وهذا هو قاتله، اقتليه إن شئت ولطمت أميمة خديها وقالت لقدرى بوحشية- . :

إن أحط الوحوش تنبراً من فعلتك

فحنى قدرى رأسه فى صمت على حين قال أدهم بوحشية

هل تذهب هذه الروح هدرًا؟ لا ينبغى أن نحيا ، هذه هى العدالة

فهتفت أميمة

آن أمس أملاً مشرقاً، قلنا له أذهب فأبى، ليته ذهب، لو لم يكن آربماً نبيلاً رحيماً لذهب، أياكون جزاء هذا القتل؟ آيف- .

هان عليك يا صخرى القلب لست ابنى ولست أمك

لم ينبس قدرى لكنه قال لنفسه " : قتلته مرة وهى يقتلنى مرة آل ثانية، لست حياً ، من قال إنى حى؟ وسأله أدهم

بفظاظة:

ماذا أفعل بك ؟

فقال قدرى بهدوء

قلت إنه لا ينبغي أن أحيا

فهتفت أميمة

آيف سولت لك نفسك قتله؟

فقال قدرى فى يأس

لا جدوى من النواح، إني مستعد للعقاب، والقتل أهون مما أعاني

فقال أدهم بحنق

لكنك جعلت حياتنا أيضا أفضح من الموت

وهبت أميمة هاتفة وهى تلطم حديها

لن أحب هذه الحياة أذفونى مع ابنى، لماذا لا تدعنى أصوت؟

فقال أدهم بمرارة وسخرية

يسمعنا الشيطان

فقال قدرى باستهانة

ليس شفقة على حنجرتك ولكنى اخشى ان

فليسمع آيف شاء، لم أعد أآثرث للحياة

وإذا بصوت غدريس يعلو قريبا من مدخل الكوخ

أخى أدهم ! تعال يا مسكين!

فسرت الرعدة فيهم جميعا، غير أن أدهم صاح به

عد إلى آوخك، واحذر أن تستفزنى

فقال إدريس بصوت قوى

شر أهون من شر ، مصبيتكم نجتكم من غضبى، ولكن لندع هذا الحديث، آآانا مصب، أنت فقدت العزيز الغالى، وأنا-

ضاعت ابنتى الوحيدة، آآن الأبناء عزاءنا فى منفانا ولكنهم ذهبوا، تعال يا مسكين تتبادل العزاء

إذن ذاع السرع ! آآيف ذاع؟ ولأول مرة يخاف قلب أميمة على قدرى.

وقال أدهم:

لا تمنى شماتتك، من يذق ألمى تمن عليه الشماتة

فجاء صوت إدريس مستنكرا

شماتة ! ألا تدرى إبنى بكيت عندما رأيتك تسحب الجثة من الحفرة التى حفرها قدرى؟

فصاح أدهم بغضب

-تجسس حقير.

أيضا، وقلت لنفسى يا لك من مسكين يا أدهم، فقدت شاين فى ليلة-.

واحدة

لم أبك على القتيل وحده ولكن على القاتل

وصوتت أميمة دون آتراك لأحد، واندفع قدرى خارج الكوخ بغتة وجرى أدهم وراءه وصرخت أميمة.

لا أريد أن أفقد الاثنين!

أراد قدرى أن يثب على إدريس ولكن أدهم دفعه بعيدا عنه ثم وقف أمام الرجل متحديا وهو يقول

احذر أن تتعرض لنا!

فقال إدريس بهدوء

أنت أحمق يا أدهم ، لا تفرق بين الصديق وبين العدو، تريد أن تعارك أحاك دفاعا عن قاتل أبناك- .

أذهب عنى

فقال إدريس ضاحكا

-أما تشاء ، تقبل عزائى والسلام عليكم.

غاب إدريس فى الظلام، وتحول أدهم نحو قدرى فوجد أميمة واقفة تتساءل عنه، فجزع الرجل وراح ينظر فى الظلام ويصيح

بأعلى صوته.

قدرى .. قدرى .. أين أنت ؟

وجاء صوت إدريس وهو يصيح بقوة

-قدرى .. قدرى .. أين أنت.

23

دُفن همام فى مقبرة تابعة للوقف بباب النصر، سار فى جنازته قوم آثيرون من معارف أدهم، آآرهم باعة من زملائه، وأقلهم زبائن ممن أسرتهم رقة أخلاقه وحسن معاملته، وفرض إدريس نفسه على الجنازة فاشترك فى تشييعها، بل وقف يتقبل العزاء بصفته عم الفقيد، وسكت أدهم آرها فسار فى الجنازة آثيرون من الفتوات والبلطحية والبرمجية واللصوص وقطاع الطرق، وعند الدفن وقف إدريس فوق القبر يشجع أدهم بكلمات العزاء والآخر صابر متصبر لا يجيب ودموعه تستبق

على خديه، وروحت أميمة عن آريها باللطم والصوات والتمرغ في التراب، وعندما تفرق المشيعون، التفت أدهم إلى إدريس وقال بحنق:

ألا يوجد حد لقسوتك؟

فتظاهر إدريس بالدهشة وتساءل

عم تتحدث يا أخى المسكين؟

قال أدهم بحدة

ظنى بك، الموت نهاية آل حى، فما وجه الشماتة فيه؟

فقال إدريس وهو يضرب آفاً على آف

لم أتصورك على هذا القدر من القسوة رغم سوء

-الحنن أخرجك عن أدبك، لكنى مسامحك.

متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة؟-

لترحمنا السماء، ألسنت أخى؟ هذه رابطة ليس فى الإمكان فصمها

إدريس آفاك ما فعلت بى

حفيدة عاهرة وحفيد-

قاتل، وعلى أى حال فأنت خير حالاً منى إذ لك ذرية تعوضك عما فات

الحنن قبيح، ولكن آلانا مصاب، أنت فقدت همام وقدرى وأنا فقدت هند، أصبح للجبلأوى العظيم

فتساءل أدهم فى حسرة:

أما زلت تحسدنى

فقال إدريس متعجباً

إدريس يحسد أدهم!

فعلا صوت أدهم وهو يهدر

إذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء.

العفاء .. العفاء

-ومرت أيام آئيبه بالأشجان، وقهر الحزن أميمة فساءت صحتها واعتصرها الضمور، وفى أعوام قلائل بلغ أدهم من الهرم ما

لا يبلغ فى عمر مديد، وبات الزوجان يعانيان الهزال والمرض، وبما اشتدت عليهما وطأة المرض فرآنا إلى الرقاد، أميمة مع

طفيلها فى الغرفة الداخلية، وأدهم فى الغرفة الخارجية، غرفة قدرى وهمم، ومضى النهار وجاء الليل فلم يشعلا مصباحا،

وقنع أدهم بضوء القمر المنبعث من الفناء، وراح يغفو قليلا ويستيقظ قليلا في حال بين الوعى والذهول.  
وجاء صوت إدريس من خارج الكوخ وهو يساله متهكما:  
-ألست في حاجة إلى خدمة؟

فانقبض صدره ولم يجبه، وآان يكره الساعة التي يغادر فيها الآخر آوخه ليذهب إلى سهرته الليلية ، وجاءه الصوت مرة أخرى وهو يقول:  
اشهدوا يا ناس على لرى وعقوقه.  
وذهب وهو يغنى:  
آنا ثلاثة طلعلنا الجبل نصطاد.  
واحد قتله الهوى والثانى خدوه الأحباب.

امتأأت عينا أدهم بالدموع . هذا الشر الذى لا يصد عن اللهو، يقاتل ويقتل ويحظى بكل احترام، يقسو ويستبد هازئا بالعواقب وله ضحكة تجلجل فتملاً الآفاق، له لذة فى العبث بالضعفاء ويسمر فى المآتم ويغنى فوق شواهد القبور، الموت يدنو منى وهو مازال يضحك ساخرا، القتيل فى التراب والقاتل ضائع وفى آوخى بكاء على الاثنين، ضحكة الطفولة فى الحديقة استحالت مع الأيام عبوسة غارقة فى الدمع، وفى الداخل بقية جسدى يتوجع . لماذا هذا العناء آله وأين صفو الأحلام أين؟

وخيل إلى أدهم أنه يسمع وقع أقدام .. أقدام بطيئة وثقيلة استثارت ذآريات غامضة آرائحة زآية مؤثرة تستعصى على الإدراك والتحديد حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح، ثم رأه يمتلى بشئ آجسم هائل، عملق فى دهش ، واحد بصره فى أمل يكتنفه يأس، وندت عنه أهه عميقة، وغمغم متسائلا:  
أبى!

وخيل إليه أنه يسمع الصوت القديم وهو يقول  
مساء الخير يا أدهم

فاغرورقت عيناه ، وهم بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم يجدهما منذ آآر من عشرين عاما، وقال بصوت متهدج  
دعنى أصدق

فقال

أنت تبكى وأنت الذى أخطأت

فقال أدهم بصوت يشرق بالدمع

الخطأ آثير والعقاب آثير ولكن حتى الحشرات المؤذية لا تياس من العثور على ظل-! .



هكذا تعلمني الحكمة-.

عفوًا .. عفوًا ، الحزن أرهقني، والمرض رآبني، حتى أغنامي مهددة بالهلاك-.

جميل أن تخاف على أغنامك

تساءل أدهم في رجاء

هل عفوت عني؟

أجاب بعد صمت

نعم

فهمت أدهم بجسم مرتعش

قاع هاية اليأس بيدي-! .

فعثرت على فيها-.

نعم آالصحو بعد الكابوس-..

لذلك فأنت ولد طيب

فتأوه أدهم قائلاً

الشكر لله، منذ قليل أنت اقرع

-أنجبت قاتلاً وقتيلاً.

الميت لايعود فماذا تطلب ؟

فتنهذ أدهم قليلاً

أنت أهفو للغناء في الحديقة ولكن لن يطيب لي اليوم شئ

فقال

-.

الشكر لله

فقال

سيكون الوقف لذريتك\.

-لا تجهد نفسك وأرآن إلى النوم.

أقيمت بيوت الوقف في خطين متقابلين يصنعان حارتنا ويبدأ الخطان من خط يقع أمام البيت الكبير، ويمتدان طولاً في اتجاه الجمالية، أما البيت الكبير، فقد ترك خالياً من جميع الجهات على رأس الحارة من ناحية الصحراء . وحارتنا حارة الجبلأوى أطول حارة في المنطقة، أثار بيوتها ربوع أما في حي آل حمدان، وتكثر الأواخ من منتصفها حتى الجمالية، ولن تتم الصورة إلا بذآر بيت ناظر الوقف على رأس الصف الأيمن من المساآن، وبيت الفتوة على رأس الصف الأيسر قبالتة. آن البيت الكبير قد أغلق أبوابه على صاحبه وخدمه المقربين، ومات أبناء الجبلأوى مبكرين فلم يبق من سلالة الذين أقاموا وماتوا في البيت الكبير إلا الأفندي ناظر الوقف في ذلك الوقت، أما أهل الحارة عامة فمنهم البائع الجوال، ومنهم صاحب الدآن أو القهوة، وآثيرون يتسولون، وثمة تجارة مشترآة يعمل فيها آل قادر هي تجارة المخدرات وبخاصة الحشيش والأفيون والمدافع، وآآن طابع حارتنا - آأالها اليوم - الزحام والضجيج، الأطفال الحفاة أشباه العرايا يلعبون في آل رآن، ويملأون الجو بصراخهم والأرض بقاذورهم، وتكتظ مداخل البيوت بالنساء، هذه تخرط الملوخية ، وتلك تقشر البصل، وثالثة توقد النار، يتبادلن الأحاديث والنكات، وعند الضرورة الشتائم والسباب والغناء والبكاء لاينقطعان، ودقة الزار تستأثر باهتمام خاص، وعربات اليد في نشاط متواصل، ومعارك باللسان أو الأيدي تشب هنا وهناك، وقطط تموء وآآاب تهر وربما تشاجر النوعان حول آآوام الزبالة والفئران تنطلق في الأفنية وعلى الجدران، وليس بالنادر أن يتجمع قوم لقتل ثعبان أو عقرب، أما الذباب فلا يضاويه في الكثرة إلا القمل فهو يشارك الآآلين في الأطباق والشاربين في الآآواز، يلهو في الآعين ويغنى في الآفواه آأنه صديق الجميع.

وما أن يجد شاب في نفسه جرأة أو في عضلاته قوة حتى يندفع إلى التحرش بالأمنين، والاعتداء على المسالمين فيفرض نفسه فتوة على حي من أحياء الحارة، يأخذ الأناوات من العاملين ويعيش ولا عمل له إلا الفتونة، هكذا وجد فتوات الأحياء مثل قدره والليشى وأبو سريع وبرآت وحمودة، وآآن زقلط أحد هؤلاء الفتوات، فنحاض معارك آثيرة مع فتوة بعد فتوة حتى هزم الجميع وصار فتوة الحارة آلها، وفرض الأناوات على الفتوات جميعا، ورأى الأفندي ناظر الوقف أنه بحاجة إلى مثل هذا الرجل لينفذ آوامره أو يدفع عنه ما قد يهدده من شر فقربه ورتب له راتبا عظيما من ريع الوقف، فأقام زقلط في بتيه المقابل لبيت الناظر واستحكم سلطانه، وعند ذاك ندر وقوع المعارك بين الفتوات، إذ أن الفتوة الآآبر لايرتاح إلى هذا النوع من المعارك الذي قد ينتهى بتكبير فتوة وبالتالي بتهديد مرآزه هو لذلك لم يجد الفتوات متنفسا لقوة شرهم الحبيسة إلا في

الأهالى المسآين آيف انتهى الأمر بحارتنا إلى هذا الحال؟

لقد وعد الجبلاوى أدهم بأن يكون الوقف لخير ذريته، وشيدت الربوع ووزعت الخيرات وحظى الناس بفترة من العمر السعيد،

ولما أغلق الأب بابه واعتزل الدنيا احتذى الناظر مثاله الطيب حيناً، ثم لعب الطمع بقلبه فترع إلى الاستئثار بالريع، بدأ بالمغالطة فى الحساب والتقتير فى الأرزاق ثم قبض يده قبضاً مطمئناً إلى حماية فتوة الحارة الذى اشتراه، ولم يجد الناس بدءاً من ممارسة أحقر الأعمال، وتكاثف عددهم فزاد فقرهم وغرقوا فى البؤس والقذارة وعمد الأقوياء إلى الإرهاب والضعفاء إلى التسول، والجميع إلى المخدرات، آن الواحد يكد ويكدح نظير لقمات يشارآه فيها فتوة، لا بالشكر، ولكن بالصفع والسب واللعن، الفتوة وحده يعيش فى ببحوحة ورفاهية، وفوق هذا الفتوة الأبر، والناظر فوق الجميع ، أما الأهالى فتحت الأقدام، وإذا عجز مسكين عن أداء الأتاوة انتقم منه فتوة حيه شر الانتقام، وإذا شكأ أمره إلى الفتوة الأبر ضربه الفتوة الأبر وأسلمة إلى فتوة حيه لعيد تأديبه، فإذا سولت له نفسه أن يشكو إلى الناظر ضربه الناضر والفتوة الأبر وفتوات الأحياء جميعاً ، وهذه الحال الكئيبة شهدتها بنفسى فى أيامنا الأخيرة، صورة صادقة مما يروى الرواة عن الأزمان الماضية، أما شعراء المقاهى المنتشرة فى حارتنا فلا يروون إلا عهود البطولات متجنين الجهر بما يخرج مرآز السادة ويتغنون بمزايا الناظر والفتوات، يعدل لا نحظى به ورحمة لا نجدها وشهامة لا نلقاها وزهد ولا نراه ونزاهة لا نسمع عنها، وأنى لأتساءل عما أبقى أيامنا - أو عما يبقينا نحن - بهذه الحارة اللعينة؟ الجواب يسير لن نلقى فى الحوارى الأخرى إلا حياة أسوأ من الحياة التى نكابدها هنا، هذا إذا لم يهلكنا فتواتها انتقاماً مما لا قوا على أيدى فتواتنا، والأدهى الأمر أننا محسدون ! يقول أهالى الحوارى حولنا يا لها من حارة سعيدة ! تحظة بوقف لا مثيل له، وفتوات تقشعر عند ذآرهم الأبدان، ونحن لا ننال من الوقف إلا الحسرات ومن قوة فتواتنا إلا الإهانات والأذى على ذلك آله فنحن بقفون، وعلى الهم صابرون، نتطلع إلى مستقبل لا ندرى متى ييجئ ونشير إلى البيت الكبير ونقول هنا أبونا العتيد، ونومئ إلى الفتوات ونقول هؤلاء رجالنا، والله الأمر من قبل ومن بعد.

25

ونفذ صبر آل حمدان فاصطخبت فى حيهم أمواج التمرد . آن آل حمدان يقيمون فى قمة الحارة فيما يلى بيتى الأفندى وزقلط حول البقعة التى بنى أدهم فيها آوخه، وآآن رئيسهم حمدان صاحب قهوة، قهوة حمدان، أجمل قهوة فى الحارة آلها، التى تتوسط حى حمدان بين الربوع جلس المعلم حمدان فى الجهة اليمنى من مدخل القهوة فى عباءة رمادية، وعلى الرأس لاسة مزرآشة، يتابع عبدون صبى القهوة فى نشاطه المتواصل ويتبادل مع بعض الزبائن الأحاديث ، وآآنت

القهوة ضيقة العرض ولكنها تمتد طولا حتى أريكة الشاعر في الصدر تحت صورة خيالية ملونة لأدهم في رقاده الأخير وهو يتطلع إلى الجبلأوى الواقف بباب الكوخ، أشار حمدان إلى الشاعر فتناول الرابة واستعد للنشاد، وبين أنغام الأوتار بدأ بتحية الناظر حبيب الجبلأوى، وزقلط زين الرجال، ثم روى فترة من حياة الجبلأوى قبيل مولد أدهم، وندت عن احتساء القهوة والقرفة والشاي أصوات وأنعقد الدخان المتصاعد من الجوز حول الفانوس سحبا شفافة وترآزت الأعين في الشاعر، واهزت الرؤوس لجمال ذآرى أوحش موعضة، ومضى وقت الخيال في شغف وانسجام حتى وافاه الختام، وترامت على الشاعر تحيات الاستحسان، عند ذاك تحرآت في الأعماق موجة التمرد التي اجتاحت آل حمدان، فقال عتريس الأعمش في مجلسه وسط القهوة معلقا على ما سمع من قصة الجبلأوى:

آن في الدنيا خير ، حتى أدهم لم يجمع يوما واحد  
وإذا بتمر حنة العجوز تقف أمام الدآان وتزل قفص البرتقال من فوق رأسها، ثم تقول موجهة الخطاب إلى عتريس الأعمش  
يسلم فمك يا عتريس، آلامك آلبرتقال السكرى!

فنهرا المعلم حمدان قائلًا

اذهبي يا ولية وأريحينا من آلامك الفارغ

لكن تمر حنة جلست على الأرض لصق مدخل القهوة وهي تقول

ما أحلى القعدة جنبك يا معلم حمدان ) ثم وهي تشير إلى قفص البرتقال ( يوم ونصف ليلة في المشى والنداء نظيم-

ملاليم يا معلم

وهم المعلم بالرد عليها ، ولكنه رأى ضلمة مقبلا مقطبا وقد تلوث جبينه بالتراب ، فنظر إليه حتى وقف أمامه في مدخل

القهوة وهتف بصوت مرتفع:

ربنا على المفترى ! قدرة هو أآبر مفترى، قلت له امهلني إلى الغد حتى يفتح الله على فرمانى على الأرض وبرك فوق-

صدرى حتى آتم أنفاسى

فجاء صوت عم دعيس من أقصى القهوة وهو يقول:

تعال يا ضلمة أقعد جنبى، تعال الله يلعن أولاد الحرام، نحن أسياد هذه الحارة، ولكننا نُضرب فيها آلالكاب، ضلمة لا يجد

إتاوة لقدره، تمر حنة تسرح بالبرتقال وهي لا ترى أبعد من ذراع أمامها، وأنت يا حمدان أين شجاعتك يا ابن أدهم ؟

فاتجه ضلمة إلى الداخل، وتساءلت تمر حنة.

أين شجاعتك يا ابن أدهم ؟

فهتف حمدان

غورى يا تمر حنة، أنت فت سن الزواج من خمسين سنة فلم تحيين مجالس الرجال؟

فتساءلت المرأة

أين هم الرجال ؟

قطب حمدان ، ولكن تمر حنة بادرتة المعتذرة

دعني اسمع الشاعر يا معلم

فقال دعيس للشاعر بمرارة

حدثها عن هوان آل حمدان في هذه الحارة

فابتسم الشاعر قائلاً

حلمك يا عم دعيس، حلمك يا سيد الناس

فقال دعيس محتدماً

من سيد الناس؟ إن سيد الناس يضرب الناس ويظلم الناس ويغتال الناس، أنت تعرف من هو سيد الناس!

فقال الشاعر بقلق

قد نجد بيننا فجأة قدره أو غيره من الشياطين؟

فقال دعيس بجدة

أهلم ذرية إدريس!

فقال الشاعر بصوت خافت

-حلمك يا عم دعيس قبل أن تخدم القهوة فوق رؤوسنا.

فنهض دعيس من مجلسه وقطع القهوة في خطوات واسعة ثم جلس إلى يمين حمدان على أريكة وهم بالكلام، ولكنه

ضجة غلمان علت بغتة حتى غطت على صوته، وانتشروا أمام القهوة آآجراد وهم يتبادلون السباب فصرخ فيهم دعيس:

-يا أولاد الشياطين أليس لكم جحور تؤيكم في الليل؟

لكنهم لم يبالوا بصراخه فوثب المدفوع وانقض عليهم فجرؤوا في الحارة وهم يصيحون ( هيه ) وترامى أآثر من صوت نسائي

من نوافذ الربع المواجه للقهوة ، وحد الله يا عم دعيس، خوفاً الأولاد يا رجل، فلوح بيده ساخطاً وعاد إلى مجلسه وهو

يقول:

-الواحد حيران لا عند الأولاد راحة ولا عند الفتوات راحة ولا عند الناظر راحة.

أمن آل على قوله، آل حمدان ضاع حقهم في الوقف، آل حمدان تمرغوا في تراب القذاراة والبؤس، آل حمدان تسلط عليهم

فتوة ليس منهم بل من أخط الأحياء، قدرة يسير بينهم محتالاً يصفع من يشأ ويأخذ الأتاوة ممن يشاء، لذلك نفذ صبر آل

حمدان واصحطبت في حيهام امواج التمرد.

والتفت دعيس إلى حمدان وقال:

يا حمدان ، الجميع على رأى واحد، نحو آل حمدن عددنا آبير، أصلنا معروف وحقنا فى الوقف آحق الناظر نفسه  
فغمغم الشاعر

اللهم فوت الليلة على خير

حمدان حبك العباءة حوله ورفع حاجبيه المثلثين الغزيرتين وقال

قلنا فى هذا وعدنا، سيحدث أمر، إني أشم الأحداث شما

وارتفع صوت على فوانيس بالتحية وهو يدخل القهوة مشمر الجلباب وطاقيته الترايبية مائلة حتى حاجبيه، وما لبث أن قال

الكل مستعدون ، ولو احتاج الأمر إلى نقود سيعطون، حتى الشحاذون

وانحشر بين دعيس وحمدان وهو يهتف بعبدون صبى القهوة

شأى من غير سكر

فانتبه عليه الشاعر قائلاً

-إحم!

فابتسم على فوانيس ودس يده فى صدره فأخرج آيساً ثم فتحه واستخرج منه لفافة صغيرة رمى بها إلى الشاعر، وربت

فخذ حمدان متسائلاً فقال هذا:

أمامنا المحكمة- . .

فقال تمر حنة

خير ما نفعل

فقال الشاعر وهو يخرج الشئ من اللفافة

فكروا فى العواقب

فقال على فوانيس بحدة

لا هوان مما نحن فيه، ولنا عدد وفير يجب حسابه، والأفندى لا يمكن ان يتجاهل أصلنا وقرابتنا إليه وإلى صاحب الوقف

فقال الشاعر وهو ينظر إلى حمدان نظرة ذات معنى

لم تضق بنا الحلول

فقال حمدان آأنما يجيبه

عندى فكرة جريئة!

تطلعت إليه الأبصار فقال:

أن نلجأ إلى الناظر!  
فقال عبدون وهو يقدم الشاي إلى فوانيس  
خطوة عزيزة وبعدها تحفر قبور  
فضحكت تمر حنة قائلة  
اسمعوا فالكم من عيالكم  
لكن حمدان قال بتصميم  
-ينبغي أن نذهب ، ولنذهب جماعة.

26

تجمهر أمام بيت الناظر جمع آثر من آل حمدان نساء ورجالاً على رأسهم حمدان ودعبس وعتريس الأعمش وضلمة وعلى فوانيس ورضوان الشاعر، آن من رأى رضوان أن يذهب حمدان وحده نفياً لشبهة العصيان واتقاء لعواقبه، ولكن حمدان قال له بصراحة " : إن قتلى شئ يسير ولكن قتل آل حمدان يقدر عليهم " ، ولفت التجمهر أنظار أهل الحارة وبخاصة الجيران الأقربين، فبرزت رعوس النساء من النوافذ وتطلعت أعين من تحت السلال والمقاطف ومن فوق عربات اليد، وأقبل آثيرون آباراً وصغاراً وتساءلوا ماذا يريد آل حمدان؟ وقبض حمدان على المطرقة النحاسية وطرق الباب ، ففتح بعد قليل عن البواب بوجهه الكتيب ونسائم محملة بشذا الفل والياسمين ، نظر البواب إلى المتجمهرين بانزعاج وتساءل:  
ماذا تريدون ؟

فقال حمدان بقوة استمدها ممن خلفه  
-نريد مقابلة حضرة الناظر.

آلكم؟-.

ليس فينا من هو أحق بالمقابلة عن الآخرين-.

انتظروا حتى استأذن لكم

وهم برد الباب لكن دعيس مرق إلى الداخل وهو يقول

-الانتظار في الداخل أأرم.

واندفع وراءه الآخرون آل السرب وراء الحمامة، ودفع حمدان بينهم رغم سخطة على اندفاع دعيس فانتقلت المظاهرة إلى المشى المفروض بين السلامك والحديقة ، وصاح البواب:

يجب أن تخرجوا

فقال حمدان

-الضيف لا يطرد ، اذهب وخير سيدك.

وتحرتا شفقتا الرجل باحتجاج غير مسموع، وشت به قسماته المكفهرة ثم تحول مهرولا نحو السلامك، وتبعته الأعين

حتى اختفى وراء الستار المسدل على باب البهو، وظلت أعين عالقة بالستار، وجالت أعين في أنحاء الحديقة حول

الفسقية المحاطة بالخيل واعراش العنب لصق الجدران، وفروع الياسمين المتسلقة الأسوار، جالت بنظرات حائرة وحواس

مغلقة بالهم وما لبثت أن ردت إلى الستار المسدل على باب البهو.

وانزاح الستار فخرج الأفندي بنفسه متهجم الوجه، وتقدم في خطوات حادة غاضبة حتى وقف عند رأس السلم ، لم يبد من

شخصه المتلفع بالعباءة إلا وجهه الغاضب وشبهه الوبرى وسبحة طويلة في يمينه، ألقى نظرة ازدراء على المظاهرة ثم

استقرت عيناه على حمدان فقال هذا بأدب جم:

صبحك الله بالسعادة يا حضرة الناظر

فآتقى برد التحية بجرأة من يده ، وتساءل

من هؤلاء ؟

آل حمدان يا حضرة الناظر

من أذن لهم بالدخول في بيتي ؟

فقال حمدان بدهاء

إن بيت ناظرهم، فهو بيتهم، وهم في حماه

فلم يلن وجه الأفندي وقال

تحاول الاعتذار عن سوء سلوككم!

وضاق دعبس بتأدب حمدان فقال

نحن أسرة واحدة جميعنا أبناء أدهم وأميمة

فقال الأفندي بامتعاض

ذاك تاريخ مضي، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه

فقال حمدان

نحن في آرب من الفقر وسوء المعاملة فاجتمع الرأي بيننا على اللجوء إليك لتفرج آربنا

وهنا قالت تمر حنة



وحياتك عيشتنا تقرف الصراصير  
فقال دعيس بصوت ارتفع درجات  
أثرنا متسولون ، أطفالنا جياع، وجوهنا متورمة من صفع الفتوات، أيليق ذلك بأبناء الجبلاوى ومستحقى وقفه؟  
فتقبضت يد الأفندى على المسبحة وهتف  
أى وقف يا هذا ؟

حاول حمدان أن يمنع دعيس من الكلام ولكنه اندفع قائلاً آمن لطشت الخمر رأسه  
الوقف الكبير، لا تغضب يا حضرة الناظر ، الوقف الكبير الذى يملك حارتنا من أولها إلى آخرها ويتبعه آل حكر فى الخلاء-  
الحيط، وقف الجبلاوى يا حضرة الناظر  
فاندلعت ألسنة الغضب من عيني الأفندى وصاح:  
هذا وقف أبى وجدى ما لكم به صلة إنكم تتناقلون الحكايات الخرافية وتصدقونها، وما لديكم دليل أو حجة  
فقال أثر من صوت وضح بينها صوت دعيس وتمر حنة  
-الجميع يعرفون ذلك ؟\

-الجميع؟ ما قيمة ذلك؟ لو تناقلتم فيها بينكم أن بيتى هو بيت فلان أو إعلان منكم فهل يكفى هذا لاغتصاب بيتى يا هولاء  
؟ حارة حشاشين حقيقة ! خبرونى مى أخذ أحدام مليما من ريع الوقف ؟  
فساد الصمت مليا ثم قال حمدان:  
-آن أبأؤنا يأخذون.

أديكم دليل؟  
فعاد حمدان يقول  
قالوا لنا ونحن نصدقهم- .  
فهتف الأفندى  
غير مطرودين  
فقال دعيس بتصميم  
آذب فى آذب، وتفضلوا  
أطلعنا على الشروط العشرة  
فصاح الأفندى  
لماذا أطلعكم عليها؟ من أنتم ؟ ما علاقتكم بها؟-.

نحن المستحقون

عند ذاك تعالى صوت هدى هام حرم الناظر من وراء الباب وهي تقول

دعهم وادخل، لا تبح صوتك. بمناقشتهم

فقال تمر حنة

أوني محضر خير يا ست هام

فقال هدى هام بصوت متهدج من الغضب

قطع الطرق لا يكون بالنهار والشمس طالعة

فقال تمر حنة بامتعاض

الله يسامحك يا ست هام، الحق على جدنا الذى أغلق على نفسه الأبواب

فرفع دعيس رأسه وصاح بصوت آالرعد

يا جبلاوى ! تعال شوف حالنا، ترآتنا تحت رحمة من لا رحمة لهم

دوى صوت قويا حتى خيل إلى البعض أنه سيبلغ الجد فى بيته، ولكن الأفندى صاح مرتعش النبرات من الحنق

اخرجوا .. اخرجوا دون تردد

وقال حمدان بضيق

-هيا بنا.

وتحول عن موقفه ومضى نحو الباب، وأخذوا يتبعونه صامتين، حتى دعيس تبعه، لكنه رفع رأسه مرة أخرى وصاح بالقوة

نفسها:

-يا جبلاوى.

27

دخل الأفندى البهو مصفر الوجه من الغضب فوجد زوجته واقفة مقطبة، فقالت:

حراة غريبة لها ما بعدها ، ستكون حديث الحارة آها، وإذا تماونا فى الأمر فقل علينا السلام

فقال الأفندى بتقزز

رعاع أبناء رعاع ويطمعون فى الوقف، من ذا الذى يستطيع أن يعرف أصله فى حارة مثل خلية النحل؟-.

احسم الأمر . ادع زقلط ودبر أمرك، زقلط يقاسمنا الربيع دون أن يفعل شيئا فدعه يجلل ما ينهب من أموالنا

فحدجها الأفندى بنظرة طويلة ثم تساءل

وجبل ؟

فقالت بطمانية وثقة

جبل ! إنه ربينا ، بل هو ابني، لم يعرف من الدنيا إلا بيتنا، أما آل حمدان فلا يعرفهم ولا يعرفونه، ولو آانوا يعدونه منهم-.

لشفعوا به إلينا، اطمئن من ناحيته، وسوف يعود من جولته بين المستأجرين فيحضر الاجتماع

وجاء زقلط تلبية لدعوة الناظر ، آن متوسط القامة ، بدينا متين البنيان، وبقسماتة ساماجة وغلظة، وبرقبته وذقنو ندوب ،

جلسوا متقاربين وزقلط يقول:

سمعت أخبارًا لا تسر

فقالت هدى بغيظ

ما أسرع ما تجرى أخبار السوء.

وقال الأفندى وهو يلحظ زقلط بمكر:

إنها تمس هبيتنا أما تمس هبيتك

فقال زقلط بصوت الخوار

مضى زمن غير قصير دون أن نحرك نبوتنا أو نسفك دما

فابتسمت هدى قائلة

يا لهم من مغرورين آل حمدان، لم يظهر منهم فتوة واحد، ومع ذلك فأحقرهم يزعم أنه سيد الحارة

فقال زقلط باشمزاز

باعة ومتسولون، ولن يظهر فتوة من قوم خرعين

فتساءل الأفندى

والعمل يا زقلط ؟

سأدوسهم بقدمي الصراصير

سمع جبل قول زقلط وهو يدخل البهو، بدأ مورد الوجه بعد جولته في الخلاء، وجرت حيوية الشباب في جسمه الفارع

القوى، ووجهه ذى الملامح الصريحة وبخاصة أنفه المستقيم وعينييه الكبيرتين الذآيتين . حيا الموجودين بأدب وبدأ يتكلم عن

الأحكار التي تم تأجيرها اليوم ولكن هدى هائم قاطعته قائلة:

اجلس يا جبل، نحن في انتظارك لأمر عظيم

فجلس جبل وعينه تعكسان نظرة تخرج لم تغب عن عيني الهائم فقالت

أرى أنك تحدى ما نحن مهتمون له  
فقال بصوت هادئ

الجميع يتحدثون في الخارج  
فنظرت الهائم صوب زوجها هاتفة  
اسمعت؟ الجميع يتوقعون منا الجواب  
فقال زقلط وقسماته تزداد سماجة  
شعلة تطفئها حفنة تراب، بودى أن أبدأ العمل!  
فالتفت هدى إلى جبل متسائلة

ألديك ما تقوله يا جبل؟  
فقال وهو يدارى ضيقة بالنظر في الأرض  
الأمر منكم وإيكم يا سيدتى- .  
يهمنى أن أعرف رأيك

تفكر مليا وهو يشعر بنظرات الأفندى الحادة، ونظرات زقلط الممتعضة ثم قال  
سيدتى ، إننى ريبب نعمتك، ولكنى لا أدرى ماذا أقول ، فلست إلا أحد أبناء حمدان؟  
قالت هدى بحدة

لماذا تذآر حمدان ولا أب ولا أم ولا أقارب لك فيهم؟- .  
وند عن الأفندى صوت ساخر مقتضب يشبه الضحك لكنه لم يتكلم  
وبدأ فى وجه جبل أنه يعانى ألماً صادقاً، لكنه أجاب:  
آن أبى وامى منهم، لايمكن إنكار ذلك  
وقالت هدى

ما أخيب أملى فى ابنى- . .  
معاذ الله ، إن المقطم لا يستطيع أن يزحزحنى عن الوفاء لك، لكن إنكار الحقائق لاغيرها  
وقام الأفندى نافد الصبر وقال يخاطب زقلط  
لا تضيع وقتك فى سماع هذه المعاتبات  
فقام زقلط باسماء، وإذا بالهائم تقول له وهى ترمى جبل بلحظ خفى  
لا تجاوز المعقول يا معلم زقلط ، نريد تأديهم لا إبادتهم

غادر زقلط البهو ، وألقى الأفندى على جبل نظرة لوم وهو يتساءل ساخرًا  
إذن أنت من آل حمدان يا جبل ؟

ولاذ جبل بالصمت حتى رحمته هدى فقالت  
قلبه معنا ولكن شق عليه أن يتنكر لأصله أمام زقلط  
فقال جبل بجزن واضح

أهل الحارة أصلا

فصاح الأفندى

إنهم برساء يا سيدتى رغم أنهم آرم

حارة لا اصل لها

فقال جبل جادًا

إننا أبناء ادهم ، ومازال جدنا حيا أطل الله بقاءه

فتساءل الأفندى

بنوته لأبيه؟ نه آلام لا بأس أن يقال أحيانا ولكنه لا ينبغي أن يتخذ وسيلة لنهب أموال الغير

وقالت هدى

من يستطيع أن يثبت

نحن لا نريد بهم سرًا على شرط ألا يطمعوا في أموالنا.

وأراد الأفندى ان ينهى الحديث فقال لجبل:

- اذهب إلى عملك ولا تفكر في سواه.

وغادر جبل البهو فذهب إلى إدارة الوقف في منظرة الحديقة آن عليه أن يسجل في الدفاتر عددًا من عقود الإيجار، وان  
يراجع الحساب الختامى للشهر ولكن الحزن شتت عقله، ومن عجب أن آل حمدان لا يجبونه، وهو يعلم ذلك ويذآر آيف آن

يقابل بالبرود في قهوة حمدان في المرات القلائل التي غشيها ، مع ذلك احزنه مايدبر لهم من شر ، أحزنه أثر مما

أسخطة سلوآهم الجرى، وود أن يدفع عنهم الشر لولا اشفاقه من اغضاب البيت الذى أواه ورباه وتبناه، ماذا آن يكون لو

لم يدرآه عطف هدى هاتم؟ منذ عشرين عاما رأت الهاتم طفلا عاريا يستحم في حفرة مملوءة بمياه الأمطار، مضت

تسلى بمشاهدته فمال قلبها الذى حرمه العقم من نعم الأمومة إليه، أرسلت من حملة غليها وهو يبكى خائفا، وتخرآت

عنه فعلمت أنه طفل يتم ترعاه ببيعة دجاج استدعت الهاتم ببيعة الدجاج وطلبت إليها أن تنازل لها عن الطفل فرحبت

بذلك آل الترحيب، هكذا نشأ جبل في بيت الناظر وفي رعاية حضرته ينعم بأسعد أمومة في الحارة جميعا، وأدخل الكتاب

فتعلم القراءة والكتابة، ولما بلغ رشده ولاه الأفندى إدارة الوقف، فى آل بقعة فيها للوقف أملاك يدعونه " حضرة الوآيل " وتتابعة نظرات الإآبار والإعجاب أينما حل، وآانت الحياة تبدو ودودة واعد به بكل جميل حتى آن تمرد آل حمدان، وجد جبل أنه ليس شخصا واحداً أما توهم طوال عمره، ولكنه شخصان أحدهما يؤمن بالوفاء لأمه وأخرهما يتساءل فى حيرة : وآل حمدان؟

## 28

انبعث الرباب تحكم مصرع همام على يد قدرى، اتجهت الأعين نحو رضوان الشاعر فى انتباه يشوبه القلق ، ليست الليلة آبقية الليالى، ليلة ختمت نهاراً نائراً ، وظل آثيرون من آل حمدان يتساءلون هل تمر بسلام؟ وشعل الحارة ظلام حتى النجوم توارت وراء سحب الخريف فلم يبد من ضوء إلا ما نضحت به النوافذ المغلقة أو ما أرسلته مصاييح عربات اليد المتباعدة فى أحياء الحارة ن وضحت الأركان بغوغ الغلمان المتجمعين آالفراشا حول مصاييح العربات، على حين افترشت تمر حنة خيشة أمام أحد ربوع حمدان وراحت تدندن:

على حارتنا حسن القهوجى.

وارتفع مواء قطط فى نوبات متقطعة واشيا بمنافسات جنسية أو منازعات تموينية، واحتد صوت الشاعر وهو يروى قائلاً:

وصرخ أدهم فى وجه قدرى " : ماذا فعلت بأخيك " فى تلك اللحظة ظهر زقلط فى دائرة الضوء التى يرسمها فانوس القهوة على الأرض، ظهر فجأة أنما انشق عنه الظام، بدا عابسا متحديا آارها مكروها يتفجر الشر فى عينيه وتشد قبضته على نبوته المرعب، وزحفت من محجرية نظرة ثقيلة مخيفة على القهوة والجالسين آأنها حشرة سامة، فتحجر الكلام فى حلق الشاعر.

وباخت نشوة ضلمة وعتريس، وانقطع عن التهامس دعيس وعلى فوانيس، وآف ع الحراة عبدون، أما حمدان فشدت يده على خرجوم النارجيلة بعصبية، وساد صمت آالموت.

وتتابعت حرآات خاطفة . غادر القهوة سراعا الزبائن الذين لا ينتسبون لآل حمدان . جاء فتوات الأحياء، قدرة والليشى وأبو سريع ويرآات وحمودة فصنعوا جدار وراء زقلط وسرى الخبر فى الحارة بسرعة آانه بيت تخدم ففتحت النوافذ، وأقبل الصغار يجررون والكبار يتنازع قلوبهم الإشفاق الشماتة، وآان حمدان أول من خرق الصمت فقام فى هيبة استقبالية وهو يقول:

اهلا بالمعلم زقلط فتوة حارتنا .. تفضلوا

لكن زقلت تجاهله، آأنه لا يسمعه ولا يراه، وظل يطلق الطعنات من عينيه القاستين ، ثم تساءل بصوت غليظ من فتوة هذا الحى ؟

فأجاب حمدان ولو أن السؤال لم يوجه إليه فتوتنا قدره- . .

التفت زقلط نحو قدره متسائلا فى سخرية أنت حامى آل حمدان ؟

فتقدم قدرة خطوات بجسمه القصير المدمج ووجهه المتحرش بكل شى وقال

أنا حاميههم من الجميع إلا إياك يا معلم

فابتسم زقلط ابتسامة آلامتعاض وقال

ألم تجد حيا غير حى النسوان لتكون فتوة عليه؟

ثم صاح بالقهوة

يا نسوان ، يا أولاد الزوانى ، ألا تعترفون بأن للحارة فتوة؟

فقال حمدان بوجه شاحب

يا معلم زقلط ليس بيننا وبينك إلا الخير

فصاح به

فقال حمدان بصوت المتألم

اخرس يا عجوز يا قارح ، الآن تتمسكن بعد أن تهجمت على أسيادك وأسياد أهلك.

- لم يكن فى الأمر تهجم، لكنها شكوى سرنا بما إلى حضرة الناظر ، فصاح زقلط:

نتن انسييت ما آانت تفعله أمك؟ والله لن يسير أحدام أمانا فى هذه الحارة حتى-.

يقول بأعلى صوته : أنا مرة

اسمعتم مايقول ابن الزانية؟ حمدان يا

ورفع بسرعة نبوته وهوى به بشدة على الطاولة فتطايرت الفناجيل والآواب والصوان والملاعق وعلب البن والشاى

والسكر والقرفة والزنجبيل والكنكاب، وثب عبدون إلى الورااء فارتطم بتريزة وسقطا معا، وبغثة وجه زقلط لطمة إلى وجه

حمدان فقد الرجل توازنه وسقط على جنبه فوق النارجيلة التى تحطمت، ورفع زقلط نبوته مرة أخرى وهو يصيح:

-لا ذنب بلا عقاب يا أولاد الزوانى.

وتناول دعبس آرسيا ورمى به الفانوس الكبير فتحطم وساد الظلام قبل أن يهوى النبوت على المرأة الكبيرة وراء الطاولة،

وصوتت تمر حنة فرددت نساء حمدان الصوات فى النوافذ والأواب آأما انقلبت الحارة جنجرة آلب رمى بحجر، وجن جنون

زقلط فاطلق ضرباته فى آل ناحية فأصابت أناسا ومقاعد والجدار ، وتلاطمت أمواج الصراخ والاستغاثات والتأوهات،  
وتطائرت

الأشباح فى آل ناحية وارتطمت أشباح بأشباح.

وصاح زقلت بصوت آلرعد:

-آل واحد يلزم بيته.

فبادر إلى تنفيذ الأمر آل شخص من آل حمدان أو من غيرهم وتتابع وقع الأقدام المتراجعةن وجاء الليشى بفانوس فظهر

على ضوءه زقلط والفتوات من حوله، فى حارة خالية، لايسمع بها إلا صوات النسوان، وقال برآت متوددا:

وفر نفسك يا معلم للشدائد ، وعلينا نحن تأديب الصراصير

وقال أبو سريع

لو شئت جعلنا من آل حمدان ترابا تمشى عليه بحصانك

وقال قدرة فتوة حمدان

تمر حنة من وراء باب الربع- . :

ربنا على الظالم

فصاح بها زقلط

لو آلفتنى بتأديبهم لحققت لى أمنية آبيرة وهى أن أخدمك يا معلم، وعلا صوت

يا تمر حنة أتحدى أى رجل من حمدان أن يعد الزانين بك- . .

فهتفت تمر حنة وإن دل آخر آلامها على أن يدا وضعت على فيها لتمنعها من الاستمرار

ربنا بيننا وبينك ، حمدان أسياد ال.

ووجه زقلط الخطاب إلى الفتوات بصوت أراد أن يسمعه آل حمدان قال

لا يغادر رجل من حمدان داره إلا ضرب

فصاح قدره مهددا

من ير نفسه رجلا فليخرج

وتساءل حمودة

والنسوان يا معلم ؟

فقال زقلط بجدة

-زقلط يعامل الرجال لا النسوان.



وطلع النهار فلم يغادر الربوع رجل من آل حمدان، وجلس آل فتوة عند باب قهوة حتى يراقب الطريق، وجعل زقلط يمر بالحارة آل بضع ساعات فيستبق الناس إلى تحيته والتودد إليه والثناء عليه " : والله أسد بين الرجال يافتوة حارتنا " ، " عفارم عليك يازين الرجال ياملبس حمدان الطرح " ، " والحمد لله الذى اذل حمدان المتعجرفين بيدك القوية يا زقلط . " ولم يكن يعبر  
أحدًا أدنى اهتمام.

## 29

هل يرضيك هذا الظلم يا جبلاوى ؟

تساءل جبل وهو يفترش الأرض أسفل الصخرة التى تقول الحكايات أن عندها آن يخلو قدرى إلى هند، وإن عندها قتل همام، ونظر إلى الشفق بعين لم تعد ترى إلا ما يكدر الصفو . لم يكن ممن يرآنون إلى الخلوات لكثرة مشاغله لكنه شعر أخيراً برغبة قاهرة فى الخلو بنفسه التى زلزلها ما حاق بآل حمدان، لعل فى الخلاء أن تسكت الأصوات التى تعيره والتى تعذبه، أصوات تهتف به من النوافذ وهو مار " : ياخائن حمدان يا لثيم " ، وأصوات تهتف به من أعماق نفسه " : لن تطيب الحياة

على حساب الغير " ، وآل حمدان اهله، ففيهم ولدت أمه وأبوه، وفى مقابرهم دفنا، وهم مظلومون وما أقيح الظلم، اغتصبت أموالهم ولكن من الظالم؟ إنه ولى نعمته، الرجل الذى انتشلته زوجه من الطين فرفعته إلى مصاف آل البيت الكبير، وجميع الأمور تجرى فى الحارة على سنة الإرهاب، فليس عجيباً أن يُسجن سادتها فى بيتهم وحارتنا لم تعرف يوماً العدالة أو السلام، هذا ما قضى به عليها زمن طرد أدهم وأميمة من البيت الكبير، ألا تعلم بذلك يا جبلاوى؟ ويبدو أن الظلم ستشدد آتافة ظلماته ألما طال بك السكوت فحتى متى تسكت يا جبلاوى؟ الرجال سجناء فى البيوت والنساء يتعرضن فى الحارة لكل سخرية، وأنا أمضغ المهانة فى صمت، ومن عجب أن أهل حارتنا يضحكون ! علام يضحكون؟ إنهم يهتفون للمنتصر أياً آن المنتصر، ويهللون للقوى أياً آن القوى، ويسجدون أمام النبائيت، يدارون بذلك آله الرعب الكامن فى أعماقهم ، غموس اللقمة فى حارتنا الهوان، لا يدرى أحد متى يجئ دوره ليهوى النبوت على هامته، ورفع رأسه إلى السماء فوجدها صامته هادئة ناعسة، يوشى أطرافها الغمام، وتودعها آخر حدأة وانقطع المارة وأن للشحرات أن تزحف وفجأة سمع جبل صوتاً غليظاً يصيح من قريب " : قف يا ابن الزانية . " استيقظ من أفكاره فنهض قائماً وهو يحاول أن يتذآر أين سمع هذا الصوت، ثم اتجه حول صخرة هند إلى الجنوب فرأى رجلاً يراض فى رعب وآخر وراءه يطارده ويوشك أن يلحق به، وأمعن النظر فعرف فى الهارب دعيس وفى المطادر قدرة فتوة حى حمدان، وفى الحال أدرك حقيقة الموقف، ومضى يراقب

المطاردة التي تقترب منه بفؤاد قلق، وما لبث قدرة أن أدرك دعيس فقبض بيده على منكبه وتوقف الاثنان عن العدو هما يلهثان من الجهد . وصاح قدرة فصوت متقطع من البهر:

آيف تجرؤ على مغادرة جحرك يا ابن الأفعى؟ لن تعدو سالماً

فهتف دعيس وهو يحمى رأسه بذراعه

دعنى ياقدرة، أنت فتوة حيناً وعليك أن تدافع عنا

فهزه قدرة هزة أطارت اللاسة عن رأسه وصاح به

أنت تعرف يا ابن اللئيمة إني أدافع عنكم ضد أى مخلوق إلا زقلط

وحانت من دعيس نظرة نحو موقف جبل فرأه وعرفه فناده قائلاً

اغثنى يا جبل، أغثنى فأنت منا قبل أن تكون منهم

فقال قدرة بلغظة وتحدة

لا مغيث لك منى يا ابن الداينة

ووجد جبل نفسه يتقدم منهما حتى وقف عندهما ويهو يقول بمدوء

ترفق بالرجل يا معلم قدرة

فحدجة قدرة بنظرة باردة وهو يقول

إني أعرف ما ينبغى أن أفعله- .

لعل أمراً ضروريا دفعه إلى مغادرة بيته- .

ما دفعه إلا قضاؤه المحتوم

وشد على منكبه حتى أن دعيس أنينا مسموعا ، فقال جبل بجدة

-ترفق به ، ألا ترى أنه آبر منك سنا وأضعف بنية؟

رفع قدرة يده عن منكبه فصفعه على قفاه بقوة تقوس لها ظهره، ثم ضرب برأبته دبره فانكفاً على وجهه، وسرعان ما برك

فوقه وراح يكييل له الضربات وهو يقول بصوت يزفر الغل والحلق:

ألم تسمع ما قال زقلط ؟

واشتغل الغضب فى دماء جبل فصاح به

اللعنة عليك وعلى زقلط اترآه ياقليل الحياء!

فكف قدرة عن ضرب دعيس ورفع رأسه إلى جبل وجها ذاهلاً ثم قال

أنت تقول هذا يا جبل؟ ألم تشهد حضرة الناظر وهو يأمر زقلط بتأديب حمدان؟

فصاح جبل وغضبه أخذ في ازدياد

اتراه يا قليل الحياء

فقال قدرة بصوت يرتعش من الحنق-!

لا تظن أن خدمتك في بيت الناظر تحميك مني إذا أردت محاسبتك

فأنقض عليه جبل آمن فقد وعيه ورآله فألقاه جانبا وصاح به

-عد إلى أمك قبل أن تتكلك.

وثب قدرة قائما وهو يتناول نبوته من على الأرض، ثم رفعه بخفة ولكن جبل بادره بضربة في بطنه من يد قوية فترنح متألما،

وانتهز جبل هذه الفرصة فخطف النبوت من يده ووقف وهو ينظر نحوه بحذر، تراجع قدرة خطوتين ، ثم انحنى بسرعة

خاطفة فالتقط حجراً ولكنه قبل أن يقذف به أصاب النبوت رأسه فصرخ، ودار حول نفسه، ثم سقط على وجهه والدم

يتفجر

من جبينه بغزارة، آن الليل يهبط فنظر جبل فيما حوله فلم ير أحداً إلا دعيس الذي وقف ينفض جلبابه ويتحسس المواضع

التي تؤلمه من جسده، ثم اقترب من جبل وهو يقول ممتناً:

عوفيت من أحر آريم يا جبل

فلم يجبه جبل، وانحنى فوق قدرة فعده على ظهره، ثم تمتم

-أغمى عليه!

فانحنى دعيس فوقه آذلك ثم بصق على وجهه، فجذبه جبل بعيداً عنه، وانحنى فوقه مرة أخرى، وراح يهزه برفق ولكنه لم

يبد أملاً في الإفاقة ، فتساءل:

ماله ؟

فانحنى دعيس فوقه والصق أذنه بصدره، ثم قرب وجهه من وجهه، وأشعل عودا من الثقاب، ثم وقف وهو يهمس

إنه ميت!

فاقشعر بدن جبل وقال

آذبت- .!

ميت ابن ميت وحياتك- .

يا خبير أسود

فقال دعيس مهونا الأمر

آم وآم قتل فليذهب إلى الزبانية!

فقال جبل بصوت حزين وأنه يخاطب نفسه

لكننى لم أضرب ولم أقتل- . .

أنت تدافع عن نفسك-.

لكننى لم أقصد قتله ولا أردته

فقال دعيس باهتمام

إن يدك لشديدة يا جبل، لاخوف عليك منهم، وبوسعك أن تكون فتوة لو أردت

فضرب جبل جبينه بيده وهتف

يا ويلى ، هل أنقلب قاتلا من أول ضربة؟-.

انتبه إلى نفسك ولهم ندفنه وإلا قامت القيامة-.

ستقوم القيامة دفناه أم لم ندفنه-.

لست أسفًا ، عقبى للباقي، عاونى على إخفاء هذا الحيوان

وتناول دعيس النبوت وراح يحفر فى الأرض غير بعيد من الموضع الذى حفر فيه قدرى من قبل، وما لبث جبل أن انظم إليه

بقلب آيب-.

وتواصل العمل فى صمت حتى قال دعيس ليخفف عن جبل ثقل مشاعره-.

لاتحزن فالقتل فى حارتنا مثل آل الدوم

فقال جبل متنهذاً

ما وددت أن آأون قاتلاً قط رباه ما أنت أحسب أن غضبى بهذه الفظاعة؟

ولما فرغا من الحفر وقف دعيس يجفف جبينه بكم جلبابه ويتمخط ليطرده الرائحة الترابية التى تملأ خيشومه، قال بحقد

هذه الحفرة تسع ابن الزانية والفتوات الآخرين

فقال جبل بضحر

احترم الميت فجميعنا أموات

فقال دعيس بحدة

عندما يحترمونا أحياء نحترمهم أمواتاً- . .

ورفعا الجثة فأودعاها الحفرة، ووضع جبل النبوت إلى جانبها ، ثم أهالا عليه التراب

ولما رفع جبل رأسه رأى الليل قد أخفى الدنيا وما عليها فتنهد من الأعمال وهو يكبت نزعا نحو البكاء-.

أين قدرة ؟

سأل زقلط نفسه أما سأل الفتوات الأخرين، لكن الفتوات آنوا يتساءلون أيضا عن صاحبهم الذى اختفى من الوجود أما اختفى رجال حمان من الحارة، آن قدرة يسكن فى الحى التالى لحي حمدان، وآن أعزب يسهر الليل فى الخارج فلا يعود إلى مسكنة إلا مع الفجر أو بعد ذلك ، ولم يكن من النادر أن يغيب عن مسكنه ليلة أو ليلتين، ولكن لم يحدث أبداً أن غاب أسبوعاً آملاً دون أن يعلم أحد بمكانه وبخاصة فى أيام الحصار هذه التى أوجبت عليه أعباء لا يستهان بها من اليقظة والمراقبة، وقامت الظنون حول حمدان فتقرر تفتيش بيوتهم، واقترح الفتوات وعلى رأسهم زقلط ربوعهم ففتشوها تفتيشاً دقيقاً من البدروم إلى السطح، وحفرت الأفنية بالطول والعرض، وتعرض رجال حمدان لإهانات شتى، ولم يسلم أحد منهم من لطمة أو رآلة أو بصقة، ولكنهم لم يعثروا على شئ يريب وتفرقوا فى أطراف الخلاء يسألون فلم يدهم أحد على أمر ذى بال، وبات قدرة الموضوع الذى تدور به الجوزة فى غرزة زقلط تحت تكعيبية العنب بحديقة بيته، آن الظلام يغشى الحديقة عدا نور حى ينبعث من مصباح صغير قائم على الأرض على بعد شبرين من الجمره ليستضيئ به برآت وهو يقطع الحشيش وييططه ، ويفتت الجمرات، ويرص الحجر ويحشنه ليعد الجوزة، وآن نور المصباح الراقص فى مجرى النسيم ينعكس على وجوه زقلط وحمودة والليثى وأبو سريع الكالحة فيبدي عن أعين متراخية الجفون، انعقدت فى نظراتها الشاردة نوايا معتمة، وتعالى نقيق ضفادع أنه استغاثات خرس فى هدأة الليل . قال الليثى وهو يتناول الجوزة من برآت ويوجهها نحو زقلط:

أين ذهب الرجل ؟ آن الأرض بلعته

شد زقلط نفساً عميقاً وهو ينقر الغابة بسبابته ثم زفرة دخانا آثيفا وقال  
قدرة بلعته الأرض وهو راقد فى جوفها منذ أسبوع- . .

تطلعت إليه الأبصار باهتمام عدا برآت الذى بدا مسلوبا بعمله  
فعاد زقلط يقول:

لا يخبى فتوة لغير ما سبب ، وللموت رائحة أعرفها

فتساءل أبو سريع بعد سماع تقوس له ظهره أنه سنبله فى مهب ريح عاتية  
ومن قاتله يا معلم ؟- .

عجيبه ! ومن يكون غير رجل من حمدان- .

لكنهم لا يغادرون بيوتهم وقد فتشناها

فضرب زقلط طرف الشلثة بقبضته وتساءل

ماذا يقول أهل الحارة الآخرون ؟

فقال حمودة

يعتقد حيناً بأن حمدان يدًا فى اختفاء قدرة-! .

أفهموا يا مساطيل ! مادام الناس يعتقدون أن قاتل قدرة فى حمدان فالواجب علينا أن نعتبره آذلك-!

ولو آآن القاتل من العطف-.

ولو آآن من آفر الزغاوى، نحن لا يهمننا عقاب القاتل بقدر ما يهمننا إرهاب آآخرين

فهتف أبو سريع بإعجاب

الله آآبر

فقال الليشى وهو ينفذ الحجر فى الكوز ويعيد الجوزة إلى برآآت

-الله يرحمكم يا آل حمدان.

فدنت عن أفواههم ضحكات جافة اختلطت بنفيق الضفادع وتحرآآت منهم الرؤوس حرآآت الوعيد على حين هبت نسمة

بقوة طارئة أعقبته خشخشة فى الأوراق الجافة، وصفق حمودة بيديه وهو يقول:

لم تعد المسألة صراعًا بين حمدان والناظر ولكنها آرامة الفتوات

فعاد زقلط يضرب طرف الشلثة بقبضته ويقول

لم يقتل فتوة بيد حرته من قبل.

وتصلبت ملامحه من الغضب حتى خاف شره ندماؤه فحذروا أن تند عنهم آمة أو حرآة تحول غضبه إليهم، وساد الصمت

فلم يعد يسمع إلا قرقرة الجوزة وسعلة أو نحنة، وإذا برآآت يسأل:

وإذا عاد قدرة على غير ما نظن؟

فقال زقلط بجنق

-أحلق شاربى يا ابن المسطولة.

آآن برآآت أول من ضحك ثم عادوا إلى الصمت ، تخايلت للأعين المذبحة، والعصى تحطم الرؤوس، والدماء تسيل حتى

تصبغ الأرض ، والصوات يعلو من النوافذ والأسطح ، وعشرات الرجال يصعدون حشرجة الموت، اضطربت فى النفوس رغبة

نمرية فى الافتراس ، وتبادلوا نظرات قاسية لم يهمنهم قدرة لذاته، بل لم يكن أحد منهم يجبه، ولكن يكن أحد منهم يجب

الآخر قط، ولكن جمعتهم رغبة واحدة فى الإرهاب والذود عن الفتونة، وتساءل الليشى:

وبعد ؟

فقال زقلط

ينبغي أن أرجع إلى الناظر آلهد بيننا.

لأول مرة في مصر

النص الكامل لرائعة نجيب محفوظ .. أولاد حارتنا

بعد 35 عاما من غيابها عن الشعب المصرى

\*\*\*

### 31

قال زقلط:

-يا حضرة الناظر ، قتل آل حمدان فتوهم قدرة.

ورآز بصره فى الناظر ، ولكنه آن يرى فى الوقت نفسه هدى هامم إلى يمينه وجبل إلى يمينها، وبدا أن الأفندى لم يفجأه

الخبر، إذ قال:

بلغتنى أنباء عن اختفائه ولكن هل يتستم حقا من العثور عليه؟-

قال زقلط وآن نور الضحى الذى يقتحم باب البهو يؤاد سماحة ملامحه

لن يُعثر عليه ، وأنا خبير بهذه المكائد

فقال هدى بعصبية وهى تلحظ وجه جبل الذى راح ينظر إلى الجدار المواجه له

لو صح أنه قتل لكان ذاك حدثا خطيراً.. .

فقال زقلط وهو يشد على أصابعه المتشابكة

ويقضى عقابا شاملاً أو قولوا علينا وعليكم السلام

فلعبت أصابع الأفندى بجبات مسبحته وقال

إنه يمثل هييننا!

فقال زقلط بترآيز مقصود

ويمثل الوقف آله!

وخرج جبل من صمته قائلاً

لعلها جريمة مزعومة لم تقع؟

واندفع الغضب في صدر زقلط لدى سماعه صوت جبل فقال  
لا ينبغي أن نضيع الوقت في الكلام- . .  
هات دليلاً على مقتله  
فقال الأفندي بلهجة اصطنع لها القوة ليخفي ماوراءها من ارتياب  
لا يخفى أحد من أبناء حارتنا على هذا النحو إلا أن آآن قُتل!  
ولم تفلح زفرات الخريف الرطبية في تلطيف هذا الجو المشحون بالنوايا الدموية فهتف زقلط  
الجريمة تناديننا بصوت سوف تسمعه الحوارى المحاورة وما الكلام إلا مضيعة الوقت.  
لكن جبل قال باصرار:  
رجال حمدان فى بيوتهم مسجونون!  
فضحك زقلط بصوته دون وجهه وقال ساخرًا  
فزروة حلوة!  
ثم وهو يستريح فى مجلسه ويتحدان بنظرة نافذة  
لا يهتمك إلا تبرئة أهلك!  
ومع أن جبل بذل جهدًا صادقًا لشكم غضبه إلا أن صوته احتد وهو يقول  
الأسباب وأحيانًا بلا سبب ، وما همك الآن إلا الحصول على إذن لإحداث مذبحه فى- .  
قوم مسلمين  
يهمنى الحق، إنكم تعتدون لأوهى  
وتبدى الحقد فى عيني زقلط وهو يقول:  
أهلك مجرمون ، قتلوا قدرة وهو يدافع عن الوقف  
فالتفت جبل نحو الأفندي وقال  
ياسيدى الناظر لاتسمح لهذا الرجل بإشباع شراسته الدموية  
فقال الأفندي  
إذا ضاعت هيبتنا ضاعت حياتنا!  
وتساءلت هدى وه تنظر نحو جبل  
أتريد أن ندفن أحيا فى حارتنا ؟  
فقال زقلط بحنق



إنك تنسى فضل أصحاب الفضل عليك وتذآر المجرمين  
وارتفعت موجة الغضب فى صدر جبل حتى قلقلت جذور إرادته فقال بصوت شديد  
-ليسوا مجرمين وإن غصت حارتنا بالمجرمين!

قبضت يد هدى بشدة على طرف شالها الأزرق، وتحآرت فتحتا أنف الأفندى وقد عبرت وجهه صفرة، فتشجع زقلط بهذه  
المظاهر وقال بمقد ساخر:

لك عذر فى دفاعك عن المجرمين ما دمت منهم- . .

تمحملك على المجرمين شئ لا يصدق ، وأنت شيخ الإجمام فى حارتنا  
قام زقلط قومة عنيفة وقد أربد وجهه وقال  
لولا مكانتك عند آل هذا البيت لأخرجتك من مجلسك على أجزاء ،  
فقال جبل بهدوء مخيف يشف عما تحته

أنت واهم يا زقلط

وصاح الأفندى

أتجرؤون على هذا أمامى ؟

فقال زقلط ببحث

إنى أناطحه دفاعاً عن هيبتك

فأوشكت أصابع الأفندى أن تفتك بالمسيحة، وخاطب جبل بشدة قائلاً

لا أسمح لك بالدفاع عن حمدان- . .

هذا الرجل يفترى الكذب عليهم لغاية سوء فى نفسه

دع هذا لتقديرى أنا

وساد الصمت هنيهة ترامت من الحديدية زفرقة لاهية، وتعالت فى الحارة موجة تهليل صاحبة يتخللها سباب فاحش،

وابتسم زقلط قائلاً:

أبأذن لى حضرة الناظر فى تأديب الجناة؟

أيقنل جبل أن ساعة المنايا قد دنت فالتفت نحو الهاتم وقال يائسا

سيدى ، سأجد نفسى مضطراً إلى الانضمام إلى أهلى فى سجنهم لألقى معهم مصيرهم

فهتفت هدى فى عصبية ظاهرة

-ياخيبة رجائى!

فتأثر جبل حتى انحنى رأسه، ودفعه شعور مرهف إلى أن ينظر نحو زقلط فرأه يتسم ابتسامة شماتة آريهة فانطبقت شفثاه في حنق، ثم قال في أسي:

لا خيار لي ، ولن أنسى صنيعك معي ما حييت

فحدجه الأفندى بنظرة قاسية وسأله

يجب أن أعرف إن آنت معنا أم علينا ؟

فقال جبل بجزن وهو يشعر بأنه في الترع الأخير من حياته الراهنة

ما أنا إلا ريبب نعمتك فلا يمكن أن آآون عليك، ولكن من العار أن أترك أهلي يبادون وأنا أنعم بظلك

وقالت هدى وهى تتلوى من انفعال الأزمة التى تهدد أمومتها

يا معلم زقلط فلنؤجل الحديث إلى وقت آخر

فقط زقلط آآما رآب على وجهه حافر بغل، ونقل عينيه بين الأفندى وزوجته ثم تتمم

لا أدرى ماذا يحدث غدآ في الحارة؟

فتجنب الأفندى النظر إلى هدى وتساءل

أجبنى يا جبل آآنت معنا أم علينا ؟

وتمادت موجة الغضب به حتى بلغت قمة رأسه فهتف دون ان ينتظر الجواب

فإما أن تبقى معنا آواحد منا وإما أن تذهب إلى أهلك!

وثار جبل وخاصة وهو يلحظ أثر هذا القول في صفحة وجهه زقلط فقال بعزم

يا سيدى إنك تطردنى وإنى ذاهب

وهتفت هدى بصوت معذب

جبل!

وهتف زقلط ساخرآ

-أمامكم الرجل آما ولدته أمه.

وضاق جبل بمجلسه، فقام ، ثم سار بخطوات ثابتة نحو باب البهو ، ووقفت هدى ولكن ذراع الأفندى حالت دون تحرآها،

وسرعان ما اختفى جبل ، وفى الخارج هبت ريح تحرآت بما الستائر واصطفت مصاريع نوافذ، وامتلأ جو البهو بتوتر

وانقباض،

وقال زقلط بهدوء:

ينبغى أن نعمل- . .

ولكن هدى قالت باصرارا وعصية يندران بالعناد

من فوز ، ورفع إلى

الناظر عينا متسالة

آلا ، حسبهم الآن الحصار ، وحذار أن يُمس جبل بشر، لم يغب زقلك إذ أنه لم يهضم بعد ما أحرز

فقال الأفندي وهو يبدو آمن يتمسس ليمونه:

-سنعود إلى الحديث مرة أخرى.

## 32

ألقى جبل نظرة وداع على الحديقة والمنظرة فتذآر مأساة أدهم التي ترويهها الرباب آل مساء ، واتجه نحو الباب فوقف له

البواب وهو يتساءل:

ماذا يدعوك إلى الخروج ثانية ياسيدى ؟

فقال جبل بامتعاض

إني ذاهب بلا عودة ياعم حسنين.

ففغر الرجل فاه وجعل ينظر إليه مليا في انزعاج ثم غمغم متسائلا:

بسبب آل حمدان ؟

فأحنى جبل رأسه صامتا، فعاد البواب يقول

من يصدق هذا ؟ آيف تسمح به الهام؟ يارب السماوات وآيف تعيش يابنى ظفعبير جبل عتبة الباب مرسلأ بصره إلى

الحارة المكتظة بالناس والحيوان والقاذورات وهو يقول

آما يعيش أهل حارتنا-! .

لم تخلق لهذا

فابتسم جبل ابتسامة ذاهلة وقال

إنها الصدفة وحدها التي انتشلتني منه- . .

ومضى يتعد عن البيت وصوت البواب يجذره في حسرة من التعرض إلى غضب الفتوات

وامتدت أمام عينيه الحارة بأتربتها ودوايها وقططها وغلمانها وجحورها فأدرك مدى الانقلاب الذي جرى على حياته، ما

ينتظره

من متاعب، وماخشره من نعيم ، لكن غضبه غطى على آلامه فبدا وأنه لايبالى بالأزهار والعصافير والأمومة الحانية، ومر في سبيله بالفتوة حمودة فقال هذا بسخرية ملساء.

ليتك تعبرنا قوتك لنؤدب بها آل حمدان

فلم يعره التفاتا وقصد ربعا آبيرا من ربوع حمدان وطرقه، وإذا بحمودة يلحق به ويسأله في دهشة واستنكار ماذا تريد ؟

فأجابه في هدوء

-إني أعود إلى أهلي.

وارتسمت الدهشة في عيني حمودة الضيقتين وبدا أنه لا يصدق ما سمع، ورأهما زقلط وهو يغادر بيت الناظر متجها نحو مسكنه فصاح بحمودة:

-دعه يدخل، وإذا خرج بعد ذلك أدفنه حيا.

فرايلت حمودة دهشة وابتسم ابتسامة بلهاء متشفية، ومضى جبل يطرق الباب حتى فتحت نوافذ في الربيع وفي البوع الملاصقة وأطلت رؤوس آثيرة من بينها حمدان وعتريس وضلمة وعلى فوانيس وعبدون ورضوان الشاعر وتمر حنة، وتساءل ضلمة ساخرت:

ماذا تريد يا ابن الآأبر ؟

وسأله حمدان

معنا أم علينا ؟

فصاح حمودة

طردوه فعاد إلى أصله القدر!

فتساءل حمدان بلهفة

طردوك حقا ؟

فقال جبل بهدوء

افتح الباب يا عم حمدان

وزغردت تمر حنة ثم صاحت

آن أبوك رجلاً طيباً وأمك امرأة شريفة

فضحك حمودة قائلاً

مباراة عليك شهادة الزانية

فصاحت تمر حنة غاضبة

-اسم الله على أمك ولياليها الملاح عند حمام السلطان.

وأسرعت بإغلاق النافذة فصلت الحجر المنطلق من يد حمودة الضلفة من الخارج محدثا دويما هلل له الصبية في الأران،  
وفتح باب الربع فدخل جبل مستقبلا جواً رطباً وهواء غريب الرائحة، واستقبله أهله بالعناق واختلطت الكلمات الطيبات،  
ولكن قطع الترحيب عليهم جمععة شجار أتية من أقصى الحوش فنظر جبل فرأى دعيس مشتبكا في شد وجذب مع رجل  
يدعى آعلها، فمضى نحوهما ودفع نفسه بينهما وهو يقول بحدة:

تتشاجران وهم يحسوننا في بيوتنا!

فقال دعيس خلال أنفاسه المضطربة

سرق البطاطة من حلة على نافذتي

وصاح آعلها

هل رأيتني وأنا أسرق؟ حرام عليك يا دعيس!

فصاح جبل غاضبا

لفنرحم أنفسنا آى يرحمنا من فى السماء!

فكن دعيس قال باصرار

بطاطتى فى بطنة وسأستخرجها بيدى

فقال آعلها وهو يعيد طاقيته إلى رأسه

والله ما ذقت البطاطة من أسبوع.

أنت اللص الوحيد فى هذا الربع

فقال جبل:

لا تقض بلا دليل آما يفعل زقلط معكم

فصاح دعيس

لابد من تأديب ابن الخطافة

فصرخ آعلها

-يادعيس يا ابن بياعة الفجل!

وثب دعيس على آعلها فنطحه فترنج آعلها وسال الدم من جبينه، وراح يكييل له الضربات غير مبال بزجر الواقفين حتى

غضب جبل فانقض عليه وقبض على عنقه بشدة وعبثا حاول دعيس أن يتخلص من قبضة جبل فقال بصوت مبحوح:

-أتريد أن تقتلني أما قتلت قدرة؟

فدفعه جبل بقوة فارتدى على الجدار وراح يحدق فيه بحنق وغيظ وردد الرجال أبصارهم بين الرجلين، وتسساءلوا أجبل حقاً الذى قتل قدرة؟ وقبله ضلمة، وصاح عتريس " : فلتحل بك البرآة يا خير آل حمدان " ، وقال جبل لدعبس حانقا:

لم أقتله إلا دفاعا عنك!

فقال دعبس بصوت منخفض

لكن استحليت القتل

فصاح ضلمة

يا لك من جاحد يا دعبس، أحجل من نفسك يا رجل

ثم وهو يجذب جبل من ذراعه

ستزل ضيفا على فى شقتى .. تعال يا سيد حمدان-! !

طاوع جبل يد ضلمة لكنه شعر بأن الهاوية التى انفتحت اليوم تحت قدميه لا قرار لها

وهمس متسائلا فى أذنه وهما يسيران معا:

ألا يوجد سبيل إلى الهرب؟

فقال ضلمة باستنكار

اتخاف يا جبل أن يشى بك أحد إلى أعدائك؟-.

دعبس أحمق-.

نعم أحمق-!

نعم ولكنه ليس بالنذل-!

أخاف أن يثبت عليكم التهمة بسببى

فقال ضلمة بثقة

سأدلك على طريق الهرب إذا أردته، ولكن أين تقصد؟

الخلاء واسع لا يحيط به خاطر

33

لم يتيسر الفرار للجبل إلا فى الهزيع الخير من الليل، جعل ينتقل من سطح إلى سطح فى هأة الليل، وفى رعاية النوم

المترفق بالأحضان حتى وجد نفسه فى الجمالية، ومضى رغم الظلام الحالك نحو الدراسة ثم مال نحو الخلاء، متجها نحو صخرة هند وقدرة، فلما بلغها على ضوء النجوم الخافت لم يعد بوسعه أن يغالب النوم من فرط ما نال منه الأعياء والسهر، فاستلقى على الرمال ملتفعا بعباءته وغط فى النوم وفتح عينيه مع أول شعاع يضاء أعلى الصخرة، فقام من فورهِ آى يصل إلى الجبل قبل أن يعبر الخلاء عابر ، لكنه انجذب نحو البقعة التى دُفن فيها قدرة قبل أن يهيم بالسير ارتعدت فرائصه وهو ينظر إليها حتى جف ريقه ثم فر بنفسه وهو فى ضيق شديد، ما قتل إلا مجرماً، لكنه بدا المطارد وهو يتعد عن قبره وقال لنفسه " : لم نخلق لنقتل وإن فاق عدد قتلائنا الحصر " وعجب لنفسه آيف أنه لم يجد مكاناً ينام فيه إلا المكان الذى دُفن فيه قتيله، وشعر برغبته فى الابتعاد تتضاعف، وأن عليه أن يودع إلى الأبد من يجب ومن يكره على السواء، أمه وحمدان والفتوات إلى الأبد . وبلغ سفح المقطم ونفسه تفيض بالأسى والوحشة فسار معه نحو الجنوب حتى بلغ سوق المقطم وسط الضحى ، وألقى نظرة طويلة إلى الخلاء وراءه ، وقال فى شئ من الاطمئنان " : الآن بعد ما بى وبينهم " ، وراح يتفحص

سوق المقطم أمامه، ذلك الميدان الصغير الذى تصب فيه جملة حوارى من جميع نواحيه، وتتساعد من جنباته ضوضاء عالية تختلط فيها أصوات الأدميين بنهيق الحمير، وآان ثمة ما يدل على مولد يقام لإزدحام الميدان بالمارة والباعة والمجدويين والدراويش والمهرجين، رغم أن حرارة المولد الحقيقية لا تبدأ قبل الغروب، فقلقت عيناه بين أمواج البشر المتلاطمة، ورأى عند حافة الخلاء آوخاً من الصفائح صنعت حوله مقاعد خشبية فبدا على حقارته أصلح مقهى فى السوق وأحفله بالزبائن، فاتجه نحو مقعد خال وجلس بجسم اشتد حنينه إلى الراحة، وأقبل نحوه صاحب الكوخ محتفلاً بمظهره المتميز بين الجلوس بعباءة فاخرة وعمامة عالية ومرآوب ثمين فطلب قدح شاي وراح يتسلى بمتاعبة الناس، ومالبت أن جذب سمعه ضوضاء، اشتدت حول آشك حنفيه مياه عمومية، رأى الناس يتزاحمون أمامها ليملأوا أوعيتهم بالماء، وآان التزاحم آالقتال عنفا وضحايا، فارتفع الصخب وتهاوت اللعنات، ثم ندت صرخات رفيعة حادة من الوسط عن فتاتين غرقتا فى لجة الزحام وراحتا تتراجعان لتنجوا بنفسيهما حتى خرجتا من المعترك بصفيحتين فارغتين، بدتا فى جلبابين فاقعى الألوان ينسدلان على جسميهما من العنق حتى الكعبين، فلم يظهر منهما إلا وجهان يزهر فيهما الشباب، مرت عيناه باقصرهما دون توقف ، ثم ثبتتا على الأخرى ذات العينين السودتين فلم تتحولاً عنها، أقبلتا نحو مكان خال قريب من مجلسه فتبين فى ملامحهما شبهاً أخوياً على تميز جاذبته بقسط أوفر من الحس، فقال جبل لنفسه منتشياً " : ما أبدع هذه الملاحظة، لم تقع عيني على مثلها فى حارتنا " ، وقفتا تسويان ما تشعث من شعريهما وتعيذان لحمار إلى رأسيهما، ثم وضعتا الصفيحتين مقلوبتين وجلستا عليهما، والقصيرة تقول مشتكية:

آيف نملأ الصفيحة فى هذا الزحام ؟  
فقال جاذبته:

المولد أجارك الله ! وأبونا ينتظر غاضبا!  
فدخل جبل في الحديث دون وعى منه متسائلا  
لماذا لم يحضر بنفسه ليماً الصفيحتين  
فالتفتا نحوه باحتجاج، ولكن منظره المتميز لم يخل من أثر مسكن فآتفت فتاته بأن قالت  
ما شأنك أنت ! هل شكونا إليك ؟  
فسر جبل بخطأها وقال معتذراً  
أردت أن أقول أن الرجل أقدر على اقتحام زحام المولد- !  
هذا عملنا ، وله عمل أشق

فتساءل مبتسماً  
ماذا يعمل أبوك ؟-  
هذا ليس من شأنك  
وقام جبل غير مبال بالأعين المحدقة حوله، حتى وقف أمامهما وقال بأدب  
سأماً لكما الصفيحتين  
فقال جاذبته وهي تدير عنه وجهها  
لسنا في حاجة إليك!  
ولكن القصيرة قالت بجرأة  
-افعل ولك الشكر.

وقامت وهي تشد الأخرى لتقوم معها، فتناول جبل الصفيحتين من مقبضيهما، وسار بجسمه القوى يشق الزحام ويرتطم  
بالرجال ويلاقى الجهد، حتى بلغ الحنفية التي يجلس وراءها الساقى في أشكه الخشبي، فنقده مليمين ، وملاً  
الصفيحتين وعاد بهما نحو موقف الفتاتين وأزعجه أن يجد الفتاتين مشتبكتين مع بعض الشبان في معركة الآمية بسبب  
معااستهم لهما، فوضع الصفيحتين على الأرض وتصدى للشبان مهدداً، وتحرش به أحدهم ولكنه صرعه بضربة في صدره  
فتجمع الشبان للهجوم عليه وهم يسبون، غير أن صوتاً غريباً صاح بهم:  
-أذهبوا يا شين الرجال.

اتجهت الأبصار نحو رجل آهل، فصير مدمج الخمس، براق العينين، يشد جلبابه على وسطه بحزام فهتفوا خجلين " : المعلم  
البلقيطى " وسرعان ما تفرقوا وهم يرمقون جبل بنق، ولاذت الفتاتان بالرجل القصير تقول:  
اليوم عسير بسبب المولد وهؤلاء الأوغاد.



فقال البلقيطى يجيبها وهو يتفحص جبل  
تذآرت المولد لتأخيرآما فجئت ، جئت فى الوقت المناسب

ثم خاطب جبل قائلاً

وأنت من أهل الشهامة وما أندرهم فى أيامنا!

فقال جبل فى حياء

- ما هى إلا مساعدة تافهة لاتستحق شكرآ.

وفى أثناء ذلك حملت الفتاتان الصفيحتين وغادرتا المكان صامتين . ود جبل أن يملأ من المليحة عينيه ولكنه لم يجرؤ على  
نزعهما من عينى البلقيطى الحادثتين، خيل إليه أن هذا الرجل يستطيع أن يرى الأعماق فخشى أن يقرأ رغائبه ولكن  
المعلم قال:

-دفعت عنهما الأشرار، أمثالك يستحقون الحب، وهؤلاء الشبان آيف تجرأوا على التحرش بابنتى البلقيطى؟ أهما البوطة!  
ألم تلاحظ أنهم سكارى؟

فهز جبل رأسه نفيآ فقال الآخر:

إن أشم آلجن الأحمر، ما علينا ألا تعرفنى؟-

آلا يا معلم، لم يحصل لى هذا الشرف

فقال بثقة

إذن فأنت لست من هذه الناحية- .

بلى- .

أنا البلقيطى الحاوى

وأء وجه جبل بنور التذآر المباغت فقال

-حصل لنا الشرف ، آثيرون يعرفونك فى حارتنا.

وما حارتكم؟-

حارة الجبلاوى

فرفع البلقيطى حاجبيه الخفيفين الأبيضين وقال بصوت منغوم

أنعم وآرم، منذا الذى يجهل الجبلاوى صاحب الوقف؟ أو فتوتكم زقلط ! وهل جئت للمولد يامعلم؟-

جبل

ثم قال بمكر

-جئت أبحث عن مقام جديد.  
هجرت حارتك؟-

نعم

فاشند تفحص البلقيطى له ثم قال:

مادام يوجد فتوات فلا بد أن يوجد مهاجرون ! ولكن خبرنى اقتلت رجلاً أم امرأة ؟

فانقبض قلب جبل وقال بثبات

مزاحك ليس لطيفاً لمثلك!

فضحك البلقيطى عن فم حرب وقال

السرقه، فمثلك لا يهاجر من حارته إلا بسب القتلى!

فقال جبل بحده وضيق

لست من الرعاع الذين يعبث بهم الفتوات، ولا أنت من أهل

قلت لك.

فقاطعه قائلاً

ياسيدى أنا لا يهمنى أن تكون قاتلاً خاصة بعد أن ثبتت لى شهامتك ما من رجل هنا إلا وقد سرق أو نهب أو قتلن

ولكن-.

تطمئن إلى صدق قولى فإنى أدعوك إلى فنجان قهوة ونفسين فى دارى

فعاود الأمل جبل وقال:

حبا وشرفا

سارا جنبا إلى جنب يخرقان السوق نحو حارة قلة، وعندما خلفا الزحام ورأهما سأله البلقيطى

أنت تقصد أحدا فى حيننا؟

لا أعرف أحداً

ولا مأوى؟-

ولا مأوى

فقال البلقيطى فى انبساط

فرقص قلب جبل فرحا وقال

ما أنبلك يا معلم بلقيطى

فقال الرجل ضاحكا

آن ضيفى إذا شئت حتى تجد لنفسك مأوى.

لا تعجب لذلك ، فى دارى تقيم الشعابين والحيات فكيف تضيق عن إنسان؟ هل أفرعك قولى؟ إني حاوٌ وستعرف عندى.-

آيف تستأنس الشعابين

عبرا الحارة فانتهايا إلى خلاء لايجد، ورأى جبل فى مطلع الخلاء دار صغيرة بعيدة عن الحارة، جدرانها أحجار غير مطلية،

لكنها تعتبر جديدة بالقياس إلى بيوت حارة قلة المتداعية، فأشار البلقيطى إليها وقال بفخار:

-بيت البلقيطى الحاوى.

34

ولما بلغا البيت قال البلقيطى:

-اخترت هذا المكان المنعزل لبيتى لأن الناس لا يرون فى الحاوى إلا شعبانا آبيراً.

دخلا معا إلى دهليز غير قصير يفضى فى نهايته إلى حجرة مغلقة، على حين قامت على الجانبين حجرتان مغلقتان، وأردف

البلقيطى وهو يشير إلى الحجرة المواجهة للداخل:

هذه الحجرة توجد أدوات العمل، الحى منها والجماد، لاتخش شيئا فبايها محكم الإغلاق، أوآد لك ان الشعابين أصلح-!

للمعاشرة من أناس آثيرين، آالذين فررت منهم مثلا

ثم ضحك آاشفا عن فيه الحرب وقال:

الناس تخاف الشعابين، حتى الفتوات تخافها، أما انا فأدين لها برزقى، وبفضلها أقممت هذا البيت

وأشار إلى الحجرة اليمنى وهو يقول

ماتت أمهما من زمن تارآة إياى لشيخوخة لا تصلح للزواج من جديد ) ثم أشار إلى اليسرى ( وهنا سننام.-

معا

هنا تنام ابتناى،

وترامى صوت الفتاة القصيرة من سلم جانبى يصعد إلى السطح وهى تنادى:

شفيقة، ساعديني فى العسل ولا تقفى هكذا آالحجر بلا عمل

فصاح البلقيطى

-يا سيدة ! صوتك سيوقظ الثعابين، وأنت يا شفيقة لا تقفى الحجر ! اسمها شفيقة ! ما أبدع المليحة ! وزجرها غير الجارح

، والشكر الصامت فى عينيها السوداوين، من يخبرها بأنه ما قبل هذه الضيافة الخطيرة إلا من أجل عينيها ؟  
ودفع البلقيطى باب الحجره اليسرى وأوسع لجبل حتى دخل ثم تبعه ورد الباب ومضى الرجل إلى آنبه تمتد بطول الحجره الصغيره فى جانبها الأيمن، متأبطا ذراع جبل حتى جلسا معاً، وأحاط جبل الحجره بنظرة واحده، فرأى فراشا فى الجانب الآخر مغطى ببطانية ترابية اللون، وفى ارض الحجره فيما بين الفراش والكنبة حصيرة مزرآشة تتوسطها صينية نحاس حال لوها من آثرة البقع، ويرقد وسطها موقد هرمى الرماد ، مرآونه إلى قائمه جوزة ، وعلى مسطح حافظه سيخ وآماشه وحفنة من معسل جاف، ولم يكن يرى من النافذة الوحيدة المفتوحة إلا الخلاء والسما الشاحبة وجدار شاهق دآآن عن بعد من جدران المقطم، على حين ورد منها خلال الصمت المخيم زعيق راعية ونسائم مشبعة بجرارة الشمس الساطعة، وآآن البلقيطى يتفحصه لحد المضايقة، ففكر فى أن يشغله عن نفسه بالحديث ، ولكن السقف فوقهما اهتز لوقع أقدام تمشى فوق السطح فاهتز قلب جبل، تخيل أول ما تخيل قدميها ففاض قلبه برغبة آريمة فى أن تحل السعادة بالبيت ولو انطلقت ثعابينه، وقال لنفسه " : قد يغتالى هذا الرجل ويدفننى فى الخلاء آما دفنت قدرة دون أن تدرى فتاتى إنى ضحيتها هى."

وأيقظه صوت البلقيطى وهو يسأله:

هل لك عمل ؟

فأجابه وهو يتذآر آخر نقود يملكها فى جيبيه

-سأجد عملاً ، أى عمل.

لعلك فى غير حاجة عاجلة إلى عمل ؟

فداخله شئ من القلق لهذا السؤال وقال

بل يحسن بى أن أبحث عن عمل اليوم قبل الغد-! !

لك جسم فتوات-!

لكنى آآره العدوان

فضحك البلقيطى وتساءل

ماذا أنت تعمل فى الحارة ؟

فتردد قليلاً ثم قال

-أنت أعمل فى إدارة الوقف.

ياخير أسود ، وآيف تمجر هذا النعيم ؟  
حظى

هل طمعت عينك فى إحدى الهوام ؟- .  
اتق الله يا شيخ- .

إنك شديد الحذر، ولكنك ستانس إلى سريعا وتفضى لى بكل أسرارك  
إن شاء الله  
معك نقود ؟

فعاوده القلق ولكنه لم يكشف عنه، وقال براءة  
عندى قليل منها لن يغنى عن السعى  
قال البلقيطى وهو يرمش

أنت ذآى آالعفارىت، ألا تدرى إنك تصلح حاويا ؟ لعلنا نتعاون معا ، لا تدهش لقولى، فإنى عجوز فى حاجة إلى المعين  
لم يأخذ قوله مأخذ الجد ولكنه آن مدفوعا برغبة عميقة إلى توثيق صلته به، وهم بأن يتكلم ولكن الآخر بادره قائلا  
سنفكر فى ذلك على مهل ، أما الآن- . .

ونخص الرجل، ومال فوق الموقد فرفعه ، ومضى به خارجا آنما ليشعله

وقبيل العصر خرج الرجلان معا، فمضى البلقيطى إلى تجواله، وقصد جبل السوق للفرجة والتسوق، وعاد مع المساء إلى  
الخلاء، فاهتدى إلى البيت المنعزل على بصيص نور ينبعث من نافذة، ولما بلغ البيت ترامت إلى أذنيه أصوات محتدمة فى  
نقاش فلم يملك أن يصغى سمع سيدة تقول:

إن صح ما تقول يا أبى فإن وراءه جريمة، ونحن لا قبل لنا بفتوات الحارة  
فقال شفيقة

لا يبدو أنه مجرم

فقال البلقيطى بسخرية واضحة

وهل عرفته لهذا الحد يا بنت الأفاعى ؟

فقال سيدة

لماذا يهرب من النعيم ؟

فقال شفيقة

من حارة أشتهرت بكثرة فتواتها!

فتساءلت سيدة بسخرية

ليس عجيباً أن يهرب الإنسان

من أين أتت هذه القدرة على معرفة الغيب ؟

فقال البلقيطى متنهداً

-معاشرة الثعابين جعلتني أنجب حيتين!

-أستضيفه يا أبي وأنت لا تدري عنه شيئاً ؟

لى عينان يعتمد عليهما عند الحاجة، ثم استصفه متأثراً بشهامته ولن أرجع عن-

رأى

عرفت عنه أشياء ، وساعرف آل شئ

-ما آن يتردد عن الذهاب فى غير هذا الظرف ألم يهجر بيت النعيم بلا تردد؟ ولكنه يدعن للقوة التى تشده إلى هذا البيت

..وطرف منه الفؤاد حتى سكر لسماع الصوت الذى دافع عنه صوت الحنان الذى بدد وحشة الليل والخلاء وجعل الهلال

الساح فوق الجبل يتسم آمن يزف بشرى فى الظلام ، ولبت ينتظر فى الظلام، ثم سعل، واقبل الباب فطرقة فتح الباب

عن وجه البلقيطى الذى انعكس عليه ضوء المصباح فى يده، وذهب الرجلان إلى حجرتهما، فجلس جبل بعد أن ترك فوق

الصينية النحاس لفة جاء بها، ونظر البلقيطى إلى اللفة متسائلاً فقال جبل:

تمر وجبن وحلاوة طحينية وطعمية ساخنة

فابتسم البلقيطى ، وجعل يشير إلى الجوزة تارة وإلى اللفة أخرى ويقول

خير الليل ما مضى بين هذا وذاك

وربت آتفه متودداً وهو يتساءل

أليس آذلك يا ابن الواقف ؟

وانقبض قلبه على رغبة، وتوالت على مخيلته صور الهائم التى تبنته والحديقة الغناء باعراش الياسمين والعصافير والمياه

الجارية، والطمأنينة والسلام والأحلام الناعمة . دنيا النعيم الزائلة، حتى أوشكت الحياة أن تفسد، وإذا بموجة تدفع ذآرياته

الغارقة فى الآسى إلى بر الأمان، إلى هذه الصبية الودودة الطيبة إلى القوة الساحرة التى تشده إلى بيت فيه وآر

للثعابين ، فقال بحماس غير متوقع آتوهج مصباح أثر هبة نسيم:

-ما أطيّب الحياة فى جوارك يا عم.

لم يعطف عليه النوم إلا قبيل الفجر إذا عانى من الخوف آثراً . . وزارة طيفها في هلوسة المخاوف أما تساقط أوراق الياسمين على حشائش جافة تسعى بينها الحشرات . أبداً الأوهام التي تلدها الظلماء في البيت الغريب .  
وقال لنفسه في الظلام " : ما أنت إلا غريب في بيت الثعابين، تطاردك جريمة ويهتز قلبك بالعشق " ، ولو ترك وشانه ما رغب

في غير السلام والدعة، وما خاف الثعابين قدر خوفه الغدر من ناحية ذلك الرجل الذي يتعالى شخيره في فراشه، فمن أدراه ان شخيره صادق؟ وما عاد يطمئن إلى صدق شيء، حتى دعس المدين له بجياته ستديع حماقته السر فيثور زقلط وتبكي امه وتندلع النيران في الحارة التعيسة والحب الذي شده إلى هذا البيت، وإلى حجرة رفيقة مروض الثعابين، من أدراه أنه سيعيش حتى يصرح بمكنونه، هكذا لم يعطف عليه النوم إلا قبيل الفجر بعد أن عانى من الخوف آثراً .  
وفتح عينيه المثقلتين عندما نصحت النافذة المغلقة بنور الصباح، رأى البلقيطى جالساً في فراشه متقوس الظهر يدك بيديه المعروقتين ساقية وتحت إبطه وابتسم في ارتياح رغم الدوخة الملمة برأسه لقلة النوم، لعن الأوهام التي تعشش في الرأس في الظلام وتتبدد في النور الخفافيش، أليست أوهاماً جديدة بسوء ظن قاتل؟ أجل، إن أسرتنا الجيدة تجرى في دماها الجريمة منذ القدم، وسمع البلقيطى يتشاءب بصوت مرتفع متمواج آالحية الراقصة فهاج صدره وراح يسعل طويلاً بشدة حتى خيل إليه أن وجهه سيلفظ عينيه ، ولما سكت السعال تأوه الرجل من الأعمال فقال:

صباح الخير

وجلس على الكنية فالتفت البلقيطى نحوه ووجهه مازال محتقناً من السعال وقال

-صباح الخير يا معلم جبل . يا من لم ينم من الليل إلا أقله .

لعل وجهي متغير؟-!

بل أذآر تقلبك في الظلام والتفاتات رأسك نحوى الخائف- .

يا لك من ثعبان ! ولكن آن ثعبانا غير سام وحق العينين السوداوين- .

الحق أنى أرقى لتغيير مكان النوم

فضحك البلقيطى قائلاً

أرقت لسبب واحد وهو أنك أنت تخافنى على نفسك، قلت سيقتلنى ويسلبنى نقودى ثم يدفننى فى الخلاء أما فعلت- .

أنا بالرجل الذى قتلته

أنت-! ..

اسمع يا جبل، الخوف شديد الإيذاء ، والثعبان لا يلدع إلا عند الخوف

قال جبل في انهزام خفى

إنك تقرأ ما ليس في الصدور.

أنك تعلم أنني ما جاوزت الحق يا موظف الوقف السابق

وترامى صوت من الداخل ينادى بقوة " : يا سيدة تعالى " فشعشع روحه بانيساط غير متوقع هذه الحمامة الزاجلة في وآر

الثعابين، التي فضت له بالباءة وجذبتة إلى شجرة الآمال المورقفة . وقال البلقيطى وأنه يعلق على نشاط شفيقة.

النشاط يدب في بيتنا منذ الصباح الباآر ن فتنتلق هاتان البنتان إلى الطريق لتعودا بالماء والمدمس لتطعما أباهما العجوز-.

ثم ترسلاه بجراب الثعابين ليلتقط لنفسه ولهما الرزق

وحلت السكينة بقلبه، وشعر بأنه عضو في هذه الأسرة ، وفاضت نفسه بالمودة، فترع إلى فتح صدره والتسليم إلى

مقاديره في عفوية لا تقاوم فقال:

يا معلم ، بالحق سأقص عليك قصتي

فابتسم البلقيطى وتشاغل بتدليك ساقيه فعاد جبل يقول

إنى قاتل أما قلت، ولكن لى قصة

وقص عليه قصته، ولما فرغ قال الرجل

يا لهم من قوم ظالمين، أما أنت فرجل شهيم ولم يخب نظرى فيك

واعتدف في جلسته باعتزاز ثم قال

من ححك الآن أن أبادلك صراحة بصراحة، فاعلم أنى انتسب فى الأصل إلى حارة الجبلاوى-! .

أنت-!

نعم ، وفررت منها فى صدر الشباب ضيقا بفتواتها

فقال جبل والدهشة لم تزايله بعد

هم شقاء حارتنا- . .

-نعم ، لكننا لا ننسى حارتنا رغم فتواتها، ولذلك احببتك عندما عرفت أصلك

من اى حى أنت ؟- .

من حى حمدان مثلك

يا للعجب

لاتعجب لشيء فى هذه الدنيا ، فكنه تاريخ مضى من بعيد، فلا أحد يعرفنى الآن ولا تمر حنة نفسها التى تربطنى بها

صلة قربى .



أعرف هذه السيدة الشجاعة، ولكن من آن غريمك من الفتوات ؟ زفلط ؟-.

لم يكن فى ذلك العهد إلا فتوة حى حقير-!

قلت هم شقاء جارانا-.

أبصق على الماضى بكل ما فيه

ثم بلهجة فيها إغراء

-اشغل نفسك منذ الساعة بمستقبلك، وها أنذا آزر لك القول بأنك تصلح حاوياً ماهراً، ولنا مجال مريح فى الجنوب من هنا بعيدا عن حارتنا، وعلى أى حال ففتواتكم واتباعهم لا يظهرون فى هذا الحى، لم يكن بطبيعة الحال يدرى شيئا عن فن الحواة ولكنه ربح به باعتباره الوسيلة التى ستلصقه بهذه الأسرة فتساءل بنبرات فضحت رضاه:

أترانى أصلح حقاً لذلك ؟

فوثب الرجل إلى الأرض فى سرعة بهلوانية ووقف أمامه بجسمه القصير وقد آشف آفة جلبابه عن شعر آث أبيض وقال أنت موافق ، لم يخب نظرى فى شىء قط ومد له يده فتصافحا ثم قال الرجل

-أصارك بأنى أحبك أآثر من أى ثعبان عندى.

فضحك جبل فى نشوة طفل، وشد على يد الرجل ليمنعه من الذهاب حتى وقف متسائلاً ثم قال باندفاع لم تجد حيلة فى منعه:

يا معلم ، جبل يطلب القرب منك

فابتسمت عينا البلقيطى المحمرتان وتساءل

حقاً ؟-.

نعم ورب السماوات

فضحك البلقيطى ضحكة قائلاً

آنت أتساءل متى يا ترى يفاتحنى فى ذلك ! نعم يا جبل فلست أحقق، ولكنك الرجل الذى أعهد إليه بابنتى مطمئناً،!

ومن حسن الحظ أن سيدة فتاة ممتازة أما آانت المرحومة أمها

واعترى ابتسامة الابتهاك فى فم جبل ارتباك غير خاف أما يعترى أطراف الزهرة اليانعة الذبول، وخاف أن يتبدد حلمه بعد أن صار فى قبضته وغمغم:

لكن.

فقهقه البلقيطى قائلاً

لكنك تطلب شفيقة ! اعلم هذا يا ابن والدى ، اخبرتنى به عينك وحديث الصغيرة ومعاشرة الثعابين والحيات فلا تؤاخذنى-  
فهذه هى طريقة الحواة فيما يعقدون من اتفاقات  
تنهد جبل من صميم القلب، وشعر يبرد الطمائية والسلام ، ووثبت بصدرة مشاعر فتوة وحماس وانطلاق حتى بيت النعيم  
لم يعد يبالى به، ولا الجاه المولى، ولم يعد يخاف ما ينتظره من آد ومرمطة، فليسدل على الماطى ستاراً لا ينضح بضوء،  
وليبتلع النسيان آفة المتاعب والآلام الماضية، وليبتلع فيما يتلع حنان القلب إلى الأمومة الضائعة.  
فى الضحى زغردت سيدة.  
وسرى النبأ السعيد فى الحوارى المجاورة.  
ثم شهد سوق المقطم وحيه زفة جبل.

### 36

قال البلقيطى بلهجة انتقاد ساخرة:  
لا يجمل رالرجل أن يرآن إلى حياة الأرنب والديك-!!  
وها أنت لم تتعلم شيئاً وأوشكت نقودك أن تفرغ  
أنا يجلسان على فروة أمام باب الدار، وآن جبل يمد ساقيه على الرمال المشمسة تلوح فى عينيه الغبطة والدعة  
فالتفت إلى حميه وقال باسم:  
عاش أبونا أدهم ثم مات وهو يتمنى الحياة البرية اللاهية فى الحديقة الغناء!  
فضحك البلقيطى ضحكة مرتفعة ونادى بأعلى صوت  
ياشفيقة ! أدريكى زوجك قبل أن يقتله الكسل- .  
فظهرت شفيقة على عتبة الباب وهى تنقى عدسا فى طبق على يدها، وقد لفت رأسها بخمار أرجوانى آد صفاء وجهها  
وتساءلت دون أن ترفع عينيه عن الطبق:  
ما له يا أبى ؟-  
يتمنى شيئين : رضاك وحياة بلا عمل  
فضحكت متسائلة فى إنكار  
وآيف يجمع بين إرضائى وقتلى جوعا ؟  
فقال جبل

هذا سر الحاوى!

فلكره البلقيطى فى جنبه قائلا

-لا تستهن بأشفق المهن، آيف تخفى بيضة فى جيب متفرج وتستخرجها من جيب آخر فى الصف الذى يقابله؟ آيف

تحول البلى إلى آناآيت؟ آيف ترقص الحية؟

فقال شفيقة التى بدت منورة بالسعادة:

علمه يا أبى ، أنه لم يعرف من الحياة إلا الجلوس على مقعد ويثير فى إدارة الوقف.

فقام البلقيطى وهو يقول " : جاء وقت العمل " ، ثم دخل البيت وراح جبل يتأمل زوجه بإعجاب ويقول:

زوجة زقلط دونك فى الملاحه ألف درجة لكنها تقطع النهار على أريكة ناعمة، والأصيل فى الحديقة تستنشق عبير الفل-

وتلهو بالمياه الجارية

فقال بسخرية ومرارة معا:

هذا حال المتخمين بأرزاق الناس

فهرش جانب رأسه متفكرا وقال

-ولكن هناك سبيلاً إلى السعادة الشاملة.

لا تحلم ، لم تكن حالما عندما نهضت للأخذ بيدي فى السوق، ولم تكن حالما عندما طردت عنى ذباب البشر ، ولذلك-

دخلت قلبى

فاشفاق أن يقبلها، ولم يهون من قيمة آلامها اقتناعه بأنه يعرف آآثر منها / وقال:

أما أنا فأحبيتك دون ما سبب.

فى هذه الحوارى من حارتنا لا يحلم إلا المجانين

ماذا تريدون منى يا حلوة؟-

أن تكون مثل أبى

فتساءل معاتبا

وهذه الحلاوة تقطر منك ما شأها؟-

فانفرجت شفتها عن ابتسامة وأسرعت أصابع يدها بين حبات العدس

عندما فررت من الحارة أنت أشقى الناس جميعا، ولكن لولا ذلك ما تزوجتك!

فضحكت قائلة

نحن مدينان فى سعادتنا لفتوات حارتك أما يدين ابى فى رزقه للحيات والشعابين

فتنهـد جبـل قائلـا

ومع ذلك فقد أمن خبير من عرفته حارتنا من أبنائها بأنه يوجد سبيل يكفل الرزق للناس وهم في الحدايق يفنون- .  
رجعنا ! ها هو أبى قادمـا بجـرابه ، قم رعاك الله

وجاء البلقيطى بجـرابه وقام جبـل ومضى الاثنان فى طريقهما المعهود، وجعل البلقيطى يقول له  
بعقلك ، انظر ماذا أفعل ولا تسألنى أمام أحد من الناس ، واصبر حتى أوضح لك ما يغمض عليك- .  
فهـمه

تـعلم بعينيك أما تتعلم

ووجد جبـل الحرفة شاقة حقا ولكنه لم يستهن بها من أول الأمر ووطن نفسه على الحدق فيها مهما آلفه الجهد، والواقع أنه لم يكن أمامه من مهنة أخرى إلا أن يرضى بمهنة بائع جوال أو الفتوة أو اللصوصية وقطع الطرق ، لم تكن الحوارى فى حيه الجديد لتختلف عن حارته فى شىء عدا الوقف والقصص التى نشأت حوله ، وقد رسبت فى قرارة نفسه حسرة متخلفة من أحلام الماضى وذآريات المجد الغابر والأمل التى يتعذب بسببها آل حمدان أما تعذب أدهم من قبل، وآآن مصمما على النسيان بالقاء نفسه فى خضم الحياة الجديدة وتقبلها وفتح الصدر لها، واللواذ بزوجه المحبة المحبوبة ألما خطر له خاطر حزن أن هوان فى تجواله، وتفوق على أحزانه وذآرياته وبربع فى تعليمه حتى أدهش البلقيطى نفسه، وآآن يواصل التدريب فى الخلاء ويعمل من النهار والليل، وتمضى الأيام والأسابيع والأشهر فلا تمن له عزيمة ولا يدرآه الكلال ، وقد عرف الحوارى والزقة، واستأنس الثعابين والحيات ولعب أمام آلاف الصبية ، وذاق حلاوة النجاح والربح، وتلقى بشرة الأبوة المقبلة.

واستلقى على ظهره يرفعى النجوم حين الراحة، وسهر الليالى يتجاذب مع البلقيطى الجوزة ويقص القصص التى آانت ترويهـا الرباب بقهوة حمدان، وتساءل من حين إلى حين أين الجبلاوى، وإذا اشفقت شفيقة من أن يفسد عليه الماضى حياته هتف بها إلى هؤلاء ينتسب الشىء الذى فى بطنك، وآل حمدان آله، والأفندى رأس الاغتصاب أما أن زقلط رأس الإرهـاب، فكيف تطيب الحياة وبها أمثال أولئك ؟

وبما آآن يعرض الأعيبه فى زينهم وسط حلقة محكمة من الصغار ولاحت منه التفاته فرأى أمامه دعبس وقد شق سبيله إلى الصف الأمامى وراح يحمق فيه بذهول . اضطرب جبـل وتجنب النظر إلى وجهه ولم يعد بمستطاعه أن يواصل عمله فأهمـاه رغم احتجاج الصغار، ورفع جـرابه ومضى .

وما لبث أن لحق به دعبس وهو يصيح:

جبـل ! هذا أنت يا جبـل!

فتوقف عن السير ملتفتا إليه وقال

نعم ، ماذا جاء بك يا دعيس ؟

ولم يفق دعيس من دهشته وجعل يقول

جبل حاوى ! متى تعلمت هذا وأين ؟-.

فقال جبل باستهانة

-ليس هذا بأعجب ما يقع في هذه الدنيا.

وسار جبل والآخر يتبعه حتى بلغا سفح الجبل ثم جلسا في ظل نتوء ، ولم يكن بالمكان إلا أغنام ترعى وراح جلس عاريا

يفلى جلبابه وتفرس دعيس في وجه صاحبه وقال:

لماذا هربت يا جبل ؟ آيف ساء ظنك بي حتى توقعت أن أخونك ؟ الأفندي أم زقلط ؟ فليحرقهم رب السماوات جميعا،

أم-.

سألوا عنك آثرا، وأنت أسمعهم يسألون فأغرق في عرقى

فسأله جبل باهتمام:

خبرني آيف تعرض نفسك للانتقام بالتسلل من ربك ؟

فلوح دعيس بيده في استهانة قائلا

-رفع الحصار عنا من زمن، لم يعد أحد يسأل اليوم عن قدره أو قاتله، ويقال إن هدى هاتم هي التي أنقذتنا من الموت

جوعا، ولكن قضى علينا بالذل إلى الأبد، لا مقهى لنا ولا آرامة، نسعى في أعمالنا بعيدا عن حارتنا، وإذا عدنا توارينا وراء

الجدران، وإذا عثر على أحدنا فتوة عبث به صفعاً أو بصقاً، إن تراب حارتنا اليوم آرم عليهم منا يا جبل .. ما أسعدك في

غربتك.

فقال جبل بامتعاض:

دع سعادتي وشأنها وخبرني ألم يصب أحد بسوء ؟

فقال دعيس وهو يتناول طوبة ويضرب بها الأرض

قتلوا منا عشرة في عهد الحصار-! !

يارب السماوات-!

ذهبوا فداء لقدره الحقيير ابن الحقيرة، ولكنهم ليسوا من أصحابنا

فقال جبل بحنق

ألم يكونوا من آل حمدان يا دعيس ؟

فرمش دعيس حياء وتحرات شفتاه بعذر غير مسموع فعاد جبل يقول

-والآخرون ينعمون بالصفع والبصق؟

وشعر الرجل بأنه مسئول عن الأرواح التي زهقت، وعصر الألم قلبه ووجد ندما داميا على آل لحظة سلام مرت به منذ هجرته.

ودهمه دعيس بقوله:

لعلك الوحيد السعيد اليوم من آل حمدان

فهتف

لم لأف يوما عن التفكير فيكم- . .

لكنك بعيد عن الهم والغم

فقال بحدة

لم أفك من الماضي قط- . .

لا تبدد راحة بالك بلا أمل، لم يعد لنا أمل

فردد جبل قوله الأخير ولكن في نبرات غامضة

- لم يعد لنا أمل!

فرمقه دعيس باهتمام مستطعما ولكنه لم ينبس احتراما للحزن المرسوم على وجهه، ونظر إلى الأرض فرأى خنفساء تدب

مسرعة حتى اختفت تحت آومة احجار، وآان الراعي ينفذ جلبابه ليغطي جسده الذى أهبته الشمس، وعاد جبل يقول:

-في الحق لم آآن سعيدًا إلا في الظاهر.

فقال مجاملاً:

إنك تستحق السعادة عن جدارة.

تزوجت واتخذت لنفسى عملا جديدا أما ترى وما برح نداء خفى يلح في إقلاق منامى

-فليبارك الله ، أين تقيم ؟

لم يجيبه، وبدا وآانه يخاطب نفسه ، ثم قال

-لا تطيب الحياة وبها أمثال أولئك الأوغاد.

-صدقت ، ولكن آيف التخلص منهم ؟

ارتفع صوت الراعى وهو ينادى أغنامه، ويسير نحوها متأبطاً عصاه الطويلة، ثم ترامى عنه لحن غناء غير واضح، وتساءل

دعيس:

آيف أستطيع أن ألقاك؟- .

سل عن بيت البليطى الحاوى عند سوق المقطم ولكم آتم خبرى إلى حين- .  
ونخص دعيس فشد على يده ومضى الآخر يتابعه بعينين محزونتين

37

أوشك الليل أن ينتصف، وآدت حارة الجبلأوى تغرق في الظلمة لولا أضواء وانية تتسلل من أبواب المقاهى الموارية اتقاء للبرد، ولم يلح في سماء الشتاء نجم واحد وتوارى الغلمان في الحجرات، وحتى الكلام والقطط أوت إلى الأفنية، ومن خلال الصمت الشامل انبعثت أنغام الرباب الرتبية تردد الحكايات، أما حى حمدان فقد تلفع بظلمة خرساء، وجاء شبحان من ناحية الخلاء، فسارا تحت سور البيت الكبير، ثم مرا أمام بيت الأفندى قاصدين حى حمدان، حتى وقفا أمام الربع الأوسط وطرق أحدهما الباب، فرن الطرق فى الصمت مثل قرع الطبول، وفتح الباب عن وجه حمدان نفسه الذى بدا شاحبا على ضوء سراج بيده، ورفع السراح ليتبين وجه الطارق، وما عتم أن هتف فى دهشة:

-جبل!

وتنحى عن الباب فدخل جبل حاملاً بقجة آبيرة وجرابا، وتبعته زوجه حاملة بقجة أخرى، وتعانق الرجلان، وألقى حمدان نظرة سريعة على المرأة فلمح بطنها، وقال:

-زوجتك! أهلا بكما ، اتبعانى على مهل.

اخترقوا دهليزا طويلا مسقوفا حتى بلغوا الحوش الواسع غير المسقوف، ثم مالوا إلى السلم الضيق ورقوا فيه حتى مسكن حمدان، وادخلت شفيقة إلى الحرم، ومضى حمدان بجبل إلى حجرة واسعة متصلة بشرفة مطلة على حوش الربع، وما لبث خبر عودة جبل أن ذاع فأقبل آثيرون من رجال حمدان على رأسهم دعيس وعتريس وضملة وفوانيس ورضوان الشاعر وعبدون، فصافحوا جبل بجمرة ، وجلسوا فى الحجرة على الشلت يتطلعون إلى العائد باهتمام وحب استطلاع ، وتتابع الأسئلة على جبل فقص عليهم طرفا من حياته الأخيرة، وتبادلوا نظرات الأسى ، ورأى جبل أن أرواحهم المضعضة تنعكس على أجسادهم المهزولة وأن الفناء يدب فى الأوصال، وقصوا عليه ما يلقون من هوان ، فقال دعيس أنه اخبره بكل شئ فى لقاء أتفق لهما منذ شهر، وأنه لذلك يعجب لما جاء به، وسأله ساخرا:

أجت لتدعونا للهجرة إلى مقامك الجديد ؟

فقال جبل بجدة

لا مقام لنا إلا هنا!

وجذب الأسماع فى صوته نبرة قوية حتى لاح الاستطلاع فى عيني حمدان وقال

-ولو آانوا ثعاين لما استعصى عليك ردهم.

ودخلت تمر حنة باقداح الشاى فحيت جبل تحية حارة، واثنت على زوجه وتنبأت له بأنه سيجب ذآراً ولكنها قالت مستدراة  
:

-لم يعد من فارق بين رجالنا ونسائنا.

ونرها حمدان وهى تغادر الحجرة، ولكن أعين الرجال عكست اقتناعا ذليلا بقولها، وتكاثفت سحب الأحزان المخيمة على  
المجلس فلم يذق أحد للشاى طعما وتساءل رضوان الشاعر:

لماذا عدت يا جبل وأنت لم تألف الإهانة ؟

فقال حمدان بصوت ينم عن الانتصار

فقال جبل بقوة

قلت لكم مراراً ان الصبر على ما نلقى خير من التسكع بين غرباء سيكرهوننا.

ليس الأمر أما ترى

وهز حمدان رأسه دون أن ينبس فساد صمت حتى قال دعبس

يا جماعة فلنترآه ليستريح

ولكنه أشار لهم بالبقاء، وقال

-ما جئت لأستريح ولكن لأحدثكم فى شأن خطير، أخطر مما تتصورون!

وتطلعت إليه الأعين بدهشة وغمغم رضوان متمنيا الخير فيما سيسمع، أما جبل فراح بقلب فى الوجوه عينيه القويتين ، ثم

قال:

آن بوسعى أن أمضى العمر آله فى أسرتى الجديدة دون تفكير فى العودة إلى حارتنا

وصمت مليا ثم عاد يقول

بقدمى-.

تقوداننى إلى البقعة المشرفة على حارتنا، ولم آن دنوت منها منذ هروبو

لكنه حدث منذ أيام معدودة ان شعرت برغبة فى المشى وحدى رغم البرد والظلام، فخرجت إلى الخلاء، وإذا

تجلى الاهتمام فى العين فواصل الرجل حديثه قائلاً:

-مضيت فى تجوالى فى ظلام دامس، فحتى النجوم توارت وراء السحب، وما أدرى إلا وأنا أوشك أن أصطدم بشبح هائل،

توهمته أول الأمر أحد الفتوات، ولكنه بدا لى شخصا ليس أمثله أحد فى حارتنا ولا فى الناس جميعا، طويلا عريضا أنه



جبل، فامتلاأت رهبة وهممت بالتراجع وإذا به يقول بصوت عجيب " : قف يا جبل " ، فتسمرت في مكان وسألته وجلدى ينضح بالخوف : من؟ من أنت ؟

وتوقف جبل عن الحديث فمالت الرؤوس إلى الأمام، وتساءل ضلمة :  
من حارتنا ؟

ولكن عتريس قال بسرعة معترضا  
قال أنه ليس أمثله أحد في حارتنا ولا في الناس جميعا  
ولكن جبل قال  
بل أنه من حارتنا!

وتساءلوا عن هويته جميعا فقال جبل

وقال حمدان

قال لي بصوت عجيب " : لا تخف أنا جدك الجبلاوى " ، وارتفعت صيحات الدهشة من الجميع ورمقوه بنظرات الارتياب .

إنك تمزر دون شك-! .

بل أقول الحق دون زيادة ولا نقصان

فساله فوانيس

ألم تكن مسطولا ؟

فصاح جبل بغضب

إن السطل لم يذهب بعقلي قط

فقال عتريس

له لطشات لا تعرف عزيزا وخصوصا الأصناف الجيدة .

فتبدى الغضب في وجه جبل آالسحاب المظلم وصاح :

سمعته بأذن ، وهو يقول لي " : لا تخف أنا جدك الجبلاوى- . " .

فقال حمدان برقة ليسكن غضبه

لكنه لم يغادر بيته من زمن ولم يره أحد-! !

لعله يخرج آل ليلة دون أن يدري أحد

فعاد حمدان يتساءل في حذر

لكن أحداً غيرك لم يصادفه!

صادفته أنا

-لاتغضب يا جبل فما قصدت التشكيك في صدقك، ولكن الوهم خداع، بالله خبرني إذا آان الرجل يستطيع الخروج من بيته،

فلماذا نزل عن النظارة لغيره؟ ولماذا يترآهم يعبشون بحقوق أبنائه؟

فقال جبل مقطبا:

هذا سره وهو به أعلم- . .

إن ما قيل عن اعتزاله لكبره وعجزه أقرب إلى العقول

فقال دعبس

إننا نتخبط بين الأقاويل، دعونا نسمع القصة إن آان لها بقية

فقال جبل

-قلت له : لم أحلم أن اقابلك في هذه الحياة فقال : ها أنت ذا تقابلني وحددت بصرى لأتبين وجهه المرتفع في الظلام فقال لى : لن تستطيع رؤيتي مادام الظلام، فقلت بذهول لرؤيته محاولة رؤيتي له : لكنه ترانى في الظلام، فقال : إنى أرى في الظلام منذ أعتدت التجوال يل قبل أن توجد الحارة فقلت بأعجاب : الحمد لرب السماوات على أنك ما زلت تتمتع بصحتك، فقال : أنت يا جبل ممن يرآن إليهمك، وأى ذلك إنك هجرت النعيم غضبا لأسرتك المظلومة، وما أسرتك إلا أسرتي،

وهم لهم في وقفى حق يجب أن يأخذوه، ولهم آرامة يجب أن تصان، وحية يجب أن تكون جميلة فسألته في فورة حماس أضاءت الظلام : وآيف السبيل إلى ذلك ؟ فقال بالقوة تمزومون البغى، وتأخذون الحق ، وتحيون الحياة الطيبة، فهتفت من اعماق قلبى : سنكون أقوياء، فقال : وسيكون النجاح حليفك .  
وترك صوت جبل وراءه صمنا آالحلم بدوا فيه جميعا مسحورين .

آنوا يفكرون ويتبادلون النظرات ثم يتجهون بأعينهم إلى حمدان حتى خرج عن الصمت قائلا:

لنتدبر هذه الحكاية بعقولنا وقلوبنا!

فقال دعبس بقوة

إنها لا تبدو وهما من أوهام السطل وآال ما تتضمنه حق

فقال ضلمة بإيمان

لن تكون وهما إلا إذا آنت حقوقنا وهما!

فتساءل حمدان فى شىء من التردد

ألم أسأله ، ولم يكن بوسعى أن أسأله ، أنت لم تلقه فى الخلاء ولا الضلمة ولم تستشعر الرهبة فى حضرته، ولو وقع- .  
لك ذلك ما فكرت فى مناقشة الحساب ولا داخلك الشك فى أمره  
فهز حمدان رأسه فيما يشبه التسليم وقال: .  
هذا آلام خلىق بالجبالوى حقا، ولكن ما أخلقه بأن ينفذه بنفسه ؟

فصاح دعيس

انتظروا حتى تموتوا فى هوانكم!

فتنحى رضوان الشاعر وقال وهو ينظر بحذر فى الوجوه

آلامه جميل ولكن فكروا فيما يجرننا إليه

فقال حمدان بجزن

ذهبنا مرة نستجدى بعض حقنا فكان ما آان

وإذا بعدون الصغىر يصيح

علام نخاف وليس هناك أسوأ مما نحن فيه ؟

فقال حمدان المعتذر

لست أخاف على نفسى ولكنى أخاف عليكم

فقال جبل بازدرء

سأذهب إلى الناظر وحدى- . .

فقال دعيس وهو يتزحزح مقتربا من مجلسه

ونحن معك ، لا تنسوا أن الجبالوى وعده بالنجاح!

فقال جبل

سأذهب وحدى عندما أقرر الذهاب ، ولكننى أريد أن اطمئن إلى أنكم ستكونون ورائى وحدة متماسكة خلىقة بمواجهة- .

الشدة والصمود لها

ووثب عبدون واقفا فى حماس وهتف:

-وراءك حتى الموت!

وانتقل حماس الغلام إلى دعيس وعترىس وضلمة وفوانيس وتساءل رضوان الشاعر بشىء من المكر أن آانت زوجة جبل

تدرى بما جاء زوجها من أجله فقص جبل عليهم آيف أنه أفضى بسره إلى البلقيطى ، وآيف نصحه الرجل بتقدير العواقب وآيف أصر على العودة إلى حارته، وآيف اختارت زوجه أن تسير معه إلى النهاية. وعند ذاك قال حمدان بصوت أنبأ بأنه مع الآخرين:

ومتى تذهب إلى الناظر؟

فأجاب جبل

عندما تنضح خطتي

فقام حمدان وهو يقول

ما وراءها، ولعل الرباب ترويهما غدا موصولة بقصة أدهم،!

هلموا نتعاهد على الخير والشر

سأدبر لك مقاما فى مسكنى، إنك أعز الأبناء، وهذه ليلة لها

عند ذاك تصاعد صوت حمودة الفتوة العائد مع الفجر، وهو يغنى بلسان مخمور مترنح:

ياواد يا سكرى تشرب تنجلى وتخش الحارة تتطوح تترمى وعاملى فنجر وتمز بجنبرى

فلم يؤخذا بصوته إلا لحظة ، ثم مدوا أيديهم للتعاقد فى حماس ورجاء.

## 38

وعلمت الحارة بعودة جبل، رآته يسير بجرابه ورأت زوجته وهى تسعى إلى الجمالية لابتياح حوائجها، وتحدثوا عن مهنته الجديدة التى لم يسبقه عليها أحد من أبناء الحارة، على أنه آن يعرض لأعبيه الحرية فى الأحياء المجاورة دون حارته، وتجنب استعمال الثعابين فى أعبيه، فلم يفتن أحد إلى أنه بما خبير، ومر بيت الناظر مرات وأتاما لم يطرقه فى حياته وهو يكابد فى أعماقه حيننا أليما إلى أمه، ورأه الفتات مثل حمودة والليثى وبرآت وأبو سريع فلم يصفعوه أما يفعلون مع غيره من آل حمدان، ولكنهم عرضوا به وهزئوا بجرابه، وصادفه مرة زقلط فحدجة بنظرة قاسية، ثم اعترض سبيله متسائلا: :  
أين آنت غيبتك؟

فقال فى حلم

فى الأرض الواسعة

فقال الرجل متحرشا

إنى فتوتك ومن حقى أن أسألك عما أريد وعليك أن تجيب.

أجبتك بما عندي

وماذا عاد بك ؟

فقال في هدوء

ما يعود بالإنسان إلى حارته!

فقال بصوت ثم عن وعيد

-لو أنت في مكانك ما عدت!

وسار فجأة بقوة، فكاد يرتطم به لولا أن تنحى جبل عن سبيله بسرعة، آظما غيظه، وإذا بصوت بواب بيت الناظر يناديه، فالتفت جبل نحوه دهشا، ثم مشى إليه ، فالتقيا أمام البيت وتصافحا بحرارة، وجعل الرجل يسأله عن أحواله، ثم أخبره بأن الهائم تود رؤيته، وآان جبل يتوقع هذه الدعوة منذ ظهوره في الحارة، آان قلبه يحدثه بألها أآية لا ريب فيها، ومن ناحيته لم يكن بوسعه أن يزور البيت للحال التي غادره عليها، وفضلا عن ذلك فقد قرر ألا يطلب المقابلة حتى لا يثير الشكوك حولها قبل أن تقع سواء في نفس الناظر أم في نفوس الفتوات، ولكنه ما آاد يدل البيت حتى جرى الخبر في الحارة جميعا، وألقى نظرة سريعة - عند مسيرة إلى السلامك - على الحديقة على أشجار الجميز والتوت العالية وشجيرات الأزهار والورود التي تغطي الأران، وقد اختفى العبير التقليدي تحت قبضة الشتاء، وغشى الجو نور هادئ وديع الأصيل أنه يقطر من السحاب الأبيض المنتشر، وصعد السلم وهو يطرد عن قلبه بقوة أسراب الذآريات، ودخل البهو فرأى في صدره الهائم وزوجها جالسين منتظرين، نظر إلى أمه فتالقت نظرتهما، وقامت المرأة لاستقباله في تأثر شديد، فهوى على يديها يقبلها، ولثمت جبينه في حنان، فاجتاحه في موقفه شعور بالحب والسعادة ، والتفت رأسه إلى الناظر فرأه جالسا في عباءته يطالعهما بعينين باردتين، فمد له يده فقام نصف قومه ليصافحه وسرعان ما جلس.

وجرت عينا هدى على جبل في دهشة ممزوجة بانزعاج، وهو يبدو بجسمه الفارع في جلباب حشن مشمرا وسطه بحزام غليظ وفي قدميه مرآوب شبه بال، وعلى شعره الغزير طاقة عتماء، فتجلى في عينيها الرثاء، وتحدثت عيناها - دون اللسان - فأبدت حزنها على مظهره وعلى ما راتضاه لنفسه من حياة، وآأنما آانت تطالع أملا باهرا قهاوى إلى حطام، وأشارت له بالجلوس فجلس على مقعد قريب منها، وجلست هي فيما يشبه الإعياء، وأدرك ما يدور في نفسها فحدثها بصوت قوى عن حياته في سوق المقطم، وعن مهنته وزواجه، حدثها حديث الراضى عن تلك الحياة رغم خشونتها، والقانع بها، فامتعضت لقوله وقالت:

-لتكن حياتك ما تكون، ولكن آيف لم تجعل من بيتى أول بيت تقصده لدى عودتك إلى الحارة؟

آاد يقول لها أنه ليس لعودته إلى الحارة من هدف إلا بيتها، ولكنه اجل ذلك لأن اللحظة لم تكن مناسبة، ولأنه لم يفق بعد من تأثر اللقاء.

وأجاب قائلاً:

-آآن بيتك أمنيتي ولكني لم أجد الشجاعة لاقتحامه بعد ما آآن ، وإذا بالأفندى يسأله بصوت بارد:

ولماذا عدت ما دام العيش قد طالب لك في الخارج؟

فندت عن الهائم نظرة عتاب نحو زوجها الذى تجاهلها، أما جبل فقال باسمها

لعلى عدى ياسيدى طامعا فى لقياك!

فقال هدى فى عتاب

ولم تزرنا حتى دعوناك يا جاحد؟

فقال جبل وهو يخفض رأسه

ثقى يا سيدتى باننى ألما ذآرت الظروف التى اضطررتى إلى مغادرة هذا البيت لعنتها من صميم قلبى

فحدجه الأفندى بنظرة مريبة وهم بسؤاله عما يعنى ولكن هدى سبقته قائلة

علمت بلا شك بعفونا عن آل حمدان غكرا ما لك!

وأدرك جبل أنه أن لهذا الموقف العائلة الطيب أن ينتهى أما قدر له من أول الأمر، وأنه أن للكفاح أن يبدأ فقال

الحق يا سيدتى أنهم يعانون ذلا العن من الموت، وقد قتل منهم من قتل

فقبض الأفندى بشدة على مسبخته وهتف بجدة

فلوحت هدى بيدها فى رجاء وقالت

إنهم مجرمون ، وقد نالوا ما يستحقون.

فلننس الماضى آله

فقال الأفندى باصرار

ما آآن يجوز أن يضيع دم قدره هدرآ

فقال له جبل بثبات

المجرمون حقا هم الفتوات

فوقف الأفندى فى عصبية ووجه الخطاب إلى زوجته قائلاً فى لوم

أرأيت نتيجة إذعانى لك فى دعوته إلى بيتنا ؟

فقال جبل بصوت أفصحت نبراته عما وراءه من عزم

سيدى ، آآن فى نيتى أن آجئ إليك على أى حال، لعل الاعتراف بالجميل الذى آآنه نحو البيت هو الذى جعلنى انتظر-.

حتى ادعى إليه

فرمقه الناظر بنظرة توحس وارتياب ثم سألته:

-ماذا تريد من مجيئك؟

فوقف جبل مواجهها الناظر في شجاعة، وهو يدرك تماما أنه يفتح بابا ستهب منه العواصف جامحة، ولكنه آان يستمد من

مقابلة الخلاء شجاعة لا تتزعزع ، قال:

جئت مطالبا بحقوق آل حمدان في الوقف وفي الحياة الأمانة!

أسود وجه الأفندى من الغضب على حين فغرت الهائم فاهام من اليأس، وقال الرجل وهو يحدحة بنظرة محرقة  
اتجرؤ حقا على معاودة هذا الحديث؟ أنسييت أن المصائب تتابعت عليكم منذ جرؤ شيخكم المخرف على التقدم بهذه-

المطالب الخرافية؟ اقسم على إنك جننت، ولست مطالبا بتضييع وقتي مع المجانين

وقالت هدى بصوت باك:

جبل ، آان في نيتي أن ادعوك أنت وزجك للإقامة معنا

لكن جبل قال بصوت قوى

إنما رددت على مسامعك رغبة من لا تُرد له رغبة وهو جدك وجدنا الجبلاوى!

نظر الأفندى إلى جبل بامعان وتفرس وذهول، نهضت هدى جزعة فوضعت آفها على منكب جبل وهى تتساءل

جبل ، ماذا دهاك؟

فقال جبل باسمما

بخير يا سيدتى

فقال الأفندى في ذهول

بخير! أنت بخير؟ ماذا حصل لعقلك؟

فقال جبل بهدوء وسكينة

اسمع قصتى وأحكم بنفسك

وقص عليهما ما سبق أن قصه على آل حمدان، ولما فرغ من قصته قال الأفندى وآان يتفرس وجهه طوال الوقت بريية

الوقف لم يغادر بيته قط منذ اعتزل

فقال جبل

لكنى قابلته في الخلاء

فسأله متهكما

ولماذا لم يطلعني أنا على رغباته ؟

فقال جبل

هذا سره وهو به أعلم

فضحك الأفندى ضحكة حانقة وقال

تقنع بالأعيب الحواة وإنما تطمع في اللعب بالوقف آله!

فقال جبل دون أن يزايله هذوؤه

إنك حاو بحق وجدارة، ولكنك لا

علم الله إنى ما جاوزت الحق، فلنحتكم إلى الجبلاوى نفسه إن استطعت ، أو إلى شرطة العشرة

فانفجر غضب الأفندى ، أربد وجهه وارتعشت أطرافه وصاح

أيها اللص المحتال ! لن تنجو من مصيرك الأسود ولو اعتصمت بقمة الجبل

وهتفت هدى

يا للشقاء ! ما أنت أتوقع أن تجيئى بهذه التعاسة ألها يا جبل.

فتساءل جبل فى عجب:

أيحدث هذا آله لا لشيء إلا لأننى طالبت بحق آلى المشروع ؟

فصرخ الأفندى باعلى صوته

احرس يا محتال ، يا حشاش ، يا حارة حشاشين يا أولاد الكلبن اخرج من بيتى، وأن عدت إلى هديانك قضيت على

نفسك-.

وعلى أهلك بالذبح آلنعاج

فقطب جبل غاضبا وصاح:

احذر أن يجيق بك غضب الجبلاوى

فهجم الأفندى على جبل ولكمه فى صدره العريض بأقصى قوته ولكن جبل تلقاها بثبات وصبر، والتفت إلى الهائم قائلا

إنما آرمه إآراما لك- . .

ثم ولى لهما ظهره وذهب



توقع آل حمدان أن شرًّا داهمًا وخالفت تمر حنة الاجماع فظنت أنه ما دام جبل على رأس آل حمدان هذه المرة فلن تسمح الهام بالقضاء عليه ، لكن جبل نفسه لم يؤمن بظن تمر حنة وآد أنه إذا هدد الوقف طامع فلن يقاوم وزن الجبل ولا لأحد من الناس ولو آن أقربهم إلى الأفندى نفسه، وذآرهم جبل بوصية جدهم بان يكونا أقوياء وأن يصمدوا للملمات، ومضى دعيس يقول أن جبل آن يرفل في النعيم وإنه ينيذه مختارًا إآراما لهم فلا يصح أن يخذله أحد، وأن التذرع بالقوة إذا لم ينفع فلن يدفع بهم إلى أسوأ مما هم فيه بحال، والحق آل حمدان استشعروا الخوف وتوترت منهم الأعصاب ، ولكنهم وجدوا في اليأس قوة وعزيمة فكانوا يرددون المثل القائل " : لطابت لاتنين عور . " رضوان الشاعر وحده راح يقول متحسرًا : لو شاء

الوقف لأعلن آلة العدل وقضى لنا بالحق ونجانا من الهلاك الميين، وقد غضب جبل لما بلغه قوله، فقصده عابسا هائجا ثم هزه من منكببيه حتى آاد يقتلعه من مجلسه وصاح به : أهذا هو حال الشعراء يا رضوان؟ تروون حكايات الأبطال وتغنون على الرباب فإذا جد الجدد تقهقرتم إلى الجحور وأشعثم التردد والهزيمة، ألا لعنة الله على الجبناء، والتفت إلى الجالسين قائلا : لم يكرم الجبلأوى حيا من أحياء هذه الحارة أما آآرمكم، ولو لم يكن يعتبرآم أسرته الخاصة مالا قاني ولا آلني، ولكنه نور السبيل ووعد بالتأدييد، والله لأآآفن ولو آنت وحدى، لكن بدا أنه لم يكن وحده، أيده آل رجل، أيده آل امرأة،

وانتظروا جميعا المحنة وآأنهم لايبالون بالعواقب، واحتل جبل مكان الزعامة في حيه بطريقة عفوية أملتتها الحداث دون قصد منه أو تدبير، ودون ممانعة من حمدان الذى ارتاح إلى تخيله عن موضع سيصير هدفا لهجوم لن يعرف مداه، ولم يقبع جبل في الربيع فخرج - محالفا نصيحة حمدان - ليتجول آعادته، آن يتوقف شرًّا عند آل خطوة ولكن آحدًا من الفتوات لم يتعرض له

بسوء، فعجب لذلك غاية العجيب، ولم يجد له من تفسير إلا أن يكون الأفندى قد آتم أبناء المقابلة على أمل ان يسكت هو أيضا عن مطالبه فينتهى الأمر وآأنه ما آآن، وآشفق من أن ينتهى الأمر وآأنه ما آآن، ورأى وراء هذه السياسة وجه الهام المحزون وآمومتها الصادقة، وخاف أن يثبت حناهما أنه أقسى عليه من غلظة زوجها ، ففكر طويلا فيما ينبغى أن يفعل لينفض الرماد عن الجمر.

وجرت في الحارة احداث غريبة، فذات يوم ترامت استغاثة امرأة من بدروم، وتبين أن ثعبانا زحف بين قدميها فخرجت تجرى إلى الطريق وتطوع الرجال للتفتيش عن الثعبان فدخلوا مساآهم بعضيهم وفتشوا عن الثعبان حتى عشروا عليه، فآالوا عليه ضربا حتى قتله، وطرحوه على أرض الحارة فتلقفه الغلمان وراحوا يلعبون به مهللين، ولم يكن الحادث بالغريب في الحارة ولكن لم تكد تمضى ساعة حتى ارتفعت صرخة استغاثة ثانية من بيت في مطلع الحارة فيما يلي الجمالية . وما جثم الليل حتى تعالت ضجة في ربوع حمدان، إذ رأى البعض ثعبانا ولكنه احتفى قبل أن يلحق به أحد، وضاعت جهود القوم

للعثور عليه، وعند ذاك تطوع جبل نفسه لاستخراجه مستعينا بالخرقة التي آتسبها عند البلقيطى ، وتحدث آل حمدان عن وقفة جبل عاريا فى الحوش، وعن لغته السرية التى خاطب بها الثعبان حتى جاءه طائعا وآادت تنسى تلك الأحداث مع صباح اليوم التالى لولا أن تكرر وقوعها فى بيوت أناس من ذوى الشأن، فقد ذاع ومل الأسماع أن ثعبانا لدغ حمودة الفتوة وهو يقطع دهليز الربع الذى يقيم فيه، فصرخ الرجل على رغبة حتى ادراه أصحابه وأسعفوه، هنا انقلب الحادث احدثا، وقال الناس فى الثعابين واعدوا، غير أن نشاط الثعابين العجيب لم يتوقف فقد رأى بعض الصحاب فى غرزة الفتوة برآت ثعبانا بين عمد السقف، لاح نصف دقيقة ثم اختفى، فهبوا مذعورين وتقوض المجلس وغطت اخبار الثعابين على حكايات الشعراء فى المقاهى، وبدا أن نشاطها قد جاوز حدود الأدب إذ ظهر ثعبان ضخم فى بيت حضرة الناظر ومع أن خدم البيت الكثيرين انتشروا فى آرآانه للتفتيش عن الثعبان المختفى إلا أنهم لم يقفوا له على أثر، ورآب الخوف الناظر والهائم حتى فكرت جديا فى مغادرة البيت إلى أن تطمئن إلى خلوه من الثعابين، وبينما البيت مقلوب رأسا على عقب ترامى من بيت زقلط فتوة الحارة صراخ وضجة وذهب البواب ليستطلع الخبر ثم عاد ليخبر سيده بان ثعبانا لدغ أحد أبناء زقلط ثم اختفى، وتملك الخوف النفوس، وتتابع الاستغاثات من الثعابين من آل ربع فصممت الهائم على مغادرة الحارة، وقال عم حسين البواب إن جبل حاو وللحواة خيرة باصطياد الثعابين، وآاد أنه استخرج ثعبانا من أحد ربوع حمدان، وامتقع لون الأفندى ولم ينس، أما الهائم فأمرت البواب بأن يستدعى جبل ، ونظر البواب إلى سيده مستأذنا، فغمغم الأفندى بكلمات حانقة دون أن يبين ، وخبرته الهائم بين دعوة جبل وبين مغادرة البيت فأذن للرجل بالذهاب وهو ينتفض حنقا وغضبا.

وتججع آثيرون فيما بين بيتى الناظر والفتوة، وتوافد ذوو الشأن على بيت الناظر وفى مقدمتهم الفتوات، زقلط وحمودة وبرآت والليشى وأبو سريعين ولم يكن للمجتمعين من حديث إلا الثعابين، فقال أبو سريع:

لابد أن شيئا فى الجبل دفع بالثعابين إلى بيوتنا  
فصاح زقلط وقد بدا وآأنه يقاتل نفسه لأنه لا يجد من يقاتله  
-طول عمرنا جيران للجبل وما حصل منه شئ.

آن زقلط ثائرا لما أصاب ابنه، وآآن حمودة ما يزال يعرج من إصابة ساقه ، على حين تملك الخوف الجميع فقالوا إن بيوتهم لم تعد صالحة للمبيت ، وإن السكان تجمهموا فى الحارة.

وجاء جبل حاملا جرابه، فحيا الجميع، ووقف أمام الناظر والهائم فى أدب وثقة.

ولم يستطع الناظر أن ينظر إليه، أما الهائم فقالت له:

قيل لنا يا جبل إنك تستطيع استخراج الثعابين من بيوتنا ؟

قال جبل بهدوء

تعلمت ذلك فيما تعلمت يا صاحبة الفضل- .

دعوتك لتطهر البيت من الشعاين  
فنظر جبل إلى الأفندي متسائلا  
هل يأذن لى حضرة الناظر ؟  
فغمغم الناظر وهو يدارى حنقه وقهره  
نعم

وهنا تقدم الليشى بإيجاء خفى من زقلط وسأله  
وبيوتنا وبيوت الآخرين ؟  
قال جبل

إن خبرتى تحت أمر الجميع  
وارتفعت أصوات بالشكر، فأجال جبل عينيه الكبيرتين فى الوجوه مليا ثم قال  
ولعلى فى غير حاجة إلى تذاريرآم بأن لكل شئ ثمنه أما تجرى المعاملات فى حارتنا!  
فتطلع إليه الفتوات فى دهشة فقال  
علام تدهشون ؟ إنكم تحمون الحياء نظير الإتاواتن وحضرة الناظر يدير الوقف نظير التصرف فى ريعه!  
والظاهر أن حرج الموقف لم يسمع للأعين بالإفصاح عما فى الصدورن غير أن زقلط سأله  
ماذا تطلب نظير عملك ؟  
فقال بهدوء

-لن أطلب نقودًا، ولكن أطلب آلمة شرف باحترام آل حمدان فى آرامتهم وحقهم فى الوقف.  
وساد الصمت فبدا أن الجو يتنفس بالحقد المكتوم ، وتضاعف قلق الهاتم على حين أخفى الناظر عينيه فى الأرض، وعاد  
جبل يقول:  
لا تظنوا أنى أتحداآم بما يليه عليكم الحق والعدل نحو غخوانكم المغلوبين على أمرهم ، عن الخوف الذى أخرجكم من-  
ديارآم ما هو إلا جرعة مما يتجرع إخوانكم آل يوم من أيام حياتهم التعيسة  
التمعت فى الأعين نظرات غضب سريعة آلبرق فى السحاب وسرعان ما اختفت تحت غيم الكظم غير أن أبو سريع صاح:  
استطيع أن أتيكم بأحد الرفاعية ولو نبئت خارج بيوتنا يومين أو ثلاثة أيام حتى يحضر من قرينه  
فتساءلت الهاتم

آيف لحارة بأملها أن تبيت خارج بيوتها يومين أو ثلاثة ؟  
وآن الأفندي يفكر بكل قواه مغالبا ما استطاع عواطف الغضب والحقد التى تستعر فى صدره، وإذا به يقول مخاطبا جبل

-إن معطيك آلمة الشرف التى تطلب فأبدا عملك.

وذهل الفتوات غير أن الموقف لم يسمح لهم بإعلان ما فى نفوسهم ، واران على صدورهم هم قاتل، أما جبل فأمر الجميع بالابتعاد إلى أقصى الحديقة فحلا له المكان وابيت وتجرد من ثيابه فانقلب آيوم النقطة الهامم من الحفرة المترعة بمياه الأمطار، ومضى ينتقل من مكان إلى مكان، ومن حجرة إلى حجرة وهو يصفر صغيراً خافتا تارة أو يغمغم بكلام غير مبين ، واقترب زقلط من الناظر وقال له: إنه هو الذى بعث بالثعابين إلى بيوتنا فأشار الناظر إليه بالسكوت وتمتم -دعه يخرج ثعابينه.

وأذعن لجبل ثعبان آآن محتفيا فى المنور، وأخرج آخر من حجرة إدارة الوقف، فلف الثعابين على ذراعه، وظهر بهما أمام السلامك حيث أودعهما جرابه، وارتدى ملابسه ووقف ينتظر حتى جاء الجميع، فقال موجها خطابه لهم: هلموا إلى بيوتكم لاطهرها . والتفت نحو الهامم وقال بصوت خافت: لولا تعاسة أهلى ما اشترطت فى خدمتك شرطا قط واقترب من الناظر فرفع يده تحية وقال بشجاعة وعد الحر دين عليه- . ومضى خارجا والجميع يسير وراءه صامتا

40

وفق جبل فى تطهير الحارة من الثعابين على مرأى من جميع أهلها . وآآن آأما أذعن له ثعبان تعالى الهتاف والزغاريد حتى باتت حديث الحارة من البيت الكبير إلى الجمالية، ولما فرغ من عمله ومضى إلى ربهه تجمع حوله الغلمان والشبان وراحوا يتغنون مصفيين:

جبل يا نصير المسآآين

جبل يا قاهر الثعابين

وتواصل الغناء والتفصفيق حتى بعد ذهابه ، غير أنه آآن لذلك رد فعل شديد فى أنفس الفتوات، فما لبث أن خرج للمتظاهرين حمودة والليشى وأبو سريع وبرآآت، فأنهالوا عليهم لعنا وسباً وصفعا ورآآاً حتى تفرقوا لآئذين بالبيوت، فلم يبق فى الطريق إلا الكلاب والقطط والذباب وتساءل الناس عن سر هذه الحملة، آآيف يجزى الفتوات صنيع جبل بالاعتداء على

المتظاهرين من أجله، وهل يحافظ الأفندي على وعده لجبل أو تكون حملة الفتوات بداية لحملة انتقام عاتية؟ ودارت هذه الأسئلة برأس جبل فدعا رجال حمدان إلى الربع الذى يقيم فيه ليتدبروا الأمر معا، وآان زقلط مجتمعا فى ذات الوقت بالناظر وحرمه، وآان يقول باصرار والحنق يلتهمه:

-لن نبقى منهم على أحد . وبدأ الارتياح فى وجه الأفندي ، غير أن الهائم تساءلت:  
وآمة الشرف التى أعطها الناظر ؟

فعبس زقلط حتى انقلب وجهه أقبح من أى وجه آدمى وقال

فقالت بامتعااض

الناس يخضعون للقوة ولا للشرف.

-سيقولون فينا ويعيدون.

فليقولوا ما حلا لهم ، حتى سكتوا عنكم أو عنا؟ إن الغرز تضح آل ليلة بالقفش والتنكيت علينا، ولكن إذا خرجنا إلى

الطريق وقفوا خاشعين ، وهم يخشعون بنظرة ممتعضة وقال

-ذلك، فمن ذا الذى يطالب باحترام آمة أعطيت

لمحتال نصاب محتال ؟

جبل هو الذى دبر مؤامرة الثعابين ليملى علينا شروطه، آل أحد يعرف

وقال زقلط محذرا ووجهه مازال متشبثا بقبحه:

تذآرى يا هائم أنه إذا نجح جبل فى استخلاص حق آل حمدان فى الوقف فلن يهدأ بال أحد فى الحارة حتى ينال حقه.-.

أيضا، بذلك يضع الوقف ونضيع جميعا

وقبض الأفندي على المسبحة فى يده بشدة حتى طقطت حباتها وهتف بزقلط:

-لا تبق على أحد منهم.

ودعى الفتوات إلى بيت زقلط ثم لحق بهم أعوانهم المقربون وذاع فى الحارة أن أمراً خطيراً يدبر لآل حمدان، فامتألت

النوافذ بالنشساء وازدحم الطريق بالرجال، وآان جبل قد أعد خطته، فاحتشد رجال حمدان فى حوش الربع الأوسط

مدحجين بالنبايت ومقاطف الطوب على حين توزعت النساء فى الحجرات وفوق السطح، وآان لكل أحد منهم عمله

المرسوم ، غير أن أى خطأ فى التنفيذ أو انقلاب فى التدبير لم يكن يعنى إلا هلاآهم إلى الأبد . لذلك اتخذوا أمآآهم حول

جبل وهم فى غاية من التوتر والجزع، ولم تغب حالهم عن فطنة جبل فمضى يذآرهم بتأييد الواقف له ووعدده للأقوياء

بالنجاح، فوجد منهم قلوبا مصدقة، بعضها عن إيمان والبعض عن يأس، ومال الشاعر رضوان على أذن المعلم حمدان وقال

له:

أخف ألا تنجح خطتنا، والأوفق عندي أن نحكم إغلاق البوابة ونضرب من السطح والنوافذ!

فهز حمدان منكببيه امتعاضاً وقال

إذن نقضى على أنفسنا بالحصار حتى نهلك جوعاً!

وقصد حمدان جبل وسأله

أليس الأفضل أن نترك البوابة مفتوحة؟

فقال جبل

-دعها أما هي وغلا شكوا في الأمر.

وآنت ريح باردة تهب بشدة باعثة عواء، ورأضت السحب في السماء آأنها مطاردة، فتساءلوا هل ينهمل المطر؟ وترامت

ضجة المتجمهرين في الخارج حتى ابتلعت مواء القطط ونباح الكلاب، وهتفت تمر حنة محذرة: جاء الشيطان!

وحقا غادر زقلط بيته وسط هالة من الفتوات يتبعهم الأعوان، ومقابضهم على نبايتهم، ساروا على مهل حتى البيت

الكبير، ثم عرجوا نحو حى حمدان فقابلهم المتجمهرون بالتهليل والهتاف، وآأن المهللون الهاتفون أحزابا، منهم قلة تبتهج

للعراك وتتسلى بمشاهدة الدم المسفوك، ومنهم من يحقد على آل حمدان لإذلام. بمكانة لم يعترف لهم بها أحد، وآآثرهم

حانق على الفتونة والبغى فهو ييطن الكراهية ويظهر التأييد خوفا ونفاقا، ولم يلق زقلط إلى احد منهم بالأ، ومضى في

مسيره حتى وقف أمام ربع حمدان وصاح:

أن آآن فيكم رجل فليخرج إلى!

فجاء صوت تمر حنة من وراء النافذة

اعطنا آآمة شرف جديدة حتى لا يغدر بالخارج غادر!

فغضب زقلط لتعريضها لكلمة الشرف وصاح

أليس عندك من مجيب غير هذه الزانية؟

فصاحت تمر حنة

-الله يرحم أمك يا زقلط.

وصرخ زقلط امرأً رجاله بالهجوم على البوابة، وهجم على البوابة رجال ورمى آآخرون النوافذ بالطوب حتى لا يجروُ أحد على

فتحها واستعماله في الدفاع، وتكتل الهاجمون على البوابة وراحوا يدفعونها بمناآهم بقوة وعزيمة، وواصلوا الدفع بشدة

حتى آآخذ الباب في الاهتزاز.

واشتدت عزيمتهم حتى ارتج الباب وتخلخل، وتراجعوا متحفزين ثم اندفعوا نحوه بقوة وصكوه صكة واحدة فانفتح على

مصراعيه، وتراءى من خلال الدعليز الطويل الممتد وراء باب الحوش جبل ورجال حمدان وقد رفع الجميع نبايتهم ، ولوح زقلط

بيده فى حرآة فاضحة واصلق ضحكة هازئة ، ثم اندفع إلى الدهليز ورجاله خلفه، وما آدوا يتوسطون الدهليز حتى ماتت أرضه بهم بغتة وهوت بمن عليها إلى قاع حفرة عميقة، وفى سرعة مذهلة فتحت نوافذ الدور على جانبي الدهليز وانصبت المياه من الآأواز والحلل والطوشت والقرب، وتقدم رجال حمدان دون تردد ورموا الحفرة بمقاطف الطوب، ولأول مرة سمعت الحارة الصراخ يصدر عن فتواتها، ورأت الدم يتفجر من رأس زقلط والنبايت تتخطف رؤوس حمودة وبرآت والليشى وأبو سريع

وهم يتخبطون فى المياه المطينة ورأى الأعوان ما حال بفتواتهم فلاذوا بالفرار، وترك الفتوات لمصيرهم دون معين، واشتد انصباب الماء والأحجار، وتهاوت النبايت بلا رحمة وترامت إلى الناس استغاثات ندت عن حناجر لم تألف طوال حياتها غلا السب والقذف ، وآان رضوان الشاعر يهتف بأعلى صوته:

-لا تبقوا منهم على أحد.

واختلط المياه المطينة بالدم، وآان حمودة أول الهالكين، وعلا صراخ الليشى وأبو سريع، وتشبثت يدا زقلط بجدار الحفرة يريد أن يثب وقد تجلى الحقد فى عينيه وراح يغالب الإعياء والخور، ويزفر أنات الآخوار، فأنهالت عليه النبايت حتى قهاوى إلى الوراء وتراخت يدها عن الجدار فسقط فى الماء وفى آل راحة من راحته قبضة من طين ! وساد الصمت الحفرة، ولم تند عنها حرآة ولا صوت واصطبغ سطحها بالطين والدم ، ووقف رجال حمدان ينظرون وهم يلهثون ، وتزاحم عند مدخل الدهليز

المتجمهرون وهم يرددون فى الحفرة نظرات ذاهلة، وصاح رضوان الشاعر:

-هذه عاقبة الظالمين.

وجرى الخبر فى الحارة آالنار ، وقال المتجمهرون إن جبل قد أهلك الفتوات أما أهلك الثعابين ! وهتف له الجميع باصوات آالرعد، ولفحهم الحماس فلم يبالوا بالريح الباردة، ونادوا به فتوة لحارة الجبلأوى، وطالبوا بجث الفتوات ليمثلوا بها، وشفقت الأيدى وراح قوم يرقصون ولم ين جبل عن التفكير لحظة، وآان آل شئ مدبرا فى رأسه.

فصاح أهله:

-هلموا الساعة إلى بيت الناظر.

في الدقائق التي سبقت خروج جبل وأهله من الربيع تفجرات الأنفس عن برآين حامية. غادرت النسوة البيوت منضمت إلى الرجال ، وهاجم الجميع بيوت الفتوات فاعتدى الأيدي والرجال على أهاليهم حتى فروا بأرواحهم وهم يتحسسون أقفيتهم وخذودهم مصعدين التأوهات سافحين الدموع ، أما البيوت فقد نهب آل ما فيها من أثاث وطعام ولباس وحطم آل قابل للتخطيط من أخشائها وزجاجها حتى انقلبت خرابا يبابا، وانطلقت الجموع الغاضبة نحو بيت الناظر فتكتلت أمام بوابته المغلقة وراحت تهتف وراء مناد منها بأصوات آالرعد:

هاتوا الناظر..

وإن ما جاش

ثم يهتمون الهتاف بالتهليل الساخر الهازئ، واتجه البعض إلى البيت الكبير منادين جدهم الجبلاوى أن يخرج عن عزلته ليعالج ما فسد من أمورهم وأمور حارتهم، وراح آخرون يدقون بوابة الناظر بأفهم ويدفعونها بمنآهم محرضين المترددين المهيين على اقتحامها، وفي تلك اللحظة المخرجة جاء جبل على رأس أهله نساء ورجالا يسيرون في قوة وعزم بما أحرزوا من فوز ميين، وأوسعت الجموع لهم، وتعالى الهتاف والزغاريد حتى أشار جبل لهم بالسكوت، فأخذت أصواتهم تخفت رويدا رويدا حتى ساد الصمت وعاد عواء الريح يصك الأذان مرة أخرى.

ونظر جبل في الوجوه المتطلعة إليه وقال:

يا أهل حارتنا أحبيكم وأشكرآم

فارتفعت الأصوات بالهتاف ثانية حتى رفع يده مطالبا بالسكوت، ثم قال

لم يتم عملنا حتى تتفرقوا في هدوء-.

فترامى إليه من حناجر شتى

نريد العدل يا سيد حارتنا-.

فقال بصوت سمعه الجميع

-أذهبوا في هدوء ولسوف تتحقق إرادة الوقف.

وتعالى الهتاف للواقف ولأبنة جبل، ووقف جبل يحث بنظراته الجموع على الذهاب، وآنوا يودون لو يبقى في أمآهم ولكنهم لم يجدوا بدا أمام نظرته من التفرق فأخذوا يذهبون واحدا في إثر واحد حتى خلا المكان منهم، عند ذاك مضى جبل إلى باب الناظر وطرقه صائحا:

افتح يا عم حسنين

فجاءه صوت الرجل المرتعد وهو يقول

الناس .. الناس.



لا أحد هنا غيرنا

وفتح الباب فدخل جبل، ودخل وراءه أهله واخترقوا الممر المعروش إلى السلامك فرأوا الهائم واقفه أمام الباب البهو في استسلام ، على حين بدأ الأفندى على عتبة الباب خافض الرأس شاحب الوجه، أنه ملثم بكفن أبيض وندت عن الأفواه لدى رؤيته دمدمه فقالت هدى هائم متأوهه:

إني بحال سيئة يا جبل

فأشار جبل نحو الأفندى بازدراء وقال

لو نجحت مكيدة هذا الرجل الفاقد الشرف لكننا الآن جميعنا جثثا ممزقة

فأجابت الهائم بتنهيده مسموعة دون آلام، فحدج جبل الناظر بنظر قاسية وقال

ها أنت ترى نفسك ذليلاً بلا حول ولا قوة، لا فتوة يحميك ولا شجاعة تؤيدك، ولا مروءة تشفع لك، ولو شئت أن أخلى-

بينك وبين أهل حارتنا لمزقوك إربا ولداسوك بالأقدام

ارتعدت فرائص الرجل وبدا وأنه تقوص وضؤل غير أن الهائم تقدمت من جبل خطوة وقالت برجاء:

لا أحب أن أسمع منك غير ما عهدت من طيب الكلام، ونحن في حال عصبية تستحق من مروءتك الرحمة في المعاملة

فقطب جبل ليدارى تأثره وقال

لولا منزلتك عندي لجرت الأمور بغير ما جرت به- . .

لا شك في ذلك يا جبل، إنك رجل لا يجيب عنده الرجاء

فقال جبل متأسفاً

ما آن أيسر أن يقوم العدل دون إراقة نقطة من الدم- . .

فندت عن الأفندى حراة غامضة فضحت تخاذله وازداد انكماشاً

فقالت الهائم:

قد آن ما آن، ولن تلقى منا إلا أذانا صاغية!

وبدا أن الناظر يريد أن يخرج من صمته بأى ثمن فقال بصوت ضعيف

-ثمة فرصة لإصلاح ما سلف من أخطاء.

أرفعت الأذان لسماع آلامه رغبة في الاطلاع على حال الجبار إذا تخلى عنه جيروته وآنوا يرمقونه بتشرف قليل وإنكار وحب

استطلاع لا حد لهما ، وتشجع الأفندى بتغلبه على الصمت فقال:

تستطيع اليوم أن تحتل مكانة زقلط عن جدارة

فتحهم وجه جبل وقال بازدرء  
ليست الفتونة مطلبى، فابحث لحمايتك عن غيرى، وما أريد إلا حقوق آل حمدان آاملة- .  
هى لكم دون نقصان، ولك إدارة الوقف إن شئت  
فقالته هدى برعاء  
آما آنت يا جبل من قبل  
وهنا صاح دعبس من بين آل حمدان  
ولم لا يكون الوقف آله لنا ؟  
وسرت هممة فى آل حمدان حتى أصفر وجه الناظر وزوجه حتى الموت، غير أن جبل قال بقوة غاضبة  
باغتصاب حقوق الآخرين  
فتساءل دعبس  
أمرنى الواقف باسترداد حقكم لا  
ومن أدراك أن الآخرين سىأخذون حقوقهم ؟  
فصاح به جبل  
لا شأن لك بذلك، وإنك لا تكره الظلم إلا إن وقع عليك!  
فقالته الهامم بتأثر  
نعم الرجل الأمين أنت يا جبل، ولشد ما أرجو أن تعود إلى بيتى  
فقال جبل بتصميم  
سأقيم فى ربوع حمدان- .  
إنها لا تليق بمقامك- .  
عندما يجرى الخير بين أيدينا سنرفعها إلى مقام البيت الكبير، وتلك رغبة جدنا الجبلاوى  
ورفع الناظر عينيه فى شىء من التردد إلى وجه جبل وقال  
إن ما بدر اليوم من أهل الحارة يهدد أمننا  
فقال جبل باحتقار  
لا شأن لى بما بينك وبينهم  
وإذا بدعبس يقول  
وإذا احترمت عهدنا فلن يجرؤ أحد منهم على تحديك!

فقال الناظر بحماس  
سيسجل حقكم على رؤوس الأشهاد  
وهنا قالت هدى برجاء  
ستتناول عشاءك معي الليلة ، هذه رغبة أم!  
وفطن جبل إلى ما ترمى إليه من إعلان المودة بينه وبين بيت الناظر، ولم يكن في وسعه أن ينبذ رغبتها، فقال  
-لك ما تشائين يا سيدتي.

## 42

وابيضت الأيام التالية بأفراح آل حمدان أو آل جبل أما باتوا يدعون ، فتحت فهورهم أبوابها وتربع رضوان الشاعر على الأريكة  
يلعب بأوتار الرباب ، وجرت البوطة أثمارا وانعدت في سماء الحجرات سحب الحشيش ، ورقصت تمر حنة حتى انحل  
وسطها، ولم يبالوا بان يكشفوا عن قاتل قدرة، وصو لقاء الجبلأوى بجبل في هالات من نور الخيال، وآنت تلك الأيام  
بالنسبة لجبل وشفيقة أطيب الأيام، وقد قال لها:  
ما أجمل أن ندعو البلقيطي للإقامة معنا  
فقالته وهى تعانى متاعب المخاض الوشيك  
نعم آى يستقبل حفيده ببرآته  
فقال الرجل ممتنا  
أنت قدم السعد يا شفاءيقة، وستجد سيدة زوجا آفوا من آل حمدان- .  
قال آل جبل آما يقولون فإنك خير من عرف هذا الحى  
فقال باسما

بل أدهم خيرنا جميعا، آم تمنى حياة النعيم حيث لا عمل للإنسان إلا الغناء، وسوف يتحقق لنا حلمه الكبير  
وتراء دعبس وهو سكران يرقص فى جمع من آل جبل، فلما رأى جبل مقبلا لوح بنبوته جدلا وقال له- .  
-إنك لا تبغى الفتونة، سأآون أنا الفتونة- .

فصاح به ليسمع الجميع  
لا فتونة فى حمدان ، ولكن ينبغى أن يكونوا فتوات جميعا على من يطمع فيهم  
ومضى الرجل إلى القهوة فتبعه الجميع وهم يترنحون من السكر، وآآن جبل سعيدا فقال لهم

إنكم أحب أهل الحارة إلى جدآم ، فأنتم سادة الحارة دون منازع، ولذلك ينبغي أن يسود بنكم الحب والعدل والاحترام،-  
ولن ترتكب جريمة في حيكم أبدًا

وترامى الطبل والغناء من بيوت حمدان، وأشرقت أنوار الأفراح في حيههم، على حين غرقت الحارة في ظلمتها المألوفة،  
وتجمع صغارها عند مشارف حى حمدان يتفرجون من بعيد، وإذا برجال من أهل الحارة يقدون على القهوة بوجوههم  
الكالحة، استقبلوا بالمجاملة ودعوا إلى الجلوس وقدم لهم الشاى، وحس جيل أنهم لم يجيئوا لخالص التهنة.  
وصدق حدسه إذ قال له زناتى وآن آبرهم سنا:

يا جبل أننا أبناء حارة واحدة ، وجد واحد، وأنت اليوم سيد الحارة ورجلها الأقوى، وأن يسود العدل الأحياء جميعا خير من  
أن-.

يسود حى حمدان وحده

لم يتكلم جبل، وبدا الفتور في وجه آل جبلن ولكن الرجل قال بعزم:  
-بيدك أن تجرى العدل في الحارة آها.

لم يهتم جبل بأهل الحارة من أول الأمر، ولم يكن يهتم بهم أحد من آله ، بل أنهم شعروا بالاستعلاء عليهم حتى في أيام  
محتهم وقال جبل برقة:

وصانى جدى بأهلى- .

ولكنه جد الجميع يا جبل

فقال حمدان

في هذا الكلام موضع للنظر

وتفرس في الوجوه ليتابع أثر قوله فرأى انقباضها يشتد فاستطرد

أما عقتنا به فقد آأدها بنفسه في لقاء الخلاء!

وبدا زناتى لحظة وآنه يود أن يقول " : في هذا الكلام موضع للنظر " ولكن غلبه الإنكسار فقال مسائلا جبل

أريدضيك ما نحن فيه من فقر وذل ؟

فقال جبل دون حماس

آلا ولكن لا شأن لنا بذلك

فتساءل الرجل في إصرار

-وآيف لا يكون لكم شأن بذلك ؟

وساءل جبل نفسه بأى حق يكلمه ذلك الرجل على هذا النحو ؟

ولكنه لم يغضبني وجد نفسه جانبا يكاد أن يعطف على الرجلن غير أن جانبا آخر منه استنكر أن يخوض متاعب جديدة من أجل الآخرين.

ومن هم هؤلاء الآخرون ؟ وجاء الجواب على لسان دعيس حين صاح بالرجل:

أنسيتم ما أنتم تعاملوننا به يوم محنتنا ؟

فغض الرجل بصره مليا ثم قال

منذا الذي آن يستطيع أن يجهر برأى أو يعلن عاطفة في أيام الفتوات؟ وهل آن الفتوات يعفون عن أحد يعامل الناس

بغير ما يرضون؟ فزرم دعيس شفتيه في استعلاء وإنكار وقال

آتم وما زلتم تحسدوننا على مكانتنا في الحارة، ولعلكم سبقتم الفتوات إلى ذلك!

فاحنى زناتى رأسه في قنوط وقال

سماحك الله يا دعيس!

فصاح دعيس دون رحمة

-اشكروا رجلنا لأنه لم يقبل أن يوجه لكم يد الانتقام!

وتوزعت الأفكار المتضاربة جبل فلاذ بالصمت ، أشفق من أن يمد يد العون، ولم يرتح إلى الجهر بالرفض، ووجد الرجال

أنفسهم حيال تأنيب قارع من دعيس ، ونظرات باردة تعكسها أعين الآخرين، وصمت لا لأمل فيه عند جبل، فنهضوا

حائبين،

وذهبوا من حيث أتوا، وصبر دعيس حتى اختفوا ثم حرك قبضة يمينه في بذاعة وهتف:

إلى حيث القت يا أولاد الخنازير

فصاح جبل

-الشماتة ليست من شيم السادة!

## 43

آن يوما مشهودا يوم تسلم جبل حصة آله من الوقف ، واتخذ في حوش الربع - ربع النصر - مجلسه ودعا إليه آل حمدان،

وأحصى ما في آل أسرة من أنفس ووزع الأموال بالتساوى فيما بينهم، وحتى شخصه لم يخصه بامتياز، ولعل حمدان لم

يرتح إلى هذه العدالة آل الارتياح ، ولكنه عبر عن مشاعره بطريقة غير مباشرة فخاطب جبل قائلا:

ليس العدل أن تظلم نفسك يا جبل!

فقطب جبل قائلاً:

أخذت نصيب اثنين، أنا وشفيفة- .

ولكنك رئيس هذا الحى- .

فقال جبل بصوت سمعه الجميع

ما ينبغي لرئيس القوم أن يسرقهم

وبدا دعبس وهو ينتظر المحارة في قلق، ثم قال

جبل غير حمدان، وحمدان غير دعبس، ودعبس غير آعلها!

فقال جبل معارضا في غضب

تريد أن تجعل من الأسرة الواحدة سادة وخدما!

ولكن دعبس تشبث برأيه وقال

فينا صاحب القهوة والبائع الجوال والمتسول ، فكيف تسو بين هؤلاء ، وأنا أنت أول من خرج على الحصار حتى تعرضت- .

لمطاردة قدرة، وأول من لاقاك في غربتك، وأول من تحمس لرأيك بعد

ذلك القوم مترددون واشتد الغضب بجبل فصاح به:

-مادح نفسه آذاب، والله إن أمثالك يستحقون الظلم الذى حاق بهم.

وأراد دعبس مواصلة الجدلن ولكنه تبين فى عيني جبل غضبا من نار فتراجع، وغادر المجلس دون أن ينبس وقصد عند

المساء غرزة عتريس الأعمش، وجلس فى حلقة الجالسين يدخن مجترا همومه . وأراد أن يتسلى فدعا آعلها إلى

المقامرة، فلعبا السيجة، ولم تكذ تمضى نصف ساعة حتى خسر نصيبه من ريع الوقف ! وضحك عتريس وهو يغير ماء الجوزة

وقال:

يا سوء بختك يا دعبس ! الفقر مكتوب عليك ولو رغم إرادة الواقف!

فغغم دعبس بحقد وقد طير الخسران السطل من مخه

ليس بهذه السهولة تضيع الثروات!

فأخذ عتريس نفسا من الجوزة ليضبط أمية المياه بها ثم قال

-لكنها ضاعت يا ابن والدى!

آن آعلها يسوى الأوراق المالية بعناية، ثم رفع يده بما ليدسها فى صدره، لكن دعبس منعه بيده وأشار بالأخرى إشارة

خاصة أن يرد النقود ! وقطب آعلها وقال:

فصاح دعيس

لم تعد نقودك ولا حق لك عليها!

دع النقود يا ابن الزبالة!

ونظر عتريس نحوهما بقلق وقال

لا تتشاجرا في بيتي

فصاح دعيس وهو يشد على يد آعلها

لن يسرقني ابن الزانية!

اترك يدى يا دعيس ، أنا لم أسرقك

-يعنى ربحتها فى تجارة؟

لماذا قامرت ؟

فلطمه بشدة وهو يقول

نقودى قبل أن أسر عظامك- . .

ونتش آعلها يده فجأة فثار غض دعيس لحد الجنون وضربه بسبباته فى عينه اليمنى

صرخ آعلها صرخة عالية، وانتفض واقفا، ثم غطى عينيه بكفيه تارآا الأوراق تتهاوى إلى حجر دعيس وترنح من الألم، ثم

سقط وراح يتلوى ويئن أنينا موجعا، والتفت حوله الجالسون على حين جمع دعيس النقود وأعادها إلى صدره، وإذا بعتريس

يقترب منه قائلا فى هلك:

صفت عينه- . !

فارتاع دعيس مليا، ثم وقف فجأة وغادر المكان

ووقف جبل فى حوش النصر فى جمع من رجال حمدان، والغضب يتفجر من عينيه وشدقيه، وجلس آعلها القرفصاء، وقد

شد على عينه رباطا محكما على حين وقف دعيس يتلقى ثورة جبل فى صمت وخذلان.

وأراد حمدان أن يهدىء من ثورة جبل فقال بلين:

سيرد دعيس النقود إلى آعلها- . .

فصاح جبل بأعلى صوته

فليرد إليه بصره أولا- . .

فبكى آعلها وقال الشاعر رضوان متاوها : ليت فى الإمكان رد البصر

فقال جبل وقد أظلم وجهه آالسمااء الراجعة البارقة:

ولكن فى الإمكان أن تؤخذ عين بعين!

وحملق دعبس فى وجه جبل متوجسا ، وأعطى النقود لحمدان وهو يقول

أنت فاقد العقل من الغضب وما قصدت إيذاءه

فتفرس جبل وجهه بحنق طويلا ثم قال بصوت رهيب

عين بعين والبادى أظلم.

تبدلت نظرات الحيرة لم يُر جبل أغضب منه اليوم، وقد برهنت الأحداث على قوة غضبه آغضبتة يوم وآل بيت النعيم،

وآغضبتة يوم قتل قدرة ، حقا إنه لشديد الغضب إذا غضب لم يردعه عن هدفه رادع.

وهم حمدان بالكلام ولكنه بادره قائلا:

فوضى لن تبقى على أحد، لذلك-.

أصر على تصفية عينك يا دعبس

إن الواقف لم يؤثرآم بحجة ليعتدى بعضكم على بعض ، فإما حياة تقوم على النظام وإما

ورآب الرعب دعبس فصاح:

-لن تمسنى يد ولو قاتلتكم جميعا.

فانقض عليه جبل آالثور الهائج وضربه بجماع يده فى وجه ضربة هائلة سقط على أثرها دون حراك، وأقامه وهو فاقد الوعى

واحتضنه من الخلف شادا ذراعيه حول جسمه، والتفت نحو آعبلها قائلا بلهجة امرة:

قم فخذ حقتك

وقام آعبلها ولكنه وقف مترددا، على حين تعالى الصراخ من مسكن دعبس وحجج جبل آعبلها بنظرة قاسية وصاح به

-تقدم قبل أن أدفنك حيا.

واتجه آعبلها نحو دعبس، وبسبابته ضرب عينه اليمنى حتى انفقات عينه على مرأى من الجميع، وأشدت الصراخ من بيت

دعبس وبكى بعض أصدقاء دعبس مثل عتريس وعلى فوانيس فصاح بهم جبل:

يا لكم من جناء وأشرار ، والله ما آرهتم الفتونة إلا لألها آآنت عليكم، وما أن يأنس آحدآم فى نفسه قوة حتى يبادر إلى-.

الظلم والعدوان، وما للشياطين المستترة فى أعماقكم إلا الضرب بلا رحمة ولا هوادة، فإما النظام وإما الهلاك

وترك دعبس بين أيدى أصحابه وذهب، وآآن لذلك الحادث فى النفوس أثر وآ أثر ، آآن جبل من قبل رئيسا محبوبا، وآآن

يظنه أله فتوة لا يريد أن يتخذ لنفسه اسم الفتونة أو شعارها، فأصبح من بعده مخوفا مرهوبا، وهامس أناس بقسوته

وظلمه ولكن وجد هؤلاء دائما من يرد عليهم قولهم ويذآر بالوجه الاخر لقسوته، وهو الرحمة بالمعتدى عليهم، والرغبة

الصادقة فى إقامة نظام يضمن العدل والنظام والإخاء فى آل حمدان، ووجد هذا الراى الأخير آل يوم ما يسنده فى فعال



الرجال وأقواله حتى أنس إليه من استوحش وأمن من خاف، ومال من جفا، وحرص الجميع على النظام فلم يجاوز حدوده حد، وسادت الاستقامة والأمان في أيامه، فلبث بينهم رمزا للعدالة والنظام حتى غادر الدنيا دون أن يجيد عن مسلكه قيد أنملة.

هذه قصة جيل..

آن أول من ثار على الظلم في حارتنا وأول من حظى بلقيا الواقف بعد اعتزاله، وقد بلغ من القوة درجة لم ينازعه فيها منازع، ومع ذلك تعفف عن الفتونة والبلطجة وأراء عن سبيل الاتاوة وتجارة المخدرات ولبث بين آله مثالا للعدل والقوة والنظام أجل لم يهتم بالآخرين من أبناء حارتنا ولعله آن يضمهم لهم احتقارا وازدراء آسائر أهله ، لكنه لم يعتد منهم على أحد ولا تعرض له بسوء وضرب للجميع مثالا جديرا بالاحتذاء.

ولولا أن آفة حارتنا النسيان ما انتكس بها مثال طيب.

لكن آفة حارتنا النسيان

أوشك الفجر أن يطلع وأوى إلى المضاجع آل حى فى الحارة حتى الفتوات والكلاب والقطط، واستقر الظلام بالأرآن أنه لن يبرح أبداً، وفى رعاية الصمت الشامل فتح باب ربع النصر بحى آل جبل فى حذر شديد، فتسلل منه شبهان سارا فى سكون نحو البيت الكبير، ثم تابعا سوره العالى إلى الخلاء، نقلا خطواتهما فى حذر وجعلا يتلفتان وراءهما من حين إلى حين ليطمئنا إلى أن أحدا لا يتبعهما، وأوغلا فى الخلاء مهتدين بنور النجوم المتناثرة حتى تبينا صخرة هند آقطة من ظلام أشد آثافة مما حوله، آنا رجلا فى أواسط العمر وامرأة شابة حبلى، وآلهما يحمل بقجة مكتظة وعند الصخرة تنهدت المرأة وقالت بإعياء:

عم شافعى ، تعبت

فتوقف الرجل عن المسير وهو يقول فى غيظ

-استريحى ، ربنا يتعب المتعب.

وضعت المرأة البقجة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين فخذيها لتريح بطنها المنداحة، ووقف الرجل لحظة ينظر فيما حوله، ثم جلس على بقجة أيضا وهبت عليهما نسائم معبقة بأنفاس الفجر الرطبية، لكن المرأة لم تغفل عما يشغلها فتساءلت:

أين سألد يا ترى ؟

فقال شافعى ساحطا

أى مكان يا عبدة خير من حارتنا اللعينة

ورفع عينيه إلى شبح الجبل الممتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وقال

سنذهب إلى سوق المقطم ، إليه قصد جبل أيام محنته، وسأفتح دآن تجارة وأعمل أما أنت أعمل فى الحارة، لى-

يدان يدران الذهب ومعى نقود للبدء لا بأس بما

فشدت المرأة خمراها حول رأسها ومنكيبيها وقالت بحزن:

فبصق الرجل متأففا وقال محنقا:

أسياذ الحارة ! ما نحن إلا عبيد أذلاء يا عبدة، ذهب جبل وعهده الحلو، وجاء زنفل أجحمة الله، فتوتنا وهو علينا لا لنا،-  
يلتهم أرزاقنا ويفتك بمن يشكو

لم ينكر عبده شيئا من قوله، لأنها ما زالت تعيش في أيام المرارة وليالي الأحزان، لكنها حين ضمنت الابتعاد عن مكاره  
الحارة حن قلبها إلى ذآرياتها الطيبة فقالت متحسرة.

لا توجد حارة آحارتنا لولا أشرارها، أين تجد بيتا آبيت جدنا؟ أو جيرانا آجيراننا؟ أين تسمع حكايات أدهم وجبل  
وصخرة-.

هند؟ ألا لعنة الله على الأشرار

فقال الرجل بصوت مرير:

-والنبايت تموى لأنفه سبب وأصحاب الوجوه المستكبرة يخالون بيننا آالقضاء والقدر!

وذآر زنفل اللعين وآيف أخذ بتلابيه وهزه بعنف حتى آاد يقتلع ضلوعه، ثم مرغه في التراب أمام الخلق لا لشيء إلا لأنه  
جعل مرة من الوقف حديثه ! ضرب الأرض بقدمه واستطرد قائلا:

المجرم الملعون خطف وليد سيدهم بياع لحمة الرأس ثم لم يسمع عن الوليد بعد ذلك أبدا، لم تأخذه رحمة بطفل في-.

شهره الأول، وتتساءلين أين سالد، ستلدين بين أناس لا يقتلون الأطفال

فتنهدت عبدة وقالت برقة آأما لتخفف من مضمون حديثها.

ليتك رضيت بما رضى به الآخرون!

فقطب غاضبا وراء قناع الظلمة وقال

ماذا جنيت يا عبدة؟ لا شيء آنت آتساءل أين جبل ، وعهد جبلن أين القوة العادلة؟ ماذا أرجع آل جبل إلى الفاقة والذل-.

فحكم دآآنى وضربنى آاد يفتك بى لولا الجيران، ولو بقينا بيتنا حتى تلى لانقض على الويد آما فعل بوليد سيدهم

فهزت رأسها فى حزن وقالت:

-آه لو صيرت يا معلم شافعى ! ألم تسمعهم يقولون إن الجبلاوى لا بد أن يخرج يوما من عزلته لينقذ آحفاده من الظلم

والهوان ؟

ففخ المعلم شافعى طويلا وقال بسخرية:

-هكذا يقولون ! طالما سمعتهم مذ آنت غلاما، لكن الحقيقة أن جدنا فى البيت اعتزال، وأن ناظر وقفه برىع الوقف استآثر،

إلا ما يهب للفتوات نظير حمايته، وزنفل فتوة آل جبل يتسلم نصيبهم ليدفنه فى بطنه، آن جبل لم يظهر فى هذه الحارة

وأنه لم يأخذ عين صديقه دعيس بعين المسكين آعبلها.

وسكنت المرأة لتسيح في أمواج الظلام سيطلع عليها الصباح بين قوم غرباء، سيكون الغرباء جيرانها الجدد، وتستقبل أيديهم وليدها وينمو الوليد في أرض غريبة آغصن مقطوع من شجرة وما آانت إلا قانعة في آل جبل تحمل الطعام إلى زوجها في الدآن وتجلس في الليل وراء النافذة لتسمع رباب عم جواد الشاعر الضرير ، ما أحلى الرباب وما أحلى قصة جبل ليلة التقى الجبلاوى في الظلام فقال له ألا تخف، حياه بالعطف والتأييد حتى انتصر ، وعاد إلى حارته مجبور الخاطر، وما أحلى العودة بعد الاغتراب.

وآن شافعى يقبل وجهه في السماء في النجوم الساهرة ويرنو إلى طلائع الضياء فوق الجبل آسحابة بيضاء في أفق سماء مكفهرة.

وقال محذرا:

ينبغى أن نسير آى نبلغ السوق قبيل الشروق- . .

مازلت في حاجة إلى الراحة

اللّٰه يتعب المتعب

ما أجمل الحياة لولا وجود زنفل الحياة عامرة بالخيرات والهواء النقى والسماء المرصعة بالنجوم والمشاعر الطيبة ولكن فيها أيضا ناظر الوقف أيهاب الفتوات بيومى وجابر وحنودوسة وخالد وبطيخة وزنفل.

وفي الإمكان أن يصير آل ريع آلبيت الكبير وان ينقلب الأنين الحانا ، ولكن المسآآين يتمنون المحال آما تمناه أدهم من قبل ومن هم المسآآين ؟ إنهم أفقيه متورمة من الصفع وأدبار ملتبهة من الرآل وأعين يرهاها الذباب ورؤوس بعشش فيها القمل.

لماذا نسينا الجبلاوى

غمغمت امرأة- .

اللّٰه يعلم بحاله- .

فصاح الرجل في حسرة وغضب

يا جبلاوى

فردد الصوت صوته، وقام وهو يقول

توآلى على اللّٰه- . .

قامت عبدة ، تناول آفها في يده ، وسارا نحو الجنوب نحو سوق المقطم

قالت عبدة بفرح تألق في عينيها وثرها:

ها هي حارتنا، وها نحن نعود غليها بعد غربة، فالحمد لله رب العالمين- .  
فابتسم عم شافعي وهو يجفف جبينه بكم عبائه وقال برزاة  
حقا ما أهبج العودة!

وآن رفاعة يصغى إلى والديه ، ووجهه الصافي الجميل يعكس دهشة ممزوجة بالحزن، فقال المحتج  
-ول ينسى سوق المقطم وجيرانه؟

ابتسمت الأم وهي تحبك طرف الملاءة حول شعرها الذى وخطه المشيب، أدرك أن الفتى يحن إلى مولده أما تحن هي  
إلى مولدجا، وأنه بما جبل عليه من رقة ومودة لا يستطيع أن يسلو الصداقات وأجابته:  
هنا اهلك، سادة الحارة سنحبهم وسيحبونك، ما اجمل حى-..

جبل بعد وفاة زنفل

الأشياء الطيبة لا تنسى ابداً، ولكن هذه هي حارتك الأصلية

فهتف عم شافعي محذرا:

لن يكون خنفس خيرا من زنفل-.. .

لكن خنفس لا يضمرك لعداوة-.

عدوات الفتوات تنشا بسرعة نشوء الطين عقب المطر

فقال عبدة برجاء

انك عشت تحت سيطرة فتوة-.

بسوق المقطم، ففي آل مكان فتوة يخضع له الناس

لا تفكر هكذا يا معلم ، عدنا لنعيش فى سلام، ستفتح الدآن وسيجئ الرزق ولا تنس

واصلت الأسرة مسيرها نحو الحارة يتقدمها عم شافعي حاملا جوالا، وتبعه عبدة ورفاعة حاملا بقجة ضخمة وبدا رفاعة  
بقامته الطويلة وعوده اللنحيل ووجهه الوضاء فتى جذاب المنظر ينضج بالوداعة والرفقة غريبا فى الأرض الذى يسير فوقها،  
وتأملت عيناه ما حوله فى شغف حتى انجذبتا إلى البيت الكبير الذى يقف عند رأس الحارة منفردا، ورؤوس الأشجار تهمتر  
من فوق سور، رنا إليه طويلا ثم تساءل:

بيت جدنا.

فقال عبدة بابتهاج

نعم ، أ رأيت ما حدثتك عنه؟ فيه جدك صاحب هذه الأرض آ لها وما عليها الخير خيره والفضل فضله ولولا عزلته لملاً الحارة نوراً.

وآمل عم شافعى ساخرا:

-وباسمه ينهب ناظر الوقف ايهاب حارتنا، ويعتدى الفتوات علينا تقدموا نحو الحارة محاذين للصور الجنوبي للبيت الكبير، لم ترد عينا رفاعه عن البيت المغلق ثم تراءة لهم بيت ناظر الوقف إيهاب وبوابه المقتعد أريكة عند بابه المفتوح وفي مقابله قام بيت فتوة الحارة بيومي الذي وقف أمامه عربية آرو محملة بمقطف الأرز وسلال الفآهة، وقد مضى الخدم يحملونها للداخل تباعا، وبدت الحارة ملعبا للغلمان الحفاة، على حين افترشت أسر الأرض او الحصر أمالم مداخل البيوت لينقوا الفول أو يخرطوا الملوخية، وتبودلت أحاديث ونكات وزجر ونهر ، وتعالت ضحكات وصرخات ومالت أسرة عم شافعى إلى حى جبل

فصادفها في عرض الطريق شيخ ضرير، يتلمس طريقه بعصاه على مهل، فأنزل عم شافعى الجوال من فوق ظهره ومضى نحوه منبسط الأسارير حتى وقف أمامه وهو يهتف:

عم جواد الشاعر ، السلام عليكم!

توقف الشاعر وهو يرهف أذنيه في انتباه ، ثم هز رأسه في حيرة قائلاً

-وعليكم السلام ! صوت غير غريب على!

أنسييت صاحبك شافعى النجار ؟

فتهلل وجه الرجل وصاح

-عم شافعى ورب السماوات!

وفتح ذراعيه فتعانق الرجلان بشوق وحنان حتى تطلعت إليهما انظار القرييين وحاآى عناقهما غلامان عابثان، وقال جواد

وهو يشد على يد صاحبه:

هجرتنا عشرين عاما أو يزيد يا له من عمر، وآيف زوجك؟

فقال عبدة

-بخير يا عم جواد سألت عليك العافية، وها هو ابننا رفاعه قبل يد عمك الشاعر.

واقترب رفاعه من الشاعر مبتهجا فتناول يده فلتئما ، وربت الرجل آنفه وتحسس رأسه في استطلاع وقسمات وجهه وقال

:

بديع .. بديع ، ما أشبهك بجدك!

فنور الشاء وجه عبدة وضحك عم شافعى قائلا

-لو رأيت جسده النحيل ما قلت ذلك.

حسبه ما أخذ ، أن الجبلاوى لا يتكرر ، ماذا يعمل الفتى ؟-.

قليلاً ويهم على وجهه فى الخلاء، والجلب أآثر الوقت

فقال الشاعر باسم

علمته النجارة لكنه ابن وحيد مدلكك يمكث فى دآانى

لايستقر الرجل حتى يتزوج، وأين أنت يا معلم شافعى- .

فى سوق المقطم

فضحك الرجل ضحكة عالية وقال

آما فعل جبل، لكنه عاد حاويا وتعود نجارا أما ذهبت، على أى حال مات عدوك ولكن الخلف آالسف

فقال عبدة بسرعة

-آلم آذلك، وما نطمع فى شىء إلا أن نعيش آما يعيش المسلمون.

وعرف رجال شافعى فهرعوا إليه، ودار العناق وارتفعت الأصوات وعاد رفاعة يتفحص ما حوله باهتمام وشغف وأنفاس قومة

تتردد من حوله، فتخفف آثيرا من وحشة القلب التى غشيتها مذ فارق سوق المقطم، ومضت عيناه فى التجوال حتى

وقفتا عند نافذة فى الربع الأول، تطل منها فتاة راحت تحملق فى وجهه باهتمام، فلما التقت عيناهما رفعت ناظرها إلى

الأفق، ولمح ذلك رجل من أصحاب والده فهمس قائلا:

عيشة بنت خنفس ، نظرة إليها تسبب مذبحة!

فتورد وجه رفاعة وقالت أمه

-ليس هو من هؤلاء الشبان ولكنه يرى حارته لأول مرة.

ومن الربع الأول خرج فى متانة الثور، يرفل فى جلباب فضفاض، وينطلق من فوق فيه شارب متحرش فى وجه آثير الندوب

والبقع فتهامس الناس " خنفس . خنفس " ، وأخذ جواد عم شافعى من يده واتجه نحو الربع وهو يقول

- سلام الله على فتة آل جبل، إليك آاخانا المعلم شافعى النجار، عاد إلى حارته بعد غربة عشرين عاما.

أن يلين وجهه ثم تتمم فى

برود

ألقي خنفس نظرة حافزة على وجه شافعى متجاهلا يده الممدودة مليا، ثم مد له يده دون

-أهلا.

وتامله رفاعه بامتعاوض فهمست أمه فى أذنه أن يذهب للسلام عليه، وذهب رفاعه متضايقا فمد له يده، وقال عم شافعى  
:  
-ابنى رفاعه.

ونظر خنفس إلى رفاعه نظرة استنكار وأزدراء أولها الحاضرون بانها احتقار لرقته غير المألوفة فى الحارة، وصافحة بعدم  
آآرات ثم التفت إلى أبيه متسائلا:

ترى هل نسيت فى غربتك سنة الحياة فى حارتنا ؟

فأدرك شافعى ما يرمى إليه، وقال مداريا ضيقه

نحن فى الخدمة دائما يا معلم

فتفرس فى وجهه بريية وسأله

لماذا هاجرت من حارتك ؟

فصمت شافعى ريشما يجد جوابا مناسبا ، فقال خنفس

هربا من زنفل ؟

فقال جواد الشاعر مبادرا

لم يكن ذلك لخطأ لا يغتفر

فقال خنفس لشافعى محذرا

لن تجد منى مهربا عند الغضب

فقال عبدة برجاء

-ستجدنا يا معلم من أطيب الناس.

ومضى شافعى وأسرته وسط الأصحاب إلى دهليز ربع النصر ليتسلم مسكنا خاليا دله عليه عم جواد، وتراءت فى نافذة  
مطلة على الدهليز فتاة حسناء ذات جمال وقح، وقفت تمشط شعرها أمام زجاج النافذة ، فلما رأأت القادمين تساءلت فى  
دلال:

من القادم آلعريس فى الزفة ؟

فتضحك آثيرون وقال رجل

فى الدهليز أمامك

فهتفت ضاحكة

جار لك جديد يا ياسمينة سيقم



-ربنا يزيد في الرجال.

ومرت عيناها بعدة دون آتراك، لكنها وقفت على رفاة باهتمام وبعجاب، ودهش رفاة لنظرهما آثر من دهشته لنظرة عيشة بنت خنفس، وتبع والديه إلى باب المسكن المقابل لمسكن ياسينة على الجانب الآخر للدخيليز، وصوت ياسمينة يغنى:  
أه من جماله يا مة.

## 46

فتح عم شافعي دآن النجارة عند مدخل ربع النصر، ومع الصباح خرجت عبدة تنسوق، ومضى عم شافعي وابنة رفاة إلى الدآن، وجلسا على عتبة الدآن ينتظران الرزق، وآان في حوزة الرجال مال يكفيه شهرا أو يزيد فلم يطوقه القلق فراح ينظر إلى الدهليز المسقوف بالمساآن المفضى إلى الحوش الكبير ويقول:

هذا هو الدهليز المبارك الذى أغرق فيه جبل أعداءنا

فتأمله رفاة بعينين حالمتين وثغر باسم ، فعاد الرجل يقول

-وف هذه البقعة أقام أدهم آوخه وحدثت الأحداث ، وفيها رارك الجبلاوى ابنه وعفا عنه.

فازداد الثغر الجميل ابتساما وأغرقت العينان فى الحلم الذآريات الجميلة آها، ولدت فى هذا المكان لولا الزمن لبقيت آثار

أقدام الجبلاوى وأدهم، ولردد الهواء أنفاسهم ومن هذه النوافذ انصبت المياه على الفتوات فى الحفرة من نافذة ياسمينة

انصبت المياه على الأعداء، اليوم لا ينصب منها إلا نظرات مرعبة، ويعبث الزمان بكل جليل، أما جبل فانتظر داخل الحوش بين رجال ضعفاء، لكنه انتصر.

انتصر جبل يا أبى ولكن ما جدوى النصر ؟

فتنهذ الرجل قائلا

تعاهدنا على ألا نفكر فى ذلك رأيت خنفس ؟

وعلا صوت غنج مناديا

-يا عم يا نجار:

فتبادل الأب وابنه نظرة إنكار، ونهض الأب رافعا رأسه فرأى ياسمينة تطل من النافذة وضميرتها الطويلتان تتدليان وتتأرجحان فهتف:

يا نعم

فقال بصوت متهالك من العبث

ابعث صبيك ليأخذ ترابيزة لإصلاحها-".

عاد الرجل إلى مجلسه وهو يقول لأبنيه " توأل على الله " وجد رفاعة باب المسكن مفتوحا في انتظاره فغمغم قائلا " : أحمر فأذنت له بالدخول فدخل، وجدها في جلبا بنى ذى آفة بيضاء حول الطوق وفوق هضمة النهدين، وحافية وعارية الساقين وجدها أيضا، ولبثت صامتة مليا آنما لتمتحن أثر منظرها في نفسه، فلما رأت صفاء عينيه لا يتغير أشارت إلى ترابيزة صغيرة قائمة على ثلاث أرجل في رآن الصالة وقالت:

الرجل الرابعة تحت الكنبه، رأبها وحياتك وأدهن الترابيزة من جديد

فقال بصوت ذى موقع عذب

-في الخدمة يا ست.

والثمن؟-

سأسأل أبى

فشهقت متسائلة

وأنت ؟ لا تعرف الثمن؟-

هو الذى يخاطب فيه

فتفرست فى وجهه بقوة وسألته

ومن يصلحها- . :

أنا ، ولكن بإشرافه ومعاونته

فضحكت دون مبالاة وقالت

بصغية أصغر فتواتنا دونك فى السن لكنه يستطيع أن يدوخ زفة برمتها، وأنت لا تستطيع ان ترآب رجل ترابيزة بمفردك!

فقال رفاعة بصوت من يروم الهاء الكلام

المهم أهما ستعود إليك أحسن ما يكون

وتناول الرجل الرابعة من تحت الكنبه وحمل الترابيزة على آتفه واتجه نحو الباب قائلا

فتك بعافية

ولما وضعها أمام أبيه فى الدآن قال الرجل بامتعاظ وهو يتفحص الترابيزة

أقول الحق إن أنت أفضل أن يجيى اول رزق من ناحية أنظف

فقال رفاعة فى سداجة

ليست قدرة بحال يا أبي، لكنها وحيدة فيما يبدو- .

ليس أخطر من امرأة وحيدة- .

لعلها في حاجة إلى هداية

فقال عم شافعي ساخرا

-حرفتنا النجارة لا الهداية ، هات الغرا.

وعند المساء ذهب عم شافعي ورفاعة إلى قهوة جبلن آن الشاعر جواد متربعا على أريكته يحسو قهوته، وجلس شلضم صاحب القهوة عند المدخل، على حين احتل خنفس مكان الصدارة وسط هالة من المعجبين ، وقصد شافعي وابنة الفتوة ليؤديا إليه تحية الخضوع ثم اتخذا مكانا خاليا جنب شلضم، وما لبث ان تناول عم شافعي الجوزة وقدم لإبنة قدح قرفة بالبندق.

وبدا جو القهوة ناعسا، تنعقد في سمائه سحب الدخان، وتنتشر في هوائه السآن روائح المعسل والنعناع والقرنفل، اما الوجوه ذات الشوارب المستنفرة فلاحت شاحبة ثقيلة الجفان وتلاقى السعال والنحنحة بالضحكات الغليظة والنكات الفاجرة وترامى في بطن الحارة هتاف غلمان يترنمون:

يا ولاد حارتنا توت توت

انتو نصاره ولا يهود

تآلو أيه نآل عجوة

تشربو أيه نشرب قهوة

وآنت عند مدخل القهوة هرة تتربص فانقضت نحو أسف أريكة وندت وسوسة، ثم ظهرت رآضة نحو الحارة قابضة بأسنانها على فأرة ورد رفاعه عن فيه قدح القرنفل متقرزا، ورفع عينيه فوقعتا على خنفس وهو ييصق، وصاح خنفس مخاطبا الشاعر جواد:

-متى تبدأ يا راس الدواهي ؟

فابتسم جواد وهو يهز رأسه ثم تناول الربابة وبعث من أوتارها انغام الافتتاح، وبدا بتحية للناضر ايهاب، فتحية ثانية ليومي فتوة الحارة والثالثة توجهت خليفة جبل الفتوة خنفس، ومضى يقول وجلس أدهم في إدارة الوقف يستقبل مستأجري الحكار الجدد، وآن ينظر في الدفتر حينما جاءه صوت الرجل الأخير يقول معلنا عن اسمه:

إدريس الجبلاوى- . .

فرجع أدهم رأسه في فزع فرأى أخاه واقفا أمامه

وواصل الشاعر الحكاية في جو من الانصات وتابعه رفاعه بشغف.

هذا هو الشاعر وهذه هي الحكايات أم سمع أمه وهي تقول : حارتنا حارة الحكايات، وحقا أنت جديرة بالحب هذه الحكايات لعل فيها عزاء عن ملاعب سوق المقطم وخلواته، وراحة لقلبه المحترق بهيام غامض .. غامض آهذا البيت الكبير المغلق، لا أثر فيه لحياة إلا رعوس أشجار الجميز والتوت والنخيل، وأى دليل على حياة الجبلاوى إلا الأشجار والحكايات؟ وأى

دليل على أنه حفيده سوى الشبه الذى لمسه الشاعر جواد بيديه؟ وآن الليل يتقدم وعم شافعى يدخن جوزة ثالثة، واختفت من الحارة نداءات الباعة وهتافات الغلمان، ولم يعد يبقى سوى انغام الرباب ودقة دربكة آتية من بعيد، وصراخ امرأة ينهال عليها زوجها ضربا، أما ادهم فقد جره إدريس إلى مصيره إلى الخلاء تتبعه أميمة البآية، أما خرجت امى من الحارة وأنا فى بطنها اضطراب ، اللعنة على الفتوات وعلى القطط حين تلفظ الفئران أنفاسها بين أسناتها، وعلى آل نظرة ساخرة أو ضحكة باردة، وعلى من يستقبل أخاه العائد بقوله لا مهرب منى عند الغضب، وعلى صانعى الرعب وخالقة النفاق، أما أدهم فلم يبق له إلا الخلاء وها هو الشاعر يغنى أغنية من أغاني إدريس المخمورة، ومال إلى أذن أبيه وقال:

أريد أن أزور المقاهى الأخرى

فقال عم شافعى متعجبا

-قهوتنا خير قهوة فى الحارة.

ماذا يقول الشعراء هناك؟-

الحكايات نفسها ولكنك تسمعها هنالك وآأها غير الحكايات

وترامى التهامس إلى شلضم فمال نحوه رفاعة قائلا

ليس أأذب من أهل حارتنا، والشعراء آأذب الكاذبين ستسمع فى القهوة التالية أن جبل قال إنه ابن الحارة، وآلل ما قال-.

غلا إنه ابن حمدان

فقال عم شافعى:

الشاعر يريد أرضاء السامعين باى ثمن

فقال شلضم همسا

-بل يريد أرضاء الفتوة.

وغادر الأب والأبن القهوة عند منتصف الليل، وآأنت الظلمة آثيفة تكاد أن تتجسد ، وهناك أصوات رجال آأنا تصدر عن لا شئ.

وسيجارة تنوهج فى يد غير مرئية آأها نجم قهاوى نحو الرض.

وتساءل الأب:

أعجبتك الحكاية؟-

نعم ، ما اجمل الحكايات

فضحك الأب قائلاً

عم جواد يجبك، ماذا قال لك في الاستراحة؟-

دعان إلى زيارته في بيته-

ما أسرع أن تُحب، ولكنك صبي بطء التعلم

فقال معتذراً

لدى عمر آمل للنجارة، ولكن يهمنى الآن أن أزور المقاهي جميعاً

وتلمسا طريقهما إلى الدهليز فترامت غليهما من بيت ياسمينه ضجة آخمورة وصوت يغني

يا بو الطاقية الشبيكة قل مين شغلها لك

شبتك قلبى الهى ينشغل بالك

فهمس رفاة فى أذن ابيه:

ليست وحيدة أما ظننت

فتنهذ الأب قائلاً

ما أآثر ما ضيعت من عمر فى الخلوات!

وراحا يرقيان فى السلم على مهل وحذر، وإذا برفاة يقول

-أبى ، سأزور عم جواد الشاعر.

47

طرق رفاة باب جواد الشاعر بالربع الثالث بحى جبل، وآان يتصاعد من الحوش سباب حاد تتبادلة نسوة ممن اجتمعن

للغسل والطهى فاطل من فوق درابزين الطريقة المستديرة المشرفة على فناء الربع، وآانت المعرأة الأساسية تدور بين

امراتين، وقفت أولاهما وراء طشت غسيل تلوح بيدين مغطاتين برغوة الصابون، ووقفت الأخرى عند مدخل الدهليز مشمرة

عن ساعديها ترد السب بأفطع منه وترقص وسطها استهزاء، أما النساء الأخريات فانقسمن إلى فرقتين، وتلاطمت الأصوات

حتى تجاوزت جدارن الربع بالشتائم المقذعة والقذف العاهر، وسرعان ما جفل مما يرى ويسمع فتحول عن موقفه إلى باب

الشاعر متقرزاً، حتى النساء، حتى الققط، ودعك من الفتوات فى آل يد مخلب وفى آل لسان سم، وفى القلوب الخوف

والضغائن، أما الهواء النقي ففى خلاء المقطم أو فى البيت الكبير حيث ينعم الواقف بالسلام وحده، وفتح الباب عن وجه الضير المستطلع فحياه فابتسمت أسارير الرجل ، وأوسع له وهو يقول:

-اهلا يا ابن أخى.

وتلقى رفاعة أول ما دخل شذى بخور نافذ أنه أنفاس ملاك ومضى وراء الرجل إلى حجرة صغيرة مربعة، اصطفت باضلاعها الشلت وانبسط فوق أرضها حصيرة مزرآشة، وبدا جوها خلف خصاص النوافذ المغلقة فى سمره الأصيل، وقد زين سقفها حول الفانوس المدلى لصور العصافير والحمام، تربع الشعر على شلته فجلس رفاعة إلى جانبه.

وقال الرجل:

آنا نعد القهوة

ونادى زوجته فجاءت امرأة حاملة صينية القهوة فقال جواد

تعال يا أم بخاطرها، هذا رفاعة ابن عم شافعى

فجلست المرأة إلى جانب زوجها من الناحية الأخرى، وراحت تصب القهوة فى الفناجيل وهى تقول

-أهلا بك يا ابنى.

بدت فى منتصف الحلقة السادسة، مستقيمة العود قوية البنية ، تلفت النظر بعينين نافذتين ووشم فوق الذقن، وأشار جواد ناحية الضيف وقال:

إنه سميع يا أم بخاطرها، شغوف بالحكايات، ويمثله يتحمس الشاعر ويرضى، أما الآخرون فسرعان ما يغلبهم نعاس-

المتزول والحشيش

فقال المرأة بدعابة:

حكاياتك جديدة عليه، معادة عليهم

فقال الشاعر بغيظ

-هذا صوت عفريت من عفاريتك ) ثم موجه الخطاب إلى رفاعة ( الولية أودية زار..

فتطلع رفاعة نحو المرأة باهتمام فالتفت عيناها وهى تمد له يدها بفنجال القهوة آم آنت تجذبه دقة الزار فى سوق المقطم، وآن قلبه يتابعها راقصا فيقف فى الطريق رافعا رأسه نحو النوافذ، متطلعا إلى البحور السابع فى الفضاء والرءوس المترنحة وسأله الشاعر:

-ألم تعرف فى غربتك شيئا عن حارتنا ؟

حدثنى ابى عنها أما حدثنى أمى، ولكن قلبى آآن هنالك ، فلم أآثر آثيرا للموقف ومشآاله، وعجبت من آآرة-

ضحياها فملت إلى رأى أمى فى ايثارها الحب والسلامة

فتساءل جواد وهو يهز رأسه في حزن:

-وآيف يتسنى للحب والسلام أن يعيشا بين الفقر ونبايت الفتوات؟

فلم يجبه رفاة لا لأنه لم يكن ثمة جواب، ولكن لأن عينيه رأتا لأول مرة صورة غريبة فوق الجدار الأيمن للحجرة، صورة مرسومة بالزيت على الجدار الصورة التي تزين جدارن المقاهى، وتمثل رجلا هائلا تبدو إلى جانبه ربوع الحارة ضئيلة

آعب الأطفال فتساءل الشاب:

من صاحب هذه الصورة؟

فأجابت أم بخاطرها

-الجبلاوى.

هل رآه أحد؟

فقال جواد

آلا ، لم يره أحد من جيلنا، حتى جبل لم يتبينه فى ظلمة الخلاء .. ولكن المبيض رسمه على مثال ما يرد من أوصافه فى- .  
الحكايات

فتساءل رفاة متنهدا:

لماذا أغلق أبوابه فى وجه أحفاده؟-

يقولون الكبير، من يدرى آيف تمضى به الأيام، والله لو فتح أبوابه ما بقى أحد من اهل حارتنا فى داره القذرة-..  
آلا تستطيع أن

ولكن أم بخاطرها قاطعته قائلة

تقع المصائب أشكالا وألوانا

فهز رأسه فى حيرة متسائلا

لا تشغل به نفسك ، فإن اهل حارتنا إذا بدأوا بالكلام عن الواقف جرهم الكلام إلى الوقف ثم  
وآيف لا تشغل النفس بمثل هذا الجد العجيب؟-

لنفعل مثله، فإنه لا يشغل بنا نفسه

فرفع رفاعه بصره إلى الصورة ثم قال

لكنه قابل جبل وآله-! !

نعم، ولما مات جبل جاء زنفل ثم خنفس، وآأنا با بدر لا رحنا ولا جينا

فضحك جواد وقال لامرأته

إن الحارة في حاجة إلى من يخلصها من شياطينها أما تخلصين الممسوسين من عفاريتهم فابتسم رفاعه وقال

-يا عمتي إن العفاريت حقا هم أولئك النس لو رأيت آيف آانت مقابلة خنفس لأبي.  
لا شان لي بأولئك عفاريتي الأخرن يذعنون لي أما آانت تذعن الشعابين لجبل، وعندى لهم جميع ما يجبون من بخور-.  
سودان وتعاويد حبشية وأغان سلطانية  
فسألها رفاعه باهتمام:

ومن أين أتت هذه القدرة على العفاريت ؟

فحدجه بنظرة حذرة وقالت

هى حرفتى أما أن النجارة حرفة أيبك جاتتى من وهاب الفن

فأفرغ رفاعه ثمالة الفنجان في فيه وهم بالكلام غير أن صوت عم شافعى تصاعد من الحارة صائحا

يا رفاعه ، يا ولد يا أسول

فقام رفاعه إلى النافذة ففتحها وأطل منها حتى التقت عيناه عيني أبيه وهتف

-أمهلنى نصف ساعة يا أبى.

فرفع الرجل منكبيه فيما يشبه الياس ورجع إلى دآانه، وعندما اخذ رفاعه يغلق النافذة راي عيشة في موقفها بالنافذة أما

رها أول مرة، ترنو إليه باهتمام ، خيل إليه أنها ابتسمت أو أن عينها تكلمت، وتردد لحظة، لكنه أغلق النافذة وعاد إلى

مجلسه وإذا بجواد يضحك قائلا:

أبوك يريد لك النجارة، ولكن فيم ترغب أنت؟

فتفكر رفاعه مليا ثم قال

على أن آآون نجارا آأبىن ولكنى احب الحكايات، وهذه الأسرار حول العفاريت، فحدثينى عنها يا عمتى

فابتسمت المرأة وبدأت آآها سمحت بان تهبه قليلا من علمها فقالت

-لكل إنسان عفريت هو سيدهن ولكن ليس آل عفريت بشر يجب أن يخرج.

وآيف نميز بين هذا وذاك؟-.

عمله يدل عليه، أنت مثلا ولد طيب فما يستحق سيدك إلا الجميل، وليس هكذا عفاريت بيومى وخنفس وبطيخة

فقال ببراءة

وعفريت ياسمينه هل يجب أن يخرج؟

فضحكت أم بخاطرها وقالت



جارتكم؟ لكن رجال جبل يريدونها أما هي

فقال باهتمام جدى

أريد أن اعرف هذه الأشياء فلا تبخلى على

فقال جواد

منذر الذى يبخل على الابن الطيب

وقالت أم بخاطرها

ما لهذا الولد الطيب والعفاريت،-

ولكن أعلم ألا داء للناس إلا العفاريت

جميل أن تلازمنى ألما سمح الوقت، ولكن على شرط ألا يغضب أبوك، وسيتساءل الناس

وآن رفاة يستمع وهو يرنو إلى صورة الجبلاوى.

## 48

النجارة مهتنة ومستقبلة، لا مهرب منها فيما يبدو، إن تكن نفسه لا ترتاح إليها فأى شئ ترتاح إليه نفسه؟ إنما افضل من السعى الكادح وراء عربات اليد أو من حمل المقاطف والسلال، أما المهن الأخرى البلطجة والفتونة فما أبغضها وامقتها، أم بخاطرها أثارت خياله أما لم يثره شئ من قبل اللهم إلا صورة الواقف المرسومة على جدار الحجر فى بيت جواد الشاعرن وحض أباه يوما على رسم صورة مثلها فى بيتهم أو فى الدآن فقال له الرجل نحن أولى بنفقاتها، وهى خيال وما قيمة الخيال؟ فما آن منه إلا أن قال له : بودى لو أراه ! فضحك الرجل ضحكة عالية وقال له معاتبا اليس الأفضل أن ترى عملك ! لن

اعيش لك إلى الأبد، وعليك أن تتأهب ليوم تحمل فيه وحدك أعباء أمك وزوجك وأطفالك، لكنه لم يكن يفكر فى شئ أما آن يفكر فيما تقول أو تفعل أم بخاطرها، بدت له احاديثها عن العفاريت غاية من الهمية، ولم تزايل وعيه حتى فى الأوقات السعيدة التى تردد فيها على مقاهى الحارة واحدة بعد أخرى حتى الحكايات نفسها لم ترسب فى نفسه أما رسبت أحاديث أم بخاطرها ، لكل إنسان عفريت هو سيده، وأما يكون السيد يكون العبد . هكذا تردد أم بخاطرها وآم من ليلة قضائها فى حضرة الست يتابع دقائق الزار ويشهد ترويض العفاريت، ومن المرضى من يساق إلى البيت فى حال خمود وإعياء، ومنهم من يحمل مقيدا فى الغلال اتقاء لشره ويجرق البخور المناسب إذ لكل حال بخورها، وتدق الدقة المطلوبة إذ لكل عفريت دقة يطلبها، ثم تحدث العاجيب، إذن عرفنا لكل عفريت دواءه ولكن مادواء ناظر الوقف وفتواته؟ هؤلاء الأشرار

يسخرون من الزار ولعله لم يخلق إلا لهم ! القتل هو الوسيلة إلى الخلاص منهم أما العفريت فيستكين بالبخور الزاى والنعمة الطيبة، آيف يؤخذ العفريت الشرير بالجميل الطيب؟ ألا ما أجمل ما تعلمه من الزار والعفاريت ! وقال لأم بخاطرها إنه يرغب من أعماق قلبه فى تلقى أسرار الزار، فسألته أطمع فى المال الكثير؟ فأجابها بأنه فى تطهير الحارة يرغب لا فى المال الكثير، وضحكت المرأة قائلة إنه أول رجل يرغب فى هذا العمل فماذا استهواه فيه؟ فأد قائلا إن احكم ما فى عملك إنك تهزمين الشر بالطيب الجميل، ولما مضت تبيح له أسارها طاب نفسا وإعرايا عن مسرته آن يصعد إلى سطح الربع فى نشوة الفجر ليشهد يقظة النور، ولكن يستأثر البيت الكبير بلبه دون النجوم والسكون وصياح الديكة، ويرنو إلى البيت الراقد بين الأشجار طويلا، ثم يتساءل : أين أنت يا جدى؟ لماذا لا تظهر ولو لحظة ! لماذا لا تخرج ولا مرة؟ لماذا لا تتكلم

ولو آلمة؟ ألا تدرى أن آلمة منك تغير حارتنا من حال إلى حال؟ أم يرضيك ما يجرى بها؟ وما اجمل الأشجار حول بيتك! أن احبها لأنك تحبها، وانظر إليها لألتقى نظراتك المطبوعة عليها و آلمة أفضى بخاطره إلى أبيه سمع عتابا وقال له: "وعملك يا آسلان!" عن امثالك من الشبان يجوبون الأحياء سعيا وراء الرزق أو يهزون الحارة إذا رفعوا النبائيت، وبما آنت

الأسرة بمجموعة عقب الغداء إذ بعة تقول لزوجها باسمة:

قل له يا معلم

أدرك رفاعة أنه المقصود بالكلام فنظر إلى أبيه مستطلعا لكن الرجل خاطب زوجته قائلا

حديثه أنت بما عندك أولا

فنظرت عبدة إلى ابنها باعجاب وقالت

-خبر سعيد يارفاعة، زارتنى ست زآية زوجة فتوتنا خنفس!

ورددت لها الزيارة بطبيعة الحال فاستقبلتني بحفاوة وقدمت إلى ابنتها عيشة، بنت جميلة القمر، ثم زارتنى مرة أخرى ومعها عيشة.

ولحظ عم شافعى ابنه بطرف خفى وهو يرفع فنجال القهوة إلى فيه ليرى أثر الحكاية فى نفسه، ثم هز رأسه هزة من قدر الصعوبة التى تنتظره، وقال بتفخيم:

هذا شرف لم يحظ بتمثله بيت من حى جبل، تصور أن زوجة خنفس وابنته يزوران بيتنا هذا!

رفع رفاعة عينيه إلى أمه حائرا فقالت بحماس

ما أفخم مسكنهم المقاعد الوثيرة، السجاد الفاخر، حتى الستائر تسدل فوق النوافذ والأبواب

فقال رفاعة ممتعضا

آل هذا الخير من أموال آل جبل المغتصبة

فدارى عم شافعى ابتسامه وهو يقول

تعاهدنا على ألا نتكلم فى هذا الموضوع

وقالت عبدة باهتمام

فلنذار فقط أن خنفس سيد آل جبل، وأن صداقة أهله دعاء مستجاب

فقال رفاعه فى ضجر

مباراة عليك هذه الصداقة

فتبادلت الأم مع زوجها نظرة ذات معنى، قالت على أثرها

إن مجئ عيشة مع أمها حدث له معنى!

فتساءل رفاعه وهو يشعر بانقباض

ما معناه يا أمى ؟

فضحك شافعى وهو يلوح بيده يائسا وقال مخاطبا عبدة

آن ينبغى أن نقص عليه آيف تم زواجنا

فهتف رفاعه بضيق

-آلا ! آلا يا أبى.

ماذا تعنى ؟ ومالك تبدو آالعذراء؟

وقالت عبدة بإغراء ورجاء

أنت الذى بيدك أن تدخلنا نظارة وقف آل جبل ، سيرحبون بك إذا تقدمت، حتى خنفس سيرحب بك إذ لولا ثقة المرأة

فى-.

مكانتها عنده ما أقدمت على تلك الخطوة، أمامك جاه ستحسدك الحارة عليه من أولها إلى آخرها

وقال الأب ضاحكا:

-من يدرى فلعلنا نراك يوما ناظرا لوقف جبل أو ترى أنت أحد أبنائك فيه.

أنت الذى تقول ذلك يا أبى؟ انسى لماذا هاجرت من الحارة منذ عشرين عاما؟

فرمش عم شافعى فى شئ من الارتباك وقال

نحن نعيش اليوم أما يعيش غيرنا، فلا يجوز أن نهمل انتهاز فرصة تجئ بنفسها إلينا

وتمتم رفاعه وأنه يحادث نفسه

آيف أصهر إلى عفريت وانا لا هم لى اليوم إلا مطاردة العفاريت!

فصاح شافعى محتدا

- ما طمعت يوما فى أن أجعل منك آآثر من نجار، ولكن الحظ يعرض عليك درجة مرموقة فى حارتنا، ولكنك تريد ان تكون

آودية زار، يا للعار، أى عين أصابتك؟

قل إنك ستزوجها ودعنا من الهزر:

لن أتزوجها يا أبى

فقال شافعى دون مبالاة

سأزور خنفس لأطلب القرب منه

فهتف رفاعة بجرارة

لا تفعل يا أبى

فسأله أبوه فى جزع

خبرنى ما شأنك يا ولد؟

وتوسلت عبدة إلى زوجها قائلة

لا تشتد عليه ! أنت أعلم بحاله- .

يا سوء ما أعلم ، حارتنا تعيرنا برقته-.

ترفق به حتى يفكر فى الأمر-.

أقرانه آباء، والأرض تهمتر عند وقع أقدامهم

وحدجة بنظرة مغيظة ثم استطرد محتدا

-لماذا يهرب الدم من وجهك ؟ إنك من صلب رجال!

وتنهذ رفاعة ، الصدر منقبض لحد البكاء، وشائج الأبوة يمزقها الغضب، والبيت يقسو حينما فيرتد سجننا آئيبا، ومرادك ليس

فى هذا المكان ولا بين هؤلاء الناس، وقال بصوت مبجوح:

لا تعذبنى يا أبى- .

أنت الذى تعذبنى ، أما عذبتنى منذ ولدت-.

واحنى رفاعة رأسه حتى اختفى وجهه عن والديه وأخفض الرجل من صوته وسكن ما استطاع غضبه، ثم سأله

هل تخاف الزواج؟ ألا تحب أن تتزوج؟ صارحنى بما فى نفسك، أم اذهب إلى أم بخاطرها فلعلها تعرف عنك ما لا نعرف

فهتف بحدة

آلا- .

وقام فجأة فغادر الحجرة

49

ونزل عم شافعي ليفتح الدآن فلم يجد رفاعة هناك أما توقع، لكنه لم يناد عليه وقال لنفسه : إنه من الحكمة أن يتظاهر بالبرود لغيابه ، ومضى النهار يزحف رويدا وضوء الشمس ينحسر عن أرض الحارة، والنشارة تتكاثف حول قدمي شافعي دون

أن يظهر رفاعة، وأتى المساء فأغلق الرجل الدآن وهو فى غاية من الضيق والغضب، وقصد أعادته قهوة شلضم واتخذ مجلسه ولما رأى جواد الشاعر قادما وحده تولاه العجب وسأله:

إذن أين رفاعة ؟

فأجابه الرجل وهو يتلمس طريقه إلى أريكته

لم أره منذ أمس

فقال شافعي بقلق

لم أره منذ ترآنا بعد الغداء

رفع جواد حاجبيه الأشيبين ثم تساءل وهو يتربع على الأريكة ويضع الرباب إلى جانبه

هل وقع بينكما شئ؟

ولم يجبه شافعي، وقام فجأة فغادر القهوة وتعجب شلضم لقلق شافعي وقال ساخرا

هذه طراوة لم تعرفها حارتنا مذ أقام إدريس آوخه فى الخلاء . أنت اتغيب فى صغرى عن الحارة أياما فلا يسأل عني-."

أحد، وعند عودتى يصيح بى أبى الله يرحمه " : ما الذى عاد بك يا ابن اللثيمة؟

فعلق خنفس على آلامه من صدر القهوة قائلا:

-أصله لم يكن على يقين من أنك ابنه.

وضجت القهوة بالضحك، وهنأ آثيرون خنفس على جميل دعابته ! أما عم شافعة فمضى إلى بيته وسأل عبدة : هل عاد

رفاعة فاستحوذ القلق على المرأة ، وقالت : إنها آانت تظنه بالدآن أعادته، واشتد قلقها حين أخبرها أنه لم يذهب آذلك

إلى بيت جواد الشاعر، وراحت المرأة تتساءل فى قلق:

-إذن أين ذهب؟

وترامى إليهما صوت ياسمينة وهى تزقق منادبة على بياح تين فنظرت عبدة إلى شافعى نظرة مريبة فهز الرجل رأسه برما وأطلق ضحكة جافة مقتضبة ساخرة ولكن المرأة قالت:  
-فتاة مثلها تحل العقد.

وذهب الرجل إلى بيت ياسمينة مدفوعا باليأس وحده، طرق الباب ففتحت ياسمينة بنفسها، ولما عرفته تراجع رأسها فى دهش مقرون بالظفر وقالت:

أنت ! ياما تحت الساهى دواهى!

فغض الرجل بصره أمام شفافية قميصها وقال بانكسار  
رفاعة عندك ؟

فازدادت دهشة وقالت

رفاعة ! له ؟

فعلا الرجل الارتباك ، فأشارت إلى الداخل وهى تقول  
ابحث عنه بنفسك

لكن الرجل استدار ليذهب فسألته ساخرة

هل أدرآه البلوغ اليوم ؟

وسمعها تخاطب شخصا فى الداخل قائلة

فى هذا الزمان الفتى يخشى عليه أآثر من الفتاة

ووجد عم شافعى عبدة تنتظره فى الدهليز، فقالت له

سندهب معا إلى سوق المقطم

فصاح الرجل بغضب

-الله يتعبه ! أهذا جزائى بعد يوم عمل شاق!

واستقلا عربة آاروا إلى سوق المقطم وسألا عنه عند جيرانهما الأقدمين، وعند المعارف فلم يعثرا له على أثر، أجل آن يتغيب ساعات فى العصارى أو الأصائل فى الخلوات أو الجبل، ولكن لايتصور أحد أن يلبث حتى هذه الساعة من الليل فى الخلاء، وعادا إلى الحارة أما ذهباً ولكن على حال من الجزع أشد، ولاآت الألسن اختفائه خاصة بعد أن مضت عليه أيام، صار دعبة فى القهوة وبيت ياسمينة وفى حى جبل، تندر الجميع بفرع والديه ، ولعل أم بخاطرها وعم جواد آانا الوحيديين اللذين شارآآ والديه حزهما، وقال عم جواد : أين ذهب الفتى؟ ليس هو من أولئك الشبان، لو آآن على شآآلتهم ما

جزعنا ! وصاح بطيخة مرة وهو سكران جدع تايه يا اولاد الحلال، آئما ينادى على طفل تائه، فضحكت الحارة وراح  
الغلما

يرددونها، ومرضت عبدة من الحزن، وعمل شافعى فى دآانه بعقل شارد وعينين محمرتين من الأرق، أما زآية زوجة  
خنفس فقد انقطعت عن زيارة عبدة وتجاهلتها فى الطريق . ويوما آن شافعى مكبا على نشر قطعة من الخشب إذ صاحت  
به ياسمينه وهى عائده من مشوار:  
-عم شافعى .. انظر..

وجدها تشير إلى نهاية الحارة عند الخلاء، فغادر الدآان والمنشار فى يده ليرى ما تشير إليه، فرأى ابنه رفاعه يتقدم نحو  
الربع فى استحياء، وترك الرجل المنشار أمام الدآان وهرع نحو ابنه وهو يتفحصه بدهشة.  
ثم قبض على عضديه هاتفا:

رفاعة ! أين أنت ؟ ألا تدرى ما يعنى غيابك لنا؟ لأملك المسكينه التى تكاد أن تموت جزعا  
ولم ينبس الشاب ، ووضع للأب هزاله فسأله

هل أنت مريضا ؟

فأجاب فى ارتباك

آلا ، دعنى أرى أمى

واقتربت ياسمينه منهما وسألت الشاب فى ارتياب

ولكن أين أنت ؟-.

فلم ينظر نحوها، وتجمع حوله الغلمان فسار به أبوه إلى البيت

وسرعان ما تبعهما عم جواد وأم بخاطرهما، ولما رأته أمه وثبت من الفراش وضمته إلى صدرها وهى تقول بصوت ضعيف:

سامحك الله .. آيف هانت عليك أمك ؟

فتناول راحتها بين يديه واجلسها على الفراش وجلس إلى جانبها وهو يقول

إنى أسف.

فرفع أبوه وجهها متهجما نقيض الارتياح السارى فى أعماقه آالغمامة السوداء المظلة لوجه القمر وقال بعتاب

ليس إلا أننا قصدنا إسعادك

فتساءلت عبدة بعينين مغرورقتين

توهمت أننا نجبرك على الزواج ؟

فقال بحزن

إني متعب  
فسأله آثر من صوت  
أين أنت ؟  
فتنهذ قائلاً  
لشراء الطعام  
فضرب الأب جبهته بيده وصاح  
ضقت بحياتي فذهبت إلى الخلاء ، شعرت برغبة في الوحدة والخلاء، ولم آن أترآه إلا  
ما هكذا يفعل العقلاء!  
وإذا بام بخاطرها تقول في إشفاق  
دعوه أنا خبيرة بهذه الأحوال، ولا يصح أن يفرض على مثله شئ يأباه  
فقالته عبدة وهي تشد على يده  
آنت سعادته أملنا، ولكن ما قدر آن، أم ضمرت يا بني!  
توتساءل عم شافعى فى غيظ  
دلونى على شئ آهذا حصل من قبل فى حارتنا!  
فقالته أم بخاطرها فى لوم  
ليس حالة بالغريب على يا عم شافعى ، صدقنى، إنه شاب نادر المثال  
فغمغم عم شافعى فى حزن  
صرنا أحدى فى الحارة  
فقالته أم بخاطرها غاضبة  
ليس فى الحارة آلها فى مثله  
فقال عم شافعى  
هذا موضع الأسى  
فصاحت أم بخاطرها  
-وحد الله يا رجل ، أنت لا تدري ماذا تقول ولا تفهم ما يقال.



أصبح للدآن منظر يوحى بالنشاط والنجاح، فعند طرف الطاولة وقف عم شافعى ينشر الخشب، وعند طرفها الآخر قبض رفاة على القدم وراح يدق المسامير، اما أسفل الطاولة فبدا إناء الغراء مغروسا فى رآم النشارة حتى منتصفه، وأسند إلى الجدران ضلقات نوافذ ومصاريع ابواب، يتوسطها صف عمودى من الصناديق الجديدة بلون الخشب الباهت المصقول لا ينقصها إلا الدهان، وامتأ الجوى برائحة خشبية وأصوات النشر والدق والحك وقرقرة الجوز يدخنها أربعة زبائن جلسوا عند مدخل الدآن يتحدثون، وقال حجازى مخاطبا عم شافعى:

- سأجرب مهارتك فى هذه الكنبه وإن شاء الله سيكون العمل القادم جهاز البنت ( ثم مخاطبا أصحابه ) وأعود فأقول لكم إننا

نعيش فى أيام لو عاد إليها جبل الجُن.

فهزوا رؤوءهم فى أسى وهم يدخنون، أما برهوم الترابى فسأل عم شافعى باسمًا:

لماذا لا تريد أن تصنع لى تابوتا؟ أيس آل شىء بثمانه

فكف عم شافعى يده عن المنشار لحظة وقال ضاحكا

يفتح الله ، وجود التابوت فى الدآن يهرب الزبائن

فقال فرحات مؤمنا على قوله

صدقت قطع الموت وسيرته

فعاد حجازى يقول

-عبيكم أنكم تخافون الموت أآثر مما ينبغى : لذلك سيطر عليكم خنفس، وتسلبت بيومى ، وصادر إيهاب أرزاقكم. وأنت ألا تخاف الموت مثلنا ؟

فبصق ثم قال

العيب عينا جميعا ، آن جبل قويا، وبالقوة والعنف استخلص لنا حقنا الذى أضاعه الجبن

وإذا برفاة يتوقف عن الدق فيخرج المسامير من فيه ويقول

إراد جبل استخلاص حقنا بالحسنى، ولم يعمد إلى القوة إلا دفاعا عن نفسه

فضحك حجازى واستهزاء وقال متسائلا

بالقوة ؟

فقال رفاة باهتمام جدى

خبرنى يا ابنى هل تستطيع دق المسامير إلا

ليس الإنسان آخشب يا معلم  
وحدة أبوه بنظرة فعاد إلى عمله، واستطرد حجازى قائلاً  
الحق أن جبل آن فتوة من أشد الفتوات الذين عرفتهم حارتنا، وآم حث آل جبل على الفتونة  
فقال فرحات مصححاً

أراد منهم أن يكونوا فتوات عل الحارة لا على آل جبل- . .

وما هم اليوم إلا فتران أو أرانب  
وتساءل عم شافعى وهو يجفف أنفه بظهر يده  
وألا الألوان تفضل يا عم حجازى؟- .

اختر لونا لايتوسخ بسرعة، فهذا أضمن للنظافة  
وواصل حديثه للأصحاب قال

جبل عينه، فبالجبروت أقام العدل  
وتنهذ رفاعه بصوت مسموع وقال  
ويوم فقاً دعيس عين آعلها فقاً

لا يعوزنا الجبروت ، آل ساعة من نهار أو ليل نرى أناسا يضربون ويجرحون ويقتلون حتى النساء ينشين الأظافر حتى- .  
تسيل الدماء، ولكن أين العدل؟ ألا ما أقبح هذا آله

ووجم الجميع لحظة ثم قال حنورة ، وآان يتكلم لأول مرة:

-هذا المعلم الصغير يحتقر حارتنا ! إنه رقيق آأثر من اللازم وأنت السبب يا معلم شافعى .  
أنا؟- .

نعم ، إنه شاب مدلع

والتفت حجازى نحو رفاعه وقال ضاحكاً

خير من هذا أن تجد لنسفك عروسا

وتعالى الضحك ، فقطب عم شافعى وتورد وجه رفاعه، وعاد حجازى يقول مؤأدا- .

-القوة . . القوة ، بغيرها لا يسود العدل

فقال رفاعه بإصرار رغم نظرات أبيه إليه

الحق أن حارتنا فى حاجة إلى الرحمة

فضحك برهوم التراى قائلاً

أتريد أن تحرب بيتي

وضجوا بالضحك، وأعقب ذلك نوبات سعال، حتى قال حجازي وقد صارت عيناه في لون الغرا  
قدبما ذهب جبل إلى الأفندي يسأله العدل والرحمة، فأرسل إليه زقلط ورجاله ولولا النبايت - لا الرحمة - لهلك جبل وآله  
وهتف عم شافعي محذرا

يا هوه ! للحيطان أذان، لو سمعوآم ما وجدتم من يسمى عليكم:

فقال حنورة

فيكم، ولو مر أمامكم الآن خنفس لسجدتم بين يديه

ثم وهو يلتفت نحو رفاة

صدق الرجل، ما أنتم إلا حشاشون لا خير

لا تؤاخذنا يا بني، فليس على الحشاش حرج، ألم تجرب الحشيش يا رفاة؟

فقال عم شافعي ضاحكا

لايميل إلى مجالسة ، وإن زاد على نفسين لهث أو نام

فقال فرحات

شاعراً لتعلقه بالحكايات:

فقال فرحات

ما أطف هذا الشاب ، يظنه البعض آودية زار لملازمته لأم بخاطرها ويظنه آخرون

-ويكره مجالس الحشيش أما يكره الزواج!

ونادى برهوم صبي القهوة ليأخذ الجوز، ثم قاموا مسلمين فأنفض المجلس، وترك عم شافعي المنشار لينظر إلى ابنه

في عتاب ثم قال

-لا تحشر نفسك في أحاديث أولئك الناس.

وجاء غلمان ليلعبوا أمام الدآان فدار رفاة حول الطاولة حتى وقف أمام أبيه، ثم تناول يده وتراجع به إلى رآن الدآان بعيدا

عن الآذان:

بدا منفعلا قلعا لكن تطابقت شفتاه في تصميم وشع من عينيه نور عجيب حتى تساءلت عينا الرجل، وإذا برفاعة يقول:

-لن أستطيع السكوت بعد اليوم.

فتضايق الأب ، يا له من متعب هذا الأبن العزيز، ينفق وقته الغالى في بيت أم بخاطرها، ويخلو الساعات الطوال إلى نفسه

عند صخرة هند، وإذا مكث في الدآان ساعة أثار المشآال بمناقشاته.

هل تجد تعباً؟

فقال بهدوء غريب حل محل القلق

-لا يجوز أن أخفى عليك ما فى نفسى.

ماذا عندك؟

فاقترب منه آثر وقال

أمس عقب خروجى من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت برغبة فى الانطلاق فقصدت الخلاء، مشيت فى الظلام-.

حتى تعبت، ثم اخترت مكاناً أسفل سور البيت الكبير المشرف على الخلاء فجلست مسنداً ظهرى إلى السور

فبدأ الاهتمام فى عيني الرجل، وحثه بنظرة على متابعة الحديث فقال:

سمعت صوتاً غريباً يتكلم، آنما آن يحدث نفسه فى الظلام، فدهمى شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلاوى

فحملق الرجل فى وجه ابنه وتمتم فى ذهول

صوت الجبلاوى؟ ما الذى حملك على هذا الظن؟

فقال رفاعة بجرارة

الوراء لأتمكن من-.

رؤيته ولكنى لم أر إلا ظلاماً

ليس ظناً يا أبى، سيحيثك الدليل، وقد قمت حال سماعى الصوت فاستدرت نحو البيت وتراجعت إلى

-الحمد لله!

صبراً يا أبى، سمعت الصوت وهو يقول: أما جبل فقد قام بمهمته وآآن عند حسن الظن به، ولكن الأمور ارتدت إلى أفبح-!

مما آآنت عليه

شعر شافعى بصدده يحترق وتفصد جبينه عرقاً، وقال بصوت متهدج:

ما آآثر الذين جلسوا مجلسك تحت السور فلم يسمعوا شيئاً- .

لكنى أنا سمعت يا أبى-!

لعله أحد آآن راقدا فى الظلام

فهز رأسه بعزم وقال

-بل جاء الصوت من البيت!

آآيف عرفت هذا؟-.

هتفت قائلاً: يا جدى، جبل مات، وخلفه آآخرون، فمد إلينا يدك

فقال شافعى باضطراب

-الله أسأل ألا يكون أحد سمعك.

فقال رفاعه بعينين مضيئين : جدى سمعنى ، وجاءنى صوته قائلا : ما أقبح أن يطالب شاب جده العجوز بالعملن والابن الحبيب من يعمل . فسألته : وما حيلتى حيال أولئك الفتوات أنا الضعيف؟ فأجابنى : الضعيف هو الغبى الذى لا يعرف سرقوته وأنا لا أحب الغبياء.

فتساءل عم شافعى فى فزع:

أتظن أن هذا الكلام دار بينك وبين الجبلاوى؟!

نعم ورب السماوات

فند عن الرجل أنين ، وقال متوجعا

يا للأوهام خلاقه المصائب-! .

أقول شك

فقال الرجل متحسراً

صدقنى يا أبى، ليس فيما

لا تقطع أملى فى أن نجد شكاً- . .

فقال رفاعه بوجه يتألق نشوة النعمة الحلوة

وأعرف الآن ما يراد منى

فضرب الرجل جبينه بغيظ وصاح متسائلا

وهل أيضا يراد منك شئ؟!

نعم ، إنى ضعيف ولكن لست غيبا، والأبن الحبيب من يعمل

فهتف شافعى وهو يشعر أن المنشار ينشر صدره

سيكون عمك أسود، وسوف تهلك وتجرنا معك إلى الهلاك!

فقال رفاعه باسمما

-إنهم لا يقتلون إلا من يتطلع إلى الوقف!

وهل تتطلع إلى شئ غير الوقف ؟

فقال رفاعه بصوت ملئ بالثقة

الحياة الصافية الغناء، لكن

Page-آن أدهم ينشد الحياة الصافية الغناء، آذلك جبل وهو لم يطالب بحقه فى الوقف إلا سعيا وراء

غلب علينا الظن بأن هذه الحياة لن تتيسر لأحد إلا إذا توزع الوقف على الجميع فنال آل حقه واستثمره حتى يغنيه عن الكد فتخلص له الحياة الصافية الغناء، ولكن ما أتفه الوقف إن أمكن بلوغ هذه الحياة بدونه، وهو أمر ممكن لمن يشاء، وبوسعنا أن نغنى منذ الساعة!

فتنهذ عم شافعى فى شىء من الارتياح وتساءل:

-هل قال لك جدك ذلك؟

-قال إنه لا يجب الأغبياء، وقال إن الغنى هو الذى لا يعرف سر قوته، وإنى آخر من يدعو إلى قتال فى سبيل الوقف، الوقف لا شىء يا أبى وسعادة الحياة الغناء هى آل شىء ولا يحول بيننا وبين السعادة إلا العفارىت الكامنة فى أعماقنا، ولم يكن عبثا أن أشغف بطب العفارىت وأن أحسنه لعلها إرادة رب السماوات هى التى دفعتنى إليه.

ارتاح شافعى بعد عذاب، ولكن بعد أن استنفذ العذاب قواه، فانحط على النشارة، ماذا ساقيه مسندا ظهره إلى ضلفة نافذة منتظرة دورها فى الإصلاح، ثم ساءل ابنه فى شىء من السخرية:

لكن آيف لم نبلغ الحياة الغناء وفينا أم بخاطرهما من قبل أن تولد أنت؟

فقال رفاة بالصوت الملىء بالثقة

لأنها تنتظر حتى يجىء إليها المرضى الموسرون ولا تذهب بنفسها إلى المسآن

فنظر عم شافعى فى آرآن دآانه وقال بارتياح

لنا الغد من تحت رأسك؟

فقال رفاة بابتهاج

انظر إلى إقبال الرزق علينا فماذا يجىء

آل خير يا أبى ، إن شفاء المرضى لن يقلق إلا العفارىت- . .

وتوهج ضياء فى الدآان منبعثا من مرآة صوان قرب الباب عآآسا شعاع الشمس المائلة

وانتقل القلق ليلا إلى بيت عم شافعى ومع أن الحديث تناهى إلى عبدة فى إطار من الطمأنينة ومع أنها لم تعلم سوى أن رفاة سمع صوت جده وهو يتكلم وأنه قرر بعد ذلك أن يزور المسآين ليترد عنهم العفارىت، إلا أن القلق اجتاح نفسها

ولبثت تقلب وجوه العواقب آن رفاعه فى الخارج، وآآن فى أقصى الحارة - بعيدا عن حى جبل - عرس تترامى منه أصوات  
طبل وزمر وزغاريد وأرادت المرأة أن تواجه الحقيقة فقالت بحزن.

رفاعه لا يكذب

فقال شافعى بامتعاى

-ولكن قد تخدعه الأوهام، آنا عرضة لذلك.

-وماذا ترى فيما سمع؟

آيف لى بأن أجزم؟-

لا محال فى الأمر مادام جدنا حيا-.

الويل لنا لو عرف الخبر

فقالت برجاء

-فلنكنتم الخبر، ولنحمد الله على أنه رآز اهتمامه بالنفوس لا بالوقف، ومادام لا يؤذى أحداً فلن يؤذيه أحد.

فقال شافعى بفتورك

-ما أآر الذين يؤون فى حارتنا دون أن يؤذوا أحداً.

واختفت أنغام العروء وراء ضجة انفجرات فى الدهليز، وأطلا من النافذة فرأيا الدهليز مزدحما بالرجال، وتبيننا على ضوء

مصباح

فى يد أحدهم وجوه حجازى وبرهوم وفرحات وحفورة وأخرين، وآآن آل لسان يتكلم أو يصرخ فاختلفت الأصوات وعمت

الضوضاء، وعلا صوت هاتا : شرف آل جبل فى الميزان، ولن نسمح لأحد بتلويثه.

وهمست عبدة فى أذن زوجها وهى ترتعد:

سر أبنا انكشف

فتراجع شافعى عن النافذة متأوها وهو يقول

لم يكذبى قلبى قط

واندلع الرجل خارج بيته غير مبال بالخطر فتبعته زوجه على الأآر وشق الرجل فى الزحام سبيلا متسائلا بصوت مرتفع

-رفاعه ! أين أنت يا رفاعه ؟

ولم ير الرجل ابنه فى مجال ضوء المصباحن ولم يسمع صوته ولكن حجازى اقترب منه وسأله بصوت مرتفع لىسمعه رغم

الضوضاء:

هل آتاه ابنك مرة أخرى ؟

وصاح به فرحات

تعال أسمع ما يقال وانظر آيف يعبث العابثون بآل جبل على آخر الزمان!

فهتفت عبده جزعا

-وحدوا الله ، والمسامح آريم.

فتعالأ أصوات الغضب يهتف بعضها : هذه المرأة مجنونة، ويهتف آخرون : إنها لا تعرف معنى الشرف، وامتلأ قلب شافعي

رعبا وسأل حجازى مستعظفا:

أيو الولد ؟

فشق حجازى سبيله حتى الباب وصاح بأعلى صوته

يارفاعة ، تعالى يا ولد ألم عم شافعي.

فاختلط الأمر على عم شافعي الذى آن يظن أنه مقبوضا عليه فى رآن الدهليز، إذا برفاعة يظهر فى مجال الضوء فيجذبه

أبوه من ذراعه ويتقهقر به إلى موقف عبدة، وسرعان ما ترى فانوس فى يد شلضم يسير به بين يدي خنفس الذى تقبض

وجهه حنقا وتجهما، واتجهت النظار نحو الفتوة وساد الصمت وتساءل خنفس بصوت غليظ:

ماذا وراءآم ؟

فأجابه أآثر من صوت فى أن واحد

ياسمينة لوثننا!

فقال خنفس

فليتكلم الشاهد منكم!

فتقدم زيتونة - سائق عربة آرو - حتى وقف أمام خنفس وقال

-منذ قليل رأيتها خارجة من باب بيت بيومى الخلفى، تبعتها إلى هنا ثم سألتها عما آانت تفعل فى بيت الفتوة فتبين لى

سكرها، آانت رائحة الخمر تخرج من فيها فتملأ الدهليز، أفلتت مى وأغلقت على نفسها الباب، والآن سلوا أنفسكم عما

يكن أن تفعله امرأة سكرانة فى بيت فتوة.

استرخت أعصاب شافعي وعبدة من ناحية، وتوترت أعصاب خنفس من ناحية أخرى، أدرك الرجل أن فتوته تتعرض لامتحان

قاس، فلو تماون فى معاقبة ياسمينة سيفقد آرامته أمام آل جبل، ولو ترك الغاضبين ليعتدوا عليها فسيدفع بنفسه إلى

موقف التحدى أمام بيومى فتوة الحارة آها، ما العمل؟ وآان رجال جبل يتوافدون من الربوع ويحتشدون فى الحوش، وفى

الحارة أمام ربع النصر فازداد مرآز خنفس حراآ وتتابعت الأصوات فى غضب:

اطردوها من حى جبل- . .



يجب أن تُجلد قبل طردها

اقتلوهما قتلا

وترامت صرخة ياسمينة التي آنت تنصت فى الظلام وراء النافذة واحدقت الأعين بخنفس لكن رفاعه سمع وهو يسأل أباه

:

أليس الأولى بهم يا أبى أن يصبوا غضبهم على بيومى المعتدى؟

وغضب آثيرون من بينهم زيتونة الذى أجابه قائلاً

هى التى ذهبت إلى بيته بنفسها

وصاح به آخر

وإذا لم يكن عندآك آرامة فمن الخير أن تسكت

وزجره أبوه بنظرة لكن رفاعه قال باصرار

لم يفعل بيومى إلا مثلما تفعلون

فصرخ فيه زيتونة بجنون

هى من آل جبل فليست للآخرين- .

هذا الولد سفيه وبلا آرامة

فلكره عم شافعى آى يسكت على حين صاح برهوم

-الكلمة الآن للمعلم!

وغلى الغيظ فى قلب خنفس حتى آاد أن يحنق وصرخت ياسمينة صرخات استغاثة، وانتشر الغضب فأتجهت الأنظار نحو

بيت الفتاة وتوثب فيها المهجوم، وتتابع صرخات ياسمينة حتى تقطع قلب رفاعه ولم يعد فى وسعه الاحتمال ، فأقلت من

يد أبيه وشق طريقه إلى بيت ياسمينة وهتف برجاء:

رحمة بضعفها وذعرها- .

فصاح به زيتونة

أنت مرة!

وناده شافعى بجرارة لكنه لم يباله وأجاب زيتونة

الله يسامحك ( ثم للجميع ) ارحمها، افعلاوا بى ما تشاعون ، ألا تحرك الاستغاثات قلوبكم؟

فعاد زيتونة يصيح

لا تلتفتوا لهذا الرقيع ( ثم مخاطبا خنفس ) الكلمة آلتك يا معلم!

فتساءل رفاعة

هل يرضيكم أن أتزوج منها ؟

فاختلط صراخ الغضب بصيحات الاستهزاء، وقال زيتونة

لا يهمنا إلا أن تنال جزاءها

فاستقتل رفاعة قائلاً

سيكون العقاب من شأنى أنا.

بل هو من شأن الجميع

ووجد خنفس فى اقتراح رفاعة منقذا له من ورطته، لم يكن فى قلبه مقتنعا به ولكن لم يكن عنده خير منه، وغالى فى

تجهمه مداريا ضعفه، وقال:

الولد ارتبط أماننا بزواجها فله ما يطلب

زاغ بصر زيتونة وأعماه الغضب فصاح

-ضيع الجبن الشرف!

وإذا بقبضة خنفس تحطم أرنبة أنفه، فتراجع مولولا والدم يسيل من منخرينه بغزارة، وأدرك الجميع أن خنفس سيغضى على

موقفه الضعيف بإرهاب من يخالفه، وقلب عينيه فى الوجوه التى آشف ضوء الفانوس عن خوفها فلم تند من أحد منهم

حراة عطف على محطم الأنف ، بل وبخ فرحات زيتونة قائلاً : عيبك فى لسانك، وقال برهوم لخنفس : لولاك ما أهتدينا إلى

حل، وقال له حنورة : زعلك بالدنيا يا معلم، وأخذوا فى التفرق فلم يبق فى النهاية إلا خنفس وشلضم وشافعى وعبدة

ورفاعة، ومضى عم شافعى إلى خنفس ليحييه فمد له يده ولكن الآخر استشاط غضبا وضرب يده بظاهر آفه فتأوه الرجل

مقهقرا، وهرع إليه ابنه وزوجته على حين غادر خنفس الدهليز وهو يسب الرجال والنساء، وآل جبل بل وجبل نفسه،

ونسى عم شافعى فى ألمه الورطة التى عثر فيها ابنه، ونقع الرجل يده فى ماء ساخن وراحت عبدة تدلكها وهى تقول:

ترى هل أوغرت زآية صدر زوجها علينا ؟

فقال عم شافعى متوجها

-نسى الجبان أن ابننا الأحق هو الذى أنقذه من نبوت بيومى.

52

آن رفاعة معقد آمال والديه فشد ما حبت آمال بزواجه من ياسمينة سينتهى الشاب إلى لا شىء، أما الأسرة فصارت

مضغة للأفواه ولما يتم الزواجن وبكت عبدة خفية حتى أضر بها البكاء وتجهم وجه شافعى إذ تجهمته الدنيا، لكنهما حيال الشاب أنطويا على نفسيهما وتجنبنا المغاضبة، ولعل يasmine هونت من الخطب بسلوآها عقب المظاهرة إذ هرعت إلى بيت عم شافعى وجثت أمام الرجل وزوجه بأية وسكبت على قدميهما بعض ما فاض به قلبها من الامتنان، ثم أعلنت في حرارة وجد توبتها، ولم يكن من الممكن العدول عن الزواج بعد أن ارتبط به الشاب جهارا أمام آل جبل، فسلم عم شافعى زوجه بالأمر ووطنا النفس على تقبله وتنازع قلبى الوالدين رغبتان واحدة تود أن ترعى التقاليد في الاحتفال بعرفاعة وموآب زفته، والأخرى ترى الاقتصار على حفل بيتى حتى لا يتعرض الموآب بسخرية آل جبل الذين باتوا يعرضون بالزواج في آل ناد، وقالت عبدة في حسرة معربة عن عواطفها المكبوتة:

طالما منشت نفسى برؤية زفة رفاعة، ابني الوحيد، وهى تجوب الأحياء

فقال عم شافعى بامتعاض

لن يرضى بالاشترك فيها أحد من آل جبل

فقضبت عبدة قائلة

العودة إلى سوق المقطم خير من البقاء بين أناس لا يحبوننا!

فقال رفاعة وهو يمد ساقية تحت النافذة المفتوحة متشمسا

لن نغادر الحارة يا أمى

فصاح شافعى بجدة

ليتنا لم نعد ( ثم مخاطبا ابنه ) ألم تكن حزينا يوم عدنا؟

فابتسم رفاعة قائلا

اليوم غير الأمس إذا ذهبنا فمنذا الذى يخلص آل جبل من العفاريت ؟

فقال شافعى محتداً

فلترآهم العفاريت إلى الأبد

ثم بعد تردد

أنت نفسك ستجئى إلى بيتنا ب.

وقاطعة رفاعة

المسكن الآخر

فهتفت الأم

لن أجيء إلى بيتنا أحد سأذهب أنا إلى

لا يعنى أبوك ذلك.

لكنى أعينه يا أمى ، ليست البيت الحديد بالبعيد، وفي وسعنا أن نتصافح آل صباح من النافذة ورغم أحزان عم شافعى قرر الاحتفال بيوم الزفاف ولو فى أضيق الحدود أقام الزينات بالدهليز وفوق بأبى المسكين وجاء بمن وطباخ، ودعا جميع المعارف والأصدقاء ولكن لم يلب الدعوة إلا عم جواد وأم بخاطرها وعم حجازى وأسرته وبعض الفقراء الذين حرصوا على الطعام وآان رفاة أول فتى يتزوج بلا زفة، وانتقلت الأسرة عبر الدهليز إلى بيت العروس وغنى المطرب بفتور لقلة المدعوين، وفي أثناء تناول الطعام أثنى جواد الشاعر على شهامة رفاة وحلقه، وقال إنه فتى زآى حكيم صافى السريرة ولكنه فى حارة لا تقيم لغير البلطجة والنبايت وزنا، وإذا بغلمان يقفون أمام الربع ويغنون معا: يا رفاة يا وش القملة مين قلك تعمل دى العملة . ويحتمون بالتهليل والعريدة، ونظر رفاة فى الأرض على حين اصفر وجه شافعى وغضب عم حجازى وقال

الكلاب أو لاد الكلاب!

ولكن عم جواد قال

- ما أآر القاذورات فى حارتنا ولكن الطيب لا ينسى فيها ابدأ، آم من فتوى استكبر فيها؟ لكنها لا تذآر بالجميل إلا أدهم وجبل، ثم حث المطرب على الغناء ليغضى غناؤه على الأصوات المعريدة ومضى الحفل فى مغالبة للوجوم حتى انصرف الجميع ولم يبق فى البيت إلا رفاة وياسمينة، بدت الفتاة فى ثوب العرس أية فى الجمال، وإلى جانبها جلس رفاة فى جلباب حريرى مهفف، وعلى الرأس لاسة مزرآشة، وفى القدمين مرآوب فاقع الاصفراء جلسا على آنة يقابلها فى الناحية الخرى الفراش المورد، وقد لاحت فى مرآة الصوان صورة الطشت والبريق تحت الفراء، والظاهر أنها آانت تتوقع من جانبه هجومًا، أو على الأقل تمهيدا للهجوم المنتظر، ولكنه لبث يردد البصرر بين الفانوس المدلى من السقف والحصيرة الملونة.

ولما طال الانتظار أرادت أن تبدد آآافة الصمت المخيم فقالت برقة:

لن أنسى فضلك، إنى مدينة لك بحياتى

فنظر نحوها فى مودة وقال بصوت من لا يود الرجوع إلى هذا الحديث

-آنا مدينون بحياتنا لغيرنا.

ما أطيعه ! ليلة الحادث أبى أن يبيع لها يديه تقبلهما، وهو الان لا يود تذآيره بالجميل الذى صنع ليسم أمثل طبيته، إلا

صبره لكن فيم يفكر يا ترى؟ هل ساءه أن تدفعه طبيته إلى الزواج من مثلها؟

لست شريرة بالدرجة التى يظنها الناس، أما هم فقد أحبوني واحتقروني لشيء واحد

فقال مواسيا

أعرف ذلك ، ما آثر الأخطاء بحارتنا

فقال بحنق

يفاخرون دائما بأنهم من صلب أدهم، وفي نفس الوقت يباهون بالكبائر

فقال في يقين-.

-مادام التخلص من العفاريث ميسورا فما أقربنا من السعادة

ولم تدرك مرماه ولكنها استشعرت فجأة مدى السخرية التي تحيط بها في مجلسها فقالت ضاحكة

-ما أعجبه من حديث في ليلة الزفاف!

وفعت رأسها في شيء من الكبرياء فبدا أهما تناست حال الامتنان، وأزاحت عن منكبيها الوشاح، ونظرت نحوه نظرة مفعمة

بالدلال ، فقال برجاء:

ستكونين أول من يسعد حارتنا

فقالت ياسمينة

حقا ؟ عندي شراب-! .

شربت قليلا مع العشاء وفيه الكفاية

فتفكرت قليلا في حيرة ثم قالت

عندي حشيش طيب-! .

جربته فوجدتني لا اطيعه

فقال في ارتياح

-أبوك حشاش قارح، رأيته مرة خارجا من غرزة شلضم وهو لايميز بين الليل والنهار!

فابتسم دون أن ينبس، فردت عنه طرفها في انكسار وتميزت غيضا، وقامت فمضت حتى الباب ثم استدارت عائدة حتى

وقفت تحت الفانوس، وشف ثوبها الرقيق عن جسدها البارح، وجعلت تنظر في عينيه الهادئتين حتى داخلها الياس

وتساءلت:

لماذا انقذتني- . .

لا أطيع أن يتعذب إنسان

فغلبها الغيظ وقالت في حدة

من اجل هذا تزوجتني من أجل هذا وحده!

فقال برجاء

لا عودى إلى أيام الغضب!  
فغضت شفقتها فيما يشبه الند وقالت بصوت منخفض  
ظننتك أحببتنى  
فقال فى صدق وبسآآة  
إنى أحبك يا ياسمينة  
فلاح التعجب فى عينها وغمغت  
حقا؟- .

نعم، ما من مخلوق فى حارتنا إلا واحبه  
فتنهدت فى خيبة، ورمقته بريية قائلة  
فهتمتكَ ، ستبقى إلى جانبى أشهر ثم تطلقنى  
فاتسعت عيناه وتمتم  
-لا تعودى إلى الأفكار الماضية.  
حيرتنى ! ماذا عنك لى ؟- .

السعادة الحقيقية  
فقالت بامتعااض  
عرفنها أحيانا من قبل أن أراك- . .  
لا سعادة بلا آرامة  
فقالت وهى تضحك على رغمها  
ولكننا لا نسعد بالكرامة وحدها  
فقال بصوت حزين  
لم يعرف أحد من حيننا السعادة الحقيقية  
اتجهت بخطوات ثقيلة نحو الفراش، وجلست على حافته فى فتور ودنا إليها بحنان، وقال  
إنك آجميع أهل حيننا لا تفكرين إلا فى الوقف الضائع ! فلاح فى وجهها السخط وقالت:  
ربنا يقدرنى على حل الغازك- . .  
ستحل نفسها بنفسها عندما تتخلصين من عفريتكَ  
فهتفت بجدة

أنى راضية عن نفسى أما هى  
فقال رفاعه بأسى

هكذا يقول خنفس والآخرون  
ونفخت فى ضيق وتساءلت

-هل نتكلم على هذا النحو حتى الصباح؟  
نامى ! أسعد الله أحلامك؟

وتزحزحت إلى الورا ثم استلقت على ظهرها، ورددت عينيها بين الفراغ جنبها وبين عينيها فقال  
خذى راحتك ، سأنام أنا على الكنبه

وانتبتها نوبه ضحك لكنها لم تستسلم لها طويلا، وقالت ساخرة  
أخاف أن تزورنا امك غدا لتحذرك من الإفراط

ونظرت نحوه لتشفى برؤة الخجل فى وجهه ولكنه طالعها بعينين هادتين صافيتين، وقال  
أود أن اخلصك من عفريتك- .

فصاحت غاضبة

-دع اعمال النساء للنساء.

وأدارت وجهها للحائط وآان صدرها يحترق غيظا وقلقا، وقام رفاعه إلى الفانوس وأخفض ذبالته ثم نفخه فانطفأ وساد الظلام

## 53

وشهدت الأيام التالية للزواج حراة دائبة فى حياة رفاعه، انقطع عن الدآن أو آاد، ولولا حب أبيه وعطفه لما وجد ما يمسك  
به حياته، ومضى يدعو من يصادفه من آل جبل إلى أن يثق به آى يخلصه من عفريته فيحقق لذلك سعادة صافية لم يحلم  
بها من قبل وتهامس آل جبل بان رفاعه ابن شافعة قد خف عقله وامسى من زمرة المجذوبين، وعلل البعض ذلك بما عرف  
عنه من غرابة أطوار، أما علله آخرون بزواجه من امرأة مثل ياسمينه، ودارت الأحاديث عن ذلك فى القهوة والبيوت وحول  
عربات اليد وفى الغرز، وشد ما دهشت أم بخاطرها حين مال رفاعه على أذنها وقال برقته المعهودة:

هلا سمحت لى بأن أظهرك؟

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت

-ومن أدراك بأن على عفريتنا شريرا؟ أهذا هو رأيك عن المرأة التي أحبتك آابنها؟فقال جادا:  
أنا لا اعرض خدماتي إلا على الذين أحبهم واحترمهم، وأنت مصدر خير وبرآة ولكنك لا تخلين من طمع يملك على-!  
الاتجار بالمرضى، فلو تخلصت من سيدك لوهبت الخير بلا ثمن  
ولم تتمالك المرأة من الضحك وهي تقول:  
أتود خراب بيتي ! الله يسامك يارفاعه  
وتناقل الناس حديث أم بخاطرها ضاحكين حتى عم شافعي ضحك ضحكة بلا مسرة ولكن رفاعه قال له  
أنت نفسك يا أبي في حاجة إلى ومن البر أن ابدا بك  
فهز الرجل رأسه في آمد ، وراح يدق المسامير بين يديه بقوة وشت بانفعاله ثم قال  
ربنا يصبرني  
وحاول الشاب اقناعه فتساءل الرجل متألما  
أما آفاك أن جعلتنا احدثه الحي ؟  
وانزوى رفاعه في رآن الدآن مكتئبا فرمقه الرجل بريية وسأله  
أحقا دعوت زوجك إلى ما تدعوننا إليك ؟  
فقال بأسف  
-وهي مثلكم لا ترغب في السعادة.

ومضى رفاعه إلى غرزة شلضم في الخرابه وراء القهوة فوجد حول المحجرة شلضم وحجازى وبرهوم وفرحات وحنورة وزيتونة  
تطلعوا إليه بغرابه وقال شلضم:  
أهلا بابن عم شافعي، ترى هل أقنعك الزواج بفائدة الغرز ؟  
فوضع رفاعه على الطبلية لفة آنافه وقال وهو يتخذ مجلسه

فقال شلضم وهو يدير الجوزة

جتتكم بهذه التحية للمجلس.

مرحبا بالكرم

لكن برهوم ضحك فجأة وقال بلا هوادة

وسوف يعرض علينا بعد ذلك أن يقيم لنا حفلة زار ليطهرنا من العفاريت

وهتف زيتونة حانقا بصوته الخنف وهو يلتهمه بنظرة حاقدة



على زوجتك عفريت اسمه بيومي فخلصها منه إن استطعت  
وبهت الرجل ووضح في وجوههم الحرج فقال زيتونة وهو يشير إلى أنفه المحطم  
بسببه فقدت أنفى

وبدا أن رفاة لم يغضب، فنظر فرحات نحوه بأسى وقال  
أبوك رجل طيب ونجار ماهر، ولكنك بسلوآك هذا تجر عليه المتاعب والسخرية، لم يكد الرجل يفيق من زواجك حتى-  
هجرت دآانه لتخلص الناس من العفاريت ! شفاك الله يا بني

لست مريضا ولكنى أود لكم السعادة  
فشد زيتونة نفسا طويلا وهو يرمقه بقسوة ثم نفث الدخان متسائلا  
ومن اخبرك باننا غير سعداء ؟  
فقال الشاب

أراد جدنا لنا غير ما نحن عليه  
فقال فرحات ضاحكا

دع جدك في حاله، من أدراك انه لم ينسنا!  
وحدجه زيتونة بنظرة حائقة حاقدة ولكن حجازى لكزه قائلا في تحذير  
ينبغى أن تحترم المجلس فلا تفكر في الاعتداء  
وأراد الرجل أن يغير الجو فهز رأسه وأشار إلى أصحابه إشارة خاصة فراحوا يغنون  
مرآب حبيبي في المية جاية  
راخية شعورها على الميه

وغادر المكان وبعضهم ينظر نحوه في رثاء، وعاد إلى بيته بفؤاد آسير فاستقبلته ياسمينة بابتسامة هادئة وآانت تلومه أول  
الأمر على سلوآه الذى جعل منه - ومنها بالتالى - نادرة لكنها آفت عن لومه يائسة، وصبرت على تلك الحياة التى لم تدر  
على أى وجه ستنتهى، بل وعاملته بلطف ورقة، ودق الباب، وإذا بالقادم خنفس فتوة آل جبل، دخل الرجل دون استئذان  
فقام له رفاة مرحبا فقبض الفتوة على منكبه بيد شديدة ألأها فكا ألأب غاضب، وسألته دون مقدمات:  
ماذا قلت عن الوقف فى غرزة شلضم ؟

ارتاعت ياسمينة حتى هرب دمها لكن رفاة قال بجدوء رغم أنه بدا أعصفور بين مخالب نسر  
قلت إن جدنا يود لنا السعادة  
فهزه هزة عنيفة وسألته

ومن أدراك بذلك ؟-.

ورد ذلك ضمن أقواله لجبل

فازدادت يده شدة على منكبه وقال

إنه ألم جبل عن الوقف

فقال رفاعة وقد أمهكه تحمل الألم

لا يعينني الوقف في شئ السعادة التي لم استطع أن احققها بعد لأحد شئ غير الوقف، وغير الخمر، وغير الحشيش،-.

قلت ذلك في آل مكان بحى جبل، وسمعتي الجميع وأنا أقوله

فهزه مرة أخرى وقال:

-آن أبوك عاصيا ثم تابن إحذر أن تعيد سيرته وإلا هرستك أما تهرس البقة.

ودفعه فهوى على ظهره فوق الكنبه، ثم ذهب، وهرعت ياسمينه إليه لتواسيه وتدللك منكبه الذى مال عليه رأسه من

الوجع، وبدا في شبه غيبوبة وغمغم آنما يجادث نفسه:

-إنه صوت جدى الذى سمعته.

ونظرت في وجهه بإشفاق وذعر وتساءلت هل ضاع عقله حقا ؟

ولم تعد عليه ما قال وساورها قلق لم تشعر به من قبل، وبما غادر الربع فاعترضت سبيله امرأة من غير آل جبل، وقالت له

باستعطاف:

صباح الخير يا معلم رفاعة

ودهش لرنه الاحترام في صوتها وللقب الذى قرنته باسمه فسألها

ماذا تريدين؟

فقال بضراعة

لى ابن ممسوس أرجو أن تخلصه!

وآن آل جبل جميعا يحتقر أهل الحارة فاستنكف أن يضع نفسه في خدمة المرأة فيضاعف من ازدراء آله له، فقال لها

ألا توجد آودية في الحارة ؟

فقال المرأة بصوت بالك

بلى ولكنى امرأة فقيرة

ورق لها قلبه أما أسره لجوؤها عليه هو الذى لم يلق من آله إلا الهزاء والاحتقار، ونظر إليها في تصميم وهو يقول

-إنى طوع أمرك.

آنت ياسمينة تطل من النافذة على الحارة متسلية بالمنظر الجديد، وآان فى أسفل الربيع غلمان يلعبون وبائعة دوم تنادى، على حين أمسك بطيخة بتلايب رجل وراح يضرب وجهه بكفه والآخر يستعطفه دون جدوى، وسألها رفاة وهو جالس على الكنية يقص أظافر قدميه:

هل يعجبك بيتنا الجديد؟

فالتفت نحوه قائلة

هنا تحتنا الحارة، أما هنالك فلم نكن نرى إلا الدهليز المعتم

فقال رفاة بأسى

ليت الدهليز بقى لنا، إنه دهليز مبارك، إذ فيه تقرر النصر لجبل على أعدائه، ولكن لم يكن فى الإمكان مواصلة الإقامة بين-

أناس يستهزئون بنا فى آل خطوة أما هنا فالفقراء طيبون، والطيب هو السيد لا آل جبل

فقالت ياسمينة باستهانة:

وأنا آرهم مذ عزموا على طردى

فسألها باسمًا

لماذا إذن تقولين للحيران إنك من آل جبل!

فضحكت ضحكة آشفة عن أسنانها اللؤلؤية وقالت فى مباهاة

ليعلموا أنى فوقهم جميعًا

فوضع المقص على الكنية وطرح ساقية على الحصيرة وهو يقول

-ستكونين أجمل وأفضل عندما تقهرين الغرور، ليس آل جبل بخير حارتنا، خير الناس اطيهم، وآنت مخطنًا مثلك فخصصت

آل جبل باهتمامى، ولكن السعادة لا يستحقها إلا من ينشدها مخلصًا، انظرى إلى الطيبين آيف يقبلون على وآيف يبرآون

من العفارىت.

فقالت باحتجاج:

لكن آل أحد هنا يعمل بأجر إلا أنت- . .

لولا ما وجد الفقراء من يشفيهم ، إنهم يقدرّون الشفاء لكنهم لا يملكون ثمنه، وأنا ما عرفت الأصدقاء حتى عرفتهم

وأمسكت عن الجدل بوجهه متعض فقال رفاة

آه لو تدعنين لى آما يدعنون ! إذن لخلصك مما يعكر صفو الحياة  
فتساءلت غاضبة

أتجدنى مزعجة لهذا الحد؟-

من الناس من يعشق عفريته وهو لا يدري  
فهتفت بجدة

ما ابغض هذا الحديث إلى

فقال باسم

إنك من آل جبلن وآهم أبى أن يسلم لدوائى حتى أبى نفسه- !

وعندما دق الباب أدرآ أن زبونا جديدا قد قدم فتهياً رفاة لاستقباله

والحق أن رفاة لم يلق من عمره أسعد من هذه الأيام ، آن يدعى فى الحى الجديد بالمعلم رفاة، وآنوا يدعونه فى  
اخلاص ومحبه، وعرف بانه يخلص من العفارىت ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحد، وهذا سلوك نقى لم يعرف عن أحد  
قبلهن فلذلك أحبه الفقراء آما لم يجباً أحدًا قط، وطبيعى أن بطيخة فتوة الحى الجديد لم يجبه لسلاواه الطيب من ناحيته  
ولأنه لم يكن من القادرين على أداء اية أتاوة من ناحية أخرى، ولكنه فى الوقت نفسه لم يجد مسوغا للاعتداء عليه . أما  
الذين برئوا على يديه فكان لكل منهم قصة يرددھا، فأم داود آانت إذا رأبتها النوبة العصبية عضت وليدها، وهى اليوم مثال  
للهدوء والاتزان، وسنارة الذى لم يكن له من هواية إلا الشجار والنقار أصبح وديعا حليما أنه تحية سلام، وطلبة النشال  
تاب توبة صادقة واشتغل صبي مبيض نحاس، وعويس تزوج بعد الذى آن، واصطفى رفاة من مرضاه اربعة وهم زآى  
وحسين وعلى وآريم، اصطفاهم لصداقته فصاروا إخوة، لم يعرف أحد منهم الصداقة ولا الحب قبل أن يعرفه، آن زآى  
برمجيا ، وآآن حسين مدمن أفيون لا يفيق، وعلى يتدرب على الفتونة، وآريم قوادان فانقلبوا رجالا ذوى قلوب آبيرة ، وآنوا  
يجتمعون عند صخرة هند حيث الخلاء والهواء النقى فيتبادلون أحاديث المودة والصفاء، ويتطلعون إلى طبييهم بأعين تفيض  
بالحب والإخلاص، ويحلمون جميعا بسعادة ستظل الحارة بأجنحتها البيضاء . ويوما تساءل رفاة وهم بمجلسهم ينظرون إلى  
حمرة الشفق فى هدوء المغيب:

لماذا نحن سعداء ؟

فأجاب حسين بحماس

أنت أنت سر سعادتك

فابتسم ابتسامة شكر وقال

الحقد والطمع والكراهية وسائر الشرور التى تفتك باهل حارتنا

فقال على مؤمنا على قوله

بل لأننا تخلصنا من العفاريت فتطهرنا من

سعداء بالرغم من أننا فقراء ضعفاء لا حظ لنا في الوقف أو الفتونة

فهز رفاعه رأسه أسفا وقال

آم يتعذب الناس من أجل الوقف الضائع والقوة العمياء، فالعنوا معي الوقف والفتونة

فاستبقوا إلى لعنهما، وتناول على طوبة فرماها بأقصة قوته صوب الجبل، وعاد رفاعه يقول

-ومذ قال الشعراء إن الجبل لاوى حث جبل على أن يجعل من ربوع آل جبل بيوتا تضارع البيت البير في جلاله وجماله طمح

الناس إلى قوة الجبل لاوى وجاهه، وتناسوا مزياه الخريات، لذلك لم يستطع جبل أن يغير النفوس بنيله حقه في الوقف ، ولما

رحل عن الدنيا انقلب الأقوياء مغتصبين الضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع، أما أنا فافتح أبواب السعادة بلا وقف

ولا قوة ولا جاه.

وهو آريم بوجهه غليه فقبله، فمضى يقول:

وغدا عندما يلمس الأقوياء سعادة الضعفاء سيدرآون أن قوتهم وجاههم وأموالهم المغتصبة لا شيء- .

وصدرت عن الأصدقاء آلمات الشناء والحب وحمل الهواء غناء راع في أقصى الخلاء

وتجلس في السماء نجم واحد، ونظر رفاعه في وجوه الأصحاب وقال:

بأنفسكم ، وأن تتعلموا الأسرار لتخلصوا المرضى من العفاريت

فبدت الغبطة في الوجوه وهتف زآى

ولكنى لا آقى وحدى لعلاج أهل حارتنا، أن لكم أن تعملوا

ذلك أعز أمانينا

فابتسم إليهم قائلا

-ستكونون مفاتيح السعادة في حارتنا.

ولما عادوا إلى حيهم وجوده يضى بأنوار عرس في أحد الربوع، ورأى آثيرون رفاعه فأقبلوا عليه مصافحين، وتغيظ بطيخة

فقام من مجلسه بالقهوة وهو يسب ويلعن، ويصبع هذا وذاك ، ثم تحول إلى رفاعه متسائلا في وقاحة:

ماذا ترى في نفسك يا ولد ؟

فقال رفاعه برقة

صديق المسآين يا معلم

فصاح الرجل

إذن امشى أما يمشى المسآين لا آعريس الزفة، أنسيت أنك طريد حى وزوج يامينة وآودية زار؟- .  
وبصق فى تحرش، وتباعد الناس وساد الوجوم لكن زغاريد الفرح غطت على آل شئ

55

وقف بيومى فتوة الحارة وراء باب حديقته الخلفى الذى يفتح على الخلاء . آن الليل فى أوله وآآن الرجل ينتظر وهو يتصنت  
وعندما طرق إصبع الباب بخفة فتح الباب فتسللت إلى داخل الحديقة امرأة آأها بملاءتها ونقاها قطعة من الليل، تناول  
يديها وسار بها فى ممشى الحديقة متجنباً الاقتراب من البيت حتى بلغ المنظرة فدفع الباب ودخل وهى فى اثره، وأشعل  
شمعة فأقامها على حافة نافذة فبدت المنظرة فى شبه مغيين والكنبات مصطفة بأضلعها ، وفى الوسط صينية آبيرة  
محملة بالجوزة ولوازمها فى دائرة من الشلت، ونزعت المرأة عنها ملاءتها والنقاب، فضمها بيومى إليه بقوة نفذت إلى  
عظامها حتى رمقته بنظرة استرحام، وتخلصت منه برشاقة فضحك ضحكة خافتة وجلس على شلته، وراح يعبث بأصبعه  
فى رماد الحمرة حتى تكشف عن جمر يومض، وجلست إلى جانبه وقبلت أذنه ثم أشارت إلى الحمرة وهى تقول:  
آدت أنسى رائحته

فراح يطر خدها وعنقها بالقبل ثم قال وهو يرمى قطعة فى حجرها  
-هذا الصنف لا يدحنه فى حارتنا إلا الناظر والعبد لله.

وترامى من الحارة صوت معرآة تحتمد، سب وارتطام عصى وتحطيم زجاج، ووقع أقدام جاربية، وأصوات امرأة ' ثم نباح آلب،  
ولاح تساؤل مترعج فى عيني المرأة ' ولكن الرجل راح يقطع الصنف فى غير مبالاة فقالت المرأة:  
آم يشق على الجيء ! فلكى أمن العيون أسير من الحارة إلى الجمالية ومن الجمالية إلى الدراسة، ومن الدراسة إلى- .  
الخلاء حتى بابك

فمال نحوها دون أن تكف أصابعه عن العمل وتشمم أبطها فى تلذذ وقال:

لن أبالى أن أزورك فى بيتك

فابتسمت قائلة

لو فعلت ما تعرض لك أحد من الجبناء ، حتى بطيخة سيفرش لك الرمل ثم يصبون غضبهم على وحدى

وعبث بشاربه الغليظ وقالت فى دعابة

لكنك تسللت إلى المنظرة فى بيتك خوفا من زوجتك

فترك القطعة وطوقها بذراعه فضمها عليه بعنف حتى أنت ثم همست

الله احفظنا من عشق الفتوات  
فاطلقها وهو يرفع رأسه ويبرز صدره آالديك الرومى وقال  
لا يوجد إلا فتوة واحد، أما الاخرون فصبيان  
فلاعبت شعر صدره الحور عنه طوق جلبابه وقالت  
فتوة على الناس لا على أنا  
فقرصها فى صدرها بخفة وقال  
أنت تاج رأس الفتوة  
ومد يده إلى ماوراء الصينية فتناول ابريقا وهو يقول  
بوطة عجيبة  
فقال أسفة  
لها رائحة قوية قد يشمها زوجى العزيز  
فتجرع من الأبريق حتى روى، ومضى يرص الحجر وهو يقول مقطبا  
يا له من زوج ! لخته مرات وهو يهيم على وجهه آالخنون، أول آودية زار من جنس الرجال فى هذه الحارة العجيبة  
فتابته وهو يدخن وقالت  
إنى مدينة له بحياتى، لذلك أتصبر على معاشرته، ولا ضرر منه إذ ليس أيسر من خداعه.  
وقدم إليها الجوزة فالتقمت فوهتها بشوق وشدت أنفاسا بشراة ثم زفرت الدخان مغمضة العينين ثملة الحواس، وراح  
بدوره يدخن، فيأخذ أنفاسا منقطعة وبين آل نفس وآخر يتكلم قائلا:  
تترآينه ... يعبث .. بك .. عبث .. الأطفال.  
فهزت منكبيها هازئة وقالت  
-لا عمل لزوجى فى هذه الدنيا غلا تخلص الفقراء من العفاريت.  
وأنت ألا تخلصينه من شىء ؟-  
مظلومة وحياتك ! نظرة واحدة إلى وجهه تغنى عن الكلام-!  
ولا مرة آل شهر  
ولا آل سنة ، إنه مشغول عن زوجته بعفاريت الناس  
فلترآبه العفاريت ! وأى فائدة يجنيها من وراء ذلك ؟  
فهزت رأسها فى حيرة وقالت

-لايجنى شيئاً، ولولا أوه هلكنا جوعاً، وهو يعتقد بأنه مكلف بإسعاد الفقراء وتطهيرهم.  
ومن الذى آلفه؟-

يقول إن هذا ما يريده الواقف لأبنائه

وتجلى الاهتمام فى عينى بيومى الضيقتين فوضع الجوزة فى الكوز وسألها  
أقال إن الواقف يريد ذلك؟

نعم

ومن أدراه بما يريد الواقف؟

وشعرت المرأة بضيق وانزعاج، وخافت أن يفسد الجون أو أن تحدث أمور خطيرة فقالت

هكذا يؤول أقواله التى يتغنى بها الشعراء

ومضى يرص حجراً جديداً وهو يقول

-حارة بنت آلب، وحى جبل أنجها، فيهم ظهر آبر دجال، وينشرون الخبار الغربية عن الوقف والشروط العشرة، آأن الواقف  
جدهم وحدهم، وبالأمس جاء دجالهم جبل بكذبة سرق بما الوقف، واليوم يؤول هذا المعتوة آلاما لا يقبل التأويل، وسيزعم  
أنه سمعه من الجبلاوى نفسه.

فقالت بقلق:

إنه لا ينشد سوى تخلص الفقراء من العفارىت

فشخر الفتوة هازئاً ثم تساءل

ومن يديرنا فلعل فى الوقف عفرينا!

ثم بصوت ارتفع لدرجة لا تتفق وسرية الاجتماع

-الواقف ميت أو فى حكم ذلك يا أولاد الكلب.

وانزعجت ياسمينية، خافت أن تفلت الفرصة المتاحة وأن يتعكر الجو، ومدت يدها إلى الفستان لترعه رويداً، وانبسبت

أسارير الرجل بعد تجهز ورنأ إليها بعينين متوثبتين.

56

بدا الناظر فى عباءته ضئلاً وآأن الاهتمام بارزا فى وجهه البيض المستدير بروز الذبول الذى اعتور جفنيه والشيخوخة  
المبكرة الواضحة فى نظرة عينيه وفى التجاعيد المرسومة تحتها متأثر التهالك فى الشهوات، أما وجه بيومى الممتلئ



فلم يش بالارتياح الباطني، الذي سرى فففيه نتيجة لقلق سيده، ذلك القلق الذي يدل على خطورة النبء التي نقلها عليه،  
فبدل بالتالى على خطورة الدور الذى يؤديه للناظر وللوقف، وآآن يقول الناظر:

على رغمى أزعجك بهذه الأخبارن ولكن لم يكن فى وسعى أن اتصرف دون الرجوع غليك فى أمر يتعلق بالوقف، ومن-  
ناحية اخرى فهذا المشاغب المعتوه من آل جبل، وعلينا عهد بألا يتعدى أحد منا على أحد منهم إلا بعد أذنك  
وتساءل الناظر إيهاب بوجهه مكفهراً:

وهل زعم حقا أنه اتصل بالواقف ؟

تآآد لدلا ذلك من آآثر من مصدر، إن مرضاه يؤمنون بذلك ولو أنهم يتكتمون الأمر بحرص شديد

-لعله مجنون آما آآن جبل دجالا، ولكن هذه الحارة القذرة تحب المجانين والدجالين، ماذا يريد آل جبل بعدما نهبوا الوقف  
بلا حق؟ لماذا لا يتصل الواقف باحد غيرهم؟ لماذا لا يتصل بى وأنا أقرب الناس إليه؟ إنه قعيد حجرته، ولا يفتح باب بيته غلا  
عندما تحمل إليه حوائجه، لايراه أحد، ولا يرى هو إلا جاريته، ولكن ما أيسر أن يقابله آل جبل أو أن يسمعه.  
فقال بيومى بحنق:

لن يرتاح لهم بال حتى يستولوا على الوقف آله

فاصفر وجه الناظر غضبا ، وتوثب لإصدار الأوامر، ولكنه تراجع متسائلا

أقال عن الوقف شيئا أم قصر نشاطه على إخراج العفاريت ؟

فقال بيومى بحنق

مثل جبل آآن نشاطه قاصرا على إخراج الثعابين

ثم فى تمكم

ما للواقف والعفاريت ؟

فوقف إيهاب وهو يقول بحدة

-لا أريد أن تصيبني اللعنة التي أصابت الأفندى.

ودعا بيومى جابر وحندوسة وخالد وبطيخة إلى غرخته وقال لهم إن عليهم أن يجدوا علاجلا لجنون رفاعة ابن شافعى

النجار، وتساءل بطيخة فى انزعاج:

آمن اجل هذا دعوتنا يا معلم ؟

فهز بيومى رأسه بالإيجاب فضرب بطيخة آفا على آف وهتف

يا هوه ! فتوات الحارة تجتمع من أجل مخلوق لا هو ذآر ولا هو أنثى

فرماه بيومى بنظرة ازدرآ وقال

مارس نشاطه تحت سمعك وبصرك فلم تدرك له خطرا . وطبعا لم تسمع عن مزاعمه عن الاتصال بالواقف وتبادلوا نظرات نارية من خلال الدخان المنتشر وقال بطيخة بذهول ابن الهرمة ! ما للواقف والعفراريت ! هل آن جدنا آودية زار؟ وشرعوا فى الضحك ولكن سرعان ما عدولا عن لتجهم بيومى الذى قال أنت شمام يا بطيخة، الفتوة يسكر ويحشش ولكن لا يليق به الشم! فقال بطيخة مدافعا عن نفسه الدم وجهى وعنقى، ولكن نبوتى لم يسقط من يدى وهنا قال حندوسة فى رجاء يا معلم أنا فى زفة عنتر أنت الهدف لنبايت عشرين رجلا فغطى فلندع له الأمر يعالجه بما يرى، وإلا فقد هيبته، وليته يجد طريقة غير الاعتداء على المعتوه، فإن الاعتداء على مثله مهين- . للفتوة ونامت الحارة ولا أحد يدرى بما يبيت فى غرزة بيومى، وفى صباح اليوم التالى غادر رفاة الربع فرأى بطيخة فى طريقه فحياه قائلا:

صباح الخير يا معلم بطيخة  
فرماه الرجل بنظرة مقت وصاح  
صباح القطران يا ابن القديمة ، عد إلى بيتك ولا تخرج منه وإلا آسرت رأسك  
فتساءل رفاة فى دهشة  
ماذا أغضب فتوتنا ؟  
فصاح مزجرا

-أنت تكلم الآن بطيخة لا الواقف فاذهب بلا تردد.

وهم رفاة بالكلام فلطمة الفتوة لطمة دفعته إلى جدار الربع مترنحا، ورأت امرأة الموقعة فصوتت حتى ملأ صوتها الحارة وتبعها نسوة أخريات، وارتفعت أصوات استغاثة من أجل رفاة . وفى لمح الصر جرى نحو المكان آثيرون من بينهم زآى وعلى وحسين وآريم، ثم جاء عم شافعى، أما جاء جواد الشاعر متلمسا طريقة بعصاه، وما لبث أن ازدحم الموقع بمحبي رفاة من الرجال والنساء، ودهش بطيخة الذى لم يتوقع شيئا مما حدث، ورفع يده وهوى بما على وجه رفاة فتلقاها هذا دون دفاع، ولكن الواقفين تصايحوا فى انزعاج، واعتراهم انفعال شديد، فتوسل البعض إلى بطيخة أن يترآه، وردد آخرون حسنات رفاة ومزياه ، وتساءل آثيرون عن أسباب الاعتداء، وتعالحت احتجاجات فاستشاط بطيخة غضبا وصاح:

-أنسيتم من آون ؟

والحق أن حب المتجمعين لرفاعة الذى دفعهم بغير وعى إلى التجمع هو الذى شجعهم على الرد على إنذار بطيخة، فقال أحد الواقفين فى الصف الأول:

فتوتنا وتاج رأسنا، وما جئنا إلا لنسألك العفو عن الرجل الطيب

وصاح رجل من وسط المظاهرة متشجعا بالزحام وبمكانه فيه

فتوتنا على العين والرأس، ولكن ماذا فعل رفاعة ؟

وصاح ثالث فى آخر المظاهرة مطمئنا إلى تواريه عن تناول عين الفتوة

رفاعة برئ والويل لمن يمد له يدا بسوء!

وثار غضب بطيخة فرفع نبوته فوق رأسه وهو يصيح

-يا نسوان ، سأجعلكم عبرة.

وإذا بصوت النساء يرتفع من الأركان حتى انقلب الحى مائمان وقذفت الأفواه الغاضبة بالإنذارات الدموية، وأخذ الطوب

يتساقط أمام بطيخة ليمنعه من التقدم، ووجد الرجل نفسه فى مرآز حرك لم يقع له ولا فى الكابوس، آن الموت أهون

عليه من الاستنجاد بأحد الفتوات، وآن الهجوم يهدد بالقضاء عليه تحت وابل الطوب، وآن فى السكوت الاجهاز على

فتوته ، وتطير الشرر من عينيه، واستمر تساقط الطوب ، وتمادى القوم فى تحديهم، ولم يكن حدث شئ أهذا لأحد من

الفتوات من قبل.

واندفع رفاعة فجأة حتى وقف أمام بطيخة ولوح الناس بيديه حتى ساد السكوت، وهتف بصوت قوى:

لم يخطئ فتوتنا وأنا الملوم

لاحت نظرات افنكار فى الوجوه ولكن أحداً لم ينبس بكلمة فقال رفاعة

-تفرقوا قبل أن تتعرضوا لغضبه.

وفهم الناس أنه يريد أن ينقذ آرامة الفتوة حلا للأزمة فتفرقوا، وتبعهم اخرون وهم فى حيرة من المرن ثم سارع الباقون

بالتفرق خشية أن ينفرد بطيخة بأحد منهم، فأقفر الحى.

57

اشتد التوتر بالحارة بعد تلك الواقعة، وآن أخوف ما يخاف الناظر أن تعتقد الحارة بأن فى تضامنها قوة تكفل الصمود أمام الفتوات، لذلك وجب - فى نظره - القضاء على رفاعة ومن تحدتهم انفسهم بالوقوف إلى جانبه على أن يتم ذلك بالاتفاق مع

خنفس فتوة آل جبل تجنبا لنشوب عراك شامل في الحارة، وقال الناظر لبيومي : ليس رفاعة بالدرجة التي تظنها من الضعف، فوراءه محبون استطاعوا انقاذه رغم أنف الفتوة، فماذا يكون من امره لو تعلقت به الحارة أما تعلق به حية؟ هنالك سيدع العفاريث جانبا ويجاهر بأن الوقف غايته ! وصب بيومي غضبه على بطيخة فهزه من منكبيه بعنف وقال له : أترآنا الأمر

لك وحدك فماذا فعلت يا شين الفتوات ! وعض بطيخة على نواجذه بحنق وقال : سأريحكم منه ولو بقتله فصاح به بيومي : خير ما تفعل أن تحتفى من الحارة إلى الأبد، وأرسل إلى خنفس من يدعوه إلى مقابلته، ولكن عم شافعي اعترض سبيل خنفس وهو في حال من الفزع لم تسبق له من قبل، وآآن قد حاول اقناع ابنه بالعودة إلى الدآن والاقلاع عن العمل الذي يجر عليه المتاعب ولكنه فشل في مسعاه وعاد خائبا، ولما علم باستدعاء خنفس إلى مقابلة بيومي اعترض سبيله وقال له : يا معلم خنفس، أنت فتوتنا وحامينا، وإهم يطلبونك لتتخلى عن رفاعة فلا تتخل عنه، تعهد لهم بما يشاءون ولكن لا تتخل عنه، مرني فأهجر الحارة مصطحبا إياه ولو بالقوة ولكن لا تتخل عنه ! فقال خنفس في حذر واحتياط : أني أعلم الناس بما يجب على وما تقتضيه مصالح آل جبل، والحق أن خنفس توجس خيفة من ناحية رفاعة مذ علم بوقوعه بطيخة، وقال لنفسه إنه هو الذي ينبغي له أن يحذر لا الناظر ولا بيومي.

ومضى إلى بيت بيومي فاجتمع به في المنظرة وصارحه الفتوة بأبه دعاه بصفته فتوة آل جبل ليتفقا على رأى في مشكلة رفاعة ، قال :

لا تستهن بشأنه فإن الأحداث تقطع بخطورة أثره

ووافق خنفس على ذلك ولكنه قال برجاء

أرجو ألا يعتدى عليه أمامي

فقال بيومي

نحن رجال يا معلم، ومصالحنا واحدة، ولا نعتدى على أحد في بيوتنا، وسيجئ هذا الولد الآن لاستجوابه على مسمع-

منك

وجاء رفاعة بوجهه المشرق فحيا الرجلين، وجلس حيث أشار له بيومي أن يجلس على شلته أمامهما، وتفرس بيومي في

وجهه الجميل المطمئن وهو يعجب آيف أمسى هذا الطفل الوديع مصدرا للقلقل المفزعة، وساله بصوت غليظ :

لماذا هجرت حيك وأهلك ؟

فقال ببساطة

- لم يستجب لي منهم أحد.

ماذا آنت تريد منهم ؟-

أن أخلصهم من العفاريت التي تفسد عليهم سعادتهم  
فوشى صوت بيومي بغيظه وهو يسأله  
وهل أنت مسئول عن سعادة الناس ؟  
فقال رفاعة بصراحة وبراءة  
نعم مادمت قادرا على تحقيقها  
فتوجههم وجه بيومي وهو يقول  
سمعوك وأنت تحتقر الجاه والقوة؟-  
لكى أبرهن لهم على أن السعادة ليست فيما يتوهمون ولكن فيما أفعل  
فتساءل خنفس غاضبا  
أليس في ذلك تحقير لأصحاب القوة والجاه؟  
فقال دون ان يضطرب لغضب الرجل  
وتفحصه بيومي بنظرة نافذة وهو يسأله  
آلا يا معلم ولكن فيه تنبيه بان السعادة غير ما يملكون من قوة وجاه.  
وسمعوك أيضا وأنت تؤاد أن ذلك ما يريده لهم الواقف  
فتجلى الاهتمام في العينين الصافيتين وقال  
-هم يقولون ذلك ؟  
وماذا تقول أنت ؟  
فقال بعد تردد لأول مرة  
على قدر فهمي أتكلم  
فقال خنفس متهكما  
المصائب تجئ من العقل الزنج  
وقال بيومي وهو يضيق عينيه  
لكنهم يقولون إنك تعيد عليهم ما سمعته من الجبلاوى نفسه!  
فبدت الحيرة في عينيه، وتردد للمرة الثانية ثم قال  
هكذا فهمت أقواله لأدهم ولجبل

فصاح خنفس غاضبا

أقواله لجبل لا تحتمل التأويل.

وأشد الحنق بيومي، وقال لنفسه، آلكم آذابون، وجبل أول آذاب فيكم يا لصوص، وقال:  
-أنت تقول إنك سمعت الجبلاوى، وتقول هذا ما يريده الجبلاوى، وليس لأحد أن يتكلم باسم الجبلاوى إلا ناظر وقفه  
ووريثه،

ولو أراد الجبلاوى أن يقول شيئا لقاله له، هو الأمين على وقفه ومنفذ شروطه العشرة يا معتوه آيف تحقر القوة والجاه  
والثراء باسم الجبلاوى وهى مزاياه وصفاته؟

فتمت الأسارير الصافية عن ألم وقال:

إن أخاطب أهل حارتنا لا الجبلاوى، وهم الذين ترآبهم العفاريت، وهم الذين تعذبهم المطالب  
فصاح به بيومي

ما أنت إلا عاجز عن القوة والجاه، فلذلك تلعنهما، ولترفع مكانتك الحقيمة فى نظر الغيباء من أهل حارتنا فوق مكانة-  
السادة، وعندما تجدهمخ طوع يديك تنهب بهم القوة والجاه

فاتسعت عينا رفاعه دهشة وتساءل:

لا غاية لى إلا سعادة أهل حارتنا

فصاح بيومي

-يا ابن المآرة ، أنت توهم الناس بأهم مرضى، بأننا جميعا مرضى فلا صحيح غيرك فى هذه الحارة!  
لماذا تكرهون السعادة وهى بين أيديكم ؟

-يا ابن المآرة ! ملعونة السعادة التى تجئ من مثلك ! فتساءل رفاعه متنهدا

لماذا يكرهنى أناس وأنا ما آرعت أحد قط ؟

فصرخ فيه بيومي

الأغبياء ، وأقلع عن خداعك، وافهم أن أمرى لا يخالف، وأحمد الله على أنك فى بيتى وإلا ما خرجت-.

سالما

لا تخدعنا بما تخدع به

وقف رفاعه يائسا ، فحياهما وانصرف ، وقال خنفس:

دعه لى

لكن بيومي قال

خرج رفاعه من بيت بيومي قاصدا بيته، آنت السماء متلفعة بأردية الخريف وفي الجو نسيم معتدل وازدحمت الحارة حول مقاطف الليمون آنما تحتفل بموسم النخيل، وترامت الأحاديث والضحكات على حين اشتبك غلمان في معرأة يتقاذفون بالتراب، وتلقى رفاعه تحيات الكثيرين وأصابه رشاش تراب فمضى إلى بيته وهو ينفذه عن آتفه ولاسته، ووجد زآى وعلى وحسين وآريم في انتظاره فتعانقوا أما يتعانقون عند آل لقاء، ثم قص عليهم - وعلى زوجته التي انضمت إلى المجلس - فلما فرغ من قصته تجهمت الوجوه، وساءلت ياسمينه نفسها ترى عم يتمخض هذا الموقف الدقيق؟ واليس هناك حل يقى الرجل الطيب من الهلاك دون أن يهدد سعادتها؟ وبدا التساؤل فى الأعين جميعا، أما رفاعه فأسند رأسه إلى الحائط فى شىء من الإعياء وقالت ياسمينه:

لا يجوز الاستهانة بامر بيومي

وآن على أحدهم طبعاً فقال

لرفاعة أصدقاء هزموا بطيخة فاختفى من الحارة

فقال ياسمينه مقطبة

بطيخة لا بيومي ! إذا تحديتم بيومي فقل عليكم السلام!

فالتفت حسين إلى رفاعه قائلاً

فلنستمع أولاً إلى المعلم!

فقال رفاعه وهو شبه مغمض العينين

لاتفكروا فى العراق فإن الذى يشقى لإسعاد الناس لا يهون عليه سفك دمائهم

وتهلل وجه ياسمينه، آنت تكره فكرة الترملة خشية أن تحرق بها العين فلا تجد منقذا إلى رجلها الرهيب، وقالت

خير تفعل أن ترحم نفسك من ذلك العناء

فقال زآى محتجاً

لن نترك ها العمل ولكن نترك الحارة

فخفق قلب ياسمينه جزعاً لتخيل البعد عن حارة رجلها وقالت بجدة

لن نعيش غرباء ضائعين بعيداً عن حارتنا

وترآزت العين في وجه رفاعه فاعتدل رأسه رويدا وقال  
-لا احب أن أهجر حارتنا.

وهنا دق الباب دقات متتابة في لطفة فذهبت ياسمينة تفتحه، وسمع الجالسون صوتي عم شافعي وعبدة يسألان عن  
ابنهما، وقام رفاعه فتلقى والديه بالعناق وجلسوا وهما يلهثان ووجههما ينطقان بملا يحملان من أنباء مزعجة ، وسرعان  
ما قال الأب:

يا بني تخلى عنك خنفس فحياتك في خطر، وأخبرني أصحابي بأن أعوان الفتوات يحومون حول بيتك  
وجففت عبدة عينين حمراوين وقالت

ليتنا ما عدنا إلى هذه الحارة التي تباع فيها الأرواح بلا ثمن ، فقال على متحمسا:

لا تخافي ياسيدتي، فحينما آله أصدقاء يجيئوننا

وقال رفاعه متاوها

-ماذا فعلنا مما نستحق عليه العقاب؟

فهتف عم شافعي جزعا:

أنت من حى جبل الكروه لديهم، وآم توجس قلبى خيفة مذ جاء ذآر الواقف على لسانك!

فقال رفاعه متعجبا

بالأمس حاربوا جبل لمطالبته بالوقف واليوم يجاربونى لاحتقارى الوقف

فلوح شافعي بيده جزعا وقال

قل فيهم ما تشاء فلن يغير هذا منهم شيئا، ولكن اعلم أنك ها لك إن غادرت بيتك، ولست آمن عليك إن بقيت فيه- . .

تسرب الخوف إلى قلب آريم أول ما تسرب لكنه داراه بإرادة قوية

وقال مخاطبا رفاعه:

بيتى من- .

فوق الأسطح وهناك نفكر فيما ينبغى عمله

إنهم يتربصون لك في الخارج، وإذا لبثت هنا فسيجيئون إليك، هؤلاء هم فتوات حارتنا أما عرفناهم، فلنهرب إلى

فصاح شافعي:

ومن هناك تهربون من الحارة ليلا

فتاوه رفاعه متسائلا

واترك بنائى يتهدم ؟



فتوسلت إليه أمه بأية

عليك وأرحم أمك

فقال الأب محتدا

افعل ما يشير به

وأستأنف عملك فيما وراء الخلاء إذا شئت

وقام آريم في اهتمام وقال

-فلتندبر أمرنا، سيبقى المعلم شافعي وحرمه قليلا ثم يذهبان إلى ربع النصر آنهما راجعان بعد زيارة عادية، وتخرج ست

ياسمينية إلى الجمالية آنما لتسوق، وعند عودتها تتسلل إلى مسكني وهذا أيس لها من الهرب عبر الأسطح، ارتاح

شافعي إلى الخطة، فقال آريم:

لا ينبغي أن نضيع دقيقة سدى، سأذهب لاستكشف السطح- .

وغادر الحجر، وقام شافعي أخذا رفاعا في يده، وأمرت عبدة ياسمينية بأن تجمع الثياب في بقعة

وأخذت ياسمينية في جمع الثياب القليلة بصدر محتق وقلب مكتوم، وثورة من الحنق في باطنها تتجمع، وأقبلت عبدة على

ابنها تقبله وترقية بأعين بأية، ومضى رفاعا يفكر في حالة بقلب حزين، أم أحب الناس بكل قلبه وآم شقى لإسعادهم

وآيف يعانى من بغضائهم وهل يسلم الجبلاوى بالفشل؟ ورجع آريم وهو يقول لرفاعة وصحبه:

اتبعوني

وقالت عبدة وهي تفحم في البكاء

سنلحق بك ولو بعد حين

وقال له شافعي وهو يضغط على مخارج الدمع

فلتصحبك السلامة يا رفاعا

عائق رفاعا والديه ثم التفت إلى ياسمينية قائلا

احبكى الملاة والبرقع آيلا يعرفك أحد

ثم وهو يميل إلى أذنها

-لا أطيعك أن تمتد لك يد بسوء.

غادرت ياسمينة الربع ملتفة فى السواد آلمات عبدة تتردد فى أذنيها حين قالت لها وهى تودعها : مع السلامة يا بنتى، وربنا يحفظك ويصونكن رفاة عهدتكن سادعو لكما فى النهار والليل ، آانت طلائع الليل تزحف وفوانيس المقاهى تشتعل والغلمان يلعبون حول الأنوار المنبعثة من مصايح عربات اليد على حين احتدم عراك القطط والكلاب - آشأنه فى ذلك الوقت من اليوم - حول آأوام الزبالة.

مضت ياسمينة نحو الجمالية وليس فى قلبها العاشق مكان للرحمة ، لم يساورها التردد ولكن ملأها الخوف فخيل إليها أن اعينا آآيرة تراقبها، ولم تشعر بشئ من الاطمئنان حتى عرجت من الدراسة إلى الخلاء، لكنها لم تجد الاطمئنان الحقيقى إلا فى المنظرة بين يدي بيومى ، ولما نزعت النقاب عن وجهها تفحصها باهتمام وتساءل:

خائفة ؟

فأجابت وهى تلهث

-نعم.

آآا ، الجبن ليس من صفاتك ! خبرينى ماذا وراءك ؟

قالت بصوت لا يكاد يسمع

هربوا من فوق الأسطح إلى بيت آريم، وسيغادرون الحارة عند الفجر

فغمغم بيومى ساخرا

عند الفجر يا أولاد الهرمة- !

أقنعوه بالذهاب فلماذا لا تدعه يذهب

فابتسم ساخرا وقال

قدبما ذهب جبل ثم عاد، هذه الحشرات لا تستحق الحياة

فقالت وهى شاردة اللب

أنه ينكر الحياة ولكنه لا يستحق الموت

فتقلص فوه اشتمزازا وقال

فى الحارة آفايتها من المجانين

فنظرت إليه فى استعفاف ثم غضت بصرها وهمست وآأما تحت نفسها

انقذنى يوما من الهلاك

فضحك فى سخرية غليظة وقال

وها أنت تسليمه للهلاآن واحدة بواحدة والبادى أظلم!

فشعرت بقلق موجع المرصن ورمقته بعتاب وهى تقول

فعلت ما فعلت لأنك اغلى من حياتى

فربت خدها برقة وقال

سيخلو لنا الجو، وأذا ضايقتك الظروف فلك هذا فى البيت مكان ، فارتفعت روحها من هبوطها درجات وقالت- . :

لو عرضوا على بيت الواقف من دوك ما قبلته

أنت بنت مخلصه

وشكتها مخلصه فعاودها القلق الذى هو المرصن، وتساءلت ترى هل يسخر منها الرجل؟ ولم يكن ثمه وقت لمزيد من الكلام فقامت وقام ليودعها، حتى تسللت من الباب الخلفى، ووجدت زوجها وأصحابه فى انتظارها، فجلست إلى جانب

زوجها وهى تقول لرفاعة:

بيتنا مراقب، ومن الحكمة إن أمك ترآت المصباح مشتعلا وراء النافذة، وسيكون الهرب ميسورا عند الفجر

فقال لها زآى وهو يلحظ رفاعة فى حزن

لكنه حزين، أليس المرصى فى آل مكان واليسوا هم فى حاجة آذلك إلى الشفاء؟

فقال رفاعة

تشتد الحاجة إلى الدواء حيث يستفحل المرض- . .

ونظرت ياسمينه نحوه فى رثاء وقالت لنفسها أن من الظلم تقله

وتمنت لو آآن فيه جانب واحد يستحق العقاب، وذآرت أنه الوحيد فى هذه الدنيا الذى أحسن إليها وإن جزاءه على ذلك

سيكون القتل، ولعنت فى سرها هذه الأفكار وقالت ليفعل الخير من يجد فى حياته الخير، ولما رآته يبادهلها النظرات قالت

آالمشفقة:

حياتك أغلى من حارتنا اللعينة

فقال رفاعة باسما

هذا ما يقوله لسانك غير أنى اقرأ الحزن فى عينيك

وارتعدتن وقالت لنفسها يا ويلي لو آآنت قدرته على قراءة العين آقدرته على إخراج العفارىت، وقالت له

ليس ما بى حزن، ولكنه الخوف عليك!

وقام آريم وهو يقول

-سأعد العشاء.

ورجع حاملا الطبلية فدعاهم إلى الجلوس فجلسوا حولها، وآآن العشاء مكونا من الخبز والجبن والمش والخيار والفجل وثمره

أبريق من البوظة، وملاً آريم الآآواب وهو يقول:

ليلتنا نحتاج إلى التدفئة والتشجيع

وشربوا ، ثم قال رفاعة باسم

الخمير توقظ العفاريت، ولكنها تنعش من تخلص من عفريته

ونظر نحو ياسمينة إلى جانبه فأدرآت مغزى نظرتة وقالت

-ستخلصني من عفریتی غدا إن مدا الله فی العمر-

فتهلل وجه رفاعة سرورا وتبادل الأصدقاء التهاني، ومضوا يتناولون العشاء، قطعت الأرغفة، وتلاقت الأیدی فوق الأطباق،

وبدأوا وآأهم تناسوا الموت المحيط بهم، وإذا برفاعة يقول:

ولكنهم أبوا ألا أن يكونوا مثل العفاريت، إنهم أغبیاء، وهو لا یجب الأغبیاء أما قال

لی

أراد صاحب الوقف لأبنائه أن يكونوا مثلهم

فهز آريم رأسه أسفا ، وبلغ لقمته ثم قال:

لو آن على شئ من قوته الأولى لسارت الأمور أما یشاء

فقال على حانقا

لو .. لو .. لو ، ماذا أفدنا من لو ! علينا أن نعمل

فقال رفاعة بقوة

ما قصرنا قط حاربنا العفاريت دون هواده، وآأما ترك عفریت فراغا ملاً الحب ، وليس وراء ذلك غاية.

فقال زآى متحسرا:

ولو ترآونا نعمل ملأنا الحارة صحة وحبا وسلاما

فقال على معترضاً

إن أعجب آیف نفكر فی الهرب على آثرة ما لنا من أصدقاء!

فقال رفاعة باسم

إن عرق عفریتك ما زال لاصقا بجوفك، فلا تنس أن غایتنا الشفاء لا القتل ، ولخير للإنسان أن یقتل من أن یقتل

والتفت رفاعة إلى ياسمينة فجاة وقال

إنك لا تأألین ولا تصغین!

فتقلص قلبها خوفا، بيد أنها تغلبت على انفعالها وقالت

إن أعجب لكم آيف تتحدثون في مرح أنكم في عرس- !

ستالفين البهجة عندما تتخلصين من عفريتك غدا

ثم نظر إلى أخوانه وقال

بعضكم يخجل من المسألة، فنحن أبناء حارة لا تحترم إلا الفتنة . ولكن الفتونة ليست قاصرة على الإرهاب، فمصارعة-

العفاريث أشق عشرات المرات من الاعتداء على الضعفاء أو منازل الفتوات

فهز على رأسه أسفا وقال:

وآن جزاء الإحسان هذا الموقف التعيس الذى وجدنا أنفسنا فيه

فقال رفاة بيقين

لن تنتهى المعرأة أما يتوهمون، ولسنا ضعفاء أما يتصورون ! إنما نقلت المعرأة من ميدان إلى ميدان، وميداننا يتطلب-

شجاعة أسمى وقوة أشد

وواصلوا العشاء وهم يفكرون فيما سمعوا، وبدا لأعينهم هادئا مطمئنا قويا بقدر ما بدا جميلا وديعا، وفي فترة الصمت تجلى

صوت شاعر الحى وهو يحكى قائلا : ومرة جلس أدهم فى حارة الوطاويط عند الظهر ليستريح فنعس، واستيقظ على

حرارة فرأى غلمانا يسرقون عربته فنهض مهددا ورأه غلام فبه أقرانه بصفير ودفع العربة ليشغله بها عن مطاردتهم فاندلق

الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين آالجراد، وغضب أدهم غضبا شديدا حتى قذف فوه المهذب بسيل

من أقدع الشتائم، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذى لوث بالطين، وتضاعف غضبه دون أن يجد له متنفسا فراح يقول

بتأثر وانفعال:

-لماذا آن غضبك آالنار تحرق بلا رحمة؟ لماذا آانت آبرياؤك آحب إليك من لحمك ودمك؟ وآيف تنعم بالحياة الرغيدة وآنت

تعلم أننا نداس بالأقدام آالحشرات؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها فى بيتك الكبير أيها الجبار ! وقبض على يد العربة

وهم بدفعها بعيدا عن الحارة اللعينة وإذا بصوت يقول متهكما:

-بكم الخيار يا عم ؟

رأى أدريس واقفا يتسم ابتسامة ساخرة، وإذا بصوت امرأة يرتفع مغطيا على صوت الشاعر وهى تصرخ : ولد تائه يا اولاد

الخلال.

مضى الوقت والخوان فى سمر وياسمينية فى عذاب، أراد حسين أن يلقي على الحارة نظرة ولكن آريم اعترضه أن يلحمه

احد فيشك في الأمر، وتساءل زآى ترى هل هاجموا بيت رفاعه، فقال رفاعه أنهم لا يسمعون إلا نواح الرباب وتهليل الغلمان، أنت الحارة تحيا حياتها فليس ثمة ما يشى بسر جريمة تدبر، ودارت بياسمينه دوامة الفكر حتى خافت أن فتضحها عينها، وتمنت أن ينتهى عذابها على أى وجه وبأى ثمن، وتمنت أن تملأ جوفها بالخمى حتى تذهل عما حولها، وقالت لنفسها إنها ليست أول امرأة فى حياة بيومى ولن تكون أخرهن، وأنه حول آوام الزبالة تكثر بالكلاب الضالة، ولكن فليتنه هذا العذاب بأى ثمن، وتقدم الوقت أخذ الصمت يتلع الضوضاء رويدا فسكتت أصوات الأطفال ونداءات الباعة ولم يبق

إلا نواح الرباب، ودهمتها آراهية مفاجئة لهؤلاء الرجال ، لا لشيء إلا لأنهم على نحو ما يعذبونها.

وتساءل آريم:

هل أعد الجمرة ؟

فقال رفاعه بحزم

نحن فى حاجة إلى وعينا. !

ظننت أن به نستعين على تحمل الوقت.-

أنت خائف أآثر مما ينبغى

ففى التهمة عن نفسه قائلا

-يبدو ألا داعى هناك للخول.

أجل لم يقع حادث ولم يُهاجم بيت رفاعه ، وسكتت الأنغام وذهب الشعراء وترامت أصوات الأبواب وهى تغلق، وأحاديث

العائدين إلى البيوت، وضحكات وسعلات ثم ساد الصمت، واستمر الانتظار والترقب حتى صاح أول ديك ، وقام زآى إلى

النافذة ينظر إلى الطريق ثم التفت إليهم قائلا:

صمت وخلاء ، الحارة أما آآنت يوم طرد إليها إدريس

فقال آريم

-أن لنا أن نذهب.

ورآب الجزع ياسمينه فتساءلت فى نفسها ماذا يكون من أمرها لو تأخر بيومى عن مواعده أو لو عدل عنه؟ وقام الرجال

وآل يحمل بقجة وقال حسين:

-الوداع يا حارتنا الجهنمية.

سار فى المقدمة، ودفع برقة رفاعه ياسمينه أمامه وتبعها واضعا يده على منكبها آنما يخشى أن يفقدها فى الظلام، ثم

جاء آريم فحسين ثم زآى، تسللوا من باب الشقة واحدا فى إثر آخر، ورقوا فى السلم مهتدين بالدرابزين فى الظلم

الحالكة، وبدا السطح أرق ظلمة رغم أنه لم يبد في السماء نجم واحد، ونضحت سحابة بنور القمر المتوارى خلفها فسجلت لوحتها رآض السحب وقال على:

أسوار الأسطح شبه متلاصقة وسنساعد الست إن لزم الأمر تتابعوا داخلين، ولما دخل زآى - وهو آخرهم - احس حرآة وراه فالتفت نحو باب السطح فرآى أربعة أشباح فتساءل مدعورا من هناك؟

تسمر الجميع والتفتوا وجاء صوت بيومي وهو يقول -قفوا يا أولاد الزنا.

وانتشر عن يمينه وعن يساره جابر وخالد وحنوسة، وندت عن ياسمينة أهه، وأفلتت من يد رفاعة ثم جرت نحو باب السطح فلم يعترضها احد من الفتوات، حتى قال على مخاطبا رفاعة في ذهول:

خانتك المرأة

وفي لحظة أحاطوا بهم وراح بيومي يتفحصهم عن قرب واحدا بعد آخر متسائلا أين آودية الزار؟

حتى تبينه فقبض على منكبه بيد من حديد وهو يسأله متهكما أين أنت ذاهب يا نديم العفاريت؟

فقال رفاعة في وجوم

يضايقكم وجودنا فأثرنا الرحيل

فانطلق ضحكة قصيرة ساحرة ثم التفت إلى آريم وقال

وأنت هل أجدى اخفاؤك لهم في بيتك؟

فازدرد آريم ريقه الحاف وقال وفرائصة ترتعد

- لم آن أعلم بشئ مما بينك وبينهم!

فلطمه بيده الخرى على وجهه فسقط على الأرض، ولكن سرعان ما وثب قائما ورآض في رعب نحو سطح الربع الملاصق،

وفجأة جرى وراه حسين وزآى، وانقض حندوسة على عل فرآله في بطنه فتهاوى على الأرض وهو يتن من أعماقه،

وفي ذات الوقت هم جابر وخالد باللحاق بالهاريين ولكن بيومي قال باستهانة:

لا خوف من هؤلاء فلن ينبس أحدهم بكلمة وإلا هلك، وقال رفاعة وقد انحنى راسه نحو قبضة بيومي لشدة ضغطها-:

لم يفعلوا شيئا يستحق العقاب

فهوى بيومي بكفه على وجهه وهو يقول متهكما

خبرني ألم يسمعوا الجبلاوى أما سمعته؟

ثم دفعه أمامه وهو يقول

-سر أمامى ولا تفتح فاك.

سار مستسلما للمقادير، هبط السلم المظلم محاذرا ووقع الأقدام الثقيلة يتبعه، وغشية الظلام والحيرة والشر الذى يتهدده فلم يكذب يفكر فيمن هرب ولا فيمن خان، وران عليه حزن شامل عميق فغطى حتى على مخاوفه وخيل إليه أن ذلك الظلام سيمسى صفة الدنيا الملازمة، وانتهوا إلى الحارة فقطعوا الحى الذى لم يبق فيه مريض بفضله وتقدمهم حندوسة نحو حى جبل فمروا تحت ربع النصر المغلق حتى خيل إليه أنه يسمع تردد أنفاس والديه، وساءل نفسه لحظة عنهما فخيّل إليه أنه يسمع نجيب عبدة فى الليل الصامت ولكن سرعان ما استرده الظلام والحيرة والشر الذى يتهدده، وبدا حى جبل هيال أشباح عمالقة غارقة فى الظلامن ما أشد الظلام وما اعمق النوم، أما وقع أقدام الجلادين فى الظلمة الحالكة وأطيط نعالهم فكأنه ضحكات شياطين تعبت فى الليل، ومضى حندوسة نحو الخلاء بجذاء سور البيت الكبير فرفع رفاعه عينيه إلى البيت لكنه رآه مظلمآ السماء، ولا شبح فى نهاية السور فتساءل حندوسة:

المعلم خنفس:

فأجابه الرجل

-نعم.

وانظم إلى الرجال دون آلام، وظلت عينا رفاعه مرفوعتين نحو البيت، ترى هل يدرى جده بحاله؟ إن آله منه تستطيع أن تنقذه من مخالب هؤلاء الجبارين، وترد عنه أيدهم . إنه قادر على أن يسمعهم صوته أما أسمعهم إياه فى هذا المكان، وجبل وجد نفسه فى مازق مثل مازقه ثم نجح وانتصر لكنه جاوز السور دون أن يسمع شيئا سوى وقع أقدام الجبارين وتردد أنفاسهم وأوغلوا فى الخلاء فتقلت خطواتهم فوق الرمال، وشعر رفاعه بالغرابة فى الخلاء وذآر أن المرأة خائنه وأن الأصحاب لاذوا بالفرار، أراد أن يلتفت إلى الوراء صوب البيت ولكن يد بيومى دفعته فى ظهره بغتة فسقط على وجهه ورفع بيومى نبوته وهتف:

معلم خنفس؟

فرفع الرجل نبوته قائلا

معك إلى النهاية يا معلم . وتساءل رفاعه فى يأس:

لماذا تبغون قتلى؟!

فهوى بيومى نبوته على رأسه بشدة فصرخ رفاعه صرخة عالية وهتف من أعماقه : يا جبلاوى وفى اللحظة التالية آن نبوت خنفس يصيب عنقه واستبقت النباييت.



وساد صمت لم تسمع خلاله إلا حشرجة.  
وأخذت الأيدي تحفر الأرض بقوة في الظلام.  
لأول مرة في مصر  
النص الكامل لرائعة نجيب محفوظ .. أولاد حارتنا  
بعد 35 عاما من غيابها عن الشعب المصرى  
\*\*\*

## 61

غادر القتلة المكان متجهين نحو الحارة فسرعان ما ذابوا في الظلام.  
وإذا بأربعة أشباح تنهض قائمة من موضع غير بعيد من موقع الجريمة ندت عنهم تنهدات وأصوات بكاء مكتوم حتى صاح  
أحدهم:  
يا جنباء ، أمسكتم بي وآتمتم أنفاسي فقتل دون دفاع  
فقال له اخر  
لو أطعناك لهلكنا جميعا دون أن ننقذه  
فعاد على يقول غاضبا  
يا جنباء ! ما انتم إلا جنباء  
فقال آريم بصوت باك  
لا تضعيوا الوقت في الكلامن أمامنا عمل شاق يجب أن ننجزه قبل الصباح  
ورفع حسين راسه إلى السماء يقلب فيها عينيه الدامعتين وتمتم بجزع  
الفجر قريب فلنسرع  
فهتف زآى متأوها  
يا له من وقت قصير آالحلم لكننا فقدنا فيه أعز من عرفنا في الحياة  
واتجه على نحو موقع الجريمة وهو يصير على أسنانه مغمغما  
يا جنباء- . .

فمضوا خلفه ، ثم جلسوا جميعا على رأبهم في هيئة نصف دائرة وراحوا يتحسسون الرض مفتشين

وبغته صرخ آريم الملدوغ:  
هنا!

وتشمم يده وهو يقول  
إن هذا هو دمه!

وفي ذات الوقت صاح زآى  
-وهذا الموضع الهش مدفنه.

وتجمعوا حوله واخذوا يزيلون الرمال براحتهم ولم يكن فى الأرض من هو أتعس منهم، لضياح العزيز، ولموقف العجز الذى وقفوه عند مصرعهن وعبرت آريم لحظة جنون فقال فى بلاهة:  
لعلنا نجده حيا!.

فقال على بازدرء ويده لا تكفان عن العمل  
اسمعوا اوهام الجبناء!

وامتلئت خياشيمهم برائحة التراب والدم وترامى من ناحية الجبل عواء، وهتف على باشفاق  
-تمهلوا ، فهذا جسده.

فانخلعت قلوبهم ، ورقت أيديهم وتلمسوا أطراف ثوبه بجزع، ثم ارتفعت أصواتهم بالبكاء وتعاونوا على استخلاص الجثة من الرمال وقاموا بها فى رفقن وآان صياح الديكة يترامى من الحارات والأزقة حث البعض على الإسراع ولكن لفتهم على إلى وجوب ردم الحفرة فنخلع جريم جلبابه وفرشه على الأرض فجرحوا الجثة عليه، وتعاونوا مرة أخرى على ردم الحفرة ، وخلع حسين جلبابه فغطى به الجثة ثم حملوها وساروا نحو باب النصر، وأخذ الظلام يخف فوق الجبل ويشف عن السحاب، وتساقط الندى فوق الجباه والدموعن وآان حسين يدهم على طريق مقبرته حتى بلغوها، وانهمكوا فى فتح القبر هاميتين والضياء ينتشر رويدا حتى تراءى للأعين الجثمان المسحى وايدهم المملخة بالدم، وأعينهم الحمرة من البكاء وحملوا الجثة وهبطوا بها إلى جوف القبر، وقفوا حولها خاشعين وهم يضغطون جفونهم ليزيلوا لدموع التى تحول دون رؤيتها.  
وهمس آريم والعبرات تخنقه:

-آانت حياتك حلما قصيرا، لكنها ملت قلوبنا بالحب والنقاء، وما آنا نتصور أن تغادرنا بهذه السرعة فضلا عن أن تقتل بيد أحد

من الناس، أحد من أبناء حارتنا الجاحدة التى داوايتها وأحببتها ، حارتنا التى أبت إلا أن تقتل الحب والرحمة والشفاء ممثلة فى شخصك فقضت على نفسها باللعة حتى آخر الزمن.  
وتساءل زآى منتحبا:

لماذا يذهب الطيبون؟ لماذا يبقى المجرمون؟

وتأوه حسين قائلاً

لولا حبك الباقي في قلوبنا لمقتنا الناس إلى الأبد!

عند ذاك قال على

لن يرتاح لنا بال حتى نكفر عن جيننا- . .

وعندما غادروا القبرة متجهين نحو الخلاء آن النور يصبغ الآفاق. يمثل ذوب الورد الأحمر

## 62

لم يعد أحد من الصحاب الأربعة يظهر في حارة الجبلاوى ، وظن ذووهم أنهم غادروا الحارة خفية وراء رفاة اتقاء لتحرش الفتوات، وعاش الرفاق فى أطراف الخلاء في حالة نفسية متوترة، يصارعون بكل قواهم وطاة الألم وحز الندم، آن فراق رفاة أشد من الذبح على قلوبهم، وآن تخليهم عنه معذبا قاتلا، لم يبق لهم من أمل في الحياة إلا أن يتحدوا موته بغحياء رسالته وأن يتلوا العقاب بقاتلية أما صمم على، أجل لم يكن في وسعهم العودة إلى الحارة ولكن آن في مأمولهم أن يقابلوا من يشاءون خارجها . وذات صباح استيقظ ربع النصر على صوات عبدة فهرع الجيران إليها يستطلعون الخبر فصاحت بصوت مبسوح:

قتل ابني رفاة- . .

ووجه الجيران وتطلعوا إلى عم شافعى الذى آن يجفف عينيه

فقال الرجل:

قتله الفتوات في الخلاء

وعادة عبدة تنوح هاتفة

ابني الذى لم يؤذ أحدا في دنياه

فتساءل البعض

وهل علم بذلك فتوتنا خنفس ؟

فقال شافعى غاضبا

آن خنفس ضمن القتالين

وقالت عبدة بأية

وخانته ياسمينة فدلّت بيومي عليه!  
فلاح الاستنكار في الوجوه وقال صوت  
لذلك فهي تقيم في بيته بعد أن هجرته زوجته- .  
وانتشر الخبر في حى جبل فجاء خنفس إلى بيت شافعي وصاح به  
أجننت يارجل؟ ماذا قلت عني؟  
فوقف شافعي أمامه دوم مبالاة وقال بشدة  
إنك اشتراآت في قتله وأنت فتوته وحاميه!  
فتظاهر خنفس بالغضب وصاح

-أنت مجنون يا شافعي، لا تدري عما تقول شيئاً، ولن أبقى حتى لا أضطر إلى تأديك.  
وغادر الربع وهو يرغى ويزيد، وانتقل الخبر إلى حى رفاعة الذى أقام فيه عقب مغادرته لحي جبل فذهل الناس له، وارتفعت  
الأصوات بالسخط والبكاء، ولكن الفتوات خرجوا إلى الحارة يقطعونها ذهاباً وإياباً، النبائيت في أيديهم والشر يتقد في  
نظراتهم ، ثم سرى نبأ يقول : إن الرمال غربي صخرة هند وجدت ملخطة بدم رفاعة، وذهب عم شافعي وخاصة أصحابه  
لليحث عن الجثة هنالك، ففتشوا وحفروا ولكنهم لم يعثروا على شئ ولغظ الناس بالخبر وتبلبلت الأفكار وتوقع آثيرون أن  
تحدث في الحارة أمور، وراح الناس في حى رفاعة يتساءلون ماذا فعل رفاعة حتى يقضى عليه بالقتل؟ وقال آل جبل رفاعة  
قتل وياسمينة مقيمة في بيت بيومي، وتسلسل الفتوات بالليل إلى المكان الذى قتل فيه رفاعة، وحفروا مدفنة على ضوء  
مشعل، ولكنهم لم يعثروا للجثة على أثر ، وتساءل بيومي:

هل أخذها شافعي؟

ولكن خنفس أجابه

آلا ، لم يعثر على شئ أما أخبرتني العيون

فضرب بيومي الأرض بقدمه وصاح

إنهم أصحابه ، لقد أخطأنا بترأهم يفلتون، وها هم يحاربوننا من وراء وراء

وعند عودتهم مال خنفس على أذن بيومي وهمس قائلاً

إن احتفاظ المعلم بياسمينة لما يسبب لنا المتاعب

فقال بيومي ساخطاً

-بل اعترف أنك فتوة ضعيف في حيك!

وودعه خنفس ساخطاً، واشتد التوتر بحى جبل ورفاعة، وتكرر اعتداء الفتوات على الساخطين، وساد الإرهاب في الحارة

حتى آره أهلها الخروج إليها إلا لضرورة ، وفي ليلة من الليالي - وآان بيومي في قهوة شلضم - تسلل أهل زوجته إلى بيته بقصد الاعتداء على ياسمينة، فشعرت بهم وفرت بجلبائها إلى الخلاء ، وهم يطاردونها، وظلت تعدو في الظلام آالمجنونة حتى بعد أن آف المطاردون عن مطاردتها، وظلت تعدو حتى أوشكت أنفاسها أن تنقطع فاضطرت إلى التوقف وهي تلهث بعنف وقد طرحت رأسها إلى الورا وأغمضت عينيها، ولبثت آذلك حتى استردت أنفاسها، ونظرت وراها فلم تر شيئاً ولكنها

جفلت من فكرة العودة إلى الحارة ليلا، ونظرت أمامها فرأت عن بعد نوراً ضئيلاً لعله ينبعث من آوخ فسارت نحوه أمله أن تجد عنده مأوى ياويها حتى الصباح، وطال بها المسير قبل أن تبلغه، وآان آما ظنت آوخا فاقتربت من بابه وهي تنادى أهله، وبغطة وجدت نفسها أمام أصدقاء زوجها الحميمين : على وزآى وحسين وآريم.

## 63

تسمرت ياسمينة بالأرض وهي تقلب في وجوههم بصرا زائغا تراءوا لها آجدار يعترض مطاردا في آابوس آانوا يحدقون فيها باشمزاز، وبدا الاشمزاز في عيني على في إطار حديدي من القسوة وهتفت بلا وعى:  
إني بريئة ، ورب السماوات بريئة، ذهبت معكم حتى حاجمونا فهربت آما هربتم!  
وآلت الوجوه، وتساءل على حانقا:

ومن أدراك بأننا هربنا ؟

فقال بصوت متهدج

لولا الهرب ما بقيتم على قيد الحياة، لكني بريئة، وما فعلت شيئاً إلا أني هربت!

فقال على وهو يعض على أسنانه

هربت إلى سيدك بيومي - . .

أبدآ ، دعوني أذهب ، إني بريئة

فصاح بها على

ستذهبين إلى جوف الأرض

فهمت بالهرب لكنه وثب عليها فقبض على منكيها بشدة فصرخت

أعتقني إآراما له فإنه لم يكن يجب القتل ولا القاتلين!

فقبض على عنقها بيديه حتى قال آريم جزعا

انتظر حتى نفكر فى الأمر

فصاح به

-اصمتوا يا حبيناء!

وشج على عنقها بكل ما يعتليج فى صدره من حنق وحقد وألم وندم ، حاولت التخلص من قبضته عبثا ، قبضت على ساعديه، رآته، هزت رأسها، آن آل مجهود عبثا ضائعا فخارت قواها، وجحظت عينها، ثم نفت أنفها دما، وارتج جسدها بعنف، وسكتت إلى الأبد، وترآها تسقط جثة تحت قدميه.

وفى صباح اليوم التالى وجدت جثة ياسمينة ملقاة أمام بيت بيومى، وانتشر الخبر أخبار الخماسين فجرى الناس نساء ورجالا نحو بيت الفتوة وارتفعت الضوضاء، واختلط التعليقات ودارى الجميع مشاعرهم الحقيقية، وفتح باب بيت بيومى، واندفع من الرجل آثور الهائج، وراح يضرب بنبوته آل من يصادفه فرأض الجميع فى فزع، ولاذوا بالدور والمقاهى، ووقف الرجل فى الحارة الخالية يسب ويلعن ويهدد ويتوعد ويضرب الهواء والجدران وأديم الأرض.

وفى اليوم نفسه هجر عم شافعى وزوجته الحارة، وبدا أن أى أثر لرفاعة قد اختفى.

ولكن ثمة أشياء أنت تذآر به على الدوام، آبيت عم شافعى بربع النصر ودآن النجارة ومسكن رفاعة فى الحى الذى أطاقوا عليه دار الشفاء، ومصرعه غربى صخرة هند، وفوق آل أولئك أصحابه المخلصون الذين واصلوا اتصالاتهم بحبيبه، ولقنوهم أسرار علمه بتخليس الأنفس من العفاريت ليزاولوها فى مداواة المرضى، واقتنعوا أنهم بذلك يعيدون رفاعة إلى الحياة، أما على فلم يكن ليبدأ له بال حتى يقضى على الجرمين، وقد قال له حسين معاتباً:

رفاعة فى شىء!

فقال على بقوة

إنك لست من

إنى أعرف رفاعة آآثر مما تعرفونه، قضى حياته القصيرة فى قتال عنيف مع العفاريت

فقال آريم

إنك تريد العودة إلى الفتونة وما آن أبغضها إليه

فهتف على بحماس

-آن فتوة ولا آل الفتوات ولكن خدعتكم رفته.

وتوثب آل فريق للعمل على رأيه بإيمان صادق، وتناقلت الحارة قصة رفاعة على حقيقتها التى آن يجهلها الآآثرون، وتنوقل أيضا أن جثته ظلت ملقاة فى الخلاء حتى حملها الجبلاوى بنفسه فوارها التراب فى حديقته الغناء، وآادت الحداث الخطيرة تتلاشى عند ذلك لولا أن اختفى الفتوة حندوسة اختفاء مريبا، وأذا بجثته تكتشف ذات صباح ملقاة مشوهة أمام بيت

الناظر إيهاب، وتزلزل بيت الناظر أما تزلزل بيت بيومي، ومرت بالحارة فترة رهيبة من الرعب، انصب الاعتداء الماطر على آل من له صلة أو شبهة صلة برفاعة أو باحد من رجاله، انهالت النبايت على الرعوس وهرست الأقدام البطون، وحفرت الكلمات الصدور، وأهبت الأيدي الأفقية، حتى حبس نفسه في الدور من حبس وهجر الحارة من هجر وقتل في الخلاء من استهان بالخطر، فضجت الحارة بالصوات والعويل وغشيها السواد والظلام، وفاحت منها رائحة الدم ومن عجب أن ذلك آله لم يقض على عمل العاملين فقد قتل الفتوة خالد وهو خارج من بيت بيومي قبيل الفجر واشتد غضب الإرهاب حتى بلغ الجنون، لكن حارتنا استيقظت في الهزيع الأخير من الليل على حريق هائل التهم بيت الفتوة جابر وأهلك أسرته، وصاح بيومي:

-إن مجانين رفاة منتشرون آلبق، والله ليقتلن ولو في بيوتهم.

إذاع في الحارة أن البيوت ستهاجم بالليل فرآب الفزع الناس حتى جدوا وخرجوا من الربوع في ثورة هوجاء يحملون العص والمقاعد وأغطية الحلل والسكاكين والقباقيب والطوب، وصمم بيومي على أن يضرب قبل أن يستفحل الأمر فرفع نبوته وخرج من بيته في هالة من الأعوان.

وظهر على لأول مرة ومعه رجال أشداء على رأس الثائرين، وما أن رأى بيومي قادما حتى أمر بقذف الطوب فأرسل الهائجون أسراب الطوب الجراد فانصبت على بيومي ورجاله وتفجرت الدماء، وهجم بيومي بجنون وهو يصرخ آلوحش، ولكن حجرا أصاب أعلى رأسه فتوقف رغم الغضب ورغم القوة ورغم الفتونة، ثم ترنح وسقط مقنعا بدمه، وسرعان ما فر الأعوان، وآنسحت أمواج الغاضبين بيت الفتوة حتى ترامت أصوات الكسر والتحطيم إلى مثة الناظر في بيته واستطار الشر، وانقض العقاب على من بقى من الفتوات وأعوامهم وخربت بيوتهم، واستفحل الخطر، وأوشك أن يفلت الزمام، عند ذاك أرسل الناظر في طلب على فذهب على لمقابلته، وآف رجال على عن الانتقام والتخريب انتظارا لما تسفر عنه المقابلة فهذأت الأحوال وسكنت الخواطر.

وتمخضت المقابلة عن عهد جديد في الحارة، فقد اعترف بالرفاعيين آحي جديد مثل حى جبل فيما له من حقوق وامتيازات، ونصب على ناظرا على وقفهم، ومعنى فتوة لهم، يتسلم نصيبهم في الوقف ويوزعه عليهم على أساس المساواة الشاملة، وعاد إلى الحى الجديد جميع المهاجرين الذين فروا من الحارة في فترات الإرهاب، وعلى رأسهم عم شافعى وزوجته وزاى وحسين وآريم، وحظى رفاة في موته بما لم يكن ليحلم به في حياته من التكريم والإجلال والحب حتى سار قصة باهرة يرددها آل لسان، وتتغنى بها الرباب وبخاصة رفع الجبلالوى بختته ودفنها في حديقته الغناء وقد أجمع الرفاعيون على ذلك أما أجمعوا على الولاء والتقدیس لوالديه، لكنهم اختلفوا فيما عدا ذلك فأصر آريم وحسين وزاى على أن رسالة رفاة يجب أن تقتصر على مداوة المرضى واحتقار الجاه والقوة، فساروا ومن تبعهم في الحياة مساره، وغالى منهم قوة فتجنبوا الزواج حبا في محآآته واستعادة لسيرته، أما على فتمسك بكافة حقوقه في الوقف

وتزوج ودعا إلى تجديد حى رفاة ، لم يكره الوقف لذاته ولكن ليبرهن على أن السعادة الحقة متاحة بدونه، وليقضى على الشرور التى يستثيرها الطمع ، فإذا وزع الربيع بالعدل ووجه للبناء والخير فهو الخير آل الخير.

وعلى أى حال استبشر الناس خيراً ، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة، وقالوا بثقة واطمئنان إن اليوم خير من الأمس، وإن الغد خير من اليوم.

فلماذا آانت أفة حارتنا النسيان ؟



لم يكد يتغير شئ في الحارة الأقدام مازالت عارية تطبع أثارها الغليظة على التراب والذباب مازال يلهو بين الزبالة والأعين والوجوه مازالت ذابلة مهزولة ، والثياب مرقعة والشتائم تتبادل التحيات والنفاق يصم الأذان، والبيت الكبير مازال قابعا وراء أسواره غارقا في الصمت والذآريات، وإلى اليمين بيت الناظر وإلى اليسار بيت الفتوة ثم يجيئ حى جبل، ويليه حى رفاة في وسط الحارة، أما بقية الحارة وهى الناحية المنحدرة إلى الجمالية فكانت مقام من لاصفة لهم ولا نسب، أو الجرايع أما آنوا يدعونهم وهم أتعس أهل الحارة وأضيعهم، وفي هذا العهد ولى النظارة السيد رفعتن وآن آسابقه من النظار، وآن فتوتها لهيطة وهو رجل قصير دقيق لا يوحى مظهره بالقوة لكنه ينقلب عند المعرآة لسانا من نار في سرعته وحدته وتدميره، وقد نال الفتونة بعد سلسلة من المعارك سالت لها الدماء في جميع الأحياء أما فتوة جبل فكان يدعى جلطة، ومازال حيه معتدا بنفسه مباهايا بقرابته للواقف وبأنه خير حى، وأن رجلهم جبل آن أول وآخر من ألمه الجبلاوى وفضله، ولذلك قل أن أحبهم أحد، وآن حجاج فتوة آل رفاة ، لكنه لم يجتذ مثال على في نظارته وإنما سار على درب خنفس وجلطة وغيرهما من المعتصبين آن يستأثر بالربع ويضرب المتذمرين ويحث أله على اتباع سنة رفاة في احتقار الجاه والثراء وحتى الجرايع آن لهم فتواتهم، ويدعى سوارس لكنه لم يكن طبعا بناظر وقف على هذا النحو استقرت الأوضاع، وآد حملة النباييت وشعراء الرباب أنه نظام عادل حرت به شروط الواقف العشرة وسهر على تنفيذه ورعايته الناظر والفتوات، وفي حى الجرايع عرف عم زآريا يباع البطاطة بالطيبية وامتاز بين الناس رقرابته البعيدة للمعلم سوارس فتوة الحى، آن يطوف بأحياء الحارة سائقا عربته مناديا على البطاطة وفي وسط العربية تقوم الفرن نافثة دخانا معبقا برائحة شهية تجذب غلمان رفاة وجبل، أما تجذب الغلمان بالجمالية والعطوف والدراسة وآفر الزغارى وبيت القاضى، وآنت قد مضت فترة غير قصيرة من حياة عم زآريا الزوجية دون أن يرزق بمولود ولكن أنس وحشته في تلك الفترة صغير يتيم هو قاسم - ابن شقيق زآريا - عقب وفاة والديه ، ولم يجد الرجل فى الصغير عبئا يؤوده، إذ أن الحياة وخاصة فى هذا الحى من الحارة لم تكن تعلقو آثرا عن حياة الكلاب والقطط والذئاب التى تعثر على رزقها فى النفايات وآآوام الزبالة، وأحب زآريا قاسم أما آن يحب أباه من قبل، ولما حملت زوجته عقب انظام الصغير للأسرة تفاعل به خيرا وازداد عليه عطفًا، ولم يقل عطفه عندما رزق بابنه حسن، ونشأ قاسم شبه وحيد، إذ آن اليوم يمضى وعمه بعيد عن الحارة وزوجه عمه مشغولة بدارها ووليدها، ثم اتسع عالمه بنموه فأخذ يلعب فى حوش الربع أو فى الحارة وصادق أقرانه فى حيه وحق رفاة وجبل،

وذهب إلى الخلاء فلعب حول صخرة هند وشرق في الصحراء وغرب ورقى في الجبل، وآان يتطلع مع الصغار إلى البيت الكبير مفاخرًا بجده ومقام جده، ولكنه لم يكن يجد ما يقوله إذا تلکم البعض عن جبل والبعض الآخر عن رفاعة، أما لم يكن يجد ما يفعله إذا انقلب الكلام تشائمًا وتماسكا وعراآآ، وآم نظر إلى بيت الناظر بمش وإعجاب، وآم رمق الثمار فوق الأشجار برغبة واشتهاء ويوما رأى البواب ناعسا فتسلل إلى الحديقة بخفة دون أن يرى أحدا أو يراه أحد، وراح يقطع الماشى فى بهجة وسرور، ويلتقط ثمار الجوافة من فوق الحشائش ويأأها بلذة حتى وجد نفسه أمام الفسقية، وعلقت عيناه بعمود الماء المتصاع من النافوة استخفه الفرخ فخلع جلبابه ونزل إلى الماء ومضى يخوض فيه ويضرب سطحه بيده ويدلك به جسده وقد ذهل عما حوله، وما يدرى إلا وصوت حاد يصيح بغضب: يا عثمان يا ابن الكلب، تعالى يا أعمى يا ابن

الأعمى، التفت رأسه نحو مصدر الصوت فرأى على السلامك رجلا متلفعا بعباءة حمراء يشير نحوه بأصبعه المرتجف والغضب يشتعل فى وجهه فاندفع نحو حافة الفسقية وصعد إلى أرض الحديقة مرتكزا على مرفقية، وعند ذاك لمح البواب قادمًا مهرولا فجرى نحو عريشة الياسمين الملاصقة للصور ناسيا جلبابه حيث خلعه، وراض نحو الباب فمرق إلى الحارة عدا بكل قواه وراه أطفال فتبعوه مهللين فنبحت آلاب ثم خرج عثمان البواب إلى الحارة وراح يجرى وراءه حتى أدرآه فى منتصف حيه، فقبض على ذراعه، وتوقف وهو يلهث وعلا صراخ قاسم حتى ملأ الحى وسرعان ما جاءت زوجة عمه حاملة وليدها، وخرج المعلم سوارس من القهوة دهشت زوجة عمه لمنظره وأمسكت بيده وهى تقول للبواب:

الولد، ماذا فعل وأين جلبابه؟

فصاح البواب فى تكبير

وحد الله يا عم عثمان، أرعبت

-رأه حضرة الناظر وهو يستحم فى الفسقية هذا العفريت يجب جلده دخل الملعون وأنا نائم لماذا لا تريجوننا من عفاريتكم ؟

فقال المرأة برجاء:

السماح يا عم عثمان الولد يتيم وحقك على

واستنقدته من يده قائلة

سأضربه عنك ولكن وحية شببتك إلا ما أعدت له جلبابه الوحيد

فلوح البواب بيده متسخطا وولاها ظهره راجعا وهو يقول

بسبب هذه الحشرة لعنت وسببت أولاد عفاريت وحارة بنت آلب- .

وعادت المرأة إلى الربع متورآة حسن جارة قاسم من يده وهو يشهق بأآيا

وقال عم زآريا لقاسم وهو يرمقه باعجاب:  
 لم تعد طفلا يا قاسم، فأنت تقارب العاشرة وأن لك أن تعمل  
 فالتمعت عينا قاسم السوداوان ابتهاجا وقال  
 طالما رجوتك أن تأخذني معك يا عمي  
 فضحك الرجل قائلا

-

فهرع الغلام إلى العربية محاولا دفعها لكن عم زآريا منعه، وقالت زوجة عمه  
 آن غرضك اللعب لا العمل، أما اليوم فأنت ولد عاقل وتستطيع أن تعاونني.  
 حاسب أن تتزلق البطاطة فنموت جوعا  
 وقبض زآريا على يدى العربية وهو يقول له  
 سر أمام العربية وناد : بطاطة العمدة .. بطاطة الفرن، وخذ بالك من آل ما أقول أو أعمل، وستصعد بالبطاطة إلى الزبائن-  
 بالأدوار العليا، وعلى العموم فتح عينك  
 فقال قاسم وهو ينظر إلى العربية بحسرة:  
 -أفعل أما أمرتك ولا تكن عنيدا، آن أبوك الطف الناس.  
 اندرت العربية نحو الجمالية وقاسم يصيح بصوت رفيع آالصفير : بطاطة العمدة ، بطاطة الفرن، لم يكن أمثل فرحة شئ وهو  
 ينطلق إلى الأحياء الغربية ويعمل الرجال، ولما بلغت العربية حارة الوطاويط نظر قاسم فيما حوله وقال لعمه:  
 هنا اعترض إدريس سبيل أدهم!  
 فهز زآريا رأسه بلا آآرات فعاد الغلام يقول ضاحكا  
 -آن أدهم يسوق عربته مثلك يا عمي.  
 ومضت العربية فى تجوالها اليومى، من الحسين إلى بيت القاضى، ومن بيت القاضى إلى الدراسة، وقاسم يتطلع بدهش  
 إلى أى العابرين والدآآين والجوامع حتى انتهت إلى ميدان صغير قال العم إنه سوق المقطم، فتأمله الغلام بإعجاب وقال:  
 أهذا سوق المقطم حقا ؟ إلى هنا هرب جبل، وهنا ولد رفاعة  
 فقال زآريا بلا حماس  
 هذا ولا ذاك!

فقال قاسم

نعم ، لا لنا في

لكننا جميعا أولاد الجبلاوى فلماذا لا نكون مثلهم ؟

فضحك الرجل وقال ساخرا

-على الأقل جميعنا في الفقر سواء!

ووجه الرجل عربته نحو أطراف السوق المشرفة على الخلاء، وبخاصة نحو آوخ من الصفائح على هيئة دآن لبيع المسابح

والبخور والأحجبة، جلس أمامه على فروة عجوز ذو لحية بيضاء.

أوقف زآريا العربة أمام الكوخ وصافح العجوز بحرارة، فقال الرجل:

عندى اليوم آفايتي من البطاطة

فجلس زآريا إلى جانبه وهو يقول

بجالستك خير عندى من الريح

ونظر العجوز نحو الغلام مستطلعا فصاح به زآريا

-تعال يا قاسم وقبل يد المعلم يجي.

فاقترب الغلام من العجوز وتناول يده المعروفة فلثمها في أدب، وراح يجي يداعب قصة قاسم ويتأمل وجهه الوسيم ثم

تساءل:

من الغلام يا زآريا ؟

فقال زآريا وهو يمد ساقيه في الشمس

ابن المرحوم أحي

فأجلسه إلى جانبه على الفروة وهو يسأله

هل تذار أباك يا أبني ؟

فهز قاسم رأسه قائلا

آلا يا عمى - . .

آن أبوك صديقا لى ، وآآن لطيفا

ورفع قاسم عينيه إلى البضائع يتأمل ألوانها فمد يجي يده إلى رف قريب وتناول حجابا ، ثم علقه بعنق الغلام وهو يقول

احتفظ به فيحفظت من آل سوء

وإذا بعم زآريا يقول لقاسم

المعلم يجيى آن من حارتنا ومن حى رفاة

فنظر قاسم إلى يجيى وتساءل

لماذا ترأت حارتنا ياعمى ؟

فأجاب زآريا قائلا

غضب عليه فتوة رفاة منذ عهد بعيد فأثر الهجرة

فقال قاسم بدهش

فعلت أما فعل عم شافعى والد رفاة ؟

فضحك يجيى عن فم فارغ طويلا ثم قال

-أعرف ذلك يا غلام؟ ما أعرف أولاد حارتنا بالحكايات فما بالهم لا يعتبرون!

وجاء صبى قهوة حاملا صينية شاي فوضعها أمام يجيى ثم رجع وأخرج يجيى من صدره لفافة صغيرة وجعل يفكها قائلا  
برضى:

لدى شئ ثمين ، مفعوله آيد حتى الصباح

فقال زآريها باهتمام

دعنا نجربه- . .

ما سمعتك تقول لا قط-!

آيف أرفض النعمة يا عمى

وتقاسما القطعة وراحا يلوآونها ، وقاسم يتابعهما بشغف حتى أضحك عمه، وأخذ العجوز يحسو الشاي ، ويسأل قاسم

هل تحلم بالفتونة أهل حارتنا ؟

فقال قاسم مبتسما

نعم

فقهقه زآريا وقال المعتذر

فقال يجيى متأوها

أعذره يا معلم يجيى فأنت تعلم أنه فى حارتنا أما أن يكون الرجل فتوة وإما أن يعد قفاه للصفع.

ليرحمك الله يارفاة، آيف نبت فى حارتنا الجهنمية- . .

لذلك آانت نهايته أما تعلم

فقال يحيى مقطباً

رفاعة لم يمت يوم مصرعه ولكنه مات يوم انقلب خليفته فتوة!

فسأله قاسم باهتمام

أين دفن يا عمى ؟ أهله يقولون إن جدنا دفنه في حديقته، ويقول آل جبل إن جثته ضاعت في الخلاء

فصاح يحيى غاضباً

الملاعين الأشقياء ، مازالوا يحقدون عليه حتى اليوم!

ثم مستدرأاً في تساؤل

خبرني يا قاسم هل تحب رفاعة ؟-

فنظر الغلام نحو عمه في حذر ولكنه قال ببساطة

-نعم يا عمى ، أحبه آثيراً.

أيهما أحب إليك أن تكون مثله ام أن تكون فتوة ؟

فرفع إليه عينين تمتزج فيهما الحيرة والابتسام وتحرات شفته للكلام، ولكنه لم ينبس، فقال زآريا مقهقها

-فليقتع مثلى ببيع البطاطة!

وساد الصمت بينهم على حين قامت ضجة حول حمار طرح أرضاً فمال بالكارو المربوطة به، وأخذت الرآبات يثبن منها ،

أما

السائق فقد انمال على الحمار ضربان ونهض زآريا وهو يقول:

أمامنا مشوار طويل، سلام عليكم يا معلم

فقال يحيى

احضر الغلام معك آلمآ جئت

وصافح قاسم وهو يداعب قصته قائلاً

-ما أظرفك!

66

لم يكن في الخلاء من مكان يستظل به من وقدة الشمس الغاضبة إلا صخرة هند، هنالك اقتعد قاسم الأرض ولا أنيس له إلا الغنم، بدا في جلباب أزرق نظيف - نظيف بالقدر المتاع لراع - متلح الرأس بلاسة غليظة وقاية من الشمس، ومنتعلاً

مرآوبا قدبما بالبيا تهمتكت أطرافه، وآان يخلو إلى نفسه حينأ أخ ويراقب النعاج والخرفان والمعز والجداء حينأ آخر، وعصاه مطروحة إلى جانبه، ولاح المقطم من مجلسه القريب عاليا ضخما متجهما ، آأنه المخلوق الوحيد تحت القبة الصافية الذى يتحدى غضبة الشمس فى عناء وإصرار آما ترامى الخلاء حتى الآفاق مشمولأ بصمت ثقيل وهواء ساخن، وآان إذا أضنته أفكاره وآحلامه ونوازع شبابه الفائز سرح الطرف فى الغنم ملاحظا لهوها وعبثها، وتخاصمها وتواددها، ونشاطها وآسلها وخاصة البهم والحملان منها بنظرهما آأنما تخاطبه، وآان بدوره يخاطبها فيقارن بين ما تلقى فى رعايته من عطف وما يلقى أولاد حارته تحت غطرسة الفتوات من هوان، ولم تمه نظرة الاستعلاء التى يلقىها أهل الحارة على الرعاة ، إذ آمن من بادئ الأمر بأن الراعى خير من البلطجى والبرمجى والمتسول، وفضلا عن ذلك فقد آحب الخلاء والهواء النقى وأنس إلى المقطم وصخرة هند وقبة السماء ذات الأطوار العجيبة، إلا أن الرعى آان يقوده دائما إلى المعلم يچى ! وتساءل المعلم يچى أول ما رآه راعيا:

من باع بطاظة إلى راعى غنم!

فقال قاسم دون حرج

- ولم لا يامعلم ! إنه عمل يחסدن عليه مئات من التعاء فى حينأ.

ولماذا ترآك عمك ؟

ابن عمى حسن آبر وهو آحق بمرافقة عمى فى تجواله، ورعى الغنم خير من التسول

ولم يكن يمر يوم دون أن يزور معلمه، آان يچبه ويسعد بأحاديثه، ووجد فيه رجلا محيطا باخبار حارته حاضرها وماضيها، ويعرف ما يتغنى به شعراء الرباب وآآثر ، ويعرف أيضا ما يتجاهلونه آحيانا وآان يقول ليچى " إنى أرعى آغناما من آل حى،

عندى غنم لجبل وآخرى لرفاعة وثالثة للموسرين من حينأ، ومن عجب أنما ترعى جميعا فى إحاء لا ينعم بمثله أصحابها القساة من أولاد حارتنا ! وقال له أيضا : آان همام راعيا ومن الذين يآتقرون الرعاة ! إنهم متسولون وعاطلون وتعاء وهم فى الوقت نفسه يآترمون الفتوات، وما الفتوات إلا لصوص فجرة وسفاآو دماء سآحككم الله يا أولاد حارتنا، ومرة قال له فى دعابة:

إنى فقير قانع، لم تمتد يدى بالأذى لإنسان، حتى غنمى لا تلقى منى إلا المودة أفلا ترى أننى مثل رفاعة؟

فرمقه الرجل باستنكار وقال

رفاعة ! أنت مثل رفاعة ! رفاعة قضى عمره فى تخليس إخوانه من العفاريت آى تخلص لهم السعادة

ثم ضحك العجوز واستدرك قائلا

وآنت شاب مولع بالنساء ، ترصد عند المغيب فتيات الخلاء!

فابتسم قاسم متسائلا

وهل فى ذلك من عيب يا معلمى ؟-.

أنت وشانك، ولكن لا تقل إنك مثل رفاة

فتأمل قوله مليا ثم قال

وجبل ألم يكن آرفاعة من أبناء حارتنا الطيبين؟ آن آذلك يا معلمى، وقد أحب وتزوج واستخلص حق آله فى الوقف

ووزعه-.

بالعدل

فقال ييجى بجة:

لكنه جعل من الوقف غاية!

فتفكر الشاب قليلا ثم قال بصراحة

بل حسن المعاشرة والعدل والنظام أيضا آانت آغاياته

فتساءل ييجى فى استياء

إذن فآنت تفضل جبل على رفاة؟

فامتألت العينان السوداوان بالحيرة، وتردد طويلا ثم قال

آآهما آن رجلا طيبا، وما أقل الطيبين فى حارتنا آدهم وهمام وجبل ورفاعة، أولئك هم آل حظنا من الطيبة، أما الفتوات-!

فما آآره

فقال ييجى فى أسى:

-وأدهم مات آمدا، همام قتل، ورفاعة قتل!

أولئك هم الطيبون حقا من أهل الحارة، سيرة عطرة ونهاية مؤسفة، هكذا آن يناجى نفسه وهو جالس فى ظل الصخرة الكبيرة، وانبعثت من صدره رغبة حارة فى أن يكون مثلهم، أما الفتوات فما أفبح فعالهم . ودخله حزن غامض وساوره قلق وقال لنفسه ليهدد خاطره : آم شهدت هذه الصخرة من أحداث وأناس، آغرام قدرى وهند، ومقتل همام، ولقاء جبل والجبلاوى، وحديث رفاة وجدده، ولكن أين الأحداث وأين الأناس؟ إن الذآرى الطيبة تبقى وهى آئن من قطعان المعز والضآن ! وشهدت أيضا جدنا العظيم وهو يجوب هذه الآفاق وحده، يمتلك مايشاء ويرهب الأشقياء، ترى آيف حاله فى عزلته.

وعند الأصيل نهض ثم تمطى ماثبا وناول عصاه وهو يصفر صفيرا منغما، ثم لوح بعصاه ونعق بالغنم فمضت تتجمع وتتحرك قافلتها نحو العمران، وبدأ يشعر بالجوع ولم يكن تناول فى نهاره إلا سردينة ورغيفا، ولكن عشاء طيبا ينتظره فى بيت عمه، وحث السير حتى بدا له أول ما بدا من بعيد البيت الكبير بأسواره العالية ونوافذه المغلقة ورعوس أشجاره، ترى ما شكل



الحديقة التي يتغنى بها الشعراء والتي مات أدهم حسرة عليها . ولدى اقترابه من الحارة ترامت إلى مسامعه الضوضاء ومضى بجذاء السور الكبير إلى الداخل والمغي يضيء على الجو سمرته، وشق طريقه بين جماعات من الغلمان يلعبون ويتقاذفون بالطين، وملت أذنيه نداءات الباعة وأحاديث النساء وسخريات الساخرين وشتائمهم واستغاثات المجذوبين وجرس عربة الناظر، على حين أفعم أنفه برائحة المعسل النافذة والزبالة العطنة والتقلية المثيرة، وعرج إلى الربوع بحى جبل يعيد إليها أغنامها، آذلك فعل بحى رفاعه، فلم يبق لديه إلا نعجة واحدة، تملكها ست قمر السيدة الوحيدة التي تلك مالا فى حى الجرايع وآنت تقيم فى بيت مكون من دور واحد ذى حوش متوسط تتوسطه نخلة وفى رآنه الأقصى شجرة جوافه، ودخل الحوش سائقا أمامه " نعمة " فصادف فى طريقه الجارية سكينه بشعرها المفلفل الذى وخطه المشيب فحيها فردت تحيته بابتسامة وسألته بصوت نحاسى:

-آيف حال نعمة ؟

فأعرب لها عن إعجابيه بالنعجة، وترآها لها، ومضى فى سبيله، وإذا بصاحبة البيت والنعجة تدخل الحوش عائدة من الحارة، بدت أمامه فى ملاءة لف حوت جسمها الملىء، طالعتة من برقعها عينان سوداوان يندبان بالحنان، تنحى جانبا وهو يغض بصره فقالت له برقة مهذبة:

مساء الخير- . .

مساء الخير يا ستى

وتمهلت المرأة فى سيرها وهى تتفحص نعمة، ثم نظرت نحوه وقالت

نعمة تسمن يوما بعد يوم والفضل لك!

فقال متأثرا من نظرهما الحنونة قبل آلماتها الطيبة

الفضل للمولى ولرعايتك

والتفت ست قمر نحو سكينه وقالت

احضرى له عشاء!

فرفع يديه بالشكر إلى رأسه وقال

-خير سابق ياستى.

وفاز بنظرة أخرى وهو يجيها مودعا ثم ذهب، ذهب شديد التاثر برقتها وعطفها آحالة آما أسعده الحظ بلقائها وذلك عطف لم يعرف مثله إلا فيما يسمع أحيانا عن عطف الأمهات الذى لم يجريه، ولو امتد العمر بامه لكانت اليوم فى مثل عمر هذه السيدة الأربيعينية، وآم بدا هذا العطف عجيبا فى حارة التي تتباهى بالقوة والعنف، وليس أعجب منه إلا جمالها المحتشم وما ينفحه فى روحه من بهجة غامرة ، ليست آذلك مغامرات الخلاء المحرقة، بجوعها الملتهب الأعمى وشبعها الخامد

المكتب ، وهرول نحو دار عمه ملقيا عصاه على آتفه، لا يكاد يرى ما بين يديه من شدة انفعاله، وجد أسرة عمه مجتمعمة في الشرفة المطلة على حوش الربع تنتظره، جلس مع ثلاثتهم حول الطبلية وقد أعد عليها عشاء من طعمية وآرات وبطيخ وآن حسن في السادسة عشر من عمره، طويل القامة متين البناء حتى حلم عم زآريا بأن يراه يوما فتوة الجرايع، ولما انتهى العشاء، رفعت المرأة الطبلية وغادر عم زآريا الربع، ولبث الصديقان في الشرفة حتى ترامى إليهما صوت من الحوش ينادى:

يا قاسم

فقام الشابان وقاسم يجيبه

-نحن قادمان يا صادق.

وتلقاهما صادق يبشر متألق وآن مقاربا لقاسم في سنة وطوله ولكنه أنحل منه عودا، وآن يعمل مساعدا لمبيض النحاس في أول دآان بحى الجرايع فيما يلي الجمالية، مضى الأصدقاء إلى قهوة دنجل وطالعهم لدى دخولهم الشاعر طازة متربعا على أريكته في الصدر، على حين جلس سوارس على آتب من مجلس دنجل عند المدخل، فاتجهوا نحو الفتوة وصافحوه في خضوع رغم ما يعتز به قاسم وحسن من قرابته، واتخذوا مجلسهم على أريكة واحدة وسرعان ما جاء لهم صبي القهوة المألوفة، وآن قاسم مغرما بالجوزة الشاى المنعنع، وإذا بسوارس يتفحص قاسم بنظرة ازدراء وتساءل بغلظة:

ما لك يا ولد متأنقا آآلبنت ؟

فتورد وجه قاسم حياء وقال في نبرة المعتذر

ليس في النظافة ما يعيب يا معلم!

فقطب في أستياء وقال

-لكنها في مثل سنك قلة أدب!

وساد الصمت في القهوة آن روادها وأدواتها وجدراهما تنصت لكلمات الفتوة، ولحظ صادق صاحبه بعطف لما يعلم عن رقة مشاعره أما حسن فأخفى وجهه في قدح الزنجبيل حتى لا يكتشف فيه الفتوة الغضب، وتناول طازه الرباب فأنبعثت من أوتارها النغام وتتابع التحيات لرفعت الناظر ولهيطة الفتوة وسوارس سيد الحى، ومضى الشاعر يقول:

"وخيل إلى أدهم أنه يسمع وقع أقدام ، أقدام بطيئة وثقيلة استثارت ذآاريات غامضة آرائحة ذآاية مؤثرة تستعصى عل الإدراك والتحديد، حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح ثم راه يمتلى بشى آجسم هائل حلق في دهش، وأحد بصره في أمل يكتنفه يأس، وندت عنه آهة عميقة، وغمغم متسائلا:

آبي ؟

وخيل إليه أنه يسمع الصوت القديم وهو يقول  
مساء الخير يا أدهم- . .

فاغرورقت عيناه ، وهم بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم يجدهما منذ آثر من عشرين عاما

67

قالت سكينه الجارية:

-انتظر يا قاسم ، عندي شئ لك.

فوقف قاسم حيث ربط النعجة بجذع النخلة، وقف ينتظر الجارية التي ذهبت إلى الداخل وآان قلبه يخفق وحدثه نفسه بأن  
الخير الذي وعد به صوت الجارية إنما يجي من خير أنبل في قلب صاحبة الدار، ووجد تشوقا عميقا إلى أن يرى نظرتها أو  
يسمع صوتها ليبرد بالبهجة جسده الذي احترق في الخلاء طيلة النهار، وعادت سكينه بلغافة فأعطته إياها وهي تقول:

فطيرة بالهنا والشفاء!

فتلقاها بيديه قائلا

إشكرى عنى السيدة الكريمة

فجاءه صوتها من وراء النافذة وهي تقول برقة

الشكر للمولى يا ابن الطيبين.

فرفع بالشكر يده دون بصره ومضى وردد قولها : يا ابن الطيبين، في سعادة مخدرة لم يسمع راعى الغنم قولاً آهذا من

قبل، ومن قائلة؟ السيدة المحترمة في حيه البائس، وألقى نظرة وردية على الحارة المسريلة بالمغيب، وقال لنفسه:

رغم تعاسة حارتنا فهى لا تخلو من أشياء تستطيع إذا شاءت أن تبعث السعادة فى القلوب المتعبة، وانتبه من حملة

مترعجا على صوت يصرخ : نقوى . . نقودى سرفت، رأى رجلا معمما يهرول فى جلباب أبيض فضفاض نحو داخل الحارة

قادما

من أول حيههم وتحولت الحارة نحو الرجل الصارخ، فجرى نحوه الصغار واشرأبت أعناق الباعة والجالسين بالأبواب وأطلت  
الرعوس من النوافذ، وارتفعت أوجه من تحت الأرض خلال آوات البدرومات وخرج رواد المقاهى وأحيط بالرجل من آل  
ناحية،

ورأى قاسم رجلا قريبا منه يحك ظهره بعود خشى من طوق جلبابه ، ويتابع المنظر بعينين آيلتين فسأله عن الرجل قائلا

:

من الرجل؟

فأجاب ويده لا تمسك عن الحاك

-نجد أن يعمل في بيت الناظر!

واتجه نحو الرجل سوارس فتوة الجرايع وحجاج فتوة رفاعة وجلطة فتوة جبل، وسرعان ما أمروا الناس بالابتعاد فتراجعوا

خطوات بلا تردد ، وقالت امرأة من نافذة ربيع في حي رفاعة:

عين أصابت الرجل

فقال امرأة أخرى من نافذة بول ربوع جبل

-صدقت ما من أحد إلا وحسدوه على ربحه المنتظر من تنجيد فرض الناظر، اللهم آفنا شر العين.

فقال امرأة ثالثة واقفة أمام باب بيت وهي تفتلي رأس غلام : وآآن يا عيني يضحك وهو خارج من بيت الناظر ، لم يكن

يدري أنه سيصرخ ويكي، قطعت الفلوس وقربها!

وآن الرجل يصيح بأعلى صوته:

البيت والدآن والأولاد، عشرون جنيها

،

-

الله يجرب بيت أولاد الحرام

سرق آل ما آن معي من نقود، اجرة عمل أسبوع، وأخرى آانت في جيبي، نقود

وقال جلطة فتوة جبل:

هس ، الكل يسكت ، اسكتوا يا غنم، سمعة الحارة في الميزان، وأى عيب في النهاية سيلبس الفتوات

فقال حجاج فتوة رفاعة

حارتنا؟

فهتف النجاد بصوت مبحوح

وربك لن يقع عيب ، ولكن من أدرانا أنه فقد نقوده في

على الطلاق ما سرقت إلا في حارتكم، تسلمتها من بواب حضرة الناظر، وتحسست صدرى في آخر الحارة فلم أجد لها-

أثرا

وارتفعت الأصوات فصاح حجاج:

اسكتوا يا مواشى ! واسمع يا راجل، أين عرفت أن نقودك ضاعت؟

فأشار الرجل إلى آخر حى الجرايع وقال  
أمام دآن مبيض النحاس، لكنى والحق يقال لم يقترب منى أحد هناك  
فقال سوارس  
إذن سرق قبل أن يدخل حيناً!  
فقال حجاج فتوة رفاة  
أنت فى القهوة حين مروره فلم أر أحدا فى حيناً يقترب منه فصاح جلطة بحنق- . :  
ليس فى آل جبل لص، إنهم أسياى هذه الحارة  
فأجابه حجاج غاضا  
حاسب يا معلم جلطة، عيب قولك أسياى الحارة-! .  
لا ينكر ذلك إلا مكابر  
فصاح حجاج بصوت الرعد  
لا توقف عفاريتى ! ملعود دين قلة الذوق- . .  
فصاح جلطة بنفس القوة-!  
فى حيناً  
وهنا قال النجاد بصوت بالك  
ألف لعنة، ألف لعنة على قلة الذوق التى لا توجد  
يا رجال ! نقودى فقدت فى حارتكم، ألكم أسياى العين والراس، لكن أين نقودى، يا خراب بيتك يا فنجرى  
فقال حجاج بتحد  
آل جيب ، آل رجل آل مرة آل ولد آل رآن  
فقال جلطة بازدرأء  
عليكم بالتفتيش ، فلنفتش  
فتشوا ، وستسود وجوه غير وجوهنا!  
فقال حجاج  
خرج الرجل من بيت الناظر فمر أول ما مر بحى جبل فلنبداً بالتفتيش فى حى جبل  
فشخر جلطة وقال  
لن يكون هذا وجلطة حى ، يا حجاج أذآر من تكون أنت ومن آون أنا- . .

يا جلطة ، إن ندوب الطعنات في جسدى آثر من شعره-.

أما أنا فلا مكانا للشعر في جسدى

اللهم أبعدك يا شيطان-!!

إلى يا شياطين الأرض جميعا

وعاد فنجرى يصيح

يا هو نقودى ، ألا يسيئكم أن يقال إنى سرقت في حارتكم؟

وغضبت امرأة فصاحت به

غر يا وجه البومة، ستهلك الحارة بسبيك

وإذا بصوت يتساءل

سرقت في حى الجرايع وأآثرهم لصوص وشحاذون؟

فصاح سوارس

ولماذا لا تكون النقود قد

-لصوص لا يسرقون في حارتنا!

ومن أدرانا بذلك؟

فقال سوارس بعينين محمرتين من الغضب

لا حاجة بنا إلى مزيد من قلة الأدب، سيكشف التفتيش عن اللص ، وإلا فقولوا على حارتنا السلام

ونادى آثر من صوت

ابدوا بحى الجرايع!

فصاح سوارس

-أ خروج عن الترتيب الطبيعى للتفتيش سيلقى نبوتى في وجهه ، ورفع سوارس نبوته فانحاز إليه رجاله، وفعل حجاج

مثله، وتراجع جلطة إلى حية وفعل مثلهما فلاذ النجاد بباب الربع وهو ييكى، وآان الليل على وشك الهبط وتوقع الجميع أن

تبدأ معرأة دامية، وإذا بقاسم يندفع إلى وسط الحارة ويصيح بأعلى صوته:

انتظروا ، لن يكشف الدم عن النقود المفقودة، وسيقال فى الجمالية والدراسة والعطوف أن داخل حارة الجبلاوى مسروق

ولو احتمى بناظرها وفتواتها!

فتساءل أحد رجل جبل:

ماذا يريد راعى الغنم؟

فقال قاسم بسماحة

عندى حيلة ترد بها النقود إلى صاحبها دون عراك!

فجرى النجاد نحوه هاتفا : أنا في عرض دينك، فقال قاسم يخاطب الجميع

سترده النقود إلى صاحبها دون ان يفتضح أمر السارق

وساد الصمت ، وترآزت الأعين في قاسم باهتمام شديد، فعاد فقال

-فلننتظر حتى يستحكم الظلام وهو قريب، لن تضاء شمعة واحدة في الحارة، ثم نسير جميعا من أول الحارة إلى آخرها

أيلا تنحصر الشبهة في حى دون آخر، وفي أثناء ذلك سيجد حائز النقود فرصة للتخلص منها في الظلام من غير أن يفتضح

أمره، فعثر على النقود وتنجو الحارة من شر العراك.

وشد النجاد على ذراع قاسم في ضراعة يائس وهتف : نعم الحل ، اقبلوه جبرا لخاطري، وصاح صوت : حل معقول يا

جدعان!

وصاح آخر : هذه فرصة للسارق آى ينجو وينجى الحارة.

وزغردت امرأة طويلا ونقل الناس اعينهم بين الفتوات الثلاثة وهم بين الرجاء والخوبن وأبى أى فتوة أن يكون البادئ بالإعلان

بالقبول علوا واستكبارا ، فلبث أهل الحارة يتساءلون هل يغلب العقل أو تتلاطم النباييت وتسيل الدماء، وإذا بصوت يرفعه

الجميع يصيح:

-هوه!

فانجذبت الرعوس نحو مصدره، حيث وقف لهيطة فتوة الحارة غير بعيد من بيته ، وساد الصمت وقد تعلقت بما سيقول

القلوب جميعا وقال الرجل بازدراء:

-اقبلوا الحل يا عجر، لولا غباوتكم ما آن منقذآم راعى غنم وسرت في القوم همهمة ارتياح، وتعالت زغاريد فاشتد خفقان

قلب قاسم ولحظ دار قمر وهو موقن بأن عينها السوداوين تراقبانه من وراء أحد الشباآين المطين على الحارة، فداخله

زهو سعيد، وشعر بلذة فوز آبير لا عهد له به، وبدأ الجميع وهم يترقبون الظلام فينظرون إلى السماء تارة وينظرون صوب

الخلاء تارة أخرى، وتابعوا هبوطه درجة فدرجة ومضت المعالم تتوارى والوجوه تحتفى والناس ينقلبون أشباحا أما الممران

حول البيت الكبير المفيضان إلى الخلاء فقد أعلقتهما الظلمة ودبت الحرآة بين الأشباح فمشوا نحو البيت الكبير ثم قطعوا

الحارة مهرولين حتى الجمالية، ثم تفرقوا آل إلى حيه ، عند ذاك صاح لهيطة بصوته الأمر:

-نوروا!

وآن أول ما لاح من نور في دار قمر بجى الجرايع، ثم أضيئت مصابيح عربات اليد، ثم ألوبات المقاهى، فعادة الحارة إلى

الوجود وراح قوم يتفحصون الأرض على ضوء ألوب حتى تعالى صوت قائل:

-ها هي المحفظة!

وجرى فنجرى من فوره نحو الضوء فتناول المحفظة، وعد نقوده ثم هرول لا يلوى على شئ نحو الجمالية مخلفا وراءه ضجة عالية من الضحكات والزغاريد ووجد قاسم نفسه محط أنظار، ومرز استقبال للتهاني والمزاح، ومحور تعليقات شتى تساقطت عليه آلورود ، وعندما ذهب قاسم وحسن وصادق إلى قهوة الجرايع ذلك المساء استقبله سوارس بابتسامة ترحيب وقال:

-جوزة على الحساب لقاسم.

68

مورد الوجه متألق النظرات صافى القسمات، مبتهج القلب دخل حوش قمر ليأخذ النعجة وهو يقول : يا ساتر ، وراح يفك رباط النعجة في بئر السلم، وإذا بصيرير باب الحریم يسمع وهو يفتح وصت الست تقول:

صباح الخير  
فقال بفؤاده ولسانه  
صبحك المولى بالسعادة يا ستي- . .  
صنعت أمس خيراً آبيراً لحاترتنا  
فقال وروحه ترقص طربا  
الله هو الهادي- . .  
فقال في نغم وشى بإعجابها  
علمتنا أن الحكمة أجل من الفتونة  
وعطفك أجل من الحكمة، هكذا قال لنفسه، ثم قال لها  
-ربنا يكرمك.

رأيناك ترعى أولاد الحارة أما ترعى الغنم، صحبتك السلامة.  
ذهب بنعمة، وآلما مر بربع انظم إلى قافلته ماعز أو ماعزة أو جدى أو تيس، وآآن يلقي بالترحاب، حتى الفتوات ردوا على تحياته وآأنوا يتجاهلوها واخترق الممر الملاصق لسور البيت الكبير وراء طابور طويل من الأغنام في طريقه إلى الخلاء، واستقبل شمسا لافحة ترربع فوق الجبل، وجوا يزفر أنفاسا حارة في الصباح المشرق، وتراءى عند سفح الجبل بعض الرعاة، ومر رجل مهلهل الثياب ينفخ في ناي، وانطلقت في القبة الصافية حداى مدومة، وفي آل نسمة استنشق صفاء نقيا



وخال الجبل الضخم يحوى أنوزا من الآمال الواعدة ، وسرح الطوف فى الخلاء بارتياح عجيب حتى استخفه طرب جواد فراح يغنى:

يا يجلو يا زين يا صعيدى اسمك منجوش على إيدى

وجالت عيناه بين صخرة قدرى وهند وبين البقاع التى جرت بها مصارع همام ورفاعة ، ولقاء الجبلاوى وجبل ! هنا الشمس والجبل والرمال والمجد والحب والموت وقلب يترغ فيه الحب لكنه يتساءل عن معنى هذا آله، ما مضى منه وما هو أت عن الحارة ذات الأحياء المتخاصمة والفتوات المتنازدين عن الحكايات التى تروى فى آل مقهى على شكل. وقبيل الظهرية ساق أغنامه نحو سوق المقطم ثم مضى إلى آوخ المعلم يجيى وجلس وهتف به العجوز:

ما هذا الذى يقال عما فعلت أمس بجارتنا ؟

ودارى قاسم حيه باحتساء الشاى فعاد المعلم يقول

يهلكوا جميعا

فقال دون أن يرفع عينيه

ما تقول هذا إلا بلسانك

فقال يجيى محذرا

آن الأفضل أن تتراهم يتطاحنون حتى

-تجنب المعجبين خشية أن تستفز الفتوات.

وهل يستفز الفتوات أمثالى ؟

فتنهذ العجوز قائلا

ومن آن يتصور أن يغدر غادر برفاعة؟

فقال قاسم بدهشة

وما وجه التشابه بين رفاعه العظيم وبينى أنا ؟

وعندما هم بالعودة ودعه العجوز قائلا

-احتفظ دائما بججاى.

وعند العصر آن يجلس فى الظل المحدود وراء صخرة هند، وإذا به يسمع صوت سكينه وهى تنأى " : نعمة " فوثب قائما

ودار حول الصخرة فرأى الجارية واقفة عند رأس النعجة تداعب زلمتها، حياها بابتسامه فقالت بصوتها النحاسى:

أنا ذاهبة فى مشوار فى الدراسة فمررت من هنا اختصارا للطريق

فقال قاسم

لكنه طريق شديد الحرارة

فقالت ضاحكة

لذلك سأستريح قليلا فى ظل الصخرة

وجلسا متقاربين فى الظل حيث ترك عصاه وقالت سكينه

بالأمس امنت بأن أمك دعت لك من قلبها قبل وفاتها

فتساءل مبتسما

عندما شهدت صنيعةك

وأنت ألا تدعين لى ؟

فقالت وهى تدارى نظرة ماآرة

لمثللك يدعى بنت الحلال!

فقال ضاحكا

ومنذا الذى يرضى براعى غنم ؟-.

الحظ يصنع العجائب، وأنت اليوم بمرتلة الفتوات دون حاجة إلى سفك دماء-.

أقسم أن لسانك أحلى من الشهد

فرمقته بنظرة من عينيها الذابلتين وقالت:

هل أدلك على طريق عجيب؟

فتولاه انفعال طارئ وهو يقول

نعم

فقالت بصراحة زنجية

جرب بختك واخطب سيدة حيناً!

وبدا آل شئ غير نفسه وتساءل

من تعين يا سكينه ؟-.

لا تجاهل ما أعنى ، فليس فى حيناً إلا سيدة واحدة-.

ست قمر-!

دون غيرها

فقال بصوت متهدك

آن زوجها من الأآبر، ولست إلا راعى غنم-! .  
لكن الحظ إذا ضحك، ضحك معه آل شئ حتى الفقر  
وتساءل وأأما يسأل نفسه  
ألا يغضبها طلي؟  
قامت سكينه وهى تقول  
لا يدري أحد متى ترضى النساء، ومتى تغضب، فتوآل على الله  
ثم وهى تمضى  
فتك بعافية- . .  
رفع رأسه نحو السماء ، وأغمض عينيه أأما دهمه نعاس

69

حملق عم زآريا فى وجه قاسم بذهول ومثله فعلت زوجته ومثلها فعل حسين وهم يستريحون فى الدهليز أمام شقتهم  
عقب العشاء.

وقال العم:

قل آلاما غير هذا الكلام، عرفتك مثال العقل والكرامة رغم فقرك ، رغم فقرنا فماذا انتاب عقلك ؟

وتجلى فى عينى زوجة عمه نهم الاستطلاع فقال قاسم

لدى ما شجعنى فجارتها هى التى فتحت لى الباب!

جارتها

ندة الكلمة عن زوجة عمه وصرخت عيناها بطلب المزيد، أما العم فانطلقت من فيه ضحكة مقتضبة آآدت حيرته ثم قال فى

ارتياب:

لعلك أساءت فهمها!

فقال قاسم بهدوء يغطى به على انفعاله

آلا يا عمى:

فهتفت زوجة عمه

فهتت إذا قالت الجالية فقد قالت السيدة- . .

وقال حسن مدفوعا بحبه لأبن عمه الذى لا يخفى على أحد-.  
وقاسم رجل ولا آل الرجال-."  
فهز عم زآريا رأسه وغمغم " : بطاطة العمدة .. بطاطة الفرن  
ثم قال:

لكنك لا تملك مليما  
فقال زوجته

إنه يرعى نعجتها فهى لا تجهل ذلك ) ثم وهى تضحك ( انذر يا قاسم ألا تذبح نعجة فى حياتك إآراما لنعمة!  
وقال حسن فى تفكير

فقالته أمه

عم عويس البقال هو عم ست قمر، أغنى رجل فى حيننا سيكون نسينا أما آن سوارس قرينا ، ما أجمل ذلك!  
ست قمر على قرابة مع أمينة هانم حرم الناظر، آن المرحوم زوجها قريبا للهانم  
فقال قاسم بقلق

هذا مما يزيد الأمر عسراً. .

وإذا بعم زآريا يقول بحماس طارئ أنما قدر ما يعود عليهم من رفعة النسب المرتقب

تكلم أما تكلمت يوم واقعة النجاد ، إنك شجاع حكيم، وسنذهب معا إلى السيدة لنفاتحها فى الأمر ثم نكلم عويس، إذ-.  
أنا لو بدأنا بعويس لأرسلنا إلى مستشفى المجاذيب

وجرت الأمور أما رسم زآريا لذلك ، جلس عم عويس فى حجرة الاستقبال بدار قمر ينتظر مجيئها وهو يعبث بشاربه الغزير  
مدارة لاضطراب خاطره، وجاءت قمر فى ثوب محتشم مغطاة الرأس بمنديل بين فصافحته بأدب وجلست وفى عينيها نظرة  
جمعت بين الهدوء والتصميم قال عويس:

حيرتنى يا بنتى ! بالأمس رفضت يد عم مرسى وآيل أعمالى بحجة أنه غير آفء لك واليوم ترضين براعى غنم!  
فأجابته ووجهها يتورد حياء

عمى إنه رجل فقير حقا ولكن ليس من أحد فى حيننا إلا ويشهد له ولأهله بالطيبة  
فقال عم عويس مقتضبا

شئ آخر

فقالته قمر بأدب

نعم ولكن على نحو ما نشهد لخادم بالأمانة أو النظافة والكفاءة في الزواج

-دلىنى يا عمى على رجل مهذب مثله فى حارتنا، دلىنى ولو على رجل واحد لا يباهى بعمل من أعمال البلطجة أو الخسة أو الوحشية؟

أخيه فحسب ولكن المرأة التى تسهم فى تجارته بمال غير قليل ، لذلك قال برجاء

وآد الرجل أن ينفجر غاضبا لولا تذاره بأنه لا يخاطب ابنة

-قمر ، لو شئت زوجتك من أى فتوة فى الحارة ليهطة نفسه يودك لو قبلت أن تقاسمية مع زوجاته.

لا احب هؤلاء الفتوات ! ولا هذا النوع من الرجال ، آان أبى رجلا طيبا مثلك، وآم قاسى من عنتهم حتى أورثنى آراهم-.

أما قاسم فهو رجل مهذب لا ينقصه إلا المال وعند منه الكفاية

فتنهذ عويس ثم نظر إليها طويلا ثم قال برجاء أخير:

أن مبلغك رسالة أمينة هاتم حرم حضرة الناظر ، قالت لى قل لقمر أن تعقل وأما مقدمة على غلطة ستجعل منا-.

أحدوثة الحارة

فقال قمر بجدة:

أنا لا تهمنى أوامر الهاتم، ويبدو للأسف أنها لا تعرف من هم الذين تجعلهم أفعالهم أحدوثة فى الحارة-.

يا بنت أحدى إنما تود لك الكرامة-.

يا عمى لا تصدق أنها تهتم بنا أو حتى تذارنا، ومنذ وفاة المرحوم من عشرة أعوام لم أجر لها على خاطر

فتردد الرجل مليا فى حرج ظاهر ثم قال فى تأفف ظاهر

إنها تقول أيضا إنه ليس من العقل أن تتزوج امرأة من رجل غير آفاء لها خاصة إذا آان لظرف ما يتردد على بيتها!

فانطلقت قمر واقفة بوجه مصفر من الغضب وهتفت

قطع لسانها ، لقد ولدت ونشأت وتزوجت وترملت فى هذه الحارة، الكل يعرفنى وسيرتى آالعطر على آل لسان-.

-طبعا يا بنتى ! ليس إلا أنها تشير إلا ما قد يقال

عمى دعنا من الهاتم فلا يبيى منها إلا وجع الدماغ، إنى أخبرك وأنت عمى باننى قبلت الزواج من قاسم، وسيكون ذلك-.

برضاك وحضورك

وصمت عويس متفكرا لم يكن فى الوسع منعها، ولا من الهين إغضاها للحد الذى تسحب عنده أموالها من تجارته، وراح

ينظر بين قدميه فى ارتباك وحزن، وفتح فاه ليقول شيئا ولكن لم تخرج منه غير غمغمة مبهمه، ولبثت قمر تنظر إليه فى

وهب عم زآريا ابن أخيه بضعة جنيها - اقترض آآرها - ليصلح بها شأنه قبل الزواج، وقال العم:  
 -لو أنت قادرا لغطيتك بالمال يا قاسم، آن أبوك أآا آريما، ولا أنسى فضله على يوم زواحي.  
 وابتاع قاسم جلبابا وثيابا داخلية، ولاسة مزرآشة ومرآوبا فاقع الأصفرار، وعصار خيزران، وحق نشوق، وذهب فى أعقاب  
 الفجر إلى الحمام فاستسلم للبخار، وغاص فى المغطس ثم مضى إلى الملك ، ثم استحم، ثم تبحر، ثم تمدد فى الخلوة  
 يحتسى الشاى ويحلم بالهناء.

أما قمر فتكفلت بالفرح، أعدت سطح الدار لاستقبال المدعوات ودعت عالمة معروفة واستأجرت أمهر طاه فى المنطقة  
 وأقيم فى الحوش سرادق للمدعوين والمطرب، وجاء أهل قاسم وأصحابه ورجال الحى وعلى رأسهم المعلم سوارس ،  
 ودارت أقداح البوظة وعشرون جوزة حتى غامت الكلوبات بالدخان وسطعت رائحة الحشيش المفتخر، وتجاوبت الأآآن  
 بالزغاريد والتهليل والقهقهه وراح عم زآريا يقول فى فخفخة من دارت الخمر برأسه:  
 نحن أسرة آريمة أصلها عريق!

فكتم عم عويس غيظه وهو يجلس بين سوارس وزآريا وقال باقتضاب  
 حسبكم قرابتكم يا معلم سوارس!

فصاح زآريا بقسوة

-المعلم سوارس ألف مرة.

فحيا التخت سوارس من فوره حتى جاء الرجل بابتسامة ولوح بيده، وآآن الفتوة فيما مضى يضجر من تمسح زآريا بقرابته  
 البعيدة منه، ولكنه أخذ يغير من مشاعره مذ علم بزواج قاسم من قمر، بل قرر فيما بينه وبين نفسه ألا يعتق قاسم من  
 الأتاوة، وعاد زآريا يقول:

وقاسم شاب محبوب، من فى حارتنا لا يجبه

وآأما قرأ شيئا من الاستياء فى نظرة سوارس فأردف يقول

لولا حكمته يوم السرقة ما وجدت رعوس رفاعة وجبل من يدفع عنها نبوت فتوتنا سوارس

وانبسطت أسارير سوارس وصدق عويس على قول زآريا قائلا

صدقت ورب السماوات والأرض- .

وغنى المطرب : زمان الوصل قرب بالتهاني  
 وازداد قاسم اضطرابا ففطن صادق إلى حاله آشأنه دائما فقدم إليه قدحا جديدا من الشراب وما زال به حتى أفرغه في  
 جوفه حتى الثمالة، وأنت الجوزة ما تزال في يده وأفرط حسن في الشراب حتى تراقصت تاويل السرادق أمام عينيه ،  
 ولاحظ عويس ذلك فخاطب عم زآريا قائلا:  
 حسن يشرب أآثر مما يليق بسنه  
 فوقف زآريا والقدح بيده وقال لأبنه وآأما ينصحه  
 يا حسن لا تشرب هكذا  
 وترجم " هكذا " بأفراغ القدح في جوفه في ضجة من الضحك والانبساط فتلوى الغيظ في باطن عويس حتى قال لنفسه  
 لولا حماقة ابن اخي لكفلك ما شربت الليلة جميع ما تملك.  
 وعند منتصف الليل دعى قاسم للزفة فقصد المعون قهوة دنجل وعلى رأسهم سوارس سيد الزفة وحاميهها، آن الحى  
 خارج الدار مكتظا بالغللمان والمتسولين والقطط التي تجمعت تلبية لرائحة المطبخ، وجلس قاسم بين حسن وصادق  
 فحياهم دنجل قائلا لصبيه:  
 يا ليلة الهنا، جوزة دنجل يا ولد للجدعان- .  
 ثم أن آل موسر قدم جوزة على حسابه للجميع  
 وجاء المنشدون يتقدمهم حاملوا المزامير والطبول فوقف سوارس وقال بصوت أمر:  
 -لنبدا الزفة.  
 تقدم آعبورة الزفة، في جلباب على اللحم يرقص حافيا ومرآزا على قمة رأسه نبوتا، وخلفه سار المنشدون فسوارس ثم  
 موآب العريس بين صاحبيه، وأحاط بالجميع حملة المشاعل وراح المنشد يغنى بصوت مليح:  
 الأولى أه من عيني دى  
 والثانية أه من إيدى دى  
 والثالثة أه من رجلى دى  
 أصل اللى شبكتنى مع المحبوب عيني دى  
 لما سلمت عليه سلمت بإيدى دى  
 وادى اللى ودتنى للمحبوب رجلى دى  
 وتعال الآهات من الأفواه المخمورة المخدرة والموآب يشق طريقة إلى الجمالية فبيت القاضى فالحسين ثم الدراسة،  
 والليل ينطوى في غفلة من السعداء، وعادت الزفة أما ذهبت في بهجة وانشراح، فكانت أول زفة في الحارة تمر بسلام،

فلا نبوت ارتفع ولا دم سال وبلغ الطرب من زآريا منتهاه فتناول عصاه وراح يرقص لعب بالعصا وتمايل فى احتيال وهز الرأس

مرة والصدر أخرى أما هز الوسط وصور بجرآاته المرنة هيئة القتال وهيئة الوصال ، ثم دار حول نفسه مؤذنا بحسن الختام بين التهليل والتصفيق.

عند ذاك انتقل قاسم إلى الحريرى راي قمر جالسة عند ملتقى صفيين من المدعوات فاتجه نحوها يخوض أمواجا من الزغاريد وتناول يدها فقامت ثم سارا معا تتقدمهما راقصة أنما تلقى عليهما الدرس الأخير حتى احتوتهما حجرة العرس، وبإغلاق باب الحجرة انفصلا انفصالا آليا عن العالم الخارجى الذى سارع إليه الصمت عدا تهاشم خفيف أو وقع أقدام وفى لمحة عين مر قاسم بالفراش الوردى والأريكة الوثيرة والسجادة المنمنمة أشيا لم تقع له فى خيال، ثم استقر بصره على المرأة التى جلست تترع الزينة عن رأسها، بدت فخيمة مليئة بضة مليحة ذات بهاء، آنت الجدران تنظر عليه متألثة بالضياء، وآن يرى آل شئ من خلال اضطراب وجيشان وهناء زاد عن حده، اقترب منها بجلبابه الحريرى وجسده ينفث حرارة ممزوجة بسطول حتى وقف أمامها ينظر من عل وهى غاضة البصر فيما يشبه الانتظار، وتناول وجهها بين راحته ثم هم بأن يقول شيئا لكنه فيما بدا عدل ، وانحنى حتى اضطربت خصلات شعرها تحت أنفاسه ثم لثم الجبين والخدين. وسرت إلى أنفه رائحة بخور تسربت من عقب الباب، وترامى إلى سمعه صوت سكينه وهى تتلو رقية مبهمه.

## 71

أيام وليال مرت فى محبة ومودة وراحة بال، فما أعذب السعادة فى هذه الدنيا، لم يكن ليغادر الدار إلا استحياء أن يقال أنه لا يغادر - منذ تزوج - الدار ارتوى قلبه من أفانين المسرة حتى ثمل، وحظى بكل ما تمناه من الحنو والعطف والرعاية ، آن يهوى النظافة فرأى منظرا مهندما، ووجد جوا معبقا بالبخور، وامرأة لا تطالعه إلا أخذة زينتها، مشرقة الوجه بأدية الود وقالت

له يوما وهما جالسان جنبا إلى جنب فى حجرة الجلوس:

أراك آلحمل الوديع لا تطلب ولا تأمر ولا تزجر، وجميع ما فى الدار ملك يديك

فداعب خصلة من شعرها المصبوغ بالحناء وقال

بلغت حالا لا يطلب عندها شئ

فشدت على يده بقوة وقالت

-ذلك-



يؤلمنى؟

حدثنى قلبى من بادئ الأمر بأنك خير الرجال فى حيننا لكنك لأدبك تبدوا أحيانا آالغريب فى دارك، ألا تدرى أن إنك تخاطبين رجلا نقله حظه السعيد من الرمال المحرقة إلى جنة هذا البيت السعيد

فتظاهرت بالجد وإن غلبها الابتسام وقالت

عمى فى إدارة أملاآى، فهل تستثقل ذلك يا ترى؟

فضحك قائلا

لا تظن أنك ستلقى راحة فى بيتى ستحل اليوم أو غدا محل

-إنه اللهو بالقياس إلى رعى الغنم.

وتولى إدارة أملاآها الموزعة بين حى الجرابيع والجمالية، وآانت معاملة السكان الشرسين تتطلب لباقة لكن مرونته

عاجلت الأمور بخير ما يمكن ان تعالج به ، ولم يكن العمل يشغل من وقته إلا أياما آل شهر، وفيما عدا ذلك وجد فراغا لم

يألفه من قبل، ولعل أأبر نصر أحرزه فى حياته الجديدة آن آآسابه لثقة عويس عم زوجته، أولاه من بادئ الأمر احتراماً

وعناية، وتطوع لمعاونته فى بعض أعماله، حتى أنس الرجل إليه وبادله ودا بود واحترام باحترام، ولم يملك الرجل أن قال له

يوما فى صراحه:

-حقا عن بعض الظن إثم.

ألا تدرى أنى آنت أظنك من برجية حارتنا؟ وإنك لا ستستغل عاطفة ابنة أذى لتبتز أموالها فتبعثرها فى ملذاتك أو تتزوج

بها امرأة أخرى، ولكنك أثبت أنك رجل أمين حكيم وأنها احسنت الاختيار.

وفى قهوة دنجل آن صادق يضحك فى سرور ويقول له:

لقدم لنا جوزة على الحساب آما ينبغى للأعيان أمثالك

وآن حسن يقول له

لماذا لا تذهب بنا إلى الحانة؟

لكنه أجابهما جادا

لا مال لى إلا ما استحقه نظير إدارة أملاك زوجتى أو مقابل خدمات أؤديها لعم عويس

فتعجب صادق ثم قال ناصحا

المرأة المحبة لعبة فى يد الرجل!

فقال قاسم غاضبا

إلا إذا آن الرجل محبا مثلها

ثم وهو يحدده بنظرة عتاب  
أنت يا صادق أهل حارتنا لا يرون في الحب غلا وسيلة للاستغلال  
فابتسم صادق في حياء وقال المعتذر  
هكذا يفكر الضعفاء! لسنا في قوة حسن ولا حتى في مثل قوتك أنت، فلا مطمع لي بحال في الفتونة، وفي حارتنا إما-  
أن تكون ضاربا وإما أن تكون مضروبا  
فغير قاسم من حدة نبرته ألما قبل عذره وقال:  
يا لها من حارة عجيبة، صدقت يا صادق، عن حال حارتنا يبعث على الأسى  
فقال حسن باسما  
أه لو آنت أما يشعر الناس نحوها في الخارج  
فقال صادق مصدقا لقوله  
-يقولون حارة الجبلاوى حارة الفتوات المجدع.  
فلاحت الكآبة في وجه قاسم، واختلس نظرة إلى مجلس سوارس في أول القهوة ليطمئن إلى أنهم بمنجاة من سمعه  
وقال:  
أهم لا يسمعون عن تعاستنا-! !  
الناس يعبدون القوة حتى ضحاياها  
فتفكر قاسم مليا ثم قال  
العبرة بالقوة التي تصنع الخير، آقوة جبل وقوة رفاة ، لا قوة البلطجية والمجرمين  
وآن الشاعر طارة يواصل حكايته قائلا  
وهتف به أدهم:  
أحمل أخاك!  
فقال قدرى بصوت الآنين  
لا استطيع- . .  
أنك استطعت أن تقتله- .  
لا أستطيع يا أبي- .  
ولا أخ له- .  
لا استطيع

فشد قبضته عليه وقال  
لا تقل أبي ، قاتل أخيه لا أب له ، ولا أم له ،  
على القاتل أن يحمل ضحيته  
ثم تناول الشاعر الرباب وأخذ في الانشاد وعند ذاك قال صادق مخاطبا قاسم  
اليوم أنت تحيا الحياة التي آان بها يحلم أدهم  
فبان الاحتجاج في وجه قاسم وقال  
لكن يصادفني عند آل خطوة بسبب من أسباب الكدر وتنغيص الصفوة، وأدهم لم يحلم بالفراغ والرزق الموفور إلا- .  
باعتبارهما طريق السعادة الصافية  
ولاذ ثلاثتهم بالصمت مليا حتى قال حسن في براءة:  
هذه السعادة الصافية لا يمكن أن توجد أبدا  
فلاحت في عيني قاسم نظرة حاملة وقال  
-إلا إذا توفرت أسبابها للجميع!

وفكر في الأمر، في انه يحظى بالمال والفراغ، ولكن تعاسة الآخرين تفسد عليه سعادته، وها هو يؤدي الأتاوة لسوارس  
صاغرا لذلك يود أن يشغل بالعمل فراغه، أما ليهرب من نفسه أو يهرب من حارته القاسية، ولعل أدهم لو نال ما تمنى  
وهو على مثل حالة هذه لضايق بالسعادة ذرعا ولتاقت للعمل نفسه .  
وفي تلك الأيام طرأت أعراض غريبة على قمر فقالت سكينه إنها أعراض الوحم .  
ولم تكذ تصدق أن أملها في الحب حلما من الأحلام لذلك استخفها الفرح، وامتأ قلب قاسم بالغبطة حتى اذاع الخبر في  
آل رآن له فيه حبيب فعلم به بيت عمه ودآن مبيض النحاس وبقالة عم عويس وآوخ المعلم يحيى، وغالت قمر في  
العناية بنفسها حتى قالت لقاسم بلهجة ذات معنى:

ينبغي أن أتجنب أى مشقة

فقال وهو يبتسم ابتسامة المدرك لما تعنى

على سكينه أن تحمل عنك أعباء البيت ، وعلى أن أتجمل بالصبر ، فقبلته قائلة في جدل الأطفال- . :

-أود أن أقبل الأرض شكرا

وانطلق إلى الخلاء ليزور المعلم يحيى لكنه توقف عند صخرة هند، فمضى إلى ظلها وجلس وراى على مرمى البصر راعيا  
يرعى غنما فامتأ قلبه بالعطف وتمنى لو يقول له لا يسعد الإنسان بالفتونة وحدها، بل لايسعد الإنسان بالفتونة إطلاقا،  
لكن أليس الأدر أن يقول ذلك للفتوات من أمثال لهيطة وسوارس؟ ما أعطفه على أولاد حارته الذين يحملون بالسعادة عبثا

ثم سرعان ما تلقى الأيام بأحلامهم مع النفايات في أروام الزبالة، لماذا لا ينعم بالسعادة المتاحة ويغمض العين عما حوله؟  
لعل هذا التساؤل حير يوماً جبلاً أما يحير يوماً آخر رفاعاً، آن في وسعهما أن ينعم بالراحة ويخلدا إلى السكينة  
والسلام، فما سر هذا العذاب الذي يطاردنا؟ آن يتأمل وهو ينظر إلى السماء فوق الجبل سماء صافية فيما عدا قطع  
صغيرة من السحب متفرقة أوراق الورد الأبيض.  
وخفض رأسه فيما يشبه الإعياء ، فوق بصره على شئ يتحرك وضح أنها عقرب تسرح نحو جحر، ورفع عصاه بسرعة وهوى  
بها عليها فهرسها، وتفرس فيها ملياً يتقزز ، ثم قام ليواصل رحلته.

72

استقبل بيت قاسم حياة جديدة شارك في فرحتها فقراء الحى . وسميت إحسان أمه التي لم يرها ، ولمولدها ألف البيت  
ألواناً جديدة من البكار والقذارة والأرق ، ولكنه ازداد بها غبطة ورضى، لكن لماذا يبدو الأب أحياناً شارداً للب والنظرة آن  
هموماً تتناوبه؟ شد ما ساورها لذلك القلق حتى سألته مرة:  
أليست الصحة على ما يرام؟ -.

بلى! -

لكنك لست أعادتك -.

فقال وهو يغض البصر

المولى أدرى بحالى

تساءلت بعد تردد

تكره ؟

فقال بقوة

هل بدا لك منا ما

ليس أحب إلى منك ولا حتى العزيزة الصغيرة

فتنهدت قائلة

لعلها عين!

فقال باسمها

-لعلها.

فرقته وبخرته وهى تدعو له من صميم قلبها واستيقظت ذات ليلة على بكاء إحسان فلم تجده إلى جانبها ظنت لأول وهلة أنه لم يرجع بعد من سهرته فى القهوة، ولكن لما آفت الصغيرة عن البكاء تنبتهت المرأة إلى أن الحارة غارقة فى صمت عميق لا يستحكم بها عادة إلا بعد إغلاق المقاهى بفترة غير قصيرة ، فداخلها ارتياح ، فقامت إلى النافذة وأطلت منها فرأت ظلاما شاملا يلف حارة مستغرقة فى النوم، وعادت إلى الصغيرة التى عاودت البكاء فألقتهتا يديها، وراحت تتساءل عما أخره إلى هذا الوقت لأول مرة فى حياتهما المشتركة ، ونامت إحسان فغادرت الفراش إلى النافذة مرة أخرى، ولما لم تسمع نأمة، خرجت إلى الصالة فأيقظت سكينه، وجلست الجارية المسطولة، ثم هبت واقفة فى جزع، فأخبرتها سيدتها بما دفعها إلى الاثناس بها، وقررت الجارية من فورها أن تذهب إلى عم زآريا لتسأل عن سيدها، وساءلت قمر نفسها عما ييقية فى بيته عمه حتى هذا الوقت، فجاء الجواب قاطعا للأمل، ولكنها مع ذلك لم تمنعها من الذهاب، ربما جريا وراء غير المنتظر، أو فى الأقل استعانة بالعم على حيرتها، ولما ذهبت سكينه جعلت تتساءل مرة أخرى عما أخره ، أذلك السبب بما طرا على مزاجه من تغير؟ أله علاقة بزهاته فى الخلاء التى يقوم بها فى الأصائل والأماسى؟

واستيقظ عم زآريا وحسن مترعجين على نداء سكينه، وقال حسن إن قاسم لم يشاراه سهرته الليلة، وسأل عم زآريا متى غادر ابن أخيه بيته فأجابته سكينه بأن ذلك آن قبيل العصر وغادر ثلاثهم الربع، ومضى حسن إلى الربع المجاور ثم عاد ومعه صادق الذى قال فى نبرة قلقة:

الفجر يوشك أن يطلع ! أين ذهب؟

فقال حسن

-لعل النوم غلبه عند الصخرة.

وأمر عم زآريا الجارية أن تعود إلى سيدتها لتخبرها فى أنهم ذاهبون للبحث عنه فى فطانة ومضى ثلاثهم صوب الخلاء واستشعروا رطوبة ليل الخريف فحبكوا اللاسات فوق رءوسهم، وساروا على هدى هلال آخر الشهر، وقد تجلى فى رقعة مرصعة بالنجوم انحسرت عنها سماء متشحة بالسحب ، وصاح حسن بصوت شق الفضاء آالشهاب " : قاسم .. قاسم " فارتد إليه الصدى من جانب المقطم مكرراً النداء، وحثوا السير حتى بلغوا صخرة هند داروا حولها متفحصين المكان ولكنهم لم يعثروا له على أثر، وتساءل عم زآريا بصوت غليظ:

أين ذهب ؟ لا هو من أهل المجون ولا من ذوى العداوات؟

فتمتم حسن فى حيرة

ولا من سبب أخر يدعوه للهرب!

وتذآر صادق أن الخلاء لا يخلو من قطع طرق فغاص قلبه فى صدره دون أن ينبس ، وإذا بزآريا يتساءل فى قنور

أىكون عند المعلم ييجى ؟

وهتف الشابان معا فيما يشبه استغاثة يائس

المعلم يجي!

لكن زآريا تساءل فى نكد

-وماذا دعاه للبقاء عنده؟

ومضوا نحو أطراق الخلاء صامتين تتناوبهم الأفكار السود وترامى إلى مسامعهم من بعيد صياح الديكة، لكن الظلام لم يخف لتكاثف السحب، وند عن صادق صوت آلزفرة وهو يقول : أين أنت يا قاسم ! وبدأت الرحلة عقيما لكنهم واصلوا السير

حتى

وقفوا أمام آوخ يجي الغارق فى النوم، وتقدم زآريا يدق الباب بقبضته حتى جاءه صوت المعلم وهو يتساءل:

من بالباب ؟

وفتح الباب فبدأ شبحه متوآئا على عصاه فقال زآريا بأسف

عدم المؤاخذة جئنا نسأل عن قالم

فقال المعلم بهدوء

زيارة متوقعة!

فحيا قوله نفوسهم لأول وهلة، لكن سرعان ما ارتد إليهم القلق فتساءل زآريا

عندك أخبار عنه ؟

هو نائم فى الداخل

بخير ؟-.

إن شاء الله

ثم مردفا فى بساطة مقصودة

هو الآن بخير، لكن بعض جيران آانوا قادمين من العطوف فعثروا عليه عند صخرة هند وهو مغمى عليه، فحملوه إلى-.

فرششت على وجهه عطرا حتى أفاق، لكنه بدا متعبا فترآته لينام، وما لبث أن استغرق فى النوم

فقال زآريا معاتباً:

ليتك أبلغتنا الخير!

فقال بالهدوء نفسه

جاءوا به عند منتصف الليل فلم أجد من أرسله إليك

فقال صادق فى قلق

إنه مريض بلا شك ؟

فقال العجوز

سيصحو على أحسن حال- . .

فلنوقظه لنطمئن عليه

فقال حسن . . ولكن يجيى قال بحزم

-بل علينا أن نتنظر حتى يستيقظ بنفسه.

73

آن جالسا فى الفراش، مسند الظهر إلى وسادة، ساجبا الغطاء عليه حتى أعلى الصدر، تعكس عيناه نظرة متفكرة، وأنت قمر متربعة عند قدميه، حاملة على صدرها إحسان، وهذه تحرك يديها الصغيرتين دون توقف، وتصدر أصواتا رقيقة غريبة لا يدري أحد عن سرها شيئا، وتساعد من مبخرة فى وسط الحجرة بخور يتلوى ثم ينكسر ثم ينتشر، نافثا عبقا آنما ييوح بسر لطيف، ومد الرجل يده إلى خوان قرب الفراش فتناول قدح آراوية، واحتسى منه قليلا قليلا ثم أعاده وليس به إلا ثمالة، والمرأة تناغى الطفلة وتداعبها ، ولكن نظراتها القلقة المسترقة إلى زوجها دلت على أن مناغاتها ومداعباتها ليست إلا مداراة لمشاعرها، وأخيرا سألته:

آيف أنت الآن ؟

فأبج رأسه بجرآة عفوية نحو باب الحجرة المغلق، ثم أعاده إليها وقال بهدوء

ليس ما بى مرض

فتجلت فى عينها نظرة حائرة وقالت

يسرنى أن أسمع هذا ، ولكن خبرنى بالله عما بك!

فبدا المتردد قليلا ثم قال

لا أدرى ! آلا فليس هذا ما ينبغى أن يقال ، إنى أدرى آل شىء، ولكن الحق أنى أخشى أن تكون أيام الراحة قد ولت

وبكت إحسان فجأة فألقمتها ثديها فى عجلة، ثم نظرت إليه مستطلعة فى قلق وتساءلت

لماذا ؟

تنهد وأشار إلى صدره قائلا

لدى هنا سر آبير ، آأبر من أن أحمله وحدى

فازدادت المرأة قلقا وقالت بلهفة

خبرني عنه يا قاسم

اعتدل في جلسته قليلا وعكست عيناه جدا وتصميما وقال

سأبوح به لأول مرة ، أنت أول شخص يسمعه، لكن ينبغي أن تصدقني، فما أقول إلا الحق، ليلة أمس حدث شيء عجيب،-

هنالك تحت صخرة هند، وأنا وحدي في الليل والخلاء

وازداد ريقه وهي تستحبه بنظرة حارة ، ثم قال:

-آنت جالسا أتابع سير الهلال الذى سرعان ما وارته السحب، وساد الظلام حتى فكرت فى القيام وإذا بصوت قريب يقول بغتة : مساء الخير يا قاسم، فارتعدت من المفاجأة التى لم يسبقها صوت أو حرآة، ورفعت رأسى فرأيت شيخ رجل واقفا على بعد خطوة من مجلسى لم اتبين وجهه ولكنى ميزت لاسته البيضاء التى يتلفع بها، وقلت له وأنا أدارى غيظى : مساء الخير، من أنت؟ فأجابني : ولكن لم تظنيه أجاب؟

فحرآت قمر رأسها فى جزع وقالت:

تكلم فلم يعد لى صبر-! .

قال لى : أنا قنديل ! فعجبت لشأنه وقلت له : لا تؤاخذنى فأنا .. فقاطعنى قائلا : أنا قنديل خادم الجبلأوى

وهتفت المرأة

ماذا قال الرجل؟

قال أنا قنديل خادم الجبلأوى

وآن التدى قد أفلت من ثغر إحسان أثناء اضطراب الأم فتقلص وجهها إيذانا بالبكاء، ولكن المرأة أعادته إليه، ثم قالت بوجه شاحب:

-.

يحملها خدمه إلى البيت الكبير ليتسلمها بعض خدم الواقف فى الحديقة

قنديل خادم الوقف؟ لا يدرى أحد عن خدم الواقف شيء ، حضرة الناظر هو الذى يتولى بنفسه إعداد لوازم البيت الكبير، ثم -نعم ، هذا ما تعرفه حارتنا، لكنه قال لى ذلك.

-وهل صدقته ؟

-وقف من فورى، تأدبا من ناحية واستعداد للدفاع عن نفسى إن لزم الأمر من ناحية أخرى، وقلت له متسائلا من أدرانى

أنه صادق فيما يقول، فقال لى بهدوء مطمئن : اتبعنى إذا شئت حتى ترانى وأنا أدخل البيت الكبير، فاطمأن قلبى ، وقلت



لنفسى فلأصدقه حتى يتبين لى أمره، ولم أخف عنه فرحى ببقياه، وسألته عن جدنا آيف حاله، وماذا يفعل.  
فقاطعه صوت قمر قائلا فى ذهول:

-آل ذلك دار بينك وبينه؟

-نعم ، بالله انصتى ، قال لى إن جدنا بخير ، ولم يزد على ذلك شيئا، فسألته هل يدرى بما يجرى فى حراتنا؟ فأجاب بأنه يعلم آل شئ، وبأن المقيم فى البيت الكبير يستطيع أن يطلع على آل صغيرة وآبيرة مما يقع فى حارتنا، وأنه لذلك أرسله إلى.

إليك أنت!

فقطب قاسم فيما يشبه الاستياء وقال

-هكذا قال، وند عنى ما يفصح عن دهشتى ولكنه لم يبال بى وقال : لعله اختارك لحكمتك يوم السرقة ولأمانتك فى بيتك، وهو يبلغك بأن جميع أولاد الحارة أحفاده على السواء، وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة وأن الفتونة شر يجب أن يذهب وأن الحارة يجب أن تصير امتدادا للبيت الكبير، وساد الصمت وآأما فقد القدرة على النطق، ولحت عيناى المرفوعتان إلى هامته السحب وهى تنحسر عن الهلال فى رقة صافية فسألته بأدب : ولماذا يبلغنى ذلك، فأجاب : لكى تحققه بنفسك.

أنت!

بذلك هتفت قمر، فقال قاسم بصوت متهدج

-هكذا قال، وهممت بأن استوضحه ، ولكنه حيان وذهب، فتبعته حتى خيل إلى أننى رأيتة يصعد إلى أعلى السور المشرف على الخلاء على سلم خارق الطول أو شئ شبيه بذلك، فوقفت ذاهلا، ثم عدت إلى مكانى السابق وفى نيتى أن أقصد المعلم يحنى، لكنى غبت عن الوجود، ولم أعد إلى رشدى إلا فى آوخ المعلم.  
وعاد الصمت يغشى الحجرة وقمر لا تحول عن وجهه عينيها الذاهلتين وتسلى النوم إلى أجفان إحسان وهى ترضع فمال رأسها إلى أسفل من فوق ساعد أمها فأرقدت برفق على الفراش، وعادت تنظر إلى زوجها بعين قلقة ووجه شاحب، وارتفع من الحارة صوت سوارس الأجنس وهو يسب رجلا، وصراخ الرجل وتأوهاتة التى وشت بما ينهال عليه من ضرب أو صفع، ثم صوت سوارس مرة أخرى وهى يتعد منذرا متوعدا وصوت الرجل وهو يرتفع فى نبرة حنق وياس هاتا : يا جبلاوى،

وساءل قاسم نفسه المرهقة بنظرات زوجته ترى ماذا تظن به ، حدثت المرأة نفسها أنه صادق لم يكذبنى قط، فلماذا يختلق هذه الحكاية وهو أمين لم يطمع فى مالى مع ما فى ذلك من أمان فكيف فى مال الوقف على ما فى ذلك من خطر، وترى هل ولت أيام الراحة حقا، وقالت:

أنا أول ما أفضيت إليه بسرك ؟

فاحنى رأسه بالإيجاب ، فعادت تقول

-قاسم حياتنا واحدة وأنا لا تهمنى نفسى بقدر ما تهمنى أنت، وسرك هذا شئ خطير، وعواقبه لا تخفى عليك، ولكن

إعمل ذآرتك جيدا وخبرنى آآن واقعا ما رأيت أم لعله آآن حلما؟

فقال بتصميم وفى شئ من الامتعاض:

-آآن واقعا ملموسا ولم يكن حلما!

وجودك مغمى عليك ؟-.

آآن ذلك بعد اللقاء

فقالت باشفاق

ربما اختلط الأمر عليك!

فتنهت فى عذاب لم تدر به وقال:

لم يختلط شئ على آآن اللقاء واضحا آالنهار المشمس

فتردد قليلا ثم تساءلت

من يدرينا أنه حقا خادم الواقف ورسوله إليك؟ ولماذا لا يكون مسطولا من مساطيل حارتنا وما آآثرهم!

فقال فى نبرة عناد

سور البيت الكبير

فتنهت قائلة

رأيته وهو يصعد إلى

ليس فى حارتنا سلم يمكن أن يصل إلى نصف ارتفاع السور-! !

لكنى رأيته

بدت آفأر فى مصيدة ، لكنها أبت أن تستسلم وقال

-لست إلا أننا أخاف عليك، وأنت تعلم ما أعنى، أخاف عليك وعلى بيتنا وابنتنا وسعادتنا، وإن اسائل نفسى لماذا قصدك

أنت بالذات؟ ولماذا لا يحقق إرادته بنفسه وهو صاحب الوقف وسيد الجميع ؟

فتسائل بدوره:

ولماذا قصد جبل ورفاعة ؟

اتسعت عيناها، وتقلص رآن فمها آالطفل الموشك على البكاء وغضت بصرها فى جفول فقال

-أنت لا تصدقيني وأنا لا أطلبك بتصديقي.

فأجهشت في البكاء ، واسترسلت فيه آثما تهرب من أفكارها ، فمال قاسم نحوها ثم مد يده إلى يدها بجذبيها نحوه،  
وسألها في رقة:

لماذا تبكين؟

فنظرت إليه خلال دموعها، وقالت وهي تشهق شهقات متقطعة  
أني أصدقك ، نعم أصدقك ، أخشى أن تكون أيام الراحة قد ولت  
ثم في صوت خافت مشفق  
-ماذا أنت فاعل؟

74

شحن جو الحجرة بالقلق والتوتر / بدا عم زآريا مفكرا مقطبا، وراح عم عويس يعبث بشاربه، وآن حسن آان يحادث نفسه،  
أما صادق فلم يحول ناظريه عن وجه صديقه قاسم، على حين انزوت قمر في رآن حجرة الاستقبال وعى تدعو الله أن  
يهدى الجميع إلى السداد والرشاد، وآنت فناجيل القهوة قد فرغت وأخذت ذبابتان تحومان حولها فنادت قمر سكينه لتأخذ  
الصينية فجاءت الجارية وحملتها ثم ذهبت وأغلقت الباب وراها آما آان ، وقال عويس وهو ينفخ:  
-يا له من سر يهد الأعصاب هذا!

وعوى آلب في الحارة آثما أصيب بطوبة أو عصا ، وارتفع صوت بياع ينادى مترنما بالبلح وامرأة عجوز هتفت في آسى : يا  
رب خلصنا من عيشتنا، والتفت زآريا إلى عويس قائلا:  
يا معلم عويس إنك آآبرنا مقاما وجاها فصارحنا برأيك  
فنقل الرجل عينيه بين زآريا وقاسم وقال  
أقول الحق إن قاسم رجل ولا آل الرجال، ولكن حديثه آدار رأسى  
فقال صادق بعد توثب طويل للكلام

إنه رجل صادق ، آتحدى أى مخلوق أن يذآرنا بكذبه صدرت عنه، فهو عندى مصدق، وأقسم لكم على ذلك بتربة أمى!  
وقال حسن بحماس

وأنا آذلك ، وسيجدين دائما إلى جانبه

وابتسم قاسم لأول مرة في امتنان وهو يرمق جسم ابن عمه القوى بإعجاب ، لكن زآريا ألقى على ابنة نظرة انتقاد، وقال

ليس الأمر لعبا ، فكروا في حياتنا وسلامتنا .  
فأمن عويس على قوله بإحناءة من رأسه وقال :  
صدقت ، لم يسمع أحد من قبل مثل ما سمعنا اليوم  
فقال قاسم

بل سمعوا مثله وآثر عن جبل ورفاعة!

فدهش عويس وحدهه بإنكار متسائلا

أتظن أنك مثل جبل ورفاعة ؟

وغض قاسم بصره متألما وقمر تراقبه باشفاق ، ثم قالت

عمى ! من يدري آيف تقع هذه الأمور ؟

فعاد الرجل يعبث بشاربه وقال زآريا

-وأى خير فى أن يظن نفسه آجبل أو رفاعة؟ قتل رفاعة شر قتله، وآاد جبل أن يقتل لولا انضمام أهله إليه، ومن لك أنت

يا قاسم ؟ أنسيت أنهم يدعون حيننا بحى الجرايع وأن آآثره ما بين متسول وتعيس؟

قال صادق بقوة:

لا تنسوا أن الجبلاوى اختاره من دون الجميع بما فيهم الفتوات، ولا أظنه يتخلى عنه عند الشدة

فقال زآريا ممتعضا

هكذا قيل عن رفاعة فى أيامه، ولقد قتل رفاعة على بعد أذرع من بيت الجبلاوى.

وقالت قمر محذرة:

-لا ترفعوا أصواتكم.

واسترق عويس إلى قاسم النظر وهو يفكر ما اعجب ما يسمع وما يقال ، هذا الراعى الذى جعلت منه ابنة أخى سيدا أقر

له بالصدق والأمانة ولكن هل يكفى هذا ليجعل منه جبل أو رفاعة وهل يجئ الرجال الكبار بهذه البساطة؟ وماذا يحدث لو

صدقت الأحلام، وقال عويس:

يبدو أن قاسم لا يتأثر بتحذيرآنا، ترى ماذا يريد الفتى؟ هل عز عليه أن يبقى حيننا وحده الذى لا نصيب له فى الوقف؟

أتريد يا قاسم أن تكون فتوة وناظرا لحيننا؟فبان الاحتداد فى وجه قاسم وقال

لم يبلغنى ذلك، وإنما قال : إن جميع أولاد الحارة أحفاده، وأن الوقف لهم على قدم المساواة، وأن الفتونة شر!

برق الحماس فى عينى صادق وحسن وذهل عويس، أما زآريا فتساءل

أتعرف ماذا يعنى هذا ؟

فقال عويس بغضب

قل له-! .

أن تتحدى قوة الناظر ونبايت لهيطة وجلطة وحجاج وسوارس

فامتقع وجه قمر، أما قاسم فقال بمدوء آآلزن

هو ذلك!

فدنت عن عويس ضحكة انعكس صداها استياء فى وجوه قاسم وصادق وحسن، ولم يحفل زآريا بذلك ومضى يقول  
-سيقضى علينا جميعا بالهلاك، سنوطأ بالأقدام آآلنمل، ولن يصدقك أحد، إنهم لم يصدقوا من قابل الواقف ولا من سمع

صوته وحاوره فكيف يصدقون من أرسل إليه خادما من خدمه؟

وقال عويس بنبرة جديدة:

-دعونا ممنا تقول الحكايات ، لم يشهد أحد لقاء الجبلاوى وجبل، ولا الجبلاوى ورفاعة، تلك الأخبار تروى عادة ولكن لم يشهدا أحد غير أمها عادت بالخير على أصحابها فصار لى جبل آيانه المحترم، آذلك حى رفاعة، ومن حق حيناً أن يكون مثلهما، لم لا ؟ آلنا من صلب ذلك الرجل المعتكف فى بيته الكبير، ولكن علينا أن نأخذ الأمر بالحكمة والحذر، فاهتم يا قاسم بحيك، دعك من الأحفاد والمساواة وما هو خير وما هو شر، ومن اليسير أن نضم سوارس إلينا وهو قريبك، ويمكن الاتفاق معه على أن يترك لنا نصيبا من الربيع، وقطب قاسم غاضبا وقال:

يا معلم عويس أنت فى واد ونحن فى واد ، أنا لا أروم مساومة ولا نصيبا فى الربيع ولكن عقدت العزم على تحقيق إرادة-

جدنا أما أبلغتها

وتأوه زآريا قائلا:

-يا ساتر يا رب.

لم يزل قاسم مقطبا ، ذآر أشجانه وخلواته وأحاديث معلمة يجى وآيف جاءه الفرج على يد خادم لم يعرفه من قبل، وآيف تلوح الخطوب فى الأفق، وآيف أن زآريا لا يفكر إلا فى السلامة، وأن عويس لا يفكر إلا فى الربيع، وآيف أن الحياة لن تطيب إلا بمواجهة الأفق الملى بالخطوب وتنهد قائلا:

عمى آآن يجب أن أبدا بمشاورتكم ولكنى لن أطلبكم بشىء، فشد صادق على يده قائلا- . :

-إنى معك

وآور حسن قبضته قائلا

وآنا معك فى الخير والشر معك

فقال زآريا فى ضدجر

لا تغتر بكلام العيال ! عندما ترتفع النبأيت تمتلئ المحور بامثالكم وفي سبيل من تعرض نفسك للهلاك؟ ليس في حارتنا- .  
إلا حيوان أو حشرة، ولديك من الأسباب ما يضمن لك حياة رغبدة طيبة فاعقل وتمتع بحياتك  
وساءل قاسم نفسه ماذا يقول الرجل؟ أنما يستمع لبعض هواتف نفسه عندما تقول له ، أبنتك، زوجتك، بيك، نفسك،  
لكنك اخترت أما اختير جبل ورفاعة فليكن جوابك أما آن جواهما قال:

فكرت يا عمى طويلا ثم اخترت سبيلي

فضرب عويس آفا بكف وقال

لا حول ولا قوة إلا بالله

وقال عويس محذرا

-سيقتلك الأقوياء ويهزأ بك الضعفاء.

وقلبت قمر عينيها بين عمها وبني عم زوجها في حيرة، مشفقة من خذلان زوجها وفي الوقت نفسه خائفة عليه عواقب  
التمادى في رأيه ، وقالت مخاطبة عمها:

عمى ، أنت سيد الأعيان، وبوسعك أن تؤيده بنفوذك

فسألها عويس مستهجنا

فيم تطمعين يا قمر؟ لك مال وابنة وزوج فماذا يعينك وزع الوقف على الجميع أم أسأثر به الفتوات؟ إننا نعد الطامح إلى  
الفتونة مجنونا ، فما بالك بمن يطمح إلى نظارة الحارة جميعا ! فهب قاسم واقفا في تألم شديد وقال  
-أحدا في

الحارة مهما بلغت قوته يستطيع إذا تكلم الواقف أن يرفع نحوه عينا أو إصبعاً؟

أين هو جدنا؟ فليخرج إلى الحارة ولو محمولا على أعناق خدمه ثم فليحقق شروط وقفه أما يشاء ، أتحسب أن  
وقال زآريا مكملا:

وهل هو إذا وثب الفتوات لذبنا سيحرك ساآنا أو يكثرث لما يصيينا؟

فقال قاسم في وجوم شديد

-لن أطلب أحدا بتصديقى أو بتأييدى، فقام زآريا إليه ووضع يده على منكبه بعطف وقال:

- يا قاسم، أصابتك عين، أنا أعلم بهذه الشرور، طالما تحدثوا عن عقلك وسعيد حظك، حتى أصابتك العين استعذ من  
الشیطان بالله، وأعلم أنك اليوم من وجهها حيناً وبوسعك إذا شئت أن تتاجر ببعض مال زوجتك فتحظى بالثراء الوفير، فأقلع  
عما في رأسك وأرض بما وهبك الله من خير ونعمة.

فأطرق قاسم محزوناً ، ثم رفع رأسه إلى عمه، وقال بتصميم عجيب:

-لن أقلع عما في رأسي ولو ملكت الوقف آله وحدي.

75

ماذا أنت فاعل وفيما تفكر وتنتظر، وماذا تنتظر ما دام القريب لم يصدقك فمنذا الذ يصدقك، وما فائدة الحزن، وما جدوى الانفراد تحت صخرة هند؟ النجوم لا تجيب ولا الظلام ولا يجيب القمر، أنك تأمل في لقيا الخادم مرة أخرى، ولكن أى جديد

عنده ترتقب؟ وتجوس في الظلام حول البقعة التي قيل إن جدك قابل فيها جبل، وتقف طويلا وراء السور الكبير في الموضع الذي قيل إنه خاطب عنده رفاعه لكن لا شخصه رأيت ولا صوته سمعت ولا خادمه رجع، ماذا أنت فاعل؟ وسيقتلعك دواما من راحة البال ومن طيبات النعم، وجبل آن مثلك وحيدا ولكنه انتصر ورفاعة عرف سبيله ومضى فيه حتى قتل ثم انتصر ماذا أنت فاعل؟

وقالت له قمر معاتبه:

شد ما تحمل طفلتك الجميلة، تبكى فلا ترحمها ، وتلعب فلا تلاعبها فابتسم إلى الوجه الصغير مستروحا نسمة منه لسعيرة فكرة ، وغمغم ما أطفها؟-

حتى الساعة التي تجالسنا فيها تغيب عنا أننا لم نعد من أهل دنياك

فاقترب منها على الكنية التي تجمعهما ولثم خدها ثم قبل وجه الطفلة في آثر من موضع وقال

-ألا ترين أنني بحاجة إلى عطفك؟

ولك قلبي آله بما فيه من عطف وحب ومودة، ولكن ينبغي أن ترحم نفسك وناولته الطفلة فاحتضنها وراح يهددها برفق

وحنان مصغيا إلى أنغامها السماوية وبغته قال

إذا نصرني المولى فلن أحرم النساء من ريع الوقف

فقالت قمر بدهشة

لكن الوقف للذآور دون الإناث

فرنا إلى العينين السوداوين في وجه الصغيرة وقال

قال جدى على لسان خادمه إن الوقف للجميع، والنساء نصف آيان حارتنا، ومن عجب أن حارتنا لا تحترم النساء،

ولكنها-.

ستحترمن يوم تحترم معاني العدالة والرحمة

وتجلى الحب والاشفاق في عيني قمر وقالت لنفسها إنه يذآر النصر فأين منا هذا النصر؟ وم ودت أن تنصحه بما فيه الأمن والسلامة ولكن خانتها شجاعتها وساءلت نفسها عما يجئ لها الغد، ترى أيكون لها حظ شفيقة زوجة جبل أم تصاب بما أصيبت به عبدة أم رفاعة، واقشعر بدنها فنظرت بعيدا حتى لا يقرأ في عينيها ما يريه، وعندما جاءه صادق وحسن ليذهبوا جميعا إلى القهوة عرض عليهما أن يزوروا المعلم يجي ليقدمهما إليه، ولما بلغوا آوخته وجدوه يدخن الجوزة ورائحة الحشيش الغنائية تعبق الجو، وقدم إليه صاحبيه وجلسوا جميعا في دهليز الكوخ والبدر من نكوة يلوح أنه السعادة وآان يجي ينظر إلى وجوه الثلاثة بعجب وأنه يتساءل أهؤلاء حقاً هم الذين سيقلبون الحارة رأساً على عقب، ومضى يعيد على مسامع قاسم ما سبق أن رده له ، قال:

-احذر أن يعلم أحد بسرك قبل أن تستعد.

ودارت الجوزة دورة مليحة وآان ضوء القمر النافذ من الكوة يتوج رأس قاسم وينطرح على الكتف من صادق على حين توهجت جمرات الموقد في ظلمة الدهليز وتساءل قاسم:

وآيف أسعدت؟

فضحك العجوز قائلاً في دعاة

ليس من حق من اختاره الجبلاوى أن يستعين برأى عجوز مثلى

وأخلى الصمت لقرقرة الجوزة حتى قطعه العجوز قائلاً

-أما عمك فلا فائدة منه ولا ضرر، وأما الآخر فبوسعك أن تكسبه إلى جانبك لو منيته بشئ.

بماذا أمنية؟!

عده بنظارة الجرايع

فقال صادق باخلاص

لديك عمك وعم زوجتك،

لن يميز أحد بشئ من ريع الوقف ، هو ميراث الجميع على قدم المساواة أما قال الجبلاوى

فضحك يجي قائلاً

ما أعجب جدنا ، آان قوة في جبل ، ورحمة في رفاعة، واليوم له شأن آخر!

فقال قاسم

إنه صاحب الوقف، ومن حقه أن يغير ويبدل في الشروط العشرة- .

لكن مهمتك شاقة يا بنى، إنما تخص الحارة آلها لا حيا من الأحياء



هكذا أراد الواقف

وسعل يجي سعالا متواصلآ ترآه آالقتيل فتطوع حسن لخدمة الجوزة محله، ومد الرجل ساقيه وهو يتنهد بعمق ، ثم تساءل:

ترى أتعتمد إلى القوة آجبل أم تؤثر الحب أرفاعة ؟

فجاست يد قاسم خلال لآسته ، ثم قال

القوة عند الضرورة والحب فى جميع الأحوال

فهز يجي رأسه ، وجعل ييتسم ، ثم قال

-لا عيب فىك إلا اهتمامك بالوقف، وسوف يسوقك ذلك إلى متاعب لا حصر لها.

آيف يعيش الناس بغير الوقف ؟

فقال العجوز فى مباهاة

آما عاش رفاعة

فقال قاسم بجد وأدب

عاش بمعونة آبيه ومحبيه، وخلف أصدقاء لم يستطع أأدهم أن يجذو حذوه ، والحق أن حارتنا التعيسة فى حاجة إلى -.

النظافة والكرامة

-ألا يجيئ ذلك إلا بالواقف.

بلى يا معلم بالوقف والبضاء على الفتونة، هناك تتحقق الكرامة التى أهداها جبل إلى حيه والحب الذى دعا إليه رفاعة، -.

بل والسعادة التى حلم بها أدهم

فضحك يجي متسائلا:

ماذا أبقيت لمن يجي بعدك ؟

فتفكر مليا ثم قال

إذا نصرنى المولى قلن تجد الحارة حاجة إلى أأد بعدى

ودارت الجوزة آملاك فى حلم، وغنى الماء فى القنية وتشاءب الانسجام ثم تساءل

ماذا يبقى لأأدآم إذا وزع الربيع بالتساوى؟

فقال صادق

-إنما نريد الوقف لنستغله وبذلك تصير الحارة امتدادا للبيت الكبير.

-وماذا أعددتم من عمل؟

واختفى ضياء القمر وراء سحابة عابرة فساد الدهليز الظلام، ولمن لم تمض دقيقة حتى أهل الضياء، ونظر يحيى إلى  
جسم حسن المفتول وتساءل:

هل يستطيع ابن عمك أن يهزم الفتوات؟

وإذا بقاسم يقول

إن أفكر جادا في مشاورة محام شرعى!

فضحك يحيى

-أى محام يقبل أن يتحدى الناظر رفعت وفتواته؟

واختلط ذهول الكيف بوجوم الفكر، ورجع الأصدقاء الثلاثة فيما يشبه القنوط وعانى قاسم في خلواته من العذاب ، ورآبه

المهم والكدر حتى قالت له قمر ذات يوم:

ما ينبغي أن نهتم بسعادة الناس إلى حد إشقاء أنفسنا

فقال بحدة

-ينبغي أن آأون عند حسن الظن الذى وضع فى.

ماذا أنت فاعل ، لماذا لا تترشح عن حافة الهاوية، هاوية اليأس المليئة بالصمت والراود، مقبرة الأحلام المغطاة بالرماد،

ذئب الذآريات الجميلة والأنغام المطرية طارحة العد فى آفن الأمس.

لكنه دعا يوما صادق وحسن إليه وقال لهما:

أن لنا أن نبدأ!

فتهلل وجههما وقال حسن

هات ما عندك

فقال بصوت دبت فيه الحياة

انتهيت من تفكيرى إلى قرار، وهو أن ننشئ ناديا للرياضة البدنية!

وعقدت الدهشة لسانيهما فابتسم وهو يقول

ستجعله فى حوش بيتى، والرياضة هواية منتشرة فى آآثر الأحياء

وما علاقة ذلك بعملنا ؟

وتساءل صادق بدوهر

ناد لرفع الأثقال مثلا ! ما علاقة ذلك بالوقف ؟

فقال قاسم وعيناه تبرقان

لثقة والاستعداد

فاتسعت الأعين وهتف حسن

سنكون عصبة وأى عصبة- .

نعم وسيجيئ إلينا شبان من جبل وآخرون من رفاة-.

وشملتهم فرحة غناء، وبدا قاسم في مشيته وأنه يرقص

سيجيئ إلينا الشبان ، حبان في القوة واللعب، وسيقع الاختيار على من هم أهل

76

جلس قاسم لصق النافذة بحيث يشاهد الحارة في يوم العيد، وما أهبج العيد في حارتنا.

لقد رش السقاءون الأرض بالقرب وزينت أعناق الحمير وأذيالها بالورود الاصطناعية، ورقص الفراغ بالألوان الفاقعة يردتها الصغار وتنطلق بها البالونات، ورآزت في عربات اليد الأعلام الصغيرة، واختلط الصباح والهتاف والتهليل بأصوات الزمامير، وتميلت العربات الكارو بالراقصات والراقصين، وأغلقت الدآآين وآتظت المقاهي والحانات والغرز، وعند آل رآل برزغت البشاشة ، وقال قائل : آل عام وأنتم بخير، وجلس قاسم في ثوب جديد وإحسان واقفة في حجرة متأبطة راحتيه تجوس بيديها الصغيرتين في قسماته أو تنشب أظافرها في خديه.

وارتفع صوت تحت النافذة يغني.

أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دي

فذاره لتوه زفته السعيدة حتى رق قلبه، وهو بجل يحب الغناء والطرب، وآم تمنى أدهم أن يتفرغ للغناء في الحديقة الغناء،

وماذا يغني الرجل في العيد؟ أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دي ! صدق الرجل فمنذ ارتفعت عيناه في الظلام إلى

قنديل سلب قلبه وعقله وارداته وها هو حوش بيته يستحيل ناديا لتقوية الأبدان وتطهير الأرواح وهو مثلهم يرفع الأثقال

ويتعلم التحطيب وصادق امتلأت عضلات ذراعية أما امتلأت من قبل - بفضل عمله في تبيض النحاس - عضلات ساقيه، أما

حسن فيا له من مارد عملاق، والآخرون ما أهر حماستهم وآان صادق حكيمًا يوم نصحه بدعوة المتعطلين والمتسولين

نادية وسرعان ما تحمسوا لأعباه أما تحمسوا لأقواله، أجل إنهم قلة ولكنهم لطموحهم إذا وزنوا بأضعافهم رجحوا بهم

وهتفت إحسان : أد .. أد ، فقبلها آثيرا، وآان طرف جلبابه الجديد مبتلا تحتها وترامى إليه من المطبخ دق الهون وصوتا قمر

وسكينة ونواء القطة.

ومرت عربة آارو تحت الشباك وهي تنشد مصفحة

الفاتحة للعسكري قلع الطربوش وعمل ولى

وابتسم قاسم فتذآر ليلة غنى المعلم يجيى هذه الأنشودة وهو فى تمام السطولن أه لو تستقيم الأمور فلا يبقى لك إلا الغناء يا حارتنا غدا يمتلى النادى بالأعوان الأقوياء والصادقين، غدا أتحدى بهم الناظر والفتوات وجميع العقبات آى لا يبقى فى الحراة إلا جد رحيم بهم وأحفاده برره، وبمحق الفقر والقذارة والتسول والطغيان، وتحتفى الحشرات والذباب والنبايت وتسود الطمأنينة فى ظل الحدائق والغناء، واستيقظ من احلامه على صوت قمر وهى تنهر سكينه فى غضبه داهمه، انصت متعجبا ثم نادى زوجته وسرعان ما فتح الباب وجاءت قمر وهى تندفع الجارية أمامها وتقول:

انظر إلى هذه المرأة ولدت فى بيتنا أما ولدت أمها من قبل، ولا تتعفف عن التجسس علينا!

فنظر إلى سكينه بإنكار حتى هتفت بصوتها النحاسى

لست خائنة يا سيدى ولكنى ستى لا ترحم

وقالت قمر وفى عينها فزع أخفقت فى مداراته

- رأيتها تبتسم وتقولى لى : سيجى العيد القادم إن شاء الله وسيدى قاسم سيد الحارة آها أما آن جبل فى حى

حمدان، سلها عما تعنى بذلك ؟

وقطب قاسم مهتما وسالها:

ماذا تعنين يا سكينه ؟

فقال الجارية بجرأة غير غريبة عليها

-أعنى ما قلت لست خادمة الخادماات أعمل اليوم هنا وغدا هناك إلى ربيبة هذا البيت، وما آن يجوز أن يخفى عنى سر ، فتبادل الرجل نظرة سريعة مع زوجته وأشار إلى الطفلة فجاءت وتلقته منه وأمر الجارية أن تجلس فجلست عند قدميه وهى تقول:

-أيصح أن يعلم بسرك غرباء عن البيت وأظل أجهله أنا ؟

أى سر تقصدين ؟

فقال الجارية بنفس الجرأة

حديث قنديل إليك عند صخرة هند!

ندت عن قمر آفة ولكن قاسم أشار إلى الجارية أن تستمر فقالت

-آما حدث لجبل ورفاعة من قبل لست دونهما يا سيدى، أنت سيد، حتى على عهد الرعى أنت سيدا، وآنت الوسيط الذى جمع بينكما ألا تذار ؟ آن يجب أن أعلم قبل الآخرين، آيف تأمن الغرباء ولا تأمن جاريتك ! ساحمك الله ، لكن أدعو لك

بالنصر، نعم أدعو لك بالنصر على الناظر والفتوات، منذا الذى لا يدعوا لك بذلك.

فصاحت قمر وهى تهدد الطفلة بجرآة عصبية:

ما آن يجوز أن تتجسسى علينا ، وسيظل العيب لاصقا بذقنك

فقالت سكينه فى حراره صادقه

- لم أقصد التجسس وربى شهيد، ولكن نفذ إلى من الباب آلام لم يسعنى إلا متابعتة، وما آن فى وسع إنسان أن يغلق

أذنيه دونه، إن ما يقطع قلبى يا ستى هو أنك لا تطمئنين إلى لست خائنة، أنت أحر ما اخون، ولحساب من اخونك؟

سامحك الله يا ستى.

آن قاسم يتفحصها بعناية بعينه وبقليه فلما انتهت قال بهدوء:

فحدجته بنظرة مستطلعة مؤملة وتمتت

أنت مخلصه يا سكينه لا شك فى إخلاصك.

عشت يا سيدى ، أنا والله آذلك

فقال بصوت خفيض

أنا أعرف المخلصين ولن تنبت الخيانة فى بيتى أما نبتت فى بيت أحدى رفاعه يا قمر، هذه المرأة مخلصه مثلك فلا-.

تسيى إليها بالظن، هى منا أما نحن منها، ولن أنسى أنها آنت رسول السعادة إلى

فقالت قمر بصوت نم على بعض الارتياح:

لكنها استرقت السمع!

فقال قاسم باسم

لم تسترق السمع، ولكن الصوت نفذ إليها بمشيئة المولى، أما سمع رفاعه صوت حده دون تدبير منه، مبارآة أنت يا-.

سكينه

فخطفت الجارية يده وانمالت عليها لثما وتقبيلها وهى تقول:

روحى فداؤك يا سيدى، والله لتنتصرن على أعدائك حتى تسود الحارة آها- . .

لست السيادة مطلبنا يا سكينه

فبسطت يديها داعية

اللهم حقق مطالبه- . .

أمين

ثم نظر إليها باسمها وهو يقول

ستكونين رسولى إذا احتجت إلى رسول، وبذلك تشتراين فى عملنا!

فتهلل وجه المرأة بشرا ونطقت عينها بالعزة فأردق قائلا

إذا أذنت الأقدار بأن يوزع الوقف أما نريد فلن تحرم منه امرأة سيدة آنت أم خادمة

غضت الدهشة لسان المرأة بعدا يقول

-قال الواقف إن الوقف للجميع، وأنت يا سكينه حفيده الواقف مثل قمر سواء بسواء.

وآتسى وجه المرأة بالبهجة ورنت إلى سيدها بامتنان، وترامت من الحارة أنغام مزمار راقصة وصاح صائح : لهيطة .. ألف

مرة، فتحول قاسم نحو الطريق فرأى موآب الفتوات وهم يخطرون على الجياد المزينة، والناس تستقبلهم بالهتاف والإتاوات،

ثم مضوا نحو الخلاء ليتنافسوا أعادتهم فى الأعياد فى مضمار السباق والتحطيب ، وما إن اختفى موآهم حتى ظهر

عجربة فى الحارة وهو يترنج سكرًا، ابتسم قاسم لدى ظهور الشاب الذى يعد من أصدق شباب النادى وتابعه بعينيه حتى

وقف فى مرآز الوسط من حى الجرايع وصاح:

أنا جدع

فهبط عليه صوت ساحر من أول ربع فى حى رفاعه قائلا

يا زين الجرايع!

فرفع عجربة نحو النافذة عينين حمراوين وصاحبصوت مخمور

جاء دورنا يا عجر

والتفت حوله غلمان وسكارى ومساطيل فى ضجة عالية من الغناء والزغاريد والطليل والزمير وإذا بصوت يصيح

اسمعوا ، جاء دور الجرايع ألا تريدون أن تسمعوا؟

فهتف عجربة وهو يترنج

جد واحد للجميع، وقف واحد للجميع والسلام على الفتونة

ثم غاب فى الزحام، وسرعان ما وثب قاسم واقفا فتناول عباءته وغادر الحجرة مسرعا وهو يقول

-الله يلعن الغمرة وزمانها!

تجنّبوا الظهور بين الناس وأنتم سكارى.

قال قاسم ذلك جادا مقطبا وهو جالس تحت صخرة هند يقلب عينه في وجوه أصحابه المقربين من أعضاء النادي، صادق وحسن وعجرفة وشعبان وأبو فصادة وحمروش، آن جبل يلوح من ورائهم شامخا وهي يتلقى طلائع الليل الهابطة ولم يكن في الخلاء إلا راعي غنم يقف معتمدا على عصاه في أقصى الجنوب وبدأ عجرة مطرقا أسيفا وهو يقول:

ليتني مت قبل ذلك

فقال قاسم في فتور

من الأخطاء مالا يجدى معه الاعتذار، المهم عندي الآن أن اعرف مدى أثر هديانك في أعدائنا:

فقال صادق

من المؤاد أنه سمع على نطاق واسع

وقال حسن متجهما

-لمست ذلك بنفسى فى قهوة جبل حيث دعانى صديق من آل جبل إلى مجالسته، فسمعت رجلا يحكى بصوت مرتفع ما آن من أمر عجرة، أجل آن يحكى وهو يضحك هازئا ولكنى لا استبعد أن تثير حكايته رية فى بعض النفوس، أما أخشى انتقالها من فم إلى فم حتى تبلغ أحد الفتوات.

فقال عجرة متنهدا:

لا تبالغ يا حسن

فقال صادق

المبالغة خير من التهاون وإلا أخذنا من حيث لا نتوقع!

فقال عجرة

أقسمنا ألا نخاف الموت!

فقال صادق محتدا

أما أقسمنا أن نحفظ السر!

فقال قاسم

وإذا هلكتنا اليوم تبددت الآمال الكبار

واشتد الوجوم مع الظلام الزاحف حتى عاد قاسم إلى الكلام قائلا

ينبغى أن نتدبر الأمر

فقال حسن

فلندبر أمرنا على افتراض أسوأ الاحتمالات

فقال قاسم بصوت آثيب  
-هذا معناه القتال.

وتحرات الرعوس تتبادل النظرات في الظلام، ومن فوقها انبثقت النجوم تباعا، وهب هواء يطوى في تضاعيفه بقايا من حر  
النهار آلنوايا السيئة ثم قال حمروش:

سنقاتل حتى الموت

فقال قاسم ممتعضا

ويستمر الحال أما آن!

فقال صادق

ما أسرع ما يقضون علينا

فقال أبو فصاده مخاطبا قاسم

من حسن الحظ أن هناك أسباب قربي تجمع بينك وبين سوارس، أما تجمع بين حرمك وحرم الناظر، فضلا عن هذا وذاك.

آن لهيطة من أصدقاء ابيك في شبابه

فقال قاسم بفتور:

ربما أجل هذا القضاء ولكنه لن يمنع وقوعه

فسأل صادق برجاء

ألا تذار أنك فكرت يوما في الالتجاء إلى محام شرعى؟-

وقيل لنا إنه لن يجيء محام على تحدى الناظر والفتوات

فقال عجرمة محاولا التخفف من ذنبه

هناك محام في بيت القاضي معروف بالجرأة

ولكن صادق عاد يقول متراجعا

عواقب آلام عجرمة سابقة لأوامها

فقال عجرمة

أخشى ما أخشاه أن نجهر بالعداوة عن طريق القضية وتكون مخاوفنا من

فلنشاور المحامى فى الأمر، ولنتفق معه على تأجيل رفع الدعوى حتى تدفعنا الضرورة إلى ذلك، وسنجد من يوالىها منا.

ولو من خارج الحارة

ووافق قاسم والآخرين على هذا الرأى إجراء احتياطى، وقاموا من فورهم فذهبوا إلى مكتب الشنافيرى المحامى



الشرعى بيت القاضى وقابلهم الشيخ فشرح له قاسم قضيتهم وأخبره عن نبيتهم فى تأجيل رفع الدعوى إلى حين، على أن يستعد هو للأمر بدراسة الموضوع والتأهب لاتخاذ آفة الإجراءات ، وعلى خلاف ظن آآرهم قبل المحامى القضية وقبض مقدم الأتعاب، فانصرفوا من لدنه مغتبطين وتفرقوا ، فعاد الصحاب إلى الحارة ومضى قاسم إلى المعلم ييى وجالسه فى دهليز الكوخ يدخنان ويتبدلان الرأى، وبدأ المعلم أسفا على ما وقع ووصى قاسم باليقظة والحذر. وعاد قاسم بعد ذلك إلى داره ، ولما فتحت له قمر رأى فى وجهها ما أزعجه فسألها عما وراءها فقالت:

أرسل حضرة الناظر فى طلبك!

فخفق قلب قاسم وتساءل

متى ؟-.

آخر مرة منذ عشر دقائق!-

آخر مرة-.

أرسل إليك ثلاث مرات فى ظرف ساعة

واغرورقت عينها وهى تتكلم فقال

ليس هذا ما انتظره منك

فانتحيت قائلة

لا تذهب

فقال وهو يتظاهر بالهدوء

الذهاب أمن من التخلف، ولا تنسى أن هؤلاء اللصوص لا يعتدون على أحد فى بيوتهم

وبكت إحسان فى الداخل فهرعت إليها سكينه ، وقالت قمر

اجل ذهابك حتى أقابل أمينة هاتم

فقال بحزم

هذا لا يليق بنا ، سأذهب من فورى، ولا داعى للخوف فلا أحد منهم يعرف عنى شيئا

فتشبتت به قائلة

دعاك أنت لا عجرمة، أحشى أن يكون بعضهم قد وشى بك

فتخلص منها برفق وهو يقول

قلت لك منذ اللحظة الأولى إن أيام الراحة ولت، وجميعنا يعلم باننا سنواجه الشر عاجلا أو أجلا، فلا تجزعى هكذا،

وابقى-.

عاد البواب من داخل بيت الناظر وقال لقاسم في فتور وجفاء:  
-أدخل.

ومضى أمامه فتتبعه قاسم باذلا جهده للسيطرة على مشاعره، وسطعته رائحة الحديقة الزاوية دون أن يلتفت إليها حتى وجد نفسه أمام مدخل البهو، وتنحى البواب عن طريقه فدخل ثابت الجنان بدرجة لم يكتشفها في نفسه من قبل، ونظر أمامه فرأى في أقصى البهو الناظر جالسا على ديوان، وآان هناك شخصان يجلس أحدهما على مقعد إلى يمن الناظر والآخر إلى يساره، لكنه لم يتيينهما أو يعن بالالتفات إلى أحدهما، واقترب من مجلس الناظر حتى وقف على بعد أذرع منه ، فرفع يده بالتحية وقال بأدب:  
-مساء الخير يا حضرة الناظر.

ولمح دون قصد الجالس إلى يمينه فإذا به لهيطة، ولحظ الآخر لكن عينيه حملقتا فيه بلا وعى منه، وتلقى صدمة آادت أن تهيمه، لم يكن الرجل إلا الشيخ الشنافيرى المحامى الشرعى، أدرك خطورة الموقف، أن سره انكشف إن المحامى النذل خان الأمانة، وأنه وقع التحم في قلبه اليأس بالغيظ والغضب، وعرف أنه لن ينجيه المكر أو الدهاء فصمم على الصمود والتحدى، ولم يكن فى الوسع أن يتراجع خطوة فكان عليه أن يتقدم أو يثبت على الأقل، وقد ذآر موقفه هذا فيما تبع من أيام، وآان يؤرخ به مولد شخص جديد فى ذاته لم يكن يتصور وجوده وانتزعه من دوامته صوت الناظر الجاف وهو يتساءل:  
أنت قاسم ؟

فأجاب بصوت طبيعى

نعم يا سيدى

فسأله دون أن يأذن له بالجلوس

هل أدهشك وجود الأستاذ ؟

فأجاب بنفس النبرة

آلا يا سيدى

فتساءل بازدرأء

أأنت راعى الغنم ؟

انقطعت عن رعى الغنم منذ آثر من عامين  
وماذا تعمل الآن؟-

وأيلا لزوجتي في أملاآها

فندت عن الناظرة هزة رأس ساخرة، ثم أشار إلى المحامى أذنا له بالكلام فقال الشيخ مخاطبا قاسم  
-لعلك تعجب من موقفى باعتبارى محاميك، ولكن لحضرة الناظر مكانة تعلو على هذه الاعتبارات جميعا، وسيفسح تصرفى  
لك مجالاً للتوبة هو خير من التورط فى عداوة آنت ستؤدى بك إلى الهلاك، وقد أذن لى حضرة الناظر فى أن أخبرك بأننى  
تشفعت لك عنده بالعفو إذا أعلنت التوبة، فأرجو أن تقدر حسن نيتى، وهاك مقدم الأتعاب أرده إليك.

فرمقه قاسم بنظرة قاسية وتساءل:

لماذا لم تنصحنى بالحق وأنا فى مكتبك؟

فأخذ المحامى بجرأته، ولكن الناظر أسعفه بقوله

-أنت هنا لتسأل لا لتسأل:

ونفض المحامى مستأذنا بالانصراف، ثم مى وهو يحبك جبته مداراة لارتبآه، وعند ذاك تفحص الناظر قاسم بنظرة قاسية  
وقال بنبرة آالسب:

آسف سولت لك نفسك الشروع فى رفع دعوى على؟

وجد نفسه محاصرا، فإما القتال وإما القتل، ولكنه لم يدر ماذا يقول فقال الآخر

انطلق، خبرنى عما وراءك هل أنت مجنون؟

فقال قاسم فى وجوم

-أنا عاقل بحمد الله.

لا يبدو هذا مؤآدا، لماذا أقدمت على فعلتك المنكرة، لم تعد فقيرا مذ رضيتك المجنونة زوجا لها، فماذا أردت من فعلتك؟

فزجر قاسم آنما ليأمن الغضب وقال

لا أريد شيئا لنفسى

فنظر الناظر نحو لهيطة آنما يشهده على غرائب ما يسمع، ثم أعاد عينيه إلى قاسم فيما يشبه الثورة، وصاح

إذن لماذا فعلت ما فعلت؟

فأجاب قاسم

ما أردت إلا العدل

فضيق الرجل عينيه فى حقد وتساءل

أتحسب أن علاقة زوجك بالهامم قادرة على حمايتك ؟

فغض بصره وهو يقول

آلا يا سيدى

فصاح الرجل

قل إنك مجنون وأرحمنى.

أنا عاقل والحمد لله

لماذا شرعت فى رفع دعوى على ؟

أردت العدل

لمن ؟

فارتسم التفكير فى عينيه وهو يقول

للجميع

فتفرس فى وجهه مرتابا فى عقله وتساءل

وما شأنك أنت ؟

فقال قاسم وأنه ثم بشجاعته

بذلك تتحقق شروط الواقف!

فصرخ الناظر

أنت يا جربوع تتكلم عن شروط الواقف ؟

فقال قاسم بهدوء

إنه جدنا جميعا

فهب الناظر واقفا فى غض وهو بشعر منشته على وجه قاسم بأقصى قوته وصاح

-جدنا ! ليس فيكم من يعرف أباه ولكنكم تقولون بكل وقاحة حدنا، يا لصوص يا جرابيع يا سفلة، إنما تتمادى فى

وقاحتك

استنادا إلى حماية هذا البيت لك ولزوجتك، ولكن آلب البيت يفقد حمايته إذا عض يد المحسنين إليه، ووقف لهيطة

ليسكن من ثورة الناظر فقال:

عد إلى مجلسك مطمئنا فلا يصح أن تكدر صفوك ذبابة

فجلس رفعت وشفته تترعشان من الغضب وصاح

حتى الجرايع يطعمون في الوقف ويقولون بكل وقاحة جدنا  
وعاد لهيطة إلى مجلسه وهو يقول  
الظاهر أن ما تناقله الناس عن الجرايع صحيح، ومن سوء حظ حارتنا أنهما تسعى إلى الهلاك بأقدامها  
والتفت إلى قاسم وقال  
آن أبوك من أعوان الأوائل فلا ترغمني على قتلك فصاح الناظر- .  
إنه يستحق ما هو أفضع من القتل جزاء فعلته، ولولا الهائم لكان الساعة في الهالكين  
وواصل لهيطة استجواب قاسم قائلاً  
اصغ إلى يا بني وخبرني عن وراءك؟- .  
فتساءل قاسم وهو مازال يستشعر الألم عند موقع المنشة من وجهه  
من تقصد يا سيدى؟- .  
من دفعك إلى رفع الدعوى- .  
لا أحد سوى نفسى- .  
آنت راغى غنم ثم ابتسم لك الحظ فقيم تطمع آآثر من ذلك- .  
العدل ، العدل يا معلم  
فصر الناظر على أسنانه وهتف  
العدل ! يا آلاب اأراذل، هذه آلمة السر عندآم إذا اعتزتمم النهب والسرقه  
ثم ملتفتا نحو لهيطة  
قرره حتى يقر!  
فعاد لهيطة يقول بصوت تتجمع في نبراته نذر الوعيد  
خبرني عن وراءك!  
فقال قاسم بتحد خفى  
جدنا- ! .  
جدنا- .  
نعم ، اطلع على شروط وقفه وستعلم أنه هو الذى دفعنى  
وهب رفعت واقفا مرة أخرى وهو يصيح  
-ابعده عن وجهى .. ارمه خارجا .

وقام لهيطة فأخذ قاسم من ذراعه، ومضى به نحو الباب، وشد على ذراعه بقبضة من حديد تحملها الآخر متصيرا، ثم همس في أذنه:

-أعقل آراما لنفسك ، ولا تضطرنى إلى أن أشرب من دمك.

## 79

دخل قاسم داره فوجد بها زآريا وعويس وحسن وصادق وعجربة وشعبان وأبو فصاده وحمروش، تطلعوا إليه فى اشفاق وصمت، ولما جلس إلى جانب زوجته قال عويس:

ألم أنصحك؟

فقال قمر فى عتاب

مهلا يا عمى حتى يستريح

فهتف الرجل

شر المتاعب ما تجئ صاحبها من نفسه!

وجعل زآريا يتفحص وجه قاسم بعناية ثم قال

نفسى، ما آن أعناك عن هذا آله

وقال عويس

أهانوك يا ابن أذى، إنى أعرفك آما أعرف

لولا أمينة هانم ما رجعت إلينا سالما

وقلب قاسم عينيه فى وجوه صحبه وقال

خاننا المحامى اللئيم

فتصلبت وجوههم وتبادلوا النظرات فى انزعاج، فسبقهم عويس إلى الكلام قائلا

انفضوا بسلام، وليحمد آل منكم الله على نجاته

وسأله حسن

ما قولك يا ابن عمى؟

فتفكر قاسم قليلا ثم قال

لا أخفى علنكم أن الموت يتهددنا، وأنى أعفى من معاونتى من يشاء

فقال زآريا-.

-فلينته الأمر عند هذا الحد

فقال قاسم بهدوء وتصميم

لن أتخلى عن الأمر مهما تكن العواقب، ولن آآون دون جبل أو رفاعة برًا بجدى وأهل حارتنا

فقام عويس غاضبا وغادر حجرة الجلوس وهو يقول

هذا الرجل مجنون، وآآن الله فى عونك يا بنت أآى

أما صادق فوثب إلى قاسم وقبل جبينه وهو يقول

رددت إلى روى بما قلت

وقال حسن متحمسا

-الناس فى حارتنا يقتلون بسبب مليم، وبلا سبب، فلماذا نخاف الموت عندما نجد له سببا حقا ؟

وارتفع صوت سوارس من الحارة مناديا زآريا فأطل الرجل من النافذة ودعاه إلى الدخول، وما لبث أن دخل الحجرة وجلس

وهو مقطب متجههم ثم نظر إلى قاسم وقال:

لم آآن أدرى أن فى حينا فتوة سواى

فقال زآريا مشفقا

ليس الأمر آما قيل لك- .

ما قيل لى أدهى وأمر-.

فقال زآريا متأوها

عبث الشيطان بعقول أولادنا

فقال سوارس بجفاء

آسمعنى لهيطة آلاملا ثقيلآ بسبب ابن اآيىك، آنت آحسبه فى عاقلا فإذا بجنونه يفوق آل جنون، اسمعوا جيدا، إذا

تآاوت معكم جاء لهيطة ليؤدبكم بنفسه، ولكنى لن أسمح لأحد بأنه يعرض آرامتى للمهانة، فالزموا حدودآم، والويل لمن

تحدثه نفسه بالعناد.

وراح سوارس يراقب أعوان قاسم فلم يسمح لأحد منهم بالاقتراب من بيته، وفى سبيل ذلك أهان صادق ولكم أبو فصادة

وطلب إلى زآريا أن ينصح قاسم بالتزام داره حتى تنسى الزوبعة، ووجد قاسم نفسه سجينآ فى بيته لا يزوره أحد سوى

ابن عمه حسن ، ولكن ما من قوة تستطيع أن تسجن الأآبار فى الحرة، فقد تسللت إلى حى رفاعة وجبل همسات عما

يضطرب فى حى الجرايبع، عن دعوى آادت أن ترفع على الناظر، وعن مزاعم خاصة بالشروط العشرة بل عن اتصال وقع

بين قنديل خادم الجبلاوى وبين قاسم، وثارت النفوس بشتى الانفعالات وتطايرت التهم والسخریات وقال حسن يوما لقاسم :

الحارة تتهامس بالخبر وفي آل غرزة لا حديث إلا عنك  
فرفع قاسم إليه وجهها غائما بالهم والفكر أشأنه في الأيام الأخيرة وقال  
انقلبنا سجناء والأيام تمر بلا عمل

فقال قمر باشفاق  
لا يطالب مخلوق بما فوق طاقة البشر

وقال حسن  
إخواننا على أشد من يكون من الحماس  
فسأله قاسم

أحق أن آل جبل ورفاعة يرمونني بالكذب والجنون ؟  
فغض حسن بصره متألما وقال  
الجبن أفسد الرجال

فهز قاسم راسه في حيرة وتساءل  
-لماذا يكذبني آل جبل ورفاعة ومنهم من قابله الجبلاوى أو حادثه؟

لماذا يكذبونني وهم أولى الناس بتصديقي وتأيدى ؟  
إن داء حارتنا الجبن ولذلك فهم ينافقون فتواتهم

وارتفع من الطريق صوت سوارس آالخوار وهو يسب ويلعن، فأطلت الأسرة من الشباك فرأوا سوارس ممسكا بتلابيب  
شعبان وهو يصرخ فيه:

-ماذا جاء بك هنا يا ابن الزانية ؟

وعبثا حاول الشاب التخلص من قبضته وإذا بسوارس يقبض على عنقه يسراه وينهال باليمنى ضربا على وجهه ورأسه،  
وغضب قاسم غضبا شديدا فترجع عن الشباك وهرع نحو الباب غير مبال بتوسلات قمر، وفي أقل من دقيقة آن يقف أمام  
سوارس ويقول له بحزم وتصميم:

اتراه يا معلم سوارس : فلم يكف الرجل عن تكييل الضربات لفريسته وصاح بقاسم:

احترم نفسك وإلا أبكيت عليك عدوك

وقبض قاسم على يده الضاربة وشد عليها بقوة هاتفا بغضب



-لن أدعك تقتله وافعل ما تشاء.

وترك سوارس شعبان فانهار على الأرض في غيبوبة، وخطف مقطف تراب من فوق رأس المرأة عابرة وألبسه رأس قاسم، وهم حسن بالوثوب عليه لولا أن طوقه زآريا بذراعه في الوقت المناسب الذى وصل فيه.

ورفع قاسم المقطف عن رأسه فبدا وجهه المخبثق وانسال التراب على رأسه وثوبه حتى غطاه وسرعان ما تملكته نوبة سعال، وصرخت قمر وصوتت سكينه وجاء عويس مهرولا، وانطلق النساء والرجال والصغار من الأبواب نحو الموقعه فعلا اللغو

والضوضاء، وآان زآريا يشد على ذراع ابنه حسن بكل قواه وينظر في عينيه الجاحظتين بتوسل وتحذير واقترب عويس من سوارس قائلا:

امسح العيب في وجهى أنا يا معلم سوارس

وهتف أآثر من صوت : شفاعة الله يا معلم، حتى صرخ سوارس قائلا

هذا قريب وذاك شفيح، وبين هذا وذاك ضاع سوارس وانقلب مرة بعدة ما آان فتوة

فصاح زآريا

-استغفر الله يا معلم ، أنت سيدنا وتاج راسنا.

ومضى سوارس إلى القهوة فرجع رجال شعبان وراح حسن ينفض التراب عن وجه قاسم وثوبه، واستطاع المتجمعون - بعد اختفاء سوارس - أن يبدوا عن أسفهم.

## 80

وفي مساء ذلك اليوم ضح أحد الربوع بحى الجرايع بالصوت ينعى ميتا أطلقتة حنجرة متهالكة وسرعان ما رددته عشرات الحناجر فى الربع، وأطل قاسم من النافذة فسأل فطين يباع اللب فأجابه الرجل:

-تعيش أنت ، شعبان مات، وغادر الرجل داره فزعا فقصد ربع شعبان على مبعدة ربعين من دارهن هنالك وجد الحوش مظلما ومكتظا بسكان الشقق التحتانية الذين راحوا يتبادلون آلمات الرثاء والحزن والسخط على حين تجاوبت دهاليز الأدوار الفوقانية بالصوت وسمع امرأة تقول بعنف:

لم يمت ولكنه قتله سوارس- . .

إلهى يخب بيتك يا سوارس

فاعترضت ثالثة تقول

- ما قتله إلا قاسم ، يفترى الأآذيب ورجالنا تقتل.

فانقبض قلب قاسم حزنا، وشق طريقه في الظلام حتى صعدا إلى أول دور حيث توجد شقة القتيل ورأى على ضوء سراج مثبت في حائط الدهليز أمام الشقة أصحابه حسن وصادق وعجربة وأبو فساده وحمروش وآخرين، فأقبل صادق نحوه وهو يكي فعانقه دون أن ينبس، وقال حسن وقد بدأ وجهه مروعا تحت الضوء الشاحب:

لن يذهب دمه هدرا

واقترب عجرة من قاسم وهمس في أذنه

زوجته في حالة سيئة حتى أهما حملتنا مقلته

فهمس قاسم له

آن الله في عونهما- . .

وقال حسن في نبرة انتقامية

القاتل لابد أن يقتل

فقال أبو فصاده بغیظ

منذا الذى يشهد عليه في حارتنا ؟

فقال حسن

لكننا نستطيع أن نقتل الآخرين

فلكره قاسم ليسكنه وقال

من الحكمة ألا تسيروا في جناته ولكننا سنجتمع في القرافة.

واتجه قاسم نحو شقة الفقيد فاعترضه صادق ليمنعه ولكنه نجاه جانبا ودخل ونادى زوجته فجاءت متعجبة تطالعه بعينين

دامعتين ثم تحجرت نظراتها وسألته:

ماذا تريد ؟

فقال بحزن

جئت أعزيك

فقال بحدة

أنت قتلتته، ما آن أغنانا عن الوقف وأحوجنا غليه هو فقال برقة- . :

ربنا يصبرك ، ويهلك المجرمين، ونحن أهلك ألما احتجت إلى أهلك ولن يضيع دمه- .

فرمقته شزرا واستدارت راجعة وبرجوعها انفجر النواح والعيويل فغادر المسكن آثيبا مغتما

وعندما طلع الصبح رأى الناس سوارس جالسا عند مدخل قهوة دنجل يقلب فى المارين وجها مدمغا بالتحدى والإجرام وحياه الناس مضاعفين له التودد مداراة لسخطهم، وتجنبا الاشتراك فى العزاء فلبثوا فى دآآآينهم أو وراء عرباتهم أو فوق التراب، وخرج النعش محمولا عند الضحى، واقتصر المشيعون على الأهل والأقارب ولكن قاسم انضم إليهم غير مبال بنظرات الفتوة المحرقة، وغضب صهر القتييل فقال لقاسم محتدا:

تقتل التقتيل وتمشى فى جنازته

فلاذ بالصمت والصبر حتى سألته آخر بحشونة

لماذا جئت ؟

فقال باصرار

- لا قاتل أما قاتل صديقى رحمه الله، آن شجاعا، ولستم أما آن وتعرفون القاتل وتصبون غضبكم على . فوجم أآرهم وتجمهت النساء وراء الرجال حافيات يهرولون بالسواد يسفن التراب فوق رعوسهن ويلطمن الخدود واخرقت الجنازة الجمالية نحو باب النصر، ولما تمت مراسم الدفن تفرق المشيعون إلا قاسم، فقد تباطأ فى السير حتى تخلف عنهم، ورجع إلى القبر فوجد أصحابه فى الانتظار واغرورقت عيناه بالدموع فأجهشوا جميعا بالبكاء . وجفف عينيه براحته وقال :

من يريد السلامة فليذهب

فقال حمروش

لو أنا نريد السلامة ما وجدتنا حولك- . .

فقال وهو يطرح يده على شاهد القبر

الحاجة إليه

فقال صادق

عز على فقده آن شجاعا متحمسا ، وذهب غدرا ونحن فى أشد

قتله فتوة غادر، وسوف يبقى منا بعض ليشهدوا مصرع آخر فتوة فى حارتنا

فقال حمروش

ولكن لا ينبغى أن نضيع غدرا أما ضاع فقيدنا، فكروا فى الغد وآيف نحقق النصر- . .

وآيف نجتمع لتبادل الرأى

فقال قاسم

لم يكن لى من أنيس فى سجنى إلا التفكير فى هذا واهتديت إلى رأى ليس باليسير ولكن لا محيد عنه

فاستطلعوه متسائلين فأردف

اهجروا حارتنا ، فليدبر آل شأنه وليهاجر ، سنهاجر أما هاجر جبل قديما وآما هاجر المعلم يحيى بالأمس، ولنقيم نادينا-  
في مكان آمن بالخلاء حتى يشتد ساعدنا ويكثر عددنا

فهتف صادق:

-نعم الرأي.

لن نطهر حارتنا من الفتوة إلا بالقوة ولن نحقق شروط الواقف إلا بالقوة ولن يسود العدل والرحمة والسلام إلا بالقوة،-  
وستكون قوتنا أول قوة عادلة باغية

استمعوا بقلوب واعية وتطلعوا إلى قاسم، وإلى القبر وراء ظهره فخيّل إليهم أن شعبان يشارآهم الاستماع ويبارآه وقال  
عجربة متأثرا:

نعم فبالقوة تحل المشآل القوة العادلة غير الباغية ، آآن شعبان يقصدك عندما اعترضه سوارس، لو آآنا معه لا اعترض-  
الفتوة قوة لا يسهل قهرها، لعنة الله على الخوف والتفرق  
استروح قاسم لأول مرة نسمة ارتياح وابتهاج فقال:  
-في ابنائهم من هم اهل حملها.

## 81

لقد وضع جدنا ثقته بين أيدينا وهو عن يقين يؤمن بان  
رجع قاسم إلى بيته عند منتصف الليل لكنه وجد قمر مستيقظة تنتظره، وبالغت آآثر من عادتها في العناية به والحنو عليه  
وآآن يؤلمه بمقاؤها مستيقظة حتى تلك الساعة، ثم تبين له ذبول عينيها واحمرار يخلفه البكاء آآما تخلف الشمس  
الشفق فتساءل في آآبة:

هل آآنت تبكين ؟

لم تجبه آآنا شغلت عنه بكوب اللبن الدافئ الذي تعده له، فعاد يقول

موت شعبان آآزننا جميعا ، رحمه الله

فبادرته قائلة

بكيت على شعبان قبل ذلك لكنني آآنت أبكي آآما تذاآرت اعتداء الرجل عليك آآنت آآخر رجل يستحق أن يهال التراب  
علي-.

رأسه ووجهه

فقال محزوناً:

ما أخف هذا بلقياس إلى ما أصاحب صاحبنا المسكين

فجلست إلى جانبه وهي تقدم له الكوب وتمتم

وآم يضائثنى ما يقال عنك:

فابتسم متظاهراً بالاستهانة ورفع الكوب إلى فيه فأردفت مغیظة

إن جلطة يؤاد لآل جبل أنك طامع في الوقف لتستأثر به وحدك، وهكذا يقول حجاج في آل رفاعه ويشيعان عنك أنك-.

تنتقص من جبل ورفاعة

فقال دون أن يخفى ضيقه:

-أعرف ذلك أما اعرف أنه لولاك لما آنت حتى اليوم حيا فربتت آتفه بحنان وإذا بما تتذآر الأيام الماضية لغير ما سبب أيام

لم تكن أحاديثهما نهاية ولا لسعادتهما غاية وأفراح الليالي المضيئة بعد مولد إحسان هي اليوم لا تملك منه شيئاً ولا يملك

هو من نفسه شيئاً حتى الأم المرض التي تتناهما أحياناً تخفيها عنه إنه لا يفكر في نفسه شيئاً فكيف تشغله بنفسها

وهي تخجل أن تثقل عليه حتى لا تعين أعداءه بغير قصد عليه منذا الذي يطمئننها عليه وأيام العمر تولى أما ولت أيام

الراحة سأمحك الله يا حارتنا وهعاد قاسم يقول:

- - لا يغيب عنى المل ولو في الظلام وما أآثر الأصدقاء الصادقين وإن بدوت وحيدا تحدى احدهم سوارس فمن آن يجروء

على ذلك من قبل والأخرون مثله والشجاعة أخطر ما يلزم حارتنا آى لا تقضى العمر تحت الأقدام فلا تنصحيني بالسلامة

إن الذى قتل ن قتل وهو في طريقه إلى دارى وأنت لا ترضين لزوجك بمذلة الجبن.

ابتسمت قمر وهي تسترد الكوب فارغا وقالت:

إن زوجات الفتوات يزغردن عند المعارك وهي شر فكيف أرضى بان آأون دوهمن للخير

وأدرك أن حزنها أخطر مما تبديه فربت خدها بحب وقال معزياً

أنت آل شئ لى فى دنيا انت خير رفيق فى الحياة- .

فابتسمت استدعاء للسكينة التي ييج أن تسبق النوم

وعجب عم سنطح مبيض النحاس من اختفاء صادق وآان آلما سعى عليه فى داره لم يجد له ولا أحد من ذويه أثرا وعبد

الفتاح الفسخانى آذلك لم يجد لعائلة عجرفة أثر فى الحارة ولم يعد أبو فصاده إلى مقلى حمدون ولم ينذره بغيابه وآين

حمروش؟ قال حسونة الفران إنه اختفى آن نيران الفرن التهمته وآخرون ذهبوا بلا عودة وانتشر الخبر فى حى الجرايع

وامتدت منه آصدا إلى بقية الحارة حتى قال الناس فى حى جبل ورفاعة هازئين إن الجرايع يهاجرون وإن سوارس لن يجد

مع الأيام من يحصل منه على الأتاوة واستدعى سوارس زآريا إلى قهوة دنجل وقال له منذرا:  
ابن أخيك خير من يدلنا على سر الهارين  
فقال زآريا

يا معلم سوارس لا تلمة مضت أيام وأسابيع وأشهر والرجل لا يغادر داره  
فقال الفتوة مزجرا

ألا عيب أطفال لكنى استدعتك لأحذرك مما قد يصيب ابن أخيك- .  
قاسم من دمك ولا تشمت بنا العدو- .  
النصر

فقال زآريا فى جزع

هو عدو نفسه وعدوى إنه يتوهم نفسه جبل هذا الزمان وهذه اللعنة هى أقرب سبيل إلى باب  
-حلمك يا معلم سوارس نحن جميعا فى حمايتك- .

ولما رجع زآريا إلى مسكنه صادف حسن راجعا من بيت قاسم فأفرع فيه الحنق الذى ملأه به سوارس غير أن حسن  
قاطعته قائلا:

صبرك يا أبى قمر مريضة ، مريضة جدا يا أبى

وعلمت الحارة بمرض قمر حتى بيت الناظر ولازمها قاسم وهو فى غاية من الكآبة والحزن وآان يهز رأسه فى حيرة ويقول  
فى لحظة واحدة ترقدين بلا حول

فقال المرأة بصوت ضعيف

بقلبك المثقل بالمتاعب

فقال فى حزن شديد

آنت أخفى عنك حالى رحمة

آآن ينبغى أن أشارآك أملك من أول الأمر

فانفجرت شفتاها الشاحبتان عن ابتسامة آالزهرة الذابلة فى عود ناضب وقالت

-ستعود الصحة إلى سابق عهدها- .

بذلك دعا قلبه ، لكن ما هذا الغيم يغشى العين وما هذا الجفاف يسرى فى الوجه وما تلك القدرة على اخفاء الألم ذلك  
آآله من أملك أنت يا إلهى احفظها برحمتك وابقها لى واعطف على بكاء الطفل الذى لا ينقطع- .

-سماحك معى جعلنى لا أسامح نفسى- .

فابتسمت مرة أخرى فيما يشبه العتاب وجيء بام سالم لتبخرها وأم عطية لتعد لها بعض المعاجين وإبراهيم الحلاق ليحجنها، ولكن إم إحسان استعصت فيما بدا على الشفاء وقال لها قاسم:

وددت لو افتديتك من أملك.

فأجابت بصوت واهن آالصمت:

لا أصابك سوء

ثم مردفة

يا أحب الناس إلى قلبي

وقال لنفسه : لمنظرها تسود الدينا في عيني وقالت هي

-العاقل مثلك آخر من يعز عليه العزاء.

وجاء زائرون وزائرات ولكنه ضاق بالمكان ففر إلى سطح البيت آنت أصوات النساء ترتفع من نوافذ الربوع، واللعنات تختلط

بنداءات الباعة في الطريق وبكاء طفل حسبه لأول وهلة صوت إحسان حتى رأى صاحبه وهي يتمرغ في تراب سطح

بجاور، وآن الظلام يهبط ويثدا وسرب من الحمام يعود إلى برجه ونجمة وحيدة تومض في الأفق وتساءل عن معنى النظرة

التغريبة التي تلوح في عين قمر، آآها لا ترى وعن اهتزازات جانب فمها غير الإرادية وعن الزرقة التي تصبغ شفيتها وعن

سشعره البالغ بالانقباض ولث ساعات ثم نزل فقابل سكينه في الصالة حاملة إحسان بين يديها فقالت له همسا:

-ادخل على مهلا آيلا توقظها.

واستلقى على الكنبه المواجهه للفرش في ضوء خافت ينبعث من مصباح فوق أرضية الشباك ولم يكن ثمة صوت في

الحى إلا نواح الرباب ثم تلاه طاظا الشاعر قائلا : فقال الجد بهدوء:

رآيت أن أعطيك فرصة لم تنح لأحد ممن في الخارج وهي أن تعيض في هذا البيت وأن تتزوج به وأن تبدأ حياة جديدة فيه

فتتابعت دقات قلب همام في نشوة من الأفراح وقال

-الشكر لك على نعمتك- .

إنك تستحقها

واختلع نظر الشاب بين جده وبين السجادة ثم تساءل في اشفاق

وأسرتى ؟

فقال الجبلأوى في عتاب

قلت ما أريد بوضوح

فقال همام باستعطاف

-إنهم يستحقون رحمتك وعفوك.

وندت عن النائمة حراة لا تخلو من عنف فوثب فوق الكنبه إليها رأى فى عينيها بريقا جديدا حل محل الغيم فسألها عما بها

فهتفت بصوت قوى:

ما بي أعظم!

فمال نحوها متسائلا

ماذا تعنين؟-

ألمتك آثيرا ولكن ما بي أعظم

فعض شفته ثم قال

قمر ، أنا حزين لأنى عاجز عن تخفيف ألمك

فقالت باشفاق

أحف عليك من بعدى

فقال فى حزن شديد

لا تتحدثنى عنى- . .

قاسم أرحل ، الحق باصحابك سيقتلونك إن بقيت-.

نرحل معا

فقال بمشقة

ليس الطريق واحدا- . .

لا تريدن أن ترحمىنى أما عودتى

أه ، آن ذلك فى الأيام الماضية

وبدت آأها تقاوم ضغطا شديدا فلوحت بيدها وأشدت ميله نحوها حتى امتلأ بانفاسها وتلوت وامتدت رقبته المستغيثة

وانطلق صدرها فى عنف وزفرة حشرجة قاسية فصاحت سكينه.

-أجلسها ، تريد أن تجلس.

فأحاطها بذراعيه ليجلسها، ولكن ندت عنها شهقة آأها وداع أبكم، وأنهار رأسها على صدره وهرولت سكينه بالطفلة إلى

الخارج.

ومن الخارج دوى صوتها يمزق الصمت.



وفي الصباح ازدحم بيت قاسم والطريق أمامه بالمعزين إن لصلوات القربى في الحارة احتراما متأصلا لا تحظى بجزء منه شتى الفضائل مجتمعة، فلم يكن بد من ان يجيئ سوارس معزيا وما أسرع أن أقبل وراء الجرابيع ولم يكن بد من أن يجيئ الناظر رفعت معزيا فتبعه على الأثر لهيطة وجلطة وحجاج وما أسرع أن أقبل وراءهم آل من هب ودب، فانتظمت الجنازة جموعا غفيرة لم تشهد لها الحارة مثيلا من قبل إلا في جنازات الفتوات، وتحلى قاسم بصبر الرجل الحكيم رغم آلامه الدفينة وحتى في ساعة الدفن بكت جميع حواسه وجوارحه إلا عينيه وانصرف المعزون حتى لم يبق في المدفن إلا قاسم وزآريا وعويس وحسن، وعند ذاك ربت زآريا عضد قاسم وقال بأسى:

شد حيلك يا ابن أخي ، آن الله في عونك

فانحنى عوده قليلا وهو يزفر من الأعماق وغمغم

قلبي دفن في التراب يا عمي

فتقلص وجه حسن تأثرا وساد صمت المدفن أشد ما يكون الصمت وانتقل زآريا خطوة وهو يقول

إن لنا أن نذهب

لكن قاسم تشبث بموقفه وهو يقول في استياء

ما الذى جاء بهم

فظن زآريا إلى من يعنى بقوله فقال

لهم الشكر على أى حال:

فتشجع عويس قائلا

-ابدأ معهم من جديد، فهذه الخطوة منهم تتطلب منك خطوات ومن حسن الحظ أن ما يقال عنك خارج حيننا لا يؤخذ

مأخذ

الجد ، فأخر أن يغوص في الصمت والحزن على مجادلتة وإذا بجماعة تقبل على رأسها صادق وأتما آنوا يرصدون اختفاء

المعزين، آنوا آثرة وليس فيهم غريب فعانقوا قاسم حتى دمعت عيناه وقلب عويس عينيه فيهم بامتعاض ولكن أحدا لم

ياله وقال صادق مخاطبا قاسم:

لم يعد ثمة ما ييقيك في الحارة- . .

لكن زآريا قال معترضا في حدة

ابنته وداره وأملاآه هناك

وقال قاسم بلهجة ذات مغزى

-آن بقائى فى الحارة ضروريا فبفضله ازددتم مع الأيام عددا، ونظر إلى الوجوه المتطلعة إليه آانما يستشهد بكثرتها على صدق قوله، فأآثرهم ممن اغراهم بالمجرة واللحاق بأصحابه حينما آن يتسلل من داره آل ليلة عقب نوح الحارة فيقصد من يأنس فيهم مودة وحسن استعداد للاقتناع بكلامه وسأله عجرفة:  
هل يطول بنا الانتظار؟-

حتى يتجمع عندآم عدد آاف

وانتحى به جانبا فقبله وهمس له

قلبي يتقطع حزنا لك فأنى أدرى الناس بقسوة فجيعتك

فعاوده التأثر وهمس

صدقت ما أقسم الألم

ورمقه باشفاق ثم قال

عجل باللحاق بنا فإنك اليوم وحيد-

آل شئ رهن بوقته

وقال عويس بصوت مرتفع

-ينبغى أن نعود-

وتعانق الصحاب مودعين، وعاد قاسم ورفاقه ومضت الأيام وهو فى داره وحيد آئيب حتى خافت عليه سكينه عواقب الحزن، ولكنه واصل جولاته الليلية الخفية بممة لا تعرف الوهن، ومضى عدد المختفين فى النمو وأخذ الناس يتساءلون حيارى واشتدت السخرية بحى الجرايع وفتوهم فى بقية الحارة وقالوا فى نوبة سوارس فى الهرب ستجئ اليوم أو غدا وقال له عم زآريا ذات يوم محذرا:

-هذه حال تدعو إلى أشد القلق وتحشى عواقبها-

ولكن لم يكن من الانتظار بد وآانت أياما مليئة بالعمل والخطر، وآانت إحسان البسمة الوحيدة فى وجهها المتجهم وآانت تتعلم الوقوف معتمدة على أطراف المقاعد ثم تتطلع إليها بوجهها الصافى وتحديثه بلغة العصافير والبلابلن وآآن ينعم النظر فى وجهها بخنان ويقول لنفسه ستكون طفلة جميلة ولكن أهم عندى ان تكون أمها طيبة وحنانا وسرة أن تطالعه بعينيه السوداوين فى وجه قمر المستدير لتظل رمزا باقيا للعلاقة المحبوبة التى مزقها الدهر وترى هل يمتد به العمر حتى يراها عروسا فى الحسان أو آتب عليها ألا تجنى من دار مولدها إلا أليم الذآاريات؟  
يوما طرق باب الدار طارق فذهبت سكينه تتساءل من القادم؟ فجاءها صوت يافع قائلا:

-افتحى الباب يا سكينه.

فتحت الباب فرأت فتاة فى الثانية عشر أو تزيد ملفوفة على غير المألوف فى ملاءة وعلى الوجه حجاب ودهشت سكينه وسالتها عما تريد ولكنها سارعت إلى حجرة قاسم وهى تقول بلهجة:

مساء الخير يا عمى

ونزعت النقاب فبدا وجه بدرى قمحى بديع القسماى يقطر خفة فقال قاسم متعجبا

أهلا بك ، أجلسى أهلا وسهلا- .

قالت وهى تجلس على حافة الكنبه

أنا بدرية ، وأرسلنى إليك أذى صادق

فقال قاسم باهتمام

صادق- .

نعم

ورنا غليها مستطلعا ثم قال:

ماذا دفعه إلى هذه المخاطرة؟-

فقال باهتمام زادهما ملاحه-.

لا يمكن أن يعرفنى أحد فى الملاءة

أدرك إن جسمها آبر من سنهافهز رأسه المطمئن فأردفت فى مزيد من الاهتمام

إنه يقول لك أن غادر الحارة فورا فإن لهيطة وجلطة وحجاج وسوارس تأمروا على قتلك الليله

قطب المترعج على حين شهقت سكينه وسألها

أيف علم بذلك ؟

أخبره المعلم يى

ولكن أيف عرف يى ذلك؟-

أفشى سكران السر فى حانه آن بما صديق للمعلم يى هذا ما قاله أذى

وجعل ينظر إليها صامتا حتى قامت وأخذت تحبك الملاءة حول جسدها الغض فقام بدوره وهو يقول

أشكرك يا بدرية ، تخفى جيدا، بلغى تحياتى إلى أذىك واذهبى بسلام

فأسدلت النقاب على وجهها وتساءلت

ماذا أقول له؟-

خبريه باننا سنلتقى قبل الصباح-  
فصافحته ثم ذهبت

83

أصفر وجه سكينه ونطق بعينها الذعر وهتفت قائلة:

فلنغادر البيت دون إبطاء

وتوثبت للتحرك فقال لها

لنى إحسان واخفيها فى شملتك واخرجى أنك ذاهبة لبعض شأنك ثم أقصدى مدفن المرحومة وانتظرى هنالك- .  
وأنت يا سيدى-

سألحق بك فى الوقت المناسب-

فترددت عينها بين الحيرة والجزع فقال بنبرة مطمئنة

سيذهب بكما حسن إلى المكان الذى سنقيم فيه

وفى ثوان تأهبت للرحيل فلثم إحسان مرات، ثم قالت له المرأة وهى تمضى نحو الباب

-استودعتك الحى الذى لا يموت-

ووقف وراء الخصاص يراقب الطريق فرأى الجارية وهى تسير نحو الجمالية حتى غيبتها المنعطف، وجعل قلبه يخفق وهو يرنو

إلى ثنية ذراعها حول الحمل الثمين، وأجال بصره فى الحى فرأى رجلا من أعوان الفتوات، بعضهم يجلس بقهوة دنجل

والبعض يتسكع هنا وهناك، وتكاد معالمهم تذوب فى الظلام الزاحف، الدلائل تقطع بأنهم يتاهبون . . ولكن.

هل يتربصون به حتى يخرج لجلوته الليلية إن آن سرها انكشف لهم؟ أو سيطبقون على داره فى آخر الليل؟ إنهم

ينتشرون منذ الآن على سبيل الحيلة أن يكون سر مؤامرتهم انكشف وها هم يدبون فى الظلام الحشرات تفوح من

أنفاسهم رائحة الجريمة ن فهل يلتقى مصير جبل أو مصير رفاعه؟ هكذا وجد رفاعه نفسه فى ليلة من الليالى المظلمة

وتوارى فى داره بقلب مفعم بالنوايا الطيبة وأسفل الدار تدب أقدام غليظة تنضح جلود أصحابها بشهوة الدم ، متى تكفين

على سفك الدماء ياحارتنا التعيسة؟ ومضى يمشى فى الحجرة ذهابا وجيئة حتى طرق الباب وترامى إليه صوت حسن

وهو يناديه، وجاء حسن بجسمه الضخم وعيناه تعكسان نظرة قلقه، فقال:

فى الحى حراة غريبة، مريبة.

فسأله دون آتراك ملاحظته

هل عاد عمى من تجواله ؟

آلا ، لكنى أقول أنه توجد فى حينا حرآة مربية، انظر من شيش الشباك

-رأيت ما أعزعجك وعرفت ما وراءه حذرنى صادق فى الوقت المناسب بارسال أخته الصغيرة إلى وإذا صدقت رسالته فالفتوات سيحاولون قتلى الليلة ، لذلك هربت إحسان مع سكينه وهما ينتظرانك فى مدفن المرحومة فاذهب إليهما وسيروا جميعا إلى مقر إخواننا.

وأنت ؟-

سوف أهرب بدورى وألحق بكم

فقال حسن بعزم

لن اترآك وحدك

فقال برجاء لم يخل من استياء

-افعل ما قلت لك دون تردد ، سأهرب بالحيلة لا بالقوة ، لن تنفعنى قوتك إذا ألبأتنا الظروف إلى المقاومة، ولكن ذهابك

سيحسمى إبنتى، ويمكنك من تضع بعض رجالنا على رعوس الطرق من الجمالية حتى الجبل لعلمهم يهبون إلى مساعدتى إن احتجت لهم عند الهرب.

أذعن حسن لإرادته ، فصافحه بقوة وقال:

-ليس أمثل عقلك شىء ، فلعلك أعددت للأمر عدته.

فأجابه بابتسامة مطمئنة وذهب حسن بوجه عابس، ولم يمض طويل وقت حتى جاء عم زآريا وهو يلهث فأيقن أنه عائد

من عند المعلم يخبى بالخبر فبادره قائلاً:

أرسل إلى صادق بالخبر

فقال الرجل باضطراب ظاهر

علمت به منذ قليل لدى مرورى بالمعلم فخشيت ألا يكون بلغك- .

فأجلسه قاسم وهو يقول ألمعتذر

-أعف عما أسبب لك من متاعب.

أنت اتوقع هذا من زمن، ووجدت من سوارس تغيرا فى المعاملة فرحت أآذب نفسى ، ورأيت اليوم الشياطين منتشرين-

آالجراد، وأنت وحيد ويتعذر عليك الهرب

فاشتد عوده فى تصميم وهو يقول:

سأحاول ، وإذا فشلت فهناك فى الجبل رجال لا يغلبون

فقال زآريا فى ضجر

ما قيمة هذا آله بالنسبة لحياتك أو طفلتك ؟

فقال قاسم معاتبا

إن اعجب آيف لم تكن على رأس اعوانى!

فقال وآنه لم يسمع قوله

-تعال معى إلى سوارس نساومه ونتعهد له بما يشاء!

فضحك قاسم ضحكة مقتضبة ، سخرت من اقتراح عمه دون آلام، والتفت زآريا إلى الشيش يطالع من خلاله الطريق فبدا مظلما مخيفا.

وانتبه على صوت قاسم وهو يتساءل:

لماذا اختاروا الليلة بالذات ؟

فأجاب زآريا

أول أمس جهر رجل من جبل بأن قضيتك آنت لخير الجميع

وقيل مثل ذلك عن رجل من رفاعة، فلعل ذلك ما دفعهم إلى التعجيل . فتهلل وجه قاسم وقال

أرايت يا عمى ؟ أنا عدو الناظر والفتوات ولكنى صديق حارتنا ، وسيعلم الجميع ذلك- . .

فكر الآن بما ينتظرك

فقال قاسم باهتمام

إليك خطى ، سأهرب عبر الأسطح حتى بيتك تارآا مصباحى مضاء للتضليل- . .

قد يراك أحد

لن أشرع فى الهرب حتى تخلو الأسطح من المسمار

وإذا سبقوا بالهجوم على دارك ظ- .

لن يقع هذا حتى تنام الحارة- .

قد يبلغ بهم الاستهتار حدا لا تتصوره

فقال باسما

فى هذه الحال أموت، ومنذا يدفع الأجل ؟

فرفع الرجل إليه وجهها ينطق بالرجاء، لكنه طالع ابتسامة هادئة ثابتة آأها التصميم مجسدا فقال يائسا

قد يفتشون دارى- . .

-من حسن الحظ إنهم لا يعلمون بتسرب مؤامرتهم إلينا، ولذلك سأسبقهم إلى الهرب إن شاء الله وتبادلا نظرة طويلة أفصح من الدمع ثم تعانقا ، ولما وجد نفسه وحيدا تغلب على تأثره واقترب من النافذة يراقب الطريق ، بدا الحى فى حياته المألوفة، فالصغار يلعبون حول مصايح العربات والقهوة تعج بالسمار ، والأسطح تضح باحاديث النساء وسعال المدخنين يتخلله الفحش والسباب، ونواح الرباب يرتفع وهذا سوارس رابض على عتبة القهوة، ورسل الموت تحتل الأران يا سلالة الخيانة ويا لصوص البشر، منذ اطلق إدريس ضحكته الباردة وانتم تتوارثون الجريمة وتغرقون الحارة فى بحر من الظلمات ، ألم يئن للطير الحبيس أن ينطلق؟ ومضى الوقت وثيدا ثقيلًا، ولكنه حمل ليل السمار إلى غايته صمت الأسطح خلا الطريق من العربات والصغار، وأفقرت المقاهى وعلت إلى حين أصوات الأشباح العائدة ورجع من الجمالية السكارى وهم يلهوسون حتى الغرز أطفأت المجامر، ولم يبق فى الظلام إلا ندامى الموت، وقال لنفسه حان وقت العمل، وسارع إلى السلم فرقاه إلى السطح ومضى إلى السور الفاصل بين سطحه والسطح الملاصق فعبه دون عناء وهم بالجرى وإذا بشيخ يعترضه قائلا : قف ، فأدرك أن الأسطح محتلة بالقتلة وإن حصاره أحكم واستدار ليرجع ولكن الآخر وثب

نحوه وأحاطه بذراعين قويتين واستدعى قوته التى ضاعفها الخوف وفأجاه بضربة فى بطنه ففك حصار ذراعيه وثنى برآله فى بطنه أيضا فسقط وهو يشهق ثم لم يقم، وجاءت سعدة مكتومة من السطح الثالث أو الرابع جعلته يعدل عن التقدم فتراجع مضطربا إلى سطحه، وقف عند السلم ينصت فسمع وقع أقدام صاعدة، وتكتل الصاعدون أمام باب شقته وخبطوا الباب خبطة شديدة فانفتح وهو يكاد يقتلع، ثم تدافعوا إلى الداخل وهبط مسرعا دون أن يضيع ثانية حتى انتهى إلى الحوض وسارع إلى الباب ولمح خارج الدار شبعا يتحرك فانقض عليه قابضا على عنقه، ثم نطحه برأسه وطعن بطنه برآبته ودفعه فاستلقى على ظهر دون حراك، واندفع نحو الجمالية وضربات قلبه تتلاحق، الآن تبين لهم خلوى الدار ولعل بعضهم يصعد إلى السطح ليعثر على صاحبهم الملقى ، ولعل الآخرين يهبطون فى أعقابهم مر بربع عمه دون أن يتوقف، ولما اقترب من نهاية الحارة أطلق ساقية، وعند اتصال الحارة بالجمالية وثب شبخ فى طريقه وصاح بصوت الرعد لينبه الآخرين : قف يا ابن اللثيمة، ورفع نبوته قبل أن يجيد قاسم عن طريقه، ولكن شبعا أخر ظهر من زاوية المنعطف وضرب الشبخ الأول بهراوته على رأسه فهوى صارخا ثم قال لقاسم:

لفنجر بكل ما فىنا من قوة- . .

وانطلق قاسم وحسن يجريان فى الظلام دون مبالاة بما قد يعترضهما من حجر أو نقرة

عند مدخل حارة الوطاويط انضم صادق إليهما وعند نهايتها وجدوا عجرمة وأبو فصادة وحمروش حول عربة آرو ذات أربع عجلات فاستقلوها مبادرين وانطلق الجواد بما يلهبه سوط الحوذى، انطلقت العربة بسرعة رغم الظام محدثة فى سكون الليل صوتا مزعجا آالفرقة المتواصلة وهم يتلفتون إلى الوراء من خشية وتوجس وقال صادق جلبا للطمأنينة:

سيجرون نحو باب النصر ظنا بانك تلوذ بالخلاء حول المقابر  
فقال قاسم بارتياح

-لكنهم يعلمون أنكم لا تقيمون عند المقابر.

غير أن سرعة العربة بدت حاسمة وبفضلها غلب شعور بانعهم بيتعدون حقا عن الخطر، وعاد قاسم يقول فى شئ من الارتياح.

-أحسستم التنظيم والتدبير، وشكرا لك يا صادق فلولا تحذيرك لكنت الساعة فى الهالكين.

فشد صادق على يده فى صمت وتواصل اندفاع العربة حتى لاح سوق المقطم على ضوء النجوم يلفه الظلام والوحشة عدا نور مصباح ينبعث من آوخ المعلم يجيى، وعن حذر أوقفوا العربة وسط الميدان ثم تراوها متجهين نحو الكوخ، وما لبث أن جاءهم صوت المعلم متسائلا عن القادمين فأجابه قاسم فارتفع صوته مرة أخرى بالحمد.

وتعانق الرجلان عناقا حارا وقال له قاسم:

-إنى مدين لك بالحياة.

فقال العجوز ضاحكا:

إنها الصدفة وحدها ! لكنها وقعت لتتخذ رجلا هو أول من يستحق الحياة أسرعوا إلى الجبل فالجبل خير حصن لكم  
و شد قاسم على يده ونظر على ضوء المصباح إلى وجهه فى مودة وامتنان فعاد العجوز يقول

-اليوم أنت أرفاعة أو آجبل وسوف أعود إلى حارتنا عندما يقيض لك النصر.

ابتعدوا عن الكوخ شرقا يوغلون فى الخلاء نحو الجبل وتقدمهم صادق إذ آن أخبرهم بالطريق وآانت ثمة رقة تمازج الظلام مبشرة بالفجر والسماء تقطر ندى رطبا وترامى من بعيد صياح الديكة آصرخة المخاص لمولد يوم جديد ن وبلغوا السفح فساروا بجذاته نحو الجنوب حتى عشروا على المر الضيق الذى يصعد إلى مقامهم الجديد فوق الجبل وصعدوا وراء صادق فى طابور فردا فردا لضيق المشى وقال صادق لقاسم:

أعددنا لك دارا وسط ديرنا وفيها الآن تنام إحسان

فقال عجرمة

بيوتنا من الصفائح والخيش

فقال حسن فى مرح



ليست أسوأ آثرا من بيوتنا في الحارة  
فقال قاسم

حسبنا ألا نجد بيننا ناظرا أو فتوة  
وهبطت إليهم أصوات فقال صادق  
حارتنا الجديدة مستيقظة تنتظرك- .

ورفعوا الرعوس فرأوا خيوط الضياء الأولى تطارد فلول الظلام  
وصاح صادق بأعلى صوته : هوه فأطلت رعوس رجال ونساء وتعالى الهتاف والزغاريد وانطلقت الحناجر تنشد:  
يا محي ديل العصفور  
فاستخف قاسم الابتهاج وقال بأبار  
ما آثرهم!

فقال صادق بفخار  
حارة جديدة فوق الجبل سكانها يتزايدون مع الأيام وقد انضم إلينا بارشاد المعلم يحيى جميع المهاجرين من حارتنا  
وقال حمروش

-لا يتعبنا إلا أننا نسعى إلى أرزاقنا في الأحياء البعيدة خشية أن يعثر علينا أحد من حارتنا.  
ولما صعد قاسم إلى السطح تلقاه الرجال بالعناق وصافحته النساء وارتفعت الأصوات بالتحيات والتهليل والتكبير وآنت  
سكينة بين المستقلين فأخبرته بأن إحسان نائمة في الكوخ الذى اعد لهم دارا وساروا جميعا نحو الحارة الجديدة التى  
أقيمت على هيئة مربع من الأواخ فوق مسطح من الجبل، وهم يهللون وينشدون وقد ابتهج الفق بالنور المتدفق أنه  
بحيرة من الورد الأبيض وهتف رجل:

أهلا بفتوتنا قاسم

فتغير وجه قاسم وصاح مغضبا

ألا لعنة الله على الفتوات جميعا ، فلا سلام ولا امان حيث يرجعون

وتطلعت إليه الوجوه الجديدة فقال

سترفع النبائيت أما رفعها جبل ، ولكن في سبيل الرحمة التى نادى بها رفاة ثم نستغل الوقف لخير الجميع حتى  
نحقق حلم أدهم هذه هى مهمتنا لا الفتونة.

ودفعه حسن برفق نحو الكوخ الذى أعد له وهو يقول مخاطبا الجميع:

-مضى الليل دون أن يغمض له جفن فدعوه الآن لياخذ بعض حقه من الراحة.

استلقى قاسم على خيشة جنب ابنته وسرعان ما استغرق في النوم، واستيقظ فيما بين الظهر والعصر برأس مثقل وجسد متعب وجاءته سكينه بإحسان فوضعها في حجره وراح يلثمها في حنان وقدمت له المرأة 'أوز ماء وهى تقول:  
- هذا الماء يحمل إلينا من الحنفية العمومية أما أنت تحمله زوجة جبل!

فابتسم الرجل، وآان يحب آل ما يربطه بذآريات جبل أو رفاعة وألقى نظرة على داره الجديدة فرأى جدراننا مغطاة بالخيش ولا شئ بعد ذلك فضم إحسان إلى صدره بحنان أآثر ونهض قائما فأعطى سكينه ابنته وغادر الكوخ ليجد صادق وحسن في انتظاره فجلس بينهما وهم يتبادلون تحية الصباح وألقى نظرة عل الحارة فلم تقع عينه إلا على امرأة أو طفل ، فقال صادق موضحا:

ذهب الرجال إلى السيدة وزينهم سعيا وراء الأرزاق وتخلفنا نحن حتى نطمئن عليك وتابعت عيناه النسوة العاملات فى الطهى أو الغسل أمام الأآواخ والأطفال اللاهين هنا وهناك ثم تساءل ترى هل راضيات ؟

فقال صادق

إنهن يحملن بامتلاك الوقف والنعيم الذى تمنأ به أمينة هاتم حرم الناظر!

فابتسم ابتسامة عريضة ثم ردد بصره بينهما فى بطء وتساءل

ماذا يدور فى رأسيكما عن الخطوة التالية ؟

فرفع حسن رأسه فوق منكبيه العريضين وقال

-نحن على بينة مما نريد.

ولكن آيف ؟-

ننتهز غفلة ثم نهجم

لكن صادق قال معترضاً

النصر من ناحية وقلة الضحايا من ناحية أخرى

فهتف قاسم وأساريره تنبسط

بل نصبر حتى نضم إلينا آآبر عدد من أهل حارتنا ثم نهجم فنضمن

أحسن

وشملتهم طمأنينة حاملة وإذا بصوت يقول فى استحياء

الطعام

فرفع قاسم عينيه فرأى بدرية حاملة إناء فول وأرغفة وهو ترنو إليه بعينين باسميتين فما ملك أن ابتسم قائلاً

أهلا برسول الحياة إلى

فوضعت الإناء بين يديه وهي تقول

أطال الله عمرك

وذهبت إلى آوخ صادق فيما يلي آوخته، وداخلت نفسه رقة ورضى فتناول طعامه بشهية وفي أثناء ذلك قال

لدى قدر من المال لا بأس به سينفعنا عند الحاجة

ثم مردفا بعد قليل

لنا النصر ولا-

يقعدهم إلا الخوف

علينا أن نصطاد آل من نأنس فيه استعدادا إلى مشارآتنا من أهل حارتنا، وما آآثر المظلومين الذين ينهنون

وما لبث أن ذهب الرجلان إلى حيث سبقهم الآخرين فوجد نفسه وحده، وقام فمضى يتجول فى المكان آنما يتفقده، مر

بأطفال لاعبين فلم يلتفت إليه أحد منهم أما النساء فكن يخبينه بالدعاء واستوقفت نظره عجوز بالغة فى الكبر، ذات مكلل

بالبياض الناصع وعينين تغشاهما سحابة الهرم، وذقن متقلقل آأها تزرد لحييها، فأقترب منها محببا فردت التحية بالدعاء

فسألها من أمى؟

فأجابت بصوت آخشخشة الأوراق الجافة:

-أم حمروش-

أهلا بأمنا جميعا، آيف هان عليك أن تهجرى حارتنا؟-

يوجد فيه أبنى

ثم ألمستدرآة

أطيب المكان ما

والبعد عن الفتوات غنيمة

ثم تشجعت بابتسامته فقالت

رأيت رفاة وأنا شابة

فسألها باهتمام

حقا؟-

نعم وحياتك، آن لطيفا جميلا ولكن لم يجر لى فى خاطر انه سيكون عنوان حى وحكاية من حكايات الرباب

فسألها باهتمام متزايد

ألم تقصديه الآخرين؟-

-آلا ، لم يكن يدري بنا فى حيننا أحد ولا أنا ندرى بانفسنا ولولاك ما جرى ذآر للجرايبع على لسان زتفحصها بغرابة وتساءل ترى آيف يكون جدنا اليوم ! لكنه ظل ييتسم لها برقة فدعت له طويلا حتى ذهب، وواصل المشى حتى وقف عند رأس الممشى على حافة الجبل ألقى نظرة على الخلاء أسفل ثم مد البصر نحو الأفق تراءت على البعد القباب والأسطح أنها ملامح متباعدة فى آائن واحد، وقال إنه ما ينبغى أن تكون إلا شيئا واحدا وهذا الشئ ما اصغره من عل، فلا معنى للناظر رفعت ولا للفتوة لهيطة، ولا فرق هنا بين رفعت وعمه زآريا ومن العسير أن تهتدى من موقفك إلى الحارة المثيرة المتاعب لولا بيت الواقف الذى يبدو أنه يميز من أى موقع بيت جدنا بسوره العجيب وأشجاره العالية لكنه طعن فى السن وخفت خشيته أهذه الشمس المائلة نحو الأفقن أين أنت وآيف أنت ولم تبدو وآأنك لم تعد أنت ، المزيفون لوصيتك على بعد أذرع من منزلك وهؤلاء النسوة والصغار المبعدون فى الجبل أليسوا أقرب الناس إلى قلبك ؟ ستعود إلى مكاتتك عندما تنفذ شروط ووقيتك دون اغتيال ناظر أو اعتداء فتوة آعودة الشمس غدا إلى آبد السماء.

ولولاك ما آآن لنا أب او حارة أو وقف أو أمل.

وايقظه من تھويمته صوت عذب يقول:

القهوة يا معلم قاسم

التفت وراءه فرأى بدرية باسطة راحتها بالفنجان فتناوله قائلا

لم التعب ؟

تعبك راحة يا سيدى

وترحم على قمر وراح يحسو القهوة فى رفق، وبين الحسوة والحسوة تلتقى عيناهما فى ابتسامة ما ألد القهوة عند طرف الجبل فوق الخلاء.

ما عمرك يا بدرية ؟

فثنت شفثتها داخل فيها ثم غمغمت

-لا أدرى.

لكنك تدرين بما جاء بنا إلى الجبل؟

فترددت فى استحياء ثم قالت

-أنت!

أنا؟-

تريد أن تضرب الناظر والفتوات وتجعل الوقف لنا، هذا ما يقول أبى

فابتسم وانتبه إلى أنه أتى على ما فى الفنجال لكنه سها عن رده، فرده إليها وهو يقول  
ليت عندى من الشكر بعض ما تستحقين  
فاستدارت باسمه موردة وجرت فتمتم قائلاً  
-تصحبك السلامة.

85

وآن وقت الأصيل هو وقت التحطيب فينرى الرجال للمارسة التمرينات الشاقة بالنباييت ويبدأ ذلك عقب عودتهم بنقود قليلة وطعام بسيط بعد يوم شاق آدح ينقضى سعيًا وراء الرزق هكذا يعودون نساء ورجالاً.  
وآن قاسم أول المتبارين وآم سره أن يرى حماسة رجاله وتوثبهم لليوم العصيبي أشد بين الرجال ولكنهم يكونون له من الحب ما لم تعرفه حارتهم الممزقة بالبغضاء، وترتفع النباييت وتتهاوى وتتلاقى فى ارتطامات شديدة ويتفرج الغلمان ويقلدون على حين تخلد النساء إلى الراحة أو يعددن العشاء، وصف الأواخ يمتد طولاً بما ينضم إلى الحارة الجديدة من رجال جدد وأثبت صادق وحسن وأبو فصاده أنهم أنهم صيادون مهرة آنوا يرصدون رجالاً من الحارة فى مظاهم وما يزالون بهم حتى يقنعوهم بالانضمام إليهم فيهجروا الحارة خفية وراء آمال لم تشتعل من قبل فى صدورهم وآن صادق يقول لقاسم:  
لا أضمن مع هذا النشاط ألا يهتدى أعداؤنا إلى مقرنا  
فيقول له

-لا سبيل إلينا إلا خلال الممر الضيق، وسيكون الهلاك نصيبهم إذا جاءوا منه.

وآنت إحسان هى سعادته الباقية حتى يلاعبها وحين يهددها وحين يناغيها، لكنها لم تكن آذلك حين تذآره بالراحة فتطبق عليه الوحشة وتلفحه انفاس الحنين، تلك التى خطفت من بين يديه فى أول الطريق فترآته فريسة للوحشة آلما خلا إلى نفسه وأحياناً للندم آما حدث عند حافة الجبل عند حافة الجبل يوم القهوة أو يوم النظرة الرقيقة آنسمة العصارى، وذات ليلة حرن النوم أمام عينيه فوقع صيدا معذباً للوحشة والأرق فى ظلمة الكوخ، فقام من فراشه وانطلق خارجاً ومضى فى الساحة بين الأواخ تحت النجوم الساهرة يستقبل هواء منعشا هواء الصيف عند منتصف الليل فوق الجبل، وإذا بصوت يناديه ثم تساءل صاحبه:

إلى أين أنت ذاهب فى هذه الساعة من الليل؟

فالتفت وراءه فرأى صادق وهو يقترب منه فسأله

ألم تنم بعد؟-

لمحك وأنا راقد أمام الكوخ وأنت أطيب عندي من النوم  
وسارا جنبنا إلى جنب حتى حافة الجبل فوقنا هنالك وقاسم يقول  
الوحدة أحيانا لا تطاق  
فقال صادق ضاحكا  
تبا لها في جميع الأحيان  
ومدا البصر نحو الأفق فبدت الدنيا سماء متألثة فوق أرض غارقة في الظلام وعاد صادق يقول  
أثر رجالك أزواج أو ذوو أهل فهم لا يعرفون الوحشة  
فتساءل قاسم المستنكر  
ماذا تعنى ؟  
مثلك لا يستغنى عن امرأة  
واشتد الاحتجاج بصوت بقدر ما استشعر في قول الرجل من صدق فتساءل  
أتزوج بعد قمر ؟  
فقال الرجل بإيمان  
لو استطاعت أن تسمعك صوتها لأعادت على مسمعك رأي  
واضطرب قاسم وجاء بالانفعال صدره وقال وأنه يخاطب نفسه  
أأما الخيانة بعد الحب والرعاية- .  
-ما أغنى الأموات عن اخلاصنا  
ماذا يعنى الرجل الطيب ؟ يقرر الصدق أم يبرر الهوى؟ ولكن للحقيقة طعما مرا في بعض الأحوال وأنت نفسك لا تواجه  
نفسك بالصراحة التي واجهت بها الأوضاع في حارتك، والذي سوى هذه الأمور في عالمك هو الذي سوى هذه النجوم في  
السماء، والحق الذي لا مرية فيه أن قلبك يخفق أما خفق أول مرة وتنهد بصوت مسموع فقال صادق:  
أنت أول من يحتاج إلى أنيس  
ولما رجع إلى آوخته لمح سكينه واقفة عند الباب فتطلعت إليه المتسائلة وهي تقول بقلق  
لمحك خارجا حين أنت أظنك في أعز النوم  
فقال دون تمهيد لشدة ضغط أفكاره على رأسه  
انظري إلى صادق آيف يحضنى على الزواج!  
فقال سكينه أنما تلقف فرصة من السماء

وددت أن أسبقه-!!  
أنت-.

نعم يا سيدي، شئ ما يجذ في قلبي أن أراك جالسا وحدك مستسلما للوحشة والفكر  
فأشار بيده إلى الأواخ النائمة وقال  
جميع هؤلاء معي- . .

نعم ولكن لا أحد لك في دارك إلى عجوز، رجل فوق الأرض ورجل في القبر  
وشعر بأن ثلثه دليل تقبل لما تريد ولكنه مع ذلك لم يدخل إلى آوخته وقال في نبرة رثاء  
لن أجد زوجة مثلها-!!

هذا حق ولكن توجد بنات يبشرون بالسعد  
وتبادلا نظرة خلال الظلام، أردفت بهنية صمت، ثم تمتت الجارية  
بدرية! ما ألطفها من فتاة  
فقال بدهشة تعدل خفقة قلبه  
البت الصغيرة!

فقال وهي تدارى ابتسامة ماآرة  
ما أنضجها وهي تقدم الطعام أو القهوة  
فتحول عنها وهو يقول  
-يا شيطانة! لعنة الله على سلاتك!

وآن للخبر رنة فرح في حارة الجبل جميعا آاد صادق أن يرقص وزغرودت أمه حتى أسمعت الخلاء وأهالت التهاني على  
قاسم واحتفلت الحارة بالزفاف دون استدعاء لأحد من المحترفين فرقصت نساء من بينهن أم بدرية وغنى أبو فصادة بصوت  
مليح.

أنا أنت صياد سمك وصيد السمك غية  
وسارت الزفة حول الأواخ مستضيئة بأنوار السماوات وانتقلت سكينه بإحسان إلى آوخ حسن على حين خلا آوخ قاسم  
للعروسين.

لذا له حقا أن يراقب - من مجلسه على الفروة أمام الكوخ - بدرية وهي تعجن هي صغيرة بلا جدال ولكن أى امرأة تفوقها في النشاط وتدير الشئون، وتمطت من جهد وبظهر راحتها رفعت ما تهدل من شعرها فوق الجبين، فبدت فاتنة غازية لسويداء القلب، ونم تورد وجهها على إحساسها بمتابعة عينيه حتى توقفت في دلال! فضحك بسرور ومال نحوها فتناول ضفيريها وقبلها مرار ثم عاد إلى جلسته، وآان سعيدا خالى البال آشأنه في الأويقات التي يعتزل فيها أصدقاءه وأفكاره وعلى بعد يسير مضت إحسان تنقل من موضع إلى موضع على مرمى النظر من سكينه الرابضة فوق حجر وتعالى ضجة عند رأس الممر رأى صادق وحسن وبعض الأصدقاء قادمين نحوه حول رجل عرف فيه خردة الزبال من حى رفاة فوقف من فوره لاستقبالهم على حين زغردت نساء أما يفعلن آلما انضم إلى الجبل رجل جديد من أهل الحارة. وعانقه والرجل يقول:

فقال له هاشا باشا

إني معكم ، وجئت معى بنبوت!

أهلا بك يا خردة، نحن لانفرق بين حى وحى فالحارة حارتنا والوقف للجميع.

فضحك الرفاعى قائلا:

يتساءلون عن مكانكم ويتوقعون من ناحيتكم شرا ولكن قلوبا آثيرة تتمنى لك النصر

وألقى نظرة على ما حوله فشملت الآواخ والناس ثم قال بإعجاب

آل هؤلاء معك!

وقال صادق

جاء خردة بخبر هام

فحدجه قاسم بنظرة متسائلة فقال خردة

هذه الليلة

فقال حسن بحماس

اليوم يتزوج سوارس للمرة الخامسة وستسير زفته

هذه فرصة لا تتكرر للقضاء عليه

وتحمس الرجال وقال صادق

سنهجم يوما على الحارة، فكلما تخلصنا من فتوة جاء الهجوم أيسر عناء وأضمن نتيجة

وتفكر قاسم مليا ثم قال



-سناهاجم الزفة أما يفعل الفتوات ولكن اذآروا دائما أننا فهاجم للقضاء على الفتوة.

وقبيل منتصف الليل تجمع الرجال عند حافة الجبل ثم مضوا يهبطون رجلا رجلا وراء قاسم وأيديهم قابضة على نبايتهم  
آنت السماء صافية، والبدر يحتل منها الكبد ونوره يضى على الدنيا وشى الأحلام وانتهوا إلى الخلاء فاتجهوا ناحية  
الشمال من وراء سوق المقطم ثم ساروا بجذاء الجبل حتى لا يضلوا الطريق ، ولما اقتربوا من صخرة هند أقبل نحوهم شبح  
رجل آن يتجشش لهم الأخبار فقال لقاسم:

ستسير الزفة نحو باب النصر

وتعجب قاسم قائلا

لكن زفاتنا تسير عادة نحو الجمالية

فقال خرده

لعلهم يتعدون عن الأمان التي يظنون مقامكم قريبا منها

وفكر قاسم بسرعة ثم قال

سيذهب صادق وبعض الرجال إلى ما وراء بوابة الفتوح ويمضى عجرة وآخرون إلى الخلاء باب النصر وسأنتظر أنا

وحسن-

وبقية الرجال وراء باب النصر وعندما أدعوآم إلى الهجوم أهما

وبدأ الرجال ينقسمون جماعات وقبل أن يهجموا بالرحيل قال:

-رآزوا الضرب على سوارس وأعوانه، أما الآخرون فسيكونون إخوانكم غدا.

ومضت آل جماعة في طريقها وأوغل هو وحسن ومن معهما شمالا بجذاء الجبل ثم عدلوا إلى اليسار في طريق القرافة  
حتى آمنوا وراء البوابة وآن ورجاله يحاصرون الطريق فصادق يتربص يمينا وعجرة يتوثب يسارا وهو يكمن وراء البوابة وقال  
حسن:

ستتجمع الزفة في قهوة الفلكي

فقال قاسم

للفتوات ضحايا لا يجيضم العد

وأرسل صادق صفيرا وتبعه عجرة فاشتدت عزيمتهم وقال حسن

إذا هلك سوارس تسارع أهل حيننا إلينا.

وإذا جاء الآخرون للقضاء علينا أهلكناهم في الممر

هذه الأحلام مثل ضوء القمر وما هي إلا ساعة حتى يتقرر النصر لهم أو تتبخر الآمال مع أرواحهم المهذرة، وخيل له أنه يرى

شبح قنديلن وأنه يسمع نبرة قمر، وأن دهرًا مضى مذ آن يرعى الغنم.  
وشد قبضته على نبوته وقال لنفسه لا يمكن أن ننهزم وسمع حسن وهو يسأله:  
ألا تسمع؟

وأرهب السمع قليلا حتى التقط أصدا من أنغام فقال  
-استعدوا الزفة قادمة.

وأخذت الأصوات تقترب وتتضح ثم ترامى الزمر والطبل وتعالت الآهات وأطبق التهليل ثم على ضوء المشاعل بدت الزفة  
وهي تتقدم وتראה سوارس للعين وسط هالة من الراقصين اللاعبين بالنباييت.  
وتساءل حسن:

أصفر لعجرفة؟

فقال قاسم بثبات

-عندما تصل طليعة الزفة إلى وآلة الثوم.

واستمر تقدم الزفة واشتد الرقص واللعب وأخذ راقص بنشوة الرقص فجعل يثب في الهواء ثم يدور أمام الزفة في سرعة  
رشيقة راسما دائرة متموجة والنبوت يدور مرتكزا على راحته المرفوعة فوق راسه المروحة، ومضى يتقدم خطوة عقب آل  
دورة حتى جاوز وآلة الثوم والزفة من ورائه تتقدم في بطء شديد حتى بلغ رأسها الوآلة عند ذاك صفر حسن ثلاثا فهبط  
عجرفة ورجاله من عطفة الطماعين وانقضوا على مؤخرة الزفة تسبقهم نباييتهم فاجتاح الاضطراب صفوفها وارتفع صراخ  
الغضب والخوف وصفر حسن ثلاثا مرة أخرى فاندفع صادق ورجاله من السمايين على وسط الزفة من الناحية الأخرى قبل  
أن تفيق من الهجمة الأولى، وفي الحال هجم قاسم ورجاله من تحت البوابة على مقدمة الزفة هجمة رجل واحد استرد  
سوارس ورجاله أنفسهم من شرك المفاجأة فرفعوا النباييت واشتبكوا في معرأة مريرة وتطاير آثيرون من المسالمين  
فلاذوا بالحوارى والأزقة واشتد ارتطام النباييت وسالت الدماء من الأوجه والرءوس وتحطمت ألويات وتناثر الورد فطحنته  
الأقدام، وانطلق الصوت من النوافذ وأغلقت المقاهى أبوابها وضرب سوارس بقسوة وبخفة فانطلق نبوته آلمجنون مرة في  
هذه الناحية ومرة في تلك، واشتد الضرب وتكاثف الحقد آقطع الليل ووجد سوارس نفسه بغتة أمام صادق فصرخ:  
-يا ابن النجسة.

ووجه إليه ضربة فتلاقت مع ضربة وجهها صادق الذى ارتج وترنج ورفع سوارس نبوته وهوى به مرى أخرى عليه فتلقاه  
بنبوته

المرتکز على قبضته غير أنه سقط على رأبيه من شدة الصدمة وهم بتوجيه الضربة الثالثة والقاضية لكنه لمح حسن  
منقضا عليه آلوحش لإنقاذ صاحبه فتحول نحوه وهو يطفح بالغضب صائحا:

-وأنت أيضا يا ابن زآريا ! يا ابن الزانية.

وأطلق نحوه ضربة هائلة لو لم يتفاد منها بوثة جانبية لهلكن ثم طعن سوارس في أثناء وثبته برأس نبوته فأصاب عنقه ، عطت الطعنة سوارس لحظات عن تسديد الضربة التالية فسيطر حسن على توازنه ووجه ضربة شديدة بقوته الخارقة فأصابت جبهة سوارس وفجرت نافورة من الدم وسرعان ما تراخت قبضته عن نبوته فهوى، وتراجع خطوات مترنحة ثم سقط على ظهره دون حراك، وعلا على أصوات النبايت المتلاطمة صياح رجل:

-سوارس قتل!

فأدراه عجرة بضربة نبوت فوق أنفه فصرخ، وتراجع فعثر بطريخ فسقط وقويت عزيمة رجال قاسم فاشتدت ضرباتهم وتخاذل رجال سوارس وهالتهم آثرة الساقطين من رجالهم فتقهقروا ثم أسلموا أرجلهم للفرار ، وأخذ رجال قاسم في التجمع حوله وهم يهلثون ، البعض تسيل دماؤهم والبعض يحملون جرحاهم، ونظروا صوب الأرض على ضوء الفوانيس الصادر من شراعات أبواب المقاهي أجسادا مطروحة منها ما لقي حتفه ومنها ما راح في غيبوبة ووقف حمروش فوق ظل سوارس وهتف:

ليطمئن جثمانك يا شعبان!

فجذبه قاسم إلى جانبه وقال

يوم النصر قريب يوم يلقي بقية الفتوات نفس المصير، يوم نصبح سادة حارتنا وأصحاب وقفنا وأحفادا بررة لجدنا وعند عودهم إلى الجبل استقبلتهم النساء بالزغاريد وجرت مع الهواء أنباء النصر وأوى قاسم إلى آوخته وبدرية تقول له -عليك غبار آثير ودم ن يجب أن تستحم قبل النوم.

ولما استلقى عقب الاستحمام تأوه من الألم وأتت له بطعام وانتظرت أن يجلس ليتناوله ولكن استولت عليه حال بين اليقظة والمنام.

وشعر بارتياح أنه السعادة ولكن شابه إحساس قلق أنه الحزن، وقالت بدرية:

تناول طعامك

فنظر إليها بعينين مثقلتين حالمتين وقال

ستشهدين النصر قريبا يا قمر

وانتبه إلى هفوة اللسان إثر وقوعها ورأى تغير وجه بدريه، فجلس في فراشه الأرضى وقال في تودد وارتباك

ما أشهى طعامك

لكنها نفرت من تودده متجهمة فتناول قطعة من الطعمية قائلا

جاء دورى لأعودك الطعام

فلوت عنه وجهها وتمت  
آنت طاعة فى السن ولا جمال لها  
فتقوضت قامته المنتصبة فى آآبه أنه تهدم وقال فى عتاب وحن شديدىن  
لا تذآرىها بسوء فمثلها لاىبغى أن يذآر إلا بالرحمة- .  
فارتد إليه رأسها متوثبا لكنها رأت على صفحة وجهه حزنا مخيفا فترددت ثم لآذت بالصمت

## 87

رجع المغلوبون يرآهم الحزى، ابتعدوا ما استطاعوا عن الأنوار المنبعثة من بيت سوارس حيث يتالق الجو ببهجة الفرح والطرب، وانحجز آل رجل فى ربهه وإذا بالآباء السود تنتشر آالحريق فتعالى الصوات فى مسآن آآيرة وانطفأ العرس آأما أهيل عليه التراب انطلقت الحناجر تنعى سوارس ثم تنعى من قتل معه من رجاله وامتد المصاب فشملى رجالا من الرفاعية وآخريين من جبل ممن اشترآوا فى الزفة ومن المجرم المعتدى؟ قاسم ، قاسم الغنام ، قاسم الذى آن يىبغى أن يظل متسولا مدى عمره لولا قمر، وشهد رجل بأنه تبع عصابة قاسم فى عودتها حتى اهتدى إلى ملجاها فوق المقطم وتساعل آآيرون هل يعتصم بالجبل حتى يقضى على رجال الحارة؟ واستيقظ النائمون وخرجوا إلى الحارة والأربع تتجاوب بالصوات وصراخ آأد رجال جبل فى غضب:

اقتلوا الجرايىع

لكن جلطة أوقفه صائحا

لا ذىب لهم ، قتل فتوتهم، وعدد وافر من رجالهم- . .

أحرقوا المقطم- .

هاتوا جثة قاسم لتأأها الكلام- .

على الطلاق لا شرين من دمه- .

الجربوع اللئيم الجبان- .

بحسب أن الجبل سيحيمه- .

لن يحميه إلا القبر

واضطراب وقال له صادق:

جاءت الحارة للانتقام وهم مجتمعون أسفل الممر

وقال خردة

-آنت أول ذاهب للعمل فرأيتهم وأنا على مبعدة خطوات من الخلاء فرجعت مسرعا وطاردين بعضهم فأصابوني بحجر في ظهري وجعلت أنادى صادق وحسن حتى جاء جماعة من إخواننا إلى رأس الممر فانتبهوا إلى الخطر ورموا المهاجمين بالأحجار حتى تراجعوا.

ونظر قاسم نحو رأس الممر فراء حسن وبعض الرجال واقفين عنده بأيدي قابضة على الأحجار فقال:  
نستطيع أن نصدهم هناك بعشرة رجال:

فقال حمروش

-إن الصعود على هذه الحال انتحار فليصعدوا إذا شاءوا.

وتجمع الرجال والنساء حول قاسم حتى خلت الآواخ جاء الرجال بالنباييت والنساء بمقاطف طوب أعدت لذلك اليوم، وانطلق

أول شعاع للشمس من سماء صافية وتساءل قاسم:

أما من مسلك آخر إلى المدينة؟

فقال صادق واجما

يوجد مسلك في الجنوب على مسيرة ساعتين في الجبل

وقال عجرمة

لا أظن أن لدينا من الماء ما يكفيننا أآثر من يومين

فسرت فيهم همهمة قلق وبخاصة النساء فقال قاسم

-لقد جاءوا للانتقام لا للحصار، وإذا حاصرونا عمدنا إلى المسلك الآخر لفك الحصار.

ومضى الرجل يفكر وهو يحافظ على هدوء وجهه الذى تتطلع إليه الأبصار لو حاصروهم لوجدوا أآبر المشقة في إحضار

المياه من المسلك الجنوبي، ولو هجم برجاله عليهم فهل يضمن الانتصار على رجال فيهم لهيطة وجلطة وحجاج؟ وأى

مصير يجنبه مغيب هذا اليوم لهم؟

ورجع إلى آوآه ثم عاد قابضا على نبوته ثم سار إلى حسن ورجاله عند رأس الممر فقال له حسن:

-لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب.

ودنا قاسم من حافة الجبل فرأى أعداءه متجمعين على هيئة هلال في الخلاء بعيدا عن مرمى الحجر هاله عددهم لكنه لم

يستطيع أن يميز الفتوات بينهم، ومد بصره خلال الفضاء حتى استقر على البيت الكبير بيت الجبلاوى الغارق في صمته أنه

لايبالى بصراع الأبناء من أجله ما أوجههم إلى قوته الخارقة التي دانت لها هذه البقاع فى الزمن الخالى، ولعل القلق لم يكن ليساوره لولا ذآرى مصرع رفاة على آتب من بيت جده ووجد دافعا من أعماقه يدعوه إلى ان يصيح بأعلى صوته قائلا

يا جبلاوى ، أما يفعل أهل حارته فى أحوال شتى، لكن لفت سمعه أصوات النساء المقتربة فاستدار ناظرا حوله فرأى الرجال منتشرين على حافة الجبل ينظرون إلى أعدائهم والنساء متجهات إلى المواقع نفسها فصاح بمن أن يرجعه، وشدد فى الصياح لدى ترددهن وأمرهن بان يعددن الطعام وأن يزالون مالون الأعمال وما زال بمن حتى صدعن بامرهم فاقترب منه صادق قائلا:

أحسنت فأن اخوف ما أخاف علينا تأثير اسم لهيطة

فقال حسن

ليس أمامنا إلا أن نضرب

ولوح بنبوته مردفا

سيتعذر علينا التحوال سعيا وراء أرزاقنا بعد أن عرفوا مكمنا ، فليس أمامنا إلا أن نهجم

فأدار قاسم رأسه مادا البصر نحو البيت الكبير وقال

بالصواب نطقت ن ما قولك يا صادق ؟- .

نتظر حتى يجئ الليل

فقال حسن

سيضرب بنا الانتظار ، ولن ينفعا الليل فى عراق

وتساءل قاسم

ترى ما هى خطتهم ؟

فقال صادق

أن يجبرونا على التزول إليهم

وتفكر قاسم مليا ثم قال

إذا قتل لهيطة ضمنا النصر

وردد عينيه بين الرجلين ثم أردف

إذا سقط تقاتل جلطة وحجاج على الفتونة- .

ومضت الشمس فى الارتفاع فتوهج الحصا وانتشرت نذر الحر

وتساءل حسن:

-خبراني ما العمل؟

فبدأ تسأله آالحصار ولكن لم يطل باحد التردد فقد انطلق صراخ امرأة من ناحية الساحة، وتلته على الفور صرخات وتميز

الصوت وهو يصيح:

هوجمنا من الناحية الأخرى.

وارتد الرجال عن الحافة فانطلقوا نحو الساحة فيما يلي الجنوب أوصى قاسم المدافعين عن الممر بمزيد من الانتباه ، أمر

خردة أن يدعو النساء القادرات إلى الانضمام إلى المدافعين عن الممر، جرى بين صادق وحسن نحو الساحة حتى توسط

رجاله لاح للجميع لهيطة وهو يقود عصابة آبيرة من الرجال قادمين من جنوب الجبل، قال قاسم بحنق:

شاغلنا برجاله حتى يقوم برحلته حول الجبل ثم يجيئنا من مسلك الجنوب

فصاح حسن وجسمه العملاق ينتفخ بالتوثب

جاء بقدميه إلى موته!

فقال قاسم

-يجب أن نتنصر وسنتنصر.

وامتد رجاله من حوله آذراعين قويتين ومضى القادمون يقتربون بنايت مرفوعة آأهم دغل من الأشواك ودخلوا في مجال

الأبصار فقال صادق:

-ليس فيهم جلطة ولا حجاج.

وأدرك قاسم أن جلطة وحجاج على رأس المحاصرين أسفل الجبل وحدهس أنهما سيهاجمان الممر مهما آلفهم ذلك من

مشقة لكنه لم يفض بوساوسه إلى أحد، وتقدم خطوات وهو يلوح بنبوته فشد الرجال على نبايتهم وجاء الصوت الغليظ

صوت لهيطة وهو يصيح:

-لن تدفنوا في قبر يا أولاد الزواني.

وامدفع قاسم مهاجما فاندفع حوله الرجال وأقبل الآخرون آالصخور المنقذفة حتى اصطكت النبايت واحتلقت الزمجرة

وارتفع الزئير وفي ذات الوقت أهال الطوب من المدافعات عن رأس الممر على هجوم من أسفل الجبل بدا، لكن آل رجل

من رجال قاسم مع آخر من العدو اشتبك تضارب قاسم ودنجل بعنف ومرك وهوى نبوت لهيطة على قرقوة حمروش

فانكسر، والتحم صادق وزينهم في هجمات متتابعة ودك حسن بنبوته الغضبان فسكت ورب لهيطة زقلة في رقبته فانقلب،

وتمكن قاسم من إصابة دنجل في أذنه فصرخ وتراجع ثم أندلق وحمل زينهم على صادق حملة شديدة لكن هذا بادره

بطعنة في بطنه فخذلته يداه فثنى بطعنة آخرى فجندله، وتغلب خردة على الحفناوى ولكن لهيطة شل ذراعه قبل أن يهنا

بنصرته ووجه حسن ضربة إلى لهيطة لكنه زاع غنها برضاقة ورفع نبوته ليهوى به على الشاب غير أن قاسم عاجلة بضربة تلقاها بنبوته، وجاء أبو فصاده آلريح ليقذفه بالضربة الثالثة لكن لهيطة نطحه برأسه في أنفه فحطمه ، بدا لهيطة أنه قوة لا تغلب، واشتد القتال وتلاطمت النبايت بلا هوادة واندفعت سيول الشتائم واللعنات وانبثقت الدماء تحت أشعة الشمس الحارقة وتوالت الاصابات فخر الرجال تباعا من الفريقين واحترق لهيطة غضبا للمقاومة المستبسلة التي لم يتوقعها فتضاعفت هجماته وضرباته وقسوته، ومن الناحية الأخرى أمر قاسم حسن وعجربة بان يتحينا الفرصة للهجوم معه على لهيطة حتى يهدموا الحصن الذى يلوذ به المهاجمون ، وإذا بامرأة من المدافعات عن الممر تجئ وهى تصرخ محذرة:

إنهم يصعدون تحت ألواح العجين

ففزعت قلوب رجال الجبل وصاح لهيطة

لن تدفنوا فى قبر يا أولاد الزوان

فصاح قاسم فى رجاله

-انتصروا قبل أن يصعد المجرمون.

واندفع نحو لهيطة بجناحين من حسن وعجربة فاستقبله الفتوة بضربة شديدة تلقاها بنبوته ، وأراد عجربة أن يعاجلة بضربة ولكن العفش أصاب ذقنه فانبطح على وجهه ووثب حسن امامه وهما يتبادلا ضربتين ورمى حسن بنفسه عليه فالتحما فى صراع مميته وارتفع صراخ النساء عند رأس الممر وأخذ بعضهن يلذن بالفرار وتخرج الموقف، وسارع قاسم بغرسال صادق وبضعة رجال إلى حافة الجبل، ثم انقض على لهيطة لكن اعترضه زحلقة فاشتبكا فى قتال عنيف، ودفع حسن لهيطة بكل قوته فتراجع خطوة فبصق على عينه وهو يهدر، ثم رآله فأصاب رأبه وبسرعة خاطفة هجم عليه متقوسا فنطح بطنه أنه ثور غاضب فاختلف توازن الجبار ووقع على ظهره فبرك الآخر فوقه وأطبق بنبوته على رقبته بكلتا يديه وضغط بكل قواه، وأقبل رجال للدفاع عن فتوهم فتصدى لهم قاسم وبعض رجالهن واصطكت قدما لهيطة وجحظت عيناه، واحتقن بالدم وجههن وأخذ يحنق وبغته وثب حسن واقفا فوق غريمة الخائر القوة وهوى على رأسه بنبوته بضربة شرسة حانقة فتحطمت جمجمته وانتهى وصرخ حسن بصوت الرعد:

-لهيطة قتل ، فتوتكم قتل ، انظروا إلى جثته.

وأحدث موت لهيطة غير المتوقع أثرا عنيفا فاشتد عزائم ووهنت عزائم واندفع الأمل واليأس فى قتال مرير وانظم حسن إلى قاسم فى صراعه فلم تحب له ضربه وشهد الميدان رجالا تتوثب ثم تثب ونبايت ترتفع ثم تنقض وثار الغبار وانتشر ثم أطبق على المتعارين آلليل دموى وقذفت الصدور بجيشات وصيحات ولعنات وصرخات متأوهة وزجرات متوعدة وبين آلأونة واخرى يترنح رجل ثم يسقط أو يتراجع ثم يفر، وانتشر المنطرحون على الأرض والتمعت الدماء تحت أشعة الشمس، وانتحى قاسم جانبا فأرسل بصره نحو رأس الممر الذى أقلقته أمره فرأى صادق ورجاله يصبون الطوب بالمقاطف فى توتر



شديد دل على اقتراب الخطر المتصاعد وسمع النساء وبينهن زوجته وهن يصرخن المستغيثات، وشاهد بعض رجال صادق وهم يقبون على النبايت استعدادا للقاء المصريين على الصعود تحت وابل الطوب، وقدر خطورة المرفمضى من فوره إلى جثة لميطة التي ابتعد عنها القتال لتقهقر رجال الحارة وراح يسحبها وراه نحو رأس الممر ونادى صادق فجاءه مسرعا فتعاوننا على حمل الجثة، وسارا بها حتى أول الممر وقذفا بها معا فتهاتوا ثم تدرجت حتى وقفت تحت أرجل الصاعدين تحت الأولواح، ووقع اضطراب واضح وجلجل صوت حجاج وهو يصرخ فى غضب.

اصعدوا تقدموا الويل للمجرمين

فصاح قاسم متهكما فى ضبط نفس عجيب

-تقدموا هذه جثة فتوتكم وورائى جث رجالكم الآخرين تقدموا نحن فى انتظارآم.

وأشار إلى الرجال والنساء فاهمال الطوب الماطر حتى توقفت طليعة المهاجمين وأخذوا فى التراجع البطئ رغم دفع حجاج وجلطة لهم، وترامت إلى قاسم همهمة تحرش واحتجاج وتذمر فصاح قاسم:

يا جلطة ، يا حجاج ، اقدا ولا تهربا

فارتفع عليه صوت جلطة أنه نبرة الكراهية وهو يصيح

انزلوا إن آتتم رجالا ! انزلوا يا نسوان يا أولاد العواهر!

وصاح حجاج وهو واقف وسط الموجة المرتدة من الرجال

-لا عشت إن لم أشرب من دمك يا أقدر من رعى الغنم!

فتناول قاسم حجرا وقذف به بكل قوته وتواصل ائهمار الأحجار واسرعت الموجة المرتدة حتى اوشكت أن تنقلب جريا وإذا بحسن ييئى فيقول وهو يمسح عن جبهته دما سائلا:

انتهى القتال ، وفر الأحياء منهم نحو الجنوب

فهتف قاسم

ادع الرجال لتتبعهم!

لكن صادق قال له

إن الدم يسيل من أسنانك وذقنك!

فمسح فمه وذقنه براحتة وبسطها فرأها حمراء قانية وقال حسن بأسف

قتل من ثمانية وأصيب الأحياء بجروح بالغة فلن يستطيعوا حراآا

ونظروا إلى أسفل من خلال الأحجار المتهاوية فرأى أعداءه يراضون فى نهاية الممر فقال صادق

لو آتموا رحلتهم ما وجدوا مقاتلا يصمد لهم- . .

ثم لثم ذقن قاسم الدامي وأردف بامتنان  
-أنقذنا عقلك.

وأمر قاسم رجلين بالبقاء عند راس الممر للحراسة وأرسل آخرين في أعقاب الهاريين لاستطلاع النبأ ثم عاد بين صادق وحسن وهم ينقلون خطوات ثقالا في غعياء وآلال نحو الساحة التي لم يبق فوق أديمها جثث القتلى أنت مذبحه وأى مذبحه قتل من رجاله ثمانية ومن أعدائه عشرة غير لهيطة ولم يسلم من رجاله الحياء أحد من أسر أو جرح ن وقد أووا إلى الأواخ فأخذ النساء في تضييد جراحهم على حين ضجت آواخ الضحايا بالبكاء والصوات وجاءت بدرية في لهف ودعتهم إلى الكوخ لتغسل جروحهم، ثم جاءت سكيئة حاملة إحسان وهي تبكى بكاء صارخا وأنت الشمس تقذف بنيراتها من آبد السماء، والحداي والغربان تدور مدومة وهابطة في الفضاء، والجو يفوح برائحة الدم والتراب، ولم تكف إحسان عن البكاء

ولكن لم يعرهما أحد التفاتا وحتى حسن العملاق بدا وأنه يترنح وتمتم صادق بصوت حزين:  
ليرحم الله قتلتنا  
فقال قاسم

ليرحم الله القتلى والأحياء على السواء  
وأخذت حسن صحوة ابتهاج طارئة فقال  
سنتنصر عما قريب فتودع حارتنا عهد الدم والإرهاب  
فقال قاسم

-سحقا لعهد الإرهاب والدم.

89

لم تشهد الحارة آثره آهذه من قبل ، رجع الرجال صامتين ذاهلين ذابلين غاضين البصار آنما شدت جفونهم إلى أديم الرض ووجدوا أبناء الهزيمة قد سبقتهم إلى الحارة وأن الربوع ترتج باللطم والعويل وانتشر الخبر في الحارات والأزقة وباتت سمعة الحارة الرهيبة أهدوثة تلوأها ألسنة التشفى وتبين أن حى الجرايع بأسره قد غادر الحارة خوفا من الانتقام فخلت الدور والدآآين ولم يشك أحد في أنهم سينضمون حتما إلى ابن حيههم المنتصر فيزداد بهم عددا وقوة وخيم الحزن على الحارة المكلفة بالحداد لكن أنفاسه الحارة قطرت حقا ومقتا ورغبة في الانتقام وإذا برجال من جبل يتساءلون عن فتوة الحارة ولمن تكون وإذا بالسؤال نفسه يتردد على ألسنة في حى رفاعة فانتشر سوء الظن انتشار التراب في العاصفة،

وعلم الناظر رفعت بما تهجس به الخواطر فدعا حجاج وجلطة إلى مقابله وذهب الرجلان وحوله آل رجاله الأشداء حتى غص بهم بهو الناظر واحتل آل فريق جناحا من البهو فكأنه لم يعد يأمن الاختلاط بجيرانه وقد أدرك الناظر مغزى تلك فازداد غما على غم وقال:

تعلمون أن آثرته حلت بنا لكننا لم نمت ولم يقض علينا ولم يزل في وسع سواعدنا أن نحقق لنا النصر على شرط أن-  
نحافظ على وحدتنا وألا فقولوا علينا السلام  
فقال رجل من جبل:

ستكون الضربة الأخيرة لنا وما شدة إلا وبعدها الفرج

وقال حجاج

بالجبل لهلكوا عن آخرهم

وقال ثالث

لولا اعتصامهم

لا قاهم لهيطة بعد رحلة طويلة شاقة تبرك بعدها الجمال

فقال الناظر بامتعاض

حدثوني عن وحدتكم ما شأها؟

فقال جلطة

نحن بضل الله إخوان وسنظل آذلك-!

هذا قولك لكن مجيئكم بعددآم الوفير هذا ينم على الارتياب الذى يفرق بين قلوبكم

فقال حجاج

بل دعت إلى ذلك رغبة الجميع فى الانتقام!

فوقف الناظر متوتر الأعصاب وقال مقلبا عينيه فى الوجوه الكالحة

-آونوا صريحين إنكم تنظرون إلى بعضكم بعين ، وتنظرون بالأخرى إلى فتوة الحارة إلى مكان لهيطة الخالىن ولن تعرف

الحارة الأمان مادامت هذه الحال، واحشى ما أحشاه أن تتداخل النبائيت فى الأمر فتهلكوا جميع ويألكم قاسم لقمة

ساعة!

فارتفعت أصوات آثيرة تقول فى نفس واحد:

نعوذ بالله من ذلك

فقال الناظر بصوت قوى واضح

لم يعد بالحارة إلا حيا جبل ورفاعة فليكن عليها فتوتان، ولا ضرورة للفتوة الواحد، ولنتعاهد على ذلك ولنكن يدا واحدة-  
على الخارجين

وانقضت ثوانى صمت رهيبه ثم رددت أصوات فى فتور:

نعم .. نعم

وقال جلطة

سادة الأحياء منذ القدم

فقال حجاج محتجا

سنرضى بذلك رغم أننا

ليكن القبول بلا من ، لا سادة هنا ولا خدم وبخاصة بعد ذهاب الجرايع ومنذا ينكر أن رفاعة آان أنبل من عرفت حارتنا؟

فهتف جلطة محتدا حانقا

حجاج ! أنا عارف قلبك

وهم رفاعى بالكلام ولكن الناظر صرخ غاضبا

-الجبل الذئاب،

وخبرونى هل تستطيعون أن تقفوا صفا واحدا أو أرى لنفسى وجهة أخرى؟

خبرونى هل عزمتم على أن تكونوا رجالا أو لا ، أن أى نبأ يطير عن ضعفكم سيعقبه زحف الجرايع من

فصاح أفراد من هنا ومن هناك:

هس ، عيب يا رجال، حارتنا على وشك أن تفقد آل شئ

وتطلعت إليه الوجوه فى تسليم فقال

مازلتم متفوقين فى العدد والقوة، ولكن لا تهاجموا الجبل مرة أخرى

وارتسم التساؤل على الوجوه فأردف قائلا

سنحبسهم فوق الجبل سنتربص لهم أمام المسلكين المفضيين للجبل، فإما يموتون جوعا وإما يضطرون إلى النزول إليكم-.

فتقضون عليهم

فقال جلطة:

جبنا وأبى إلا أن يهاجم

وقال حجاج

نعم الرأى ، به أشرت على لهيطة رحمه الله ولكنه اعتد الحصار

-هو الرأىن ولكن ينبغى تأجيل تنفيذه حتى يرتاح الرجال، وطلب الناظر إليهم أن يتعاهدوا على الإخاء والتعاون فتصافحوا ورددوا الاقسام وبدا لكل ذى عينين فيما تبع ذلك من أيام أن جلطة وحجاج يشتدان فى معاملة أتباعهما لتغطية آثار الهزيمة التى لحقتهم، وأذاعا فى الحارة أنه لولا حماقة لهيطة لقضى على قاسم بلا مشقة ، ولكن إصراره على صعود الجبل أمك رجاله فذهب بقوتهم وشجاعتهم، وألقاهم عدوهم وهم على أسوأ حال، وصدق الناس ما قيل لهم ومن أبدى من الارتياح سب ولعن وضرب أما فتونة الحارة فلم يكن يسمح لأحد بالخوض فيها على الأقل فى الجهر، ولكن آثيرين - من الرفاعية والجبلية على السواء - جعلوا يتساءلون فى الغرز عن سيخلف لهيطة بعد النصر، وتولد فى الحارة رغم التعاهد والأقسام جو خفى من الريية فاحتاط آل فتوة لنفسه فلم يكن ينأى عن مرآزه إلا وسط جماعة من أعوانه، لكن الاستعداد ليوم الانتقام لم يتوقف لحظة واحدة.

واتفقوا فيما بينهم على أن يعسكر جلطة ورجاله أمام مسلك المقطم عند السوق وأن يعسكر حجاج ورجاله أمام مسلك القلعة وسوف يلازمون أماآهم ولو بقوا عمرا وستسرح النساء للبيع والشراء ويحئنهم بالطعام، وعند مساء اليوم السابق ليوم الخروج تجمعوا فى شتى الغرز وجاءوا بقدور البوطة والنبيد وراحوا يحششون ويسكرون حتى ساعة متأخرة من الليل وودع الأعوان حجاج أمام ربه بحى رفاعية وهو فى نهاية من الانبساط والسلطنة ودفع الباب ومضى فى الدهليز وهو يدندن:

الأوله أه..

لكنه لم يتمها ، انقض عليه شبح من وراءه فسد فاه بيده وطعن بسكين قلبه بالأخرى، انتفض الجسم بقوة بين يديه فلم يترآه أن يحدث سقوط صوتا ، وأنامه برفق على الأرض لا حراك به فى الظلام الدامس.

لأول مرة فى مصر

النص الكامل لرائعة نجيب محفوظ .. أولاد حارتنا

بعد 35 عاما من غيابها عن الشعب المصرى

\*\*\*

90

استيقظت الحارة فى بآر الصباح على ضجة صارخة مفزعة فتحت النوافذ واطلت الرعوس وسرعانا ما تجهت نحو الربع الذى يقيم فيه حجاج فتوة رفاعية، حيث تجمهر جمع غفير واختلط اللغط بالصراخ والعيويل ، وامتلأ دهليز الربع بالرجال والنساء، وآثر التساؤل والتعليق وانذرت الأعين المحمرة بالبكاء بكل شر خطيرين وهرع إلى الرفع الرفاعية من آل ربع ودار وحجر وما

لبث أن جاء جلطة ورجاله فوسع الناس لهم حتى انتهوا إلى الدهليز وصاح جلطة:

مصيبة ولا آل المصائب ليتنى أنت فذاك يا حجاج

آف البآون عن البكاء والصارخون عن الصراخ والخانقون عن التساؤل ، لكنه لم يسمع آلة مجاملة واحدة فعاد يقول  
مكيدة دنيئة ، ليس الغدر من شيم الفتوات لكن قاسم راعى غنم متسول لا فتوة، ولن يهنأ لى بال حتى أمى بجثته إلى-  
الكلاب

وصاحت امرأة فى حدة ملتاعة:

مبارآة عليك فتونة الحارة يا جلطة

وتقلصت سحنته بالغضب فوجم القرييون منه وسرت الدمدمة فيما وراء ذلك وصاح بغلظة

فلتغلق النسوان أفواههن فى هذا اليوم الأغير

فعادت المرأة تقول

ليفهم آل ذى عقل

وصوتت فهاج الصوت، وانتظر جلطة حتى هدأت العاصفة وقال

مكيدة ماآرة دبرت بليل للايقاع بيننا

فهتفت امرأة اخرى

مكيدة ! قاسم وجرايبعه فى الجبل، وحجاج قتل فى حارته بين قومه وجيرانه الطامعين فى الفتونة!

فصاح جلطة

مرة مجنونة، ومجنون آل من يتقبل ظنها، وإذا تماديتم فسيقتل بعضنا بعضا أما يفسد قاسم

وإذا بقلة تموى فتتحطم عند قدمى جلطة فتراجع ورجاله وهو يقول

-عرف ابن الزانية آيف يفسد بيننا.

ومضى من توه نحو بيت الناظر، واشتد اللغظ عقب ذهابه وإذا برجلين - رفاعى وجبلى - يتشابكان فى شجار عنيف وتبعتهما

على الأثر امرأتان وتضارب غلمان من الحيين واستعرت معارك قذف وسب من النوافذ ، وشاع الاضطراب فى الحارة حتى

تجمهر فى آل حى رجاله وارتفعت النباييت وخرج الناظر من بيته بين خدم ورجال فسار حتى توسط الحيين وصاح بأعلى

صوته:

اعقلوا .. الغضب سيعميكم عن عدوآم الحقيقى ، قاتل المعلم حجاج

فصاح أحد الرفاعية

من أدراك بذلك ؟ وأى جربوع يتجرأ على دخول الحارة؟

فصاح رفعت

آيف يقتلون حجاج اليوم وهم في أشد الحاجة إليه- . .

سل المجرمين ولا تسلنا نحن-!

الرفاعية لا يخضعون لفتوة من جبل-.

سيدفعون ثمن دمه غاليا

فعاد الناظر يصيح

لا تطيعوا المكيدة وغلا رأيتم قاسم زاحفا عليكم آلرؤباء- . .

فليأت قاسم إذا شاء ولكن لن يكون جلطة فتوة علينا

فقال الناظر وهو يضرب آفا بكف

فتعال الأصوات

انتهينا وسيدرآنا الخراب.

-الخراب خير من جلطة.

وقذفت طوبة من حى رفاعة فاستقرت بين الرجال فى حى جبل وأجاب حى جبل بالمثل، ورجع الناظر مسرعا وإذا بالطوب

ينهمر من الجانبين وسرعان ما اشتبك الحيان فى معرأة دامية واشتد الضرب فى قسوة بالغة وامتدت المعرأة إلى بعض

الأسطح حيث تبادل نساء من الحيين قذف الطوب والحصى والتراب والخشاب وتواصل الاشتباك فترة طويلة رغم أن الرفاعية

آنوا يقاتلون بغير فتوتهم، ولكن آثر صرعاهم أمام ضربات جلطة التى لا تخيب وإذا بأصوات نساء تنطلق من النوافذ فى

ضوضاء غير متميزة ضاعت فى ضوضاء المعرأة غير أن النساء بدون وهو يشرن بأيديهن فى فزع تارة نحو طرف الحارة

الشرقة وطورا نحو الطرف الأخر والتفت أناس إلى حيث تشير النساء ، رأوا قاسم أمام البيت الكبير يتقدم فى عصبية من

رجال تسبقهم نبايتهم ورأوا فى الطرف الخر حسن يتقدم فى عصبية أخرى ضج المكان بصيحات التحذير وتتابع الأحداث

فى سرعة خاطفة أمسكت الأيدى عن الضرب آأما شلت وبدافع عفوى تكتلوا وتداخلوا الضارب منهم والمضروب وانقسموا

فرفقتين لمواجهة القادمين وصاح جلطة بحنق:

-قلت إنها مكيدة فلم تصدقوا.

استعدوا للقتال وهم من الجهد واليأس على أسوأ حال لكن قاسم توقف فجأة عن التقدم ن ومثله فعل حسن آأهما-.

ينفذان خطة واحدة

وصاح قاسم بأعلى صوته:

لا نريد أذى أحد، لا غالب ولا مغلوب أبناء حارة واحدة وجد واحد والوقف للجميع

فصاح جلطة

مكيدة جديدة

فقال قاسم غاضبا

لا تدفعهم إلى القتال دفاعا عن فتوتك ، دافع عنها وحذك إذا شئت

وصرخ جلطة

-اهجموا-

وانقض على مجموعة قاسم ، تبعه رجال وانقض آخرون على حسن ورجاله تردد آثيرون تسلل الجرحى إلى الربوع وأذلك المنهكون ثم تبعهم المترددون لم يبق إلا جلطة وعصابتها لكنهم خاضوا معركة شديدة رغم ذلك واستماتوا في الدفاع تضاربوا بالنباييت والرءوس والقدام والأيدى ورآز جلطة هجومه على قاسم بحقد أعمى تبادلا ضربات عنيفة ثم مضى قاسم يتلقى ضربات عصابة جلطة حتى غابت تحت عشرات النباييت، وانقض حسن وصادق على جلطة هو مشتبك مع قاسم فضرب صادق نبوته وهوى حسن بنوته على رأسه مرة وثانية وثالثة فسقط النبوت من يده واندفع يجرى الشور الذيح ثم انكب على وجهه أمصرع بوابة انتهت المعركة سكنت لأصوات النباييت وصرخات الرجال وقف المنتصرون وهم يلهثون ويمسحون الدماء عن الوجوه والرءوس والمعاصم لكن ثعورهم افترت رغم ذلك عن ابتسامه الفوز والسلامة ، آن العويل يترامى من النوافذ ورجال جلطة مبعثرون على الأرض والشمس ساطعة ترسل أشعة حامية وخاطب صادق قاسم قائلا في ثقة وطمأنينة:

انتصرت ، نصرك الله ، إن جدنا لا يخطئ في اختياره ولن تسمع حارتنا العويل بعد اليوم- .  
فابتسم قاسم ابتسامه هادئة ثم استدار في عزم موجهها بصره نحو بيت الناظر فالتجته الرءوس إليه

91

سار قاسم على رأس رجاله إلى بيت الناظر فوجوا الباب والنوافذ مغلقة والصمت والكآبة يخيمان عليه وطرق حسن الباب بقوة ولكن أحدا لم يرد وتجمع نفر من الرجال وراحوا يدفعون الباب بشدة حتى انفتح على مصراعيه ودخل الرجل ورجاله وراءه فلم يعثروا للبوابة على أثر ولا أحد من الخدم وتسارعوا إلى البهو ببقية الحجرات ثم الأدوار الثلاثة فتبين لهم أن الناظر وأهله وخدمه قد غادروا البيت هارين والحق أن قاسم لم يأسف على ذلك إذ آن في أعماقه راغبا عن الفتك بالناظر إآراما لزوجته التي لولاها لفضى عليه من أول الأمر، ولكن حسن والأخرين غضبوا غضبا شديدا فنجاة الرجل الذى أذاق



الحارة الفقر والهوان طوال عهده بما وهكذا تم النصر لقاسم وأصبح رجل الحارة دون منازعن وتولى شئون النظارة إذا أنه آن لابد للوقف من ناظر، ۞ وعاد الجرايع إلى حيههم وعاد معهم آل مامن هاجر من الحارة خوفا من الفتوات وعلى رأسهم المعلم يحيى ومضت أربعون يوما في هدوء فالتأمت الجراح وسكنت النفوس واطمأنت القلوب ويوما وقف قاسم أمام البيت الكبير ودعا إليه أهل الحارة رجالا ونساء من جميع الحياء فمضوا إليه في لطفة وتطلع وقلوبهم تحفق بشتى الخواطر وآتظ بهم المكان واختلط جرايعهم بآل جبل وآل رفاعه وبدا قاسم باسم متواضعا رقيا مهيبا معا فأشار إلى أعلى إلى البيت الكبير وقال:

هنا يقيم الجبلأوى، جدنا جميعا لا تمييز في الانتساب إليه بين حى وحى أو فرد وفرد أو رجل وامرأة- .  
تملتت الوجوه فى دهشة وبشر وبخاصة وجوه الذين توقعوا أن يسمعوا مقاله رجل ملك وانتصر وأردف قاسم قائلا:

وحولكم وقفه، وسيكون لكم جميعا على السواء أما وعد أدهم حين قال له : سيكون الوقف لذريتك، وعلينا أن نحسن- .  
استغلاله حتى يكفى الجميع ويفيض، فنحيا أما تمنى أدهم أن يحيا فى رزق موفور وطمأنينة شاملة وسعادة صافية غناء وتبادل الناس النظرات أنهم فى حلم فواصل آلامه قائلا:

يوجد فى حارتنا بعد اليوم فتوة ، لن تؤدوا إتاوة لجبار، أو تخضعوا لعربيد- .

متوحش فتمض حياتكم فى سلام ورحمة ومحبة

ذهب الناظر إلى غير رجعة واختفى الفتوات ، لن

وقلب عينيه فى الوجوه المستبشرة وقال:

ويبدآم أنتم ألا يعود الحال أما آن، رابوا ناظرآم فإذا خان اعزلوه وإذا نزع أهدآم إلى القوة اضربوه وإذا ادعى فرد أو حى- .  
سيادة أدبوه، بهذا وحده تضمنون ألا ينقلب الحال إلى ما آن وربنا معكم  
فى ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم وأخرون عن هزيمتهم ونظر الجميع إلى الغد آانما ينظرون إلى بزوغ البدر فى ليلة من اليبالى الربيع.

ووزع قاسم الربيع على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد والانشاء، أجل آن نصيب الفرد ضئيلا ولكن إحساسه

بالعدل والكرامة فاق آل حد ومضى عهده فى تجديد وبناء وسلام، ولم تنعم حارتنا قبله بمثل ما نعمت به فى أيامه من

الوحدة واللفة والسعادة أجل آن ثمة أحاد فى آل جبل يضمرون غير ما يظهرون ويتهامسون فيما بينهم:

-أنكون من جبل ويحكمنا جربوع من الجرايع؟ ومثلهم وجد فى آل رفاعه، بل لم يخل الجرايع من نفر أخذتهم العزة والزهو،

ولكن صوتا لم يرتفع لتعكير الصفو فى عهده ، ورأى الجرايع فيه طرازا من الرجال لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من

بعد، جمع بين القوة والرقه والحكمة والبساطة والمهابة والمحبة والسيادة والتواضع والنظارة والأمانة، وإلى ذلك آله آن

ظريفا بشوشا أنيقا وعشيرا تطيبي مودته فضلا عن ذوقه الجميل وحبه الغناء والنكنة لم يتغير من شأنه شئ اللهم إلا أنه توسع في حياته الزوجية آنما جرى فيها مجراه في تجيد الوقف وتنميته فعلى حبه بدرية تزوجة حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة ، وتعشق امرأ ' من الجرايين ثم تزوج منها أيضا وقال أناس في ذلك إنه يبحث عن شئ افتقده مذ فقد زوجته الأولى قمر، وقال عمه زآريا إنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا، لكن حارتنا لم تكن بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث، بل الحق أنها إذا آنت أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته مرات وأن حب النسوان في حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون ومترلة تعدل في درجتها الفتونة في زمانها أو تزيد.

ومهما يكن من أمر فإن حارتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقا، وبأن أمرها قد أل إلى نفسها دون ناظر يستغل أو فتوة يستذل ، ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الحياء والمودة والسلام.

وقال آثيرون إنه إذا آنت أفة حارتنا النسيان فقد أن لها أن تبرا من هذه الآفة وأنها ستبرأ منها إلى الأبد.

هكذا قالوا..

هكذا قالوا يا حارتنا!

المتأمل لحال حارتنا لا يصدق ما تقول الرباب في القهوات من جبل ومن رفاة ومن قاسم ، وأين الأثار التي تدل عليهم خارج نطاق القهوات؟ أما العين فلا ترى إلا حارة غارفة في الظلمات وربابا تتغنى بالأحلام، وآيف آل بنا الأمر إلى هذه الحال؟ أين قاسم والحارة الواحدة والوقف المبذول لخير الجميع؟ وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء الفتوات المجانين؟ ستسمع حول الجوزة الدائرة في الغرز بين الحسرات والضحكات أن صادق خلق قاسم على النظارة فسار سيرته، وان قوما رأوا أن حسن احق منه بالنظارة لقربته من قاسم ولأنه الرجل الذي قتل الفتوات، وأنهم حرصوا حسن على رفع نبوته الذي لا يقاوم فأبي أن يعود بالحارة إلى عهد الفتونة لكن الحارة آنت قد انقسمت على نفسها ومضى أناس في آل جبل وآل رفاة يجاهرون بما آنو يضمرون ولما رحل صادق عن الدنيا أسفرت الرغبات المكبوتة عن وجهها الشائه ونظراتها العدوانية واستيقظت النبائيت بعد رقاد وسال الدم في آل حى على حدة وبين آل حى وأخر حتى قتل الناظر نفسه في إحدى المعارك، وأفلت الزمام ووند الأمن والسلام فلم يجد الناس بدا من إعادة أحر ذرية الناظر رفعت إلى النظارة التي يتقاتل الطامعون عليها هكذا عادا الناظر قدرى إلى النظارة وانقلبت الأحياء إلى عصبتها القجيمة وغذا آل حى يسيطر عليه فتوة ثم دارت المعارك على فتونة الحارة حتى فاز بها سعد الله فاحتل بيت الفتوة وصار الناظر الأول واستاثر يوسف بآل جبل وعجاج بآل رفاة والسنتورى بىل قاسم ووزع الناظر الريع بالأمانة أول الأمر فاستمرت حرآة التعمير والتجديد وسرعان ما لعب الطمع بقلب الناظر والفتوات من بعده أما آن المتوقع فارتدوا إلى النظام القديم أى أن الناظر يستأثر بنصف الريع ويوزع نصفه الأخر على الفتوات الأربعة الذين استاثروا به من دون المستحقين ولم يقفوا عند ذلك بل جازوه بكل وقاحة إلى فرض الإتاوات على ابتاعهم المساآن وتعطلت حرآة الإنشاء حتى توقف البناء في بيوت لم يشيد منها إلا نصفها أو ربعها.

وبدا وآن شيئا من القديم لم يتغير إلا أن حى الجرايبع أصبح حى آل قاسم يراسه فتوة آالفتوات الأخرين وتقوم على جانبيه الربوت مكان الآواخ والخرائب أما أهل الحارة فانقلبوا إلى ما آنوا عليه في الزمان الأسود بلا آرامة ولا سيادة تتهكهم الفاقة وتهددهم النبائيت وتنهال عليهم الصفعات وانتشرت القذاره والذباب والقمل وآثر المتسولون والمشعوذون وذوو العاهات ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم إلا أسماء، وأغانى ينشدها شعراء المقاهى المسطولون وتباهى آل فريق برجله الذى لم يبق منه شىء وتنافسوا في ذلك إلى حد الشجار والعراك وذاعت شعارات المساطيل، فيقول أحدهم وهو

داخل إلى الغرزة : ما فيها فائدة يعنى الدنيا لا الغرزة ويقول آخر : هناك نهاية واحدة هي الموت فلنمت بيد الله خير من أن نموت بنبوت فتوة، وأحسن ما نعمل سكرة أو تحشيشة وآنوا يتغنون بمواويل حزينة ينسجونها من خيوط الخيبة والفقر والذل أو يترنمون باغنيات فاحشة داعرة يقذفونها في أذان النساء والرجال الباحثين عن السلوى والعزاء ولو في خرابة مظلمة وعندما يشتد الكرب بأحدهم يقول له : المكتوب مكتوب، لا جبل أجدى ولا رفاعة ولا قاسم، حظنا من الدنيا الذباب

ومن الآخرة التراب، ومن عجب أن تبقى حارتنا بعد ذلك آله الأثير بين الحواري يشير إليها الرجل من جيراننا ويقول في إآبار حارة الجبلأوى، ونقبع في أرائها ساهمين واجمين آنا بتنا قانعين بالذآريات العزيزة الماضية وآنا نجتز الأصغاء إلى هاتف في اعماقنا يهمس بصوت خافت ليس من المستحيل أن يقع في الغد ما وقع بالأمس فتتحقق مرة أخرى أحلام الرباب وتختفى من دنيانا الظلمات.

## 93

في يوم من الأيام قبيل العصر رأت الحارة فتى غريبا قادما من ناحية الخلاء يتبه آخر آالقزم ، آان يرتدى جلبابا ترابي اللون على اللحم ويشد على وسطه حزاما شطر جلبابه شطرين انداح اعلاهما وتدلى وامتأ بأشياء فيه، وانتعل مرآوبا باهتا متهتكا اما رأسه بدا عاريا مشعث الشعر غزيره وآان اسمر اللون، مستدير العينين حاد البصر تلوح في محجربة نظرة قلقة نافذة وفي حرآاته ثقة واعتداد، وقف قليلا أمام البيت الكبيرن ثم تقدم على مهل يتبعه صاحبه وتطلعت نحوه الأبصار وآانما تساءل : غريب في حارتنا، يا للوقاحة، قرأ ذلك في أعين الباعة وأصحاب الدآآين والجالسين في القهوات والمطلات من النوافذ، بل في أعين الكلاب والقطط حتى خيل إليه أن الذباب نفسه سيتجنبه أزدرآا واحتجاجا والتفت نحوه الغلمان في تحرش واقترب بعضهم منه وأخذ الآخرون يملأون النبال أو ييحثون في الأرض عن طوية، فابتسم لهم متوددا ودس يده في عبه فأخرج شوية نعناع وراح يوزعه عليهم فأقبلوا نحوه فرحين ومضوا يمصون النعناع وهم يرمقونه بإعجاب وقال لهم والابتسامة لا تفارق وجهه:

أما من بدروم خال للإيجار؟ هيا يا رجال من يدلنى منكم عليه فله قرطاس نعناع

وسالته امرأة آانت مقتعدة الأرض امام أحد الربوع

في حارتنا ؟

فضحك الرجل وقال

يا ألف مصيبة عليك ، من أنت حتى تسكن

محسوبك عرفة ، من أولاد حارتكم الآخريين وهو عائد بعد غيبة طويلة  
فدققت المرأة فيه النظر وتساءلت

ابن من يا روح أمك ؟

فبالغ في الضحك توددا وقال

-خالدة الذآرة جحشة ، ألا تعرفينها يا ست النساء؟

جحشة ؟ بنين زين ؟-

بعينها ولحمها-

وقالت المرأة مستندة إلى جدار ، آنت تتابع الحديث وهي تفتلى رأس غلام

آنت تتبع أمك في تلك الأيام وانت غلام، مازلت أذكرك، وتغير آل شئ فيك إلا عينيك

فقال المرأة الأولى

سائلة عن الغيب أو شوش الدآر وترمى هي بالودع-

وتتكلم ، الله يرحمك يا جحشة

أى والله وأين أمك ؟ ماتت الله يرحمها ، ياما قعدت قدام مقطفها

فقال بارتياح:

الله يطول عمرك ستديني أنت على بدروم خال بإذن الله

فحدجته المرأة بنظر أعمش وسألته

وماذا عاد بك بعد الغيبة الطويلة ؟

فقال محآيا لهجة الحكماء

مسير الحى إلى حارته واهله

فأشارت المرأة إلى ربع في حى رفاعة وقالت

عندك هناك بدروم خلا مذ ماتت سآآنته حرقا الله يرحمها، الا يخيفك ذلك؟

فضحكت امرأة مطلة من نافذة وقالت

هذا رجل تخاف منه العفاريت

فرفع رأسه متظاهرا بالضحك والانبساط وقال

نصحتنى امى عند الوفاة بالعودة إليك

ثم نظر إلى المرأة القاعدة وقال

يا حارتنا يا حلوة ما ارق ظرف أهلك الآن أعرف لماذا  
الموت حق علينا يا زبونة المرحومة أُمى، سواء جاء من حرق أو غرق أو عفريت أو نبوت  
وحياها ومضى نحو الربع الذى أشارت إليه وأصبح محط أنظار آثرين فقال رجل ساخرا  
أباه؟

فقالت عموز

عرفنا أمه فمنذا يعرف

ربنا أمر بالستر!

فقال ثالث

يمكنه أن يدعى أنه ابن رجل من جبل أو رفاة أو قاسم أما يشاء أو تشاء مصلحته ، الله يرحم أمه

فهمس صاحبه فى أذنه ساخطا

لماذا عدت بنا إلى هذه الحارة ؟

فقال عرفة والابتسامة مازالت فى شفقيه

- فى آل مكان أسمع هذا الكلام وهذه حارتنا على أى حال وهى الحارة الوحيدة التى يمكننا الإقامة بها حسينا تخطا فى  
الأسواق ونوما فى الخلاء والخرابات ثم إن هؤلاء الناس طيبون رغم قدارة ألسنتهم، أغبياء رغم نبايتهم، فهنا يسهل علينا  
آسب رزقنا ، تذار هذا يا حنش!

فهز حنش منكبيه الضيقين ألما يقول : الأمر لله، واعترضهما رجل مسطول فسأل عرفة:

ماذا نسليك ؟

عرفة

ولقبك ؟!-

عرفة أبى جحشة

فضج الواقفون بالضحك مسرورين بهوانه فعاد المسطول يقول

طالما ساءلنا أنفسنا فى ذلك الزمان حينما حملت أمك ترى من يكون أبوه؟ فهل خبرتك بالحقيقة؟

فقال عرفة مداريا ألمه بمزيد من الضحك

ماتت هى نفسها قبل أن تعرفه

ومضى وهم يضحكون وسرى نبأ عودته فى الأحياء وقبل أن يتسلم البدروم جاء صبى قهوة الرفاعية وقال له

-المعلم عجاج فتوة حينما يطلبك.

ذهب إلى القهوة على مبعدة قريبة ماالربع لفت نظره اول ما اقترب منها الصورة المنقوشة على الجدار الوسط فوق أريكة الشاعر آنت تبدأ من أسفل لصورة لعجاج ممتطيا جواده وفوقها صورة الناظر قدرى بشاربه الفخيم وعباءته الأنيقة ثم فوقهما صورة لجثة رفاعه بين يدي الجبلاوى وهو يرفعها من الحفرة لياخذها إلى بتيه.

تأمل ذلك المنظر باهتمام ولكن بسرعة ثم دخل القهوة فرأى عجاج يجلس على أريكة تتوسط الجناح الأيمن ومن حوله يجلس الاتباع والعوان.

مضى عرفة إليه حتى مثل بين يديه فرمقه الفتوة بنظرة ازدراء طويلة آانما يلومه بعينيه قبل أن ينقض عليه وقال عرفة رافعا يديه إلى رأسه.

التحيات المبارآت على فتوتنا ، من نحتمي بحماه ونسعد بجواره فلاحث السخرية فى العينين الضيقتين وقال:- . :

لا نعترف بما وحدها

فقال عرفة باسم

آلام حلو يا ابن القديمة ولكنه عمله

ستجى العملة الخرى فى اقرب وقت عن شاء المولى- . .

عندنا متسولون آآثر من الحاجة-.

فقال عرفة بكبريا ضاحك

لست متسولا يا معلم ولكنى ساحر اعترفت بفضل الملائين

وتبادل الجلاس النظرات فقطب عجاج متسائلا

-ماذا تعنى يا ابن المجنونة؟

فدس عرفة يده فى عبة وأخرج حقا صغيرا دقيقا فى حجم النبقة وتقدم فى خضوع من المعلم ومد به يده فتناوله المعلم

بعدم آآراث وفتحته فرأة مادة قائمة رفع إليه عينيه متسائلا فقال عرفة فى ثقة لا حد لها:

بساعتين وبعدها فإما ترضى عن محسوبك عرفة وإما تطرده من الحارة-.

مشفوعا باللعنات

قمحة منه على فنجال شأى قبل لامؤاخذة

اشرايت الأعناق باهتمام شديد لأول مرة وحتى عجاج لم يستطع ان يخفى اهتمامه لكنه تساءل فى استهانة مصطنعة:

اهذا هو سحرك؟-.

عندى ايضا البخور النادر، والوصفات العجيبة الطب والدواء والأحجبة ويعرف قدرى حقا عند المرض والعقم والضعف

فقال عجاج فيما يشبه الوعيد

الله .. الله .. فلنبشر بالأتاوات!  
فانقبض قلب عرفة لكن وجهه زاد انبساطا وهو يقول  
آل ما أملك تحت امرك يا معلم  
فضحك الفتوة بغتة وقال  
لكنك لم نخبرنا من ابوك ؟  
فقال دون أن يزايله المرح  
-لعلك به اعلم.

وضجت القهوة بالضحك وتلاقت التعليقات الساخرة في شراريب الدخان السابحة في الجو ولما ابتعد عرفة عن القهوة قال  
لنفسه حانقا:

من يدري من يكون ابوه حقا ولا أنت ياعجاج أه يا أولاد الكلب  
وتفقد هو وحنش البدروم في ارتياح ومضى يقول  
مناسب جدا يا حنش فهذه الحجرة صالحة للمقابلات والتي بالداخل للنوم والأخيرة للعمل  
فسأله حنش بقلق  
أوسع مما أنت أتوقع  
ترى في أي حجرة احترقت المرأة؟  
فضحك عرفة ضحكة عالية رنت بين الجدران الخالية وقال  
اتخاف من العفاريت يا حنش إننا نتعامل معهم أما آن يتعامل جبل مع الثعابين  
ونظر فيما حوله بارتياح وقال  
الطريق من تحت من خلال النافذة ذات القضبان  
الحديدية فلهذه المقبرة ميزة جلييلة وهي أنها لا يمكن أن تسرق  
ليس عندنا إلا نافذة واحدة في الحجرة المطلة على الطريق سنرى  
قد تنهب-! .

قد

ثم وهو يتنهد

آل ما عندي فيه فوائد للناس، لكني لم ألق في حياتي إلا الإساءة  
قال حنش



سيعوضك النجاح عن آل ما نالك من أذى أو ما نال المرحومة

في أوقات الفراغ آن يجلو له أن يجلس على آنية قديمة ليتفرج على ما يجرى من النافذة المطلة على أرض الحارة جلس مسند الجبين إلى قضبان النافذة فبدت الأرض على مستوى بصره لكل ما يدب عليها من أقدام وعجلات وآلاب وقطط وحشرات وأطفال، اما الوجوه والصدور فلم يكن ليراها إلا بتخفيض قامته ورفع رأسه ووقف أمامه طفل عار وهو يلعب بفار ميت ثم مر عجوز ضيرير يحمل على يسراه صينييه خشبيه حملت لها وفولا وحلوى وذبابا ويتوآأ يميناه على عصا غليظة، وآآن صوت عويل يترامى من شبك بدرونم ومعرآة تدور بين رجلين حتى تدفق الدم من وجهيهما وابتسم الطفل العارى وسأله برقة:

ما أسمك يا شاطر؟

فاجاب

-أونة.

قصدك حسونة، هل يعجبك هذا الفأر الميت يا حسونة؟

فرماه به ولولا ان حجزه قضيب لأصاب وجهه وجرى الصغير آقارب يتاميل والتفت نحو حنش وآآن يهوم عند قدميه وقال دليلا واحد على وجود أناس مثل جيل أو رفاعة-.

أو قاسم

في آل شير من هذه الحارة تجد دليلا على وجود الفتوات ولكنك لن تجد

لكنهم وجدوا ، أليس آذلك ؟

فاشار حنش إلى أرض الحجرة باصبعه وقال

ربعنا رفاعى آل سكانه رفاعية أى رجال رفاعة الذى تؤآد الرباب آل مساء إنه عاش ومات فى سبيل الحب والسعادة،-.

ومع ذلك فنحن نغير ريقنا آل صباح على سبابهم ومشاجراتهم هكذا هم نساء ورجالا

فلوى عرفة شفتيه امتعاضا وقال:

لكنهم وجدوا ، اليس آذلك ؟

فواصل حنش آلامه قائلا

السباب أهون ما يقع في حى رفاعه، اما المعارك فاجارك الله منها أمس فقط فقد ساآن عينه  
وقف عرفه محتدا وقال

حارة عجيبة، الله يرحمك يا أمى ، انظر غلينا مثلا الكل ينتفع بنا ولا احد يحترمننا- .

-إنهم لا يحترمون احد

فأصر على أسنانه وقال

إلا الفتوات!

فقال حنش ضاحكا

حسبك إنك الوحيد في هذه الحارة الذى يتعامل مع الجميع من جبليه ورفاعية وقاسمية- .

عليهم اللعنة جميعا

وصمت مليا وعيناه تلمعان في ضوء البدروم الخافت ثم قال

آل واحد منهم يفاخر برجله بغباء وعمى يفاخرون برجال لم يبق منهم إلا أسماءهم ولا يحاولون قط أن يجاوزوا الفخر-.

الكاذب بخطوة واحدة أولاد آلب جناء

وآن أول من قصده من زبائن امرأة من رفاعه، في الأسبوع الولى من استقراره في مسكنه وغذا بها تسأله بصوت خفيض:

آيف يمكن التخلص من امرأة دون أن يدرى أحد؟

فارتاع الرجل ونظر إليها باستغراب ثم قال

لست لذلك ياستى ، إذا أردت أدوية للجسد أو للروح فأنا خادمك

فتساءلت بانكار

ألست ساحرا؟

فقال بوضوح

في آل ما فيه فائدة للناس، أما القتل فله أناس آخرون- .

لعلك خائف؟ لكننا سنكون شريكين سرهما واحد

فقال برقة تطوى سخرية

لم يكن رفاعه آذلك!

فهتفت

-رفاعة عليه الرحمة نحن في حارة لا تجدى فيها الرحمة ولو آانت تجدى ما هلك رفاعه نفسه.

وترآته يائسة لكنه لم يندم، إن رفاعه نفسه - أول الطيبين - لم يظفر بالسلامة في هذه الحارة فكيف يأمل فيها من يبدأ

عمله بالجريمة؟ وأمه ! أم لاقت من آلام دون أن تتعرض لأحد بأذى فليكن على خير صلة بالناس جميعا أما يجدر لكل تاجر لبق ومضى يتردد على جميع المقاهى فيجد في آل قهوة زبونا يعرفه واستمع إلى قصص الرباب في جميع الحياء حتى اختلطت في رأسه وآان يدور بما ذلك الراس وآان أول زبون جاءه من حى قاسم رجلا طاعنا فى السن فقال له همسا وهو يتسّم:

سمعنا عن الهدية التى اتخفت بما عجاج فتوة رفاة

فتفرس فى وجهه المجدد باسماء فقال الرجل

اتخفنا بما عندك ولا تدهش فى وحياتك رفق

وتبادلا ابتسامة آالسرفقال العجوز متشجعا

أنت قاسمى اليس آذلك ؟ هكذا يعتبرك أهل حينا

فسأله عرفة ساحرا

هل يعرفون أبى عندآم؟

فقال الرجل بجد واهتمام

القاسمى يعرف بسيماء لذلك فأنت قاسمى نحن الذين رفعنا الحارة إلى قمة العدالة والسعادة ولكنها وأسفاه حارة-.

مشثومة

ثم تذآر الرجل الغرض الذى جاء من اجله فقال برقة:

-الهدية من فضلك!

وذهب الرجل وهو يقرب الحق من عينه العمشاء وقد دبت فى مشيته المتهالكة صحوة نشاط وامل وآان اخر من زاره شخص غير متوقع.

آان يجلس فى حجرة الاستقبال على شلته أمامها بجور تنفت دخانا رقيقا ساحرا حين دخل عليه حنش بين يدى نوبى عجوز وهو يقول:

عم يونس بواب حضرة الناظر

فانتفض عرفة واقفا ومد له يديه مرحبا وهو يقول

أهلا .. أهلا ، زارنا النبى .. تفضل يا مولانا

جلسنا متجاورين وقال البواب بصراحة معهودة

الهائم، نظيرة هائم حرم الناظر تحلم أحلاما سيئة حتى قل نومها

بدا الاهتمام فى عينى عرفة ودق قلبه دقة الأمل والطموح لكنه قال ببساطة

حالة عارضة تمر بسلام- .

لكن الهائم مترعجة وقد أرسلتني إليك لتجد لها شيئاً مناسباً  
شعر رفاة بساعدة وسيادة لم يعرفها طوال حياة التشرد التي فيها في ظل امه الراحلة وقال  
الأفضل أن احادثها بنفسى!

فقال البواب بحدة

محال ! لن تجئ غليك ولن تدخل إليها

وغالب عرفة اليأس مستميتا في الدفاع عن فرصته الذهبية فقال

-يلزمنى منديلها أو شئ من طرفها.

واحنى البواب رأسه المعمم وقام ليذهب، وعندما بلغا باب البدروم تلكا البواب قليلاً ثم مال على أذن عرفة قائلاً في همس

:

سمعنا عن هديتك لعجاج فتوة رفاة ؟

ولما ذهب البواب بالهدية ضحك عرفة وحنش طويلاً وتساءل الأخير

لمن أخذ الهدية يا ترى . لنفسه أم للناظر أم للهائم ؟

وهتف عرفة ساخراً

-يا حارة الهدايا والنبايت.

ومضى إلى النافذة ينظر إلى الحارة في الليل بدا الجدار المواجه لعينيه مفضضاً بضوء القمر وتعالت زفرات الصراصير وارتفع

صوت الشاعر من قهوة الحى وهو يقول:

-وتساءل أدهم.

متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة؟

فقال إدريس

لترحمنا السماء ألسنت احى؟ هذه رابطة ليس في الإمكان فصمها.

إدريس ! آفاك ما فعلت بي

الحزن قبيح ولكن آلان مصاب، أنت فقدت همام وقدرى وأنا فقد هند، أصبح للجبالوى العظيم حفيذة عاهرة وحفيد قاتل

فعلا صوت أدهم وهو يهدر

-إذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء.

وتحول عرفة عن النافذة في سأم متى تكف حارتنا عن حكى الحكايات؟ ومتى يكون على الدنيا العفا؟ وامى رددت يوماً هذا

القول : إذا لم يكن الجزاء من جنس العمل فعلى الدنيا العفاء، أمى المسكينة سآنة الخلاء لكن ماذا أفدت من الحكايات يا حارتنا.

95

آن عرفة وحنش يعملان بهمة فى حجرة البدرن الخلفية على ضوء مصباح غازى مثبت فى الجدار لم تكن الحجرة تصلح للحياة العادية لرتوبتها وظلامها ولموقعها أحر البدرن فجعل عرفة منها مقرا لعمله وبدت على أرضها وفى آرآنها مجموعات من أوراق الأحجبة والأترية والجير ونباتت وتوابل وحيوانات وحشرات مجففة آالفئران والضفادع والعقارب، وآوام من قطع الزجاج وقوارير ومياه فى صفائح وسوائل غريبة ذات رائحة نفاذة وفحم وآنون وقد رآبت على الجدران رفوف حملت بانواع شتى من الأوعية والأنية والآآياس، وآآن عرفة منهمكا فى خلط بع المواد وعجنها فى وعاء من الفخار آبير، وآآن العرق يتصب من جبينه فيجففه بكم جلبابه من حين آخر، هذا وحنش رابض عن عشب يراقبه باهتما واستعداد لتلبية أية إشارة تصدر منه وآآما أراد أن يعزبه أو يتودد إليه فقال:

هذا التعب لا يبذل جزاء منه آبر عامل فى هذه الحارة المنكودة وفى سبيل أى جزاء يبذل ؟ ملاليم أو قرش على خير الفروض.

فقال عرفة بارتياح:

رحم الله أمى لا يعرف فضلها سوى ويوم سلمتنى لذلك الساحر العجيب الذى يقرأ لك جميع ما يجول فى خاطرك تغيرت-. حياتى تغيرا آليا فلولاها لكنت على خير ظن نشالا أو متساولا فأصر حنش على أسفه قائلا:  
-مالليم.

ولا تنس المترلة السامية التى اتمتع

7

Page-النقود تكثر بالصبر لا تياس من ذلك ليست الفتونة هى السبيل الوحيد إلى الثروة

بها فإن من يقصدنى إنما يعتمد آل الاعتماد على ويضع سعادته أمانة بين يدى وليس هذا بالشئ القليل، ولا تنس أيضا لذة السحر نفسه لذة استخراج مادة مفيدة من مواد قدرة لذة الشفاء حين يثمر بامرك وهنالك القوة المجهولة التى تشوف للاتصال بها وامتلاآها ان استطعت ونظر حنش إلى الكانون وقال منقطعا فجأة عن تيار صاحبه الوفق أن اوقد الكانون فى دهليز المنور وإلا اختنقنا.

-أوقده في جهنم ولكن لا تخرجني عن أفكارى إن ألى مغفل ممن يحسبون انفسهم معلمين في هذه الحارة لا يستطيع أن يدرك خطورة الأشياء التي تصنع في هذه الحجرة المعتمة القذرة ذات الروائح الغريبة ادرآوا فائدة الهدية ولكن ليست الهدية آل شيء إن أعاجيب لا يحيط بها الخيال يمكن ان تخرج من هذه الحجرة المجانين لا يدرآون قيمة عرفة الحقيقة لعلمهم يعرفونها يوما ما وعند ذاك يجب أن يترحموا على أمى لا ان يعرضوا بها أما يفعلون.  
وآن حنش قد قام نصف قومة فعاد يجلس القرفصاء وهو يقول بامتعاض:  
آل هذا الجمال قد تطيح به عصاه فتوة أحمق؟

فقال عرفة بجدة

نحن لا نؤذى أحدا وندفع الاتاوة فكيف نتعرض للاذى يا ابن جلجل؟

فضحك حنش قائلا

وما آن ذنب رفاعة ؟

فحدجه بنظرة غاضبة وقال

لماذا تقرفين بهذه الأفكار ؟

أنت تأمل أن تثرى وهنا لا يثرى إلا الفتوات وتامل أن تصير قويا وهنا لايسمح بالقوة إلا للفتوات، فأعمل حسابك يا أخ وصمت عرفة حتى يتآاد من حسن تقديره في الخلط بين المواد، ثم نظر إلى حنش فرأى سحنته مازالت محتفظة بصورة التحذير فضحك قائلا:

ابن جلجل ، لكن عدت إلى الحارة وفي رأسى خطة- .

يبدو أنه لم يعد يهتمك إلا السحر

فقال عرفة في جدل آالنشوة

حذرتنى أمى من قبلك، شكراً يا حنش يا

-السحر شئ عجيب حقا، لا حد لقوته، ولا يدري أحد أين يقف، وقد تبدو النبائيت نفسها لمن يملكه لعب أطفال يا حنش ولا تكن غيبا، تصور لو آن اجميع أولاد حارتنا سحرة ؟

لو آنوا جميعهم سحرة لماتوا جوعا!

فضحك عرفة ضحكة آشفت عن أسنان حادة وقال

لا تكن غيبا يا حنش وأسأل نفسك ماذا آن يمكن أن يصنعوا، والله آانت العاجيب تخرج من حارتنا في غزارة السباب-  
والشتائم

نع ، على شرك ألا يموتوا جوعا قبل ذلك- . !

نعم ، ولن يموتوا ماداموا في غير

لكنه سكت قبل أن يتم قوله ومضى يفكر في اهتمام حتى آفت يدها عن العمل، ثم رجع يقول  
شاعر آل قاسم يقول أن قاسم أراد استغلال الوقف حتى يجد آل حاجته فيستغنى عن العمل ويفرغ للسعادة والغناء-.

التي حلم بها أدهم

ذلك قول قاسم:

فقال وعيناه تلمعان بشدة

لكن الغناء ليس هو الهدف الأخير ! تصور أن يمضى العمر في فراغ وغناء ؟ وهو حلم جميل لكنه مضحك يا حنش،  
الأجمل-.

حقا أن تستغنى عن العمل لنصنع الأعاجيب

هز حنش راسه الكبير - الذى يبدو منغرسا في جسده دون رقبه تذار - محتجا على حديث لا معنى له، ثم استرد لهجة  
العمل الحديدية وهو يقول:

دعنى الآن أوقد الكانون تحت المنور.

أفعل ، وضع نفسك فوق اللهب فما تستحق إلا الحرق

وغادر عرفة غرفة العمل بعد ساعة فمضى إلى الكنية وجلس ينظر من النافذة إلى الخارج اقتحمت أذنيه ضجة الحياة بعد  
صمت فلتلاقت فيهما نداءات الباعة وأحاديث النساء المتبادلة ونكات صارخة ومختارات من الشتائم تصاحب تيار الرائحين  
والغادين الذى لا ينقطعن وإذا به يلاحظ أن شيئا جديدا اتخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته قهوة متنقلة مكونة من قبص  
مغطى بملاءة قديمة صفت عليه علب البن والشاي والقرفة وموقد وأنجات وفناجيل وأواب ومعالق، وقد جلس عجوز على  
الأرض يروح على الموقف ليسخن ماء، على حين وقفت وراء القفص فتاة في ربيع العمر وهى تنادى بصوت دافى، قهوة  
مزاج يا جدع، آنت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية وبدا أن آثر زيبائنها من أصحاب عربات اليد والمسآين  
وجعل عرفة يطيل النظر إلى الفتاة من بين القضبان ، هذا الوجه الأسمر المتلفع بخمار أسود ما أطفه، وهذا الجلباب البنى  
الغامق الذى يغطيها من العنق حتى القدمين ويتجرجر منه طرف على الأرض إذا مشت بطلب أو عادت بقدح فارغ، هذا  
الجلباب حشمة وادب وهذه القامة الرشيقة والعينان العسيليتان ما أحملهما لولا أحمرار أشفار يسراهما لرمد أو قدارة هى  
ابنة العجوز أما يشهد الوجهان ويبدو أنه أنجبها فى سن متأخرة أما يقع آثيرا فى حارتنا ودون تردد صاح بها:  
-يا شابة ، فنجال شاي وحياتك.

فامتدت إليه عينها وبسرعة ملت قدحا من أبريق مدفون حتى منتصفه فى الرماد، ومضت به إليه عبر الطريق فتسلمه وهو  
يقول باسمًا:

عاشت يدك ، أم ثمنه ؟- .

نكله

غال ! ولكن لا يغلو لك ثمن!

فقال باحتجاج

- في القهوة الكبيرة بتعريفه وهو لا يمتاز عما في يدك بشيء.

وذهبت دون انتظار لكلام ، فراح يسحوه قبل أن يبرد ودون أن يحول عينيه عنها، ما أسعد أن يملك فتاة بهذا الشباب، لا عيب فيها إلا حمرة عينها وما أسهل أن يداويها، ولكن الأمر يحتاج إلى قدر من النقود لم يوجد بعد والبدروم جاهز، وما على حنش إلا أن ينام في الدهليز أو في حجرة الاستقبال إذا شاء على شرط أن يفليها من البق أول بأول وانتبه على همهمة غريبة ورأى الناس ينظرون نحو أعلى الحارة ويقول البعض منهم " : السنطوري .. السنطوري " ، فنظر بميل على قدر ما سمحت القضبان له فرأى الفتوة قادما في هالة من الأعوان، ولما مر بالقهوة المتنقلة وقع بصره على الفتاة فسأل رجلا من رجاله:

من الفتاة؟

عواطف بنت عم شكرون

ف لعب الرجل حاجبيه في ارتياح ومضى نحو حيه وشعر عرفة بضيق وقلق لوح للفتاة بالقدح الفارغ فجاءته في خفة فأخذته وتناولت من يده النكلة وعند ذلك سألها وهو يشير بذقنه إلى الناحية التي ذهب إليها السنطوري:

ألم يضايك شيء ؟- .

فقالت ضاحكة وهي تستدير لتذهب

- سأستعين بك عند اللزوم ، فهل تعين ؟

فحزت في نفسه سخريتها حزينة لا متحدية فتضاعف ضيقه ، وهنا سمع صوت حنش وهو يناديه فوثب إلى أرض الحجرة واندفع إلى الداخل.

96

تكاثر زباين عرفة مع الأيام لكن قلبه لم يفرح بزبون أما فرح بعواطف يوم رآها مقبلة عليه في حجرة الاستقبال نسي مهابة المعلم التي يرتديها أمام زباينة فوقف مرحبا بها ثم أجلسها على شلته أمامه وتربع في مجلسه والدنيا لا تسعه من السرور حياها بنظرة شاملة لكنها سرعان ما وقفت على عينها اليسرى التي تختفى وراء ورم ملتهب فقال محتجا:



أهملتها يا شابة ، أنت حمراء منذ أول يوم رأيتك

فقالت المعتذرة

آتفتت بغسلها بالماء الساخن والمشغول بالعمل مثلى ينسى.

لايجوز أن تنسى صحتك وبخاصة إذا تعلق الأمر بعضو عزيز مثل عينك الجميلة

ابتسمت متأثرة بالثناء على حين آن هو يمد يده إلى رف خلفه ليحسب بكوز ثم أخرج منه لفافة صغيرة وقال وهو يشير إليها

:

في مندبل وحطية فوق بخار ماء يغلى ثم أربطيه على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعود عينك إلى جمال.-.

أختها

صرى ما فيها

تناولت اللفافة وأخرجت آيسا من جيبتها وهى تسأله بعينها اليمنى عن الثمن فقال ضاحكا:

لا عليك من هذا فنحن حيران وبيننا صداقة.-!

لكنك تدفع ثمن ما تشرب من شاي

فقال متهربا

إني أدفع فى الواقع لأبيك هذا الرجل الوقور آم أود أن أعرفه وآم أسفت على اضطراره للعمل حتى هذه السن المتأخرة.-

فقالت فى مباهاة:

لكن صحته جيدة وهى يابى أن يقعد فى البيت غر أن طول عمره من دواعى حزنه فى الحياة إذ أنه آن ممن شهدوا

الأحداث على عهد قاسم

فتحلى الاهتمام فى وجه عرفة وسألها:

حقا ! آآن من أعوانه ؟.-.

آلا ، لكنه ذاق السعادة فى أيامه ومازال يتحسر عليها.-.

أريد أن أعرفه وأن استمع إليه

فبادرته قائلة

-لا تجره إلى هذا الحديث فإني أود أن ينسأه إلى الأبد حرصا على سلامته آن مرة فى خمارة يشارب بعض أصحابه ولما

سكر وقف بينهم يطالب بأعلى صوته بأن تعود الحياة إلى ما أنت عليه أيام قاسم، وما أن عاد إلى حارتنا حتى وجد

السنطورى أمامه فأنهال عليه ضربا وصفعا ولم يترآه حتى أغمى عليه.

تفكر عرفة فى امتعاض شديد ثم لحظ عواطف بمطر وقال:

لا أمان لأحد مع وجود هؤلاء الفتوات  
فرمقته بنظرة خاطفة آنما تتساءل عما وراء مقصده الظاهر وقالت  
صدقت لا أمان لأحد معهم

وتريث وهو يعرض شفتيه المتردد ثم قال  
رأيت السنطوري وهو ينظر إليك نظرة آها وقاحة.  
فدارت ابتسامة بجرآة من رأسها إلى أسفل وقالت:  
ربنا يأخده

لكن عرفة تساءل في ارتياب  
ليس مما يسر الفتاة أن يعجب بها فتوة مثله؟-  
إنه زوج لأربع

فغاص قلبه في أعماقه، وتساءل  
وإذا آن عنده متسع؟

فقالت بحدة

الإتاوة وأأهم لاستكبارهم هم الذين يعطون  
فانتعش بالارتياح وقال بحماس

آرته منذ اعتدى على أبي وهكذا جميع الفتوات لاقلوب لهم، يأخذون  
أحسنت يا عواطف أما أحسن قاسم من قبل يوم قضى عليهم، لكنهم يعودون مثل بعض الدمامل الغامضة-.

لذلك يتحسر أبي على أيام قاسم

فهز رأسه في غير الآثرات طارئ وقال

ويوجد غيره من يتحسرون على أيام جبل ورفاعة لكن الماضي لا يعود

فقالت في استياء مليح

-تقول ذلك لأنك لم تشهد قاسم مثل أبي.

وهل شهدته أنت؟-.

-أبي قال لي

وأمي قالت لي ولكن ما جدوى ذلك؟ إنه لا يخلصنا من الفتوات وأمي نفسها آانت ضحية لهم، وها هم يعرضون بها بعد-.

موتها

حقا- .

فقال بوجه متجهم أنه قدح ماء صاف تعكر فجأة بإثارة راسبه  
لذلك أحشى عليك يا عواطف الفتوات يهددون الرزق والعرض والحب والسلام، واصارحك بأننى اقتنعت منذ رأيت  
الوحش-.

يتطلع إليك بوجوب القضاء عليهم

فقال عواطف باهتمام:

-يقولون إنه فى وصية جدنا الواقف.

أين جدنا ؟

فقال ببساطة

فى البيت الكبير

فقال بهدوء وبوجه لاينم عن السرور

-نعم أبوك يتحدث عن قاسم، وقاسم حدث عن جدنا هكذا نسمع ولكننا لا نرى إلا قدرى وسعد الله وعجاج والسنطورى  
ويوسف نحن فى حاجة إلى قوة لتخلصنا من العذاب فماءا تجدى الذآريات وانتبه إلى أن مجرى الحديث آاد يفسد عليه  
اللقاء، فقال وهو يعدل عن السيكا إلى الصبا:  
-الحارة فى حاجة إلى قوة أما أنا فى حاجة إليك.

فحدثه بنظرة استنكار فابتسم فى جرأة بدت غير غريبة عن عينيه الجارحتين وقال بجدية ليتحاشى غضبة متوثبة فى  
حاجبيها:

وهى تظن أهما فى حاجة إلى فتضح-.

لها الحقيقة وهى إننى أنا الذى فى حاجة إليها

شابة طيبة مجتهدة جميلة تنسى فى غمرة العمل عينها حتى تتورم ثم تجيئنى

قلت وهى تهم بالقيام.

-آن لى أن أنصرف.

-بغير غضب من فضلك واذآرى إننى لم أصرح بجديد فلا شك أنك استشففت إعجابى بك طوال الأيام الماضية إذ نظراتى  
تذهب وتجيئ ما بين نافذتى وقهوتك، إن أعزب مثلى لا يمكن أن يعيش وحده إلى الأبد وإن بيته المشحون بالعمل فى  
حاجة للرعاية وإن أرباحه تفيض عن حاجته فلا بد أن يشارآه فيها إنسان.  
غادرت الحجرة وقف فى نهاية الدهليز ليودعها وآأها لم ترض أن تذهب دون تحية فقلت:

فتك بعافية- . .

ولبت مكانه وهو يترنم بصوت مهموس  
خدك المياس يا بدرى واملا لى الكأس من بدرى  
وانت أحلى الناس فى نظرى

ثم مضى فى فتوة ونشاط إلى حجرة العمل فوجد حنش منهمكا فى واجباته ، فسأله:  
ماذا عندك

فعرض أمه زجاجة وهو يقول  
يتمحن سدادتها ثم قال- . :

نعم فى الخلاء وإلا افتضح أمرنا  
فقال حنش بقلق

معبأة ومحكمة الإغلاق، ولكن ينبغى أن تجرب فى الخلاء فتناولها عرفة وراح  
الرزق بدا يجيئ والحياة تبتسم فلا تفرط فيها وهبك الله من سعادة أخذ حنش يضيق بالحياة بعد أن حلت فى عينيه  
ابتسم عرفة عند هذا الخاطر ونظر إلى حنش مليا ثم قال  
آنت أمى أما آنت أمى .

نعم ولكنها توسلت إليك ألا تفكر فى الانتقام  
آن رأيك غير ما تبدى الان ؟- .

سنقتل قبل أن ننتقم  
فضحك عرفة وقال

لا أخفى عنك أننى آفتت عن التفكير فى الانتقام من زمن فتهلل وجه حنش وهو يقول- . :  
هات الزجاجة لنفرغها يا أحمى

لكن عرفة شدد قبضته على الزجاجة وهو يقول  
بل سنجرها حتى تبلغ الكمال

فقطب حنش فى استياء احتجاجا على الهزء به فأردف عرفة قائلا

أنا اعنى ما أقول يا حنش ثق أننى عدلت عن الانتقام لا إذعانا لتوسلات أمنا، وإنما لقتناعى بوجوب القضاء على الفتوات- .

بصر النظر عن انتقامنا

فقال حنش محتدا:

بسبب حبك لهذه الفتاة

فضحك عرفة حتى بأن حلقه وقال

حب الفتاة ، حب الحياة ، اسمه بما تشاء، آن قاسم على حق- .

مالك أنت وقاسم ! آن قاسم يحقق رغبة جده

فمط بوزه وقال

-من يدري ؟ حارتنا تحكى الحكايات أما نحن فنقوم بأعمال حاسمة فى هذه الحجرة لاشك فيها وأين الأمان فى حياتنا؟  
سيجئ عجاج غدا لينهب رزقنا، وإذا قدمت يدا للزواج من عواطف اعترضنى نبوت السنطورى، وهذا حال آل رجل فى  
حارتنا

حتى المتسول فما يكدر صفوى هو ما يكدر صفو حارتى، وما يؤلىنى هو ما يؤمنها حق ما أنا فتوة ولا برجل من رجال  
الجبلاوى، ولكنى أملك الأعاجيب فى هذه الحجرة ومنها قوة لم يجز عشرينها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين.  
ورفع بالزجاجة بيده متخذاً هيئة الموثب للقفز بها ثم أعادها إلى حنش قائلاً:  
-سنجرها الليلة بالليل، أبسط وجهك واستعد حماسك.

وغادر حجرة العمل إلى النافذة وتفرص فوق الكنبه مرسلًا ناظرية إلى القهوة المتنقلة، وآن الليل يهبط رويدا وصوتها يعلو  
مناديا بالقهوة والشاى وتجنب النظر إلى نافذته فدل التجنب على خطورة ببالها وومض بالابتسام فهما مثل ذلك النجم،  
وابتسم عرفة آياته آله ابتسم وفاض من قلبه الرضى حتى أقسم ليمشطن شعره آل صباح وترامت من الجمالية ضجة  
أقوام يطاردون لصا، ثم انبعثت من القهوة أنغام الرباب وترامى صوت الشاعر مفتتحاً ليلته بقوله:

الأولى آه سى قدرى ناظرنا

والثانية آه سعد الله فتوتنا

والثالثة آه عجاج فتوة حنتنا

فانتزع من حلمه بلا رحمة وقال بملل وتمرد : ستبدأ الحكايات متى تنتهى هذه الحكايات؟ وماذا افاد الاستماع إليها طوال  
الليالى؟ سيغنى الشاعر وتستيقظ الغرز يا حارة الحشرات.

97

وطراً على حياة عم شكرون اضطراب غامض آن يتكلم أحياناً بصوت مرتفع جداً أنه يخطب فيقول بعطف : الكبير .. إنه  
الكبير،

وآن يغضب شديد الغضب لأتفه سبب أو ما سبب فيقولون " الكبر " وآن يصمت طويلا حتى حين تتطلب الحال الكلام فيقولون " الكبر " وآن يقول أقوالا تعد في الحارة آفرا فيقولون في اشفاق " الكبر اللهم احفظنا " وآن عرفة يراقبه آثرا من خلال القضبان في عطف واهتمام ، ومضى يراقبه ذات يوم وهو يقول لنفسه : رجل مهيب رغم أسماله البالية وقذارته وعلى صفحة وجهه الناحلة نقشت النكسة التي عدت على الحارة عقب أيام قاسم إذ أنه من سوء حظه أنه عاصر قاسم، فنعلم بأيام العدل والأمانة ونال نصيبه آملا من ريع الوقف ورأى الأبنية تشيد باسم الوقف ثم تتوقف بأمر قدرى وبالجملة هو رجل بائس طال به العمر آثر مما ينبغي، ورأى عواطف قادمه بوجه لا تشوبه شائبة بعد أن شفيت عينها فتحول عن الرجل إليها وهتف باسمها:

الشأى يا أهل النظر!

وجاءته بالقدح فقال قبل أن يتناوله من يدها ليضمن بقاءها

مبارك عليك الشفاء يا وردة حارتنا

فقالت باسمه

-الفضل لله ولك.

وتناول القدح متعمدا أن يمس أنامله أناملها فرجعت ومرح مشيتها يبنى عن القبول والرضى، ما أجدر أن يخطو الخطوة الحاسمة وهو رجل لا تعوزه المرأة غير إنه يجب أن يعمل للسنتورى ألف حساب الحق على عم شكرون الذى جاء بفتاته إلى طريق السنتورى، مسكين أعياء التجوال وراء عربته حتى عجز عن الاستمرار ففتح هذه القهوة المشوة، وترامت من بعيد ضجة وهتاف فتطلعت الرءوس نحو الجمالية وما لبث أن ظهرت عربة آرو حملت النساء المغنيات المصنفقات فى وسطهن عروس عائدة من الحمام فجرى الغلمان نحو العربة مهللين وتعلقوا بأطرافها وهى صاعدة نحو حى جبل ويضطرم الجو حيننا بالزغاريد والتهاني والهمسات الفاحشة ووقف عم شكرون آالغضب وصاح بصوت آالرعد:

-اضرب .. اضرب.

فهرعت إليه عواطف وأجلسته وهى تربت ظهره فى أسى وحنان وتساءل عرفة ترى هل يحلم الرجل أو يهلوس ؟ ما ألعن الكبر آيف إذن يعيش جدنا الجبلاوى؟ وجعل ينظر إلى الرجل حتى سكن ثم سأله برقة:

يا عم شكرون هل رأيت الجبلاوى؟

فأجابه دون أن ينظر إليه

يا مغفل ألا تدري أنه اعتكف فى بيته من قبل أيام جبل

فضحك عرفة أما ابتسمت عواطف وقال بصوت باسم

فصاح شكرون

ربنا يمد في عمرك يا عم شكرون.

دعاء آن له قيمة حقا عندما آن العمر له قيمة

وجاءت عواطف لتأخذ القدح فقالت له همسا

دعه في حاله ، إنه لا ينام من الليل ساعة

فقال باهتمام حار

قلبي عندك يا عواطف

ثم بسرعة قبل أن تم بالسير

-أود أن أحدثه في أمرنا.

فحذبتة بأصبعها وذهبت وراح يتسلى برؤية صغار يلعبون " وطى البصلة " وبغته ظهر السنطوري قادمًا من حى آل قاسم

فتراجع رأسه عن القضبان بجرأة غريزية ماذا جاء به؟ من حسن حظّه إنه أقام في حى رفاعة فأصبح له من عجاج حام،

عجاج الغارق في " هداياه " اقترب الفتوة حتى وقف أمام قهوة شكرون وتفحص وجه عواطف وهو يقول:

واحد سادة

لعلت ضحكة امرأة في نافذة وتساءلت أخرى

-أى شىء حمل فتوة قاسم على طلب السادة من قهوة المتسولين؟ بدا السنطوري غير مكترث لشىء قدمت عواطف له

الفتجان فتلوى قلب عرفة في صدره وانتظر الفتوة حتى تذهب حرارة المشروب وهو يتسم إلى الفتاة ابتساماً وقحة

آشفت عن أسنانه المذهبة وتوعده عرفه في نفسه بضربة بجبل المقطم، ورشف السنطوري رشفة وقال:

-تسلم يدك الجميلة.

وخافت أن تبتسم أما خافت أن تقطب على حين تطلع شكرون إليهما بارتياح ثم أعطاهما الفتوة قطعة من ذات الخمسة

القروش فدست يدها في جيبتها لاحتضار الفكّة ولكنه لم ينتظر ولم يبد أنه يطالب بشىء وعاد إلى قهوة القاسمية وحرارت

عواطف في أمرها فقال لها عرفة بصوت منخفض:

لا تذهبي إليه

فتساءلت

-وباقى النقود.

فنهض عم شكرون رغم ضعفه وأخذ الباقي وذهب إلى المقهى وبعد قليل عاد العجوز إلى مجلسه وما لبث أن أغرق في

الضحك حتى اقتربت منه ابنته وقالت برجاء:

آفاك ضحكا

ونفض قائما مرة أخرى وقف مستقبلا بيت الواقف في نهاية الحارة وصاح

-يا جبلاوى .. يا جبلاوى.

والتفتت نحوه الأعين من النوافذ وأبواب الأربيع والمقاهى والبدرومات وهرع نحوه الغلمان حتى الكلاب رمقته بأعينها وعاد  
شكرون يصيح:

-.

يا جبلاوى

يا جبلاوى .. حتى متى تلازم الصمت والاختفاء ، وصاياك مهملة وأموالك مضيعة أنت فى الواقع تسرق أما يسرق أحفادك  
وهتف الصغار " هيه " وههقهة آثيرون أما العجوز فاستدرك صرخة:

يا جبلاوى ألا ستمعنى ؟ ألا تدرى بما حل بنا ؟ لماذا عاقبت إدريس وآان خيرا ألف مرة من فتوات حارتنا ؟ يا جبلاوى!  
خرج عند ذاك السنطورى من المقهى وهو يصيح به

يا مخرف احتشم

فالتفت نحوه غاضبا وهتف

-عليك اللعنة يا وغد الأوغاد.

همس آثيرون فى إشفاق : ضاع الرجل، واتجه السنطورى نحوه وقد أعماه الغضب وضربه على رأسه بقبضته، ترنح الرجل  
وآاد يهوى لولا أن أدرآته عواطف ورأها السنطورى فرجع إلى مجلسه.

وقالت الفتاة بآآية:

-لنعد إلى البيت يا أبى.

وانضم إليها عرفة فى مساندته ، ولكن العجوز حاول فى ضعف أن يبعدهما عنه، وثقلت أنفاسه على حين ساد الأقربين  
وجوم، وقالت امرأ ' من نافذة.

الحق عليك يا عواطف، فالأحسن أنه آان يبقى فى البيت

فقال عواطف وهى ما زالت تبكى

ما لى حيلة

وراح شكرون يقول بصوت ضعيف

يا جبلاوى .. يا جبلاوى.



وقبيل الفجر شق صوت مولود السكون ، ثم عرف الناس أن شكرون قد مات آنت حادثة غير غريبة على الحارة وقالت بطانة السنطوري " : الله يجحمه، عاش قليل الأدب، وقلة الأدب آنت السبب في موته : وقال عرفة لحنش: جرائمهم ولا يتجرأ أحد على الشكوى أو يجد شاهداً-.

واحدا

قتل شكرون أما يقتل آثيرون في حارتنا، والقتلة لا يباليون بإخفاء  
فقال حنش بتقرز:

يا للمصيبة لماذا جفنا إلى هنا- . .

إنها حارتنا-.

أما غادرتها منكسرة الخاطر حارة ملعونة هي ومن عليها

فقال باصرار

لكنها حارتنا- . .

أننا نكفر عن ذنوب لم نجناها-.

التسليم هو أبر الذنوب جميعا

فقال حنش بيأس

خابت تجربة الزجاج في الجبل.

لكنها ستنجح في المرة القادمة

ولما حمل نعش شكرون لم يكو وراءه إلا عواطف وعرفة ، وهكذا بدا أمام الربع وعجب الجميع من اشتراك عرفة الساحر في

الجنازة وتهامسوا بجرأته العجيبة ذلك الساحر المجنون!

وآن الأعجب من ذلك أن السنطوري انضم إلى الجنازة عندما توسطت حي آل قاسم بأى جرأة وقحة فعل ! لكنه فعل بلا

حياء وقال لعواطف:

-البقية في حياتك يا عواطف!

وأدرك عرفة أن الرجل يمهّد لطلبه القادم، والمهم أن حال الجنازة تغير في غمضة عين أذ تسارع إليها الجيران والمعارف

الذين منعهم الخوف حتى ملأت الطريق وعاد السنطوري يقول:

البقية في حياتك يا عواطف!

فنظرت إليه في تحد وقالت  
تقتل القتل وتمشى في جنازته  
فقال السنطوري بصوت سمعه الكثيرون  
قيل مثل هذا لقاسم من قبل  
وتعالت أصوات آثيرة وهي تقول  
وحدى الله .. الأجال بيد الله وحده  
فصاحت به عواطف

فقال السنطوري  
قتل أبي بضربة يدك .  
الله يسامحك يا عواطف لو أنت ضربته ضربة حقيقية لقتل في الحال، والحق أنى ضربته ولكن هوشته والكل يشهدون- .  
بذلك

واستبقت الحناجر قائلة:

هوشه ! ما لمستته يده ! والله ما لمسه ، وليأأل الدود عيوننا إن أنا آذيين

فهتفت عواطف

ربنا المنتقم

فقال السنطوري بحلم ضرب مثلاً عهداً طويلاً

الله يسامحك يا عواطف

ومال عرفة على أذن عواطف وقال فيما يشبه الحمس

خلى الجنازة تسير بسلام

وما يدرى عرفة إلا ورجل من أعوان السنطوري يدعى العضاض يهوى بكفه على وجهه ويصيح به

-يا ابن المبولة ما أدخلك أنت بينها وبين المعلم.

التفت عرفة نحوه في ذهول فتلقى ضربة أشد من الأولى وأخر صفعة وثالث بصق على وجهه ورابع أخذ بتلابيبه وخامس

دفعه بقوة فسقط على ظهره وسادس قال له وهو يرآله:

-ستدفن في القرافة إذا ذهبت إليها.

لبث مطروحا على الأرض في ذهول وتجمع وقام في ألم غير يسير وراح ينفض التراب عن جلبابه ووجهه وآان جمع من

الصغار قد التفوا حوله وراحوا يهتفون : العجل وقع .. هاتوا السكين " رجع إلى البدروم وهو يعرج وقد جن جنون غضبه.

ونظر حنش إليه بأسى وقال :

قلت لك لا تذهب

فصرخ في حنق أهوك

اسكت الويل لهم

فقال له بلين وحزم معا

اصرف النظر عن هذه البنت وإلا فعلينا السلام.

فصمت مليا وهو ينظر إلى الأرض مفكرا ثم رفع وجهها مكفها بالاصرار المخيف وقال :

ستراني متزوجا بما أقرب مما تتصور- .

هذا هو الجنون بعينه-.

وسوف يرأس عجاج الزفة-.

أنك تبلل ثيابك بالكحول وترمى بنفسك في النار

وسأعود تجربة الزجاجاة الليلة في الخلاء

ولزم داره لا يبرحها أياما ، ولكن صلته بعواطف لم تنقطع عن طريق النافذة ذات القضبان، ثم قابلها خفية عقب انقضاء أيام

الحداد في دهليز ربيعها وقال لها في صراحة :

يجسن بنا أن نتزوج في الحال

ولم تفجأ الفتاة بطلبه ولكنها قالت في حزن

لك من المتاعب ما لا تحتمل

فقال بثقة

ستسبب موافقتي

-قبل عجاج أن يشرف حفلنا، ولذلك معنى لا يخفى عليك.

واتخذت الخطوات في تكتم شديد حتى تم آل شىء، وعلمت الحارة دون سابق إنذار أن عواطف ابنة شكرون تزوجت من عرفة الساحر وانتقلت إلى داره وأن عجاج فتوة آل رفاعة قد شهد الزواج، ذهل آثيرون وتساءل آخرون آيف تم ذلك ، آيف تجرأ عرفه عليه، وآيف أقنع عجاج بمباراته ؟ أما أهل الخبرة فقد قالوا يا داهية دقى.

واجتمع السنطوري بأعوانه في قهوة آل قاسم وعلم عجاج بذلك فاجتمع بأعوانه في قهوة آل رفاعه ودرت الحارة بالاجتماعين فتوتر جوها، وسرعان ما خلال الموقع بين القاسمية والرفاعية من الباعة والمتسولين والأطفال وأغلقت الدآآين والنوافذ وخرج السنطوري برجاله إلى الحارة فخرج عجاج برجاله آذلك واحتدم الشر حتى فاحت رائحته الكريهة فلم يبق على اندلاع اللهب إلمسه وصاح رجل طيب من فوق سطح:

ماذا أغضب رجالنا؟ فكروا قبل أن تجرى الدماء

فقال عجاج من خلال صمت الرهبة وهو ينظر إلى السنطوري

لسنا غاضبين ولا داعى عندنا للغضب

فقال السنطوري بغلظة

-أنت خرجت على حدود الزمالة يا معلم ، ولا يمكن أن يقرك فتوة على ما فعلت.

وما الذى فعلت ؟

فقال السنطوري وآان الكلام يخرج من فمه وعينيه معا

حميت رجلا وهو يتحدانى- .

رفاعه

فقال السنطوري بازدرء

ما فعل الرجل إلا أن تزوج بنتا وحيدة بعد وفاة أبيها، وأنا أشهد زواج آل

ما هو برفاعى ، ولا يعرف أحد أباه، ولا هو نفسه، وقد تكونت أنت أباه وقد آآونه أنا، أو أى متسول فى الحارة- .

لكنه يقيم اليوم فى جى-.

ليس إلا أنه وجد بدروما خاليا-.

ولو

فصرخ السنطوري بصوت مدو

أعرفت أنك خرجت على حدود الزمالة

فصاح به عجاج

لا تصرخ يا معلم ، الأمر لا يستوجب أن تتنافر آالديوك- .

لعله يستوجب

فقال عجاج بنبرة ألها أمر بالاستعداد

اللهم طولك يا روح- .

عجاج ، انتبه لنفسك- .

ملعون أبو القفا- .

ملعون أبوك

وارتفعت النبأيت لولا أن أدرأها صوت آلهوار يصيح بلهجة أمة

-عيب يا رجال- .

اتجهت الرءوس نحو مصدره فرأوا المعلم سعد الله فتوة الحارة وهو يشق طريقه بين الرفاعية حتى وقف فى المنطقة بين

الحيين وهو يقول:

نزلوا النبأيت

فهبطت النبأيت آرؤس المصلين، ونظر سعد الله مرة إلى السنطورى وأخرى إلى عجاج وقال

لا أحب الآن أن أسمع آلام أحد تفرقوا بسلام ، مذبحة من أجل مرة ، يا خسارة الرجولة- .

تفرق الرجال فى سكون ورجع سعد الله صوب داره

وآن عرفة وعواطف داخل البدروم لا يصدقان أن الليلة ستمر بسلام ، آنا يتابعان ما يدور فى الخارج بقلبين واجفين

ووجهين ممتنعين، ولم يتتل لهما حلق حتى سمعا صوت سعد الله بنبرته الأمة التى لا ترد تنهدت عواطف من العماق

وقالت:

ما أقسى هذه الحياة

وأراد أن ييث فى نفسها شيئا من الطمأنينة فقال وهو يشير إلى رأسه

أنا أعمل بهذا ، هكذا آن جبل، وهكذا آن قاسم الداهية

فازدردت ريقها بمشقة وقالت

ترى هل تدوم السلامة؟

ضمها إلى صدره فى مرح ظاهرى وقال

ليت آل زوجين يسعدان مثلنا

فطرحت رأسها على آتفه ريثما تسترد أنفاسها وهمست قائلة

ترى هل تنتهى المسألة عند ذلك ؟

فنفخ قائلا فى صراحة

أى فتوة لا يؤمن جانبه

فرفعت رأسها وهى تقول

أعرف ذلك وبى جرح لن يلتئم حتى أراه صريعا

وعرف من تعنى ونظر فى عينيها بتفكير وقال

-الانتقام فى مثلك حالتك واجب ولكنه لا يؤدى إلى نتيجة حاسمة إن سلامتنا مهددة لا لأن السنطورى يود البطش بنا،

ولكن لأن سلامة حارتنا ألها مهددة ببطش الفتوات ولو تغلبنا على السنطورى فمن يضمن لنا ألا يتحرش بنا عجاج غدا أو

يوسف بعد غد، فإما أمن للجميع أو لا أمن لأحد، فابتسمت فى فتور متسألة:

أتريد أن تكون آجبل أو رفاعة أو قاسم؟

فقبل شعر رأسها وهو يتشمم رائحته القرنفلية دون أن يجيب فعادت تقول

أولئك آلفوا بالعمل من قبل جدنا الواقف

فقال بضجر

-جدنا الواقف ! آل مغلوب على أمره يصيح أما صاح المرحوم أبوك " : يا جبلاوى " ولكن هل سمعت عن أحفاد مثلنا لا

يرون

جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق؟ وهل سمعت عن واقف يعبث العابثون بوقفه على هذا النو وهو لا يحرك ساآنا؟

فقالت ببساطة:

إنه الكبير!

فقال بارتياب

لم أسمع عن معمر عاش طول هذا العمر- . .

آل شئ

فصمت مليا ثم غمغم قائلا

يقال إنه يوجد رجل فى سوق المقطم جاوز المائة والخمسين من العمر، ربك قادر على

آذلك السحر فهو قادر على آل شئ

فضحكت من غروره وهى تنفرد بإصبعها على صدره وقالت

سحرك قادر على مداواة العين- . .

وعلى أشياء لا تحصى

فتنهدت قائلة

يا لنا من مساطيل ! نتسلى بالأحاديث آآنا لا يتهددنا شئ

لم يآبه لمقاطععتها فواصل حديثه قائلا

وقد يتمكن يوما من القضاء على الفتوات أنفسهم وتشبيد المباني وتوفير الرزق لكافة أولاد حارتنا

فتساءلت ضاحكة

هل يمكن أن يحدث ذلك قبل قيام القيامة؟

فرقت عيناه الحادثان بنظرة حاملة وقال

أه لو آنا جميعا سحره-! .

لو

ثم أردفت قائلة

-في زمن قصير حقق قاسم العدالة بغير سحرك.

وسرعان ما ولت أما السحرة فأثره لا يزول لا تستخفى بالسحر يا عسلية العين إنه لا يقل عن حينا خطورة ويخلق مثله-.

حياة جديدة ولكنه لن يؤتى أثره الحق إلا إذا آآن آآثرنا سحرة

فتساءلت في دعابة:

وآيف يتأتى ذلك؟

ففكر طويلا قبل أن يجب قائلا

إذا تحقق العدالة، إذا نفذت شروط الواقف، إذا استغنى آآثرنا عن الكد وتوفروا على السحر- .

أتريدها حارة من السحرة

وضحكت ضحكة لطيفة واستدرآت قائلة

يكلف أحدا من أحفاده بعمل

فنظر إليها نظرة غريبة وتساءل

لماذا لا نذهب نحن إليه ؟

وما السبيل إلى تنفيذ الشروط العشرة وجدنا قعيد الفراش ويبدو أنه ما عاد بوسعه أن

فضحكت مرة أخرى وقالت:

هل تستطيع أن تدخل البيت الكبير

فضربت يده وهي تقول

آفاك مزاحا حتى نطمئن على حياتنا أولا

فابتسم ابتسامة غامضة وقال  
لو أنت أحب المزاح ما عدت إلى حارتنا  
فأفزعها شئ في نبرته فحدجته بدهشة وهتفت  
أنت تعنى ما تقول  
فطالعتها بنظرة صامته فعادت تقول  
تصور أن يقبضوا عليك في البيت الكبير  
فقال بهدوء  
-ما العجب في وجود حفيد بيت جده!  
قل إنك تمزح ، رباه ! ما لك تنظر جادا هكذا ، شئ عجيب لماذا تريد أن تذهب إليه؟-  
ألا تستحق مقابله المخاطرة-  
آلة ندت عن لسانك فكيف انقلبت حقيقة مرعبة  
فربت راحتها ليهدى خاطرها وقال  
مذ عدت إلى حارتنا وأنا أفكر وحدى في أشياء لا تخطر ببال  
فتساءلت بتوسل  
لم لا نعيش في حالنا؟-  
يا ليت إنهم لا يترآونا نعيش في حالنا ولا بد للإنسان من أن يؤمن بحياته-  
إذن نهرب من الحارة  
فقال بإصرار  
لا أهرب وفي يدي السحر  
وجذبها برقة حتى ألصقها بنفسه وجعل يربت منكبها وهو يهمس في أذنها  
-سنجد للكلام فرصا آتيرة أما الآن فليطمئن قلبك.

100

ترى جن الرجل أم أعماه الغرور؟ هكذا جعلت عواطف تتساءل وهي تراقب عرفة في عمله وتفكيره، ومن ناحيتها هي لم يكن يكدر صفو أيامها السعيدة إلا رغبتها في الانتقام من السنطوري قاتل أبيها، والانتقام في الحارة تقليد مقدس من قديم



الزمان، وحتى هذا التقليد المقدس يمكن أن تتناساه ولو على مريض غير مريض للحياة السعيدة التي وهبها الزواج لكن عرفة  
آن يؤمن بأن الانتقام من السنطوري ما هو إلا جزء من عمل آبير إلى على نفسه - أما خيل إليها - القيام به ولم تفهمه  
أجسب أنه أحد الرجال الذين تتغنى بهم الرباب؟ لكن الجبلاوى لم يعهد إليه بشئ وهو لا يبدو آبيراً للثقة بالجبلاوى ولا  
بما تحكى الرباب ومن المؤاد أنه بات يعطى السحر من جهده ووقته أضعاف أضعاف ما يتطلبه الرزق وإذا فكر جاوزه تفكيره  
شخصه وأسرته إلى مسائل عامل لا يعنى بها أحد الحارة والفتوة والنظارة والوقف والربع والسحر وأن يحلم أحلاما  
عريضة عن السحر والمستقبل مع أنه آن الرجل الوحيد في الحارة الذى للم يقبل على الحشيش لحاجة عمله في  
الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه، ولكن آل هذا هان إلى جانب رغبته الجنونية في التسلل إلى البيت الكبير، لماذا يا  
رجلى؟ لا سالة المشورة فيما ينبغى أن تسير عليه الحارة أنت تعلم بما ينبغى أن تسير عليه الحارة، وآنا نعلم فما  
الضرورة إلى تعريض نفسك للهلاك؟ أريد معرفة شروط الوقف العشرة ليست العبرة في المعرفة ولكن في العمل فماذا  
تستطيع أن تفعل، الحق أنى أريد أن اطلع على الكتاب الذى طرد بسببه أدهم إن صدقت الحكايات وماذا يهملك في ذلك  
الكتاب؟ لا أدري ما الذى يجعلنى أؤمن أنه آتاب سحر وأعمال الجبلاوى في الخلاء لا يفسرها إلا السحر لا العضلات  
والنبوت أما يتصورون وما الداعى إلى هذه المخاطر وأنت سعيد ورزقك موفور بغيرها؟ لا تضنى أن السنطوري نسيا .. آلا  
خرجت آدت أتعثر في نظرات رجاله الحاققة حسبك السحر ودع البيت الكبير جانبا، هناك الكتاب .. آتاب السحر الأول ..  
سر

قوة الجبلاوى الذى ضن به حتى على أنه قد لا يكون شيئا مما تتصور وقد يكون والأمر يستحق المخاطرة وإذا به يخطو  
خطوة حاسمة في طريق الصراحة فقال لها:

-هكذا أنا يا عواطف ما العمل؟ لست إلا ابنا حقيراً لامرأة تعيسة وأب مجهول والكل يعرف هذا ويتندر به، ولكن لم يعد  
لى

من هم في الدنيا إلا البيت الكبير، وليس غريباً على مجهول الأب أن يتطلع بكل قوته إلى جده وحجرتى الخلفية علمتى  
ألا أؤمن بشئ إلا إذا رأيته بعيني وجربته بيدي فلا محيد عن الوصول إلى داخل البيت الكبير، وقد أجد القوة التي أنشدها  
وقد لا أجد شيئا على الإطلاق ولكننى سأبلغ برا هو على أى حال خير من الحيرة التي آأبدها ولست أول من اختار  
المتاعب في حارتنا، آن بوسع جبل أن يبقى في وظيفته عند الناظر، وآان بوسع رفاعة أن يصير نجار الحارة الأول، وآان  
في وسع قاسم أن يهنأ بقمر وأملاآها وأن يعيش عيشة الأعيان، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر.  
فقال حنش بأسى:

ما آأثر الذين يجرون نحو الهلاك بأرجلهم في حارتنا

فقال عرفة بجدة

قليل منهم من عنده لذلك أسباب وجيهة

غير أن حنش لم يتخلف عن معاونة أخيه ، تبعه آظله في الهزيع الأخير من الليل إلى الخلاء، ولما يئست عواطف من مقاومته رفعت يديها بالدعاء له أنت ليلة مظلمة ظهر الهلال فى أولها ساعة ثم اختفى سار الأخوان بلص الجدران حتى بلغا السور الخلقى للبيت الكبير فيما يلي الخلاء، وقال حنش همسا:  
آن رفاعة يقف فى مكاننا عندما ترامى إليه صوت الجبلاوى  
فقال عرفة وهو ينظر فيما حوله مدققا

فأشار حنش إلى الخلاء وقال بقرهبة

هكذا تقول الرباب وسوف أعرف حقيقة آل شئ.

وفى هذا الخلاء ألم بنفسه جبل وأرسل خادمه إلى قاسم

فقال عرفة بامتعاض

-وفيه أيضا قتل رفاعة واغتصبت أمنا وضربت ولم يحرك جدك ساآنا.

وحط حنش مقطفا به أدوات حفر على الأرض ثم شرعا فى حفر الأرض تحت السور ورفع الأتربة بالمقطف، عملا بجذ وعزم حتى امتلأ صدرهما برائحة ترايبية وتبين أن حنش لم يكن دون عرفة حماسا ن آنما أنت تدفعه نفس الرغبة وإن غلبه الخوف، ولم يكن رأس عرفة فوق الأرض إلا بشبر حين قال من جوف الحفرة:  
حسبنا هذه الليلة

ثم وثب إلى سطح الأرض معتمدا على راحتيه ثم قال

-علينا أن نسد الفوهة باللوح الخشبي ثم نغطيها بالتراب حتى لاينكشف أمرها، ثم رجعا مسرعين والفجر فى أعقابهما،

آن يفكر فى الغد ، الغد العجيب حين يسير فى البيت الكبير المجهور ، ومن يدرى قلعة يلقي الجبلاوى ولعله يحادثه

فيستوضحه عما مضى وعما هو راهن وعن شروط وقفه وسر آتابه ذلك الحلم الذى لا يتحقق إلا بين سحابات الدخان الذى تنفته الجوز.

وفى البدروم وجد عواطف ما تزال ساهرة تنتظر فلما رأته حدجته بنظرة عتاب ناعس وغمغمت:

آنك راجع من مقبرة

فقال بمرح يدارة به قلقه

ما أحلاك

وارتمى إلى جانبها فقالت

لو آنت عندك شيئاً لما استهنت برأى  
فقال مداعبا

ستغير رأيك عندما تشهدين ما يحدث غدا- .

لى فى السعادة فرصة وفى الهلاك ألف  
فضحك عرفة ثم قال

أن ما تنعم به من سلام ما هو إلا خيال، ومزق سكون الفجر صوات حاد، وتبعه عويل

فعبست عواطف وتمتمت

لو رأيت الأعين الحاقدة لأيقنت

فال غير حسن!

فهز منكبيه باستهانة ، ثم قال

لا تلومينى يا عواطف وأنت مسئولة بعض الشئ عما أنا فيه- .

أنا

فقال جادا

-عدت إلى الحارة مدفوعا برغبة خفية إلى الانتقام لأمى ، ولما وقع الاعتداء على أهلك تأصلت تلك الرغبة فى الانتقام من  
جميع الفتوات ولكن حتى لك أضاف إليها جديدا آاد يطمس على الأصل ، وهو أن أفضى على الفتوات للانتقام ، ولكن ليهنأ  
الناس بالحياة، وما قصدت بيت جدنا إلا لأحصل على سر قوته.

ورنت إليه بنظرة طويلة قرأ فيها بوضوح على ضوء الدوابة الإشفاق الأليم من أن تفقده أما فقدت أباه، فابتسم إليها  
مشجعا متوددا، وآان العويل يستفحل فى الخارج.

## 101

وشد حنش على يد عرفة مودعا والأخير فى اعماق الحفرة وانبطح عرفة على وجهه وراح يزحف خلال الممر المعبق برائحة  
الأرض، ومازال فى زحفه حتى برز رأسه من أرض الحديقة داخل البيت الكبير، استقبل أنفه شذا عجيبا أنه خلاصة  
خلاصات من الورد والياسمين والحناء مذابة فى ندى الفجر ، أسكره الشذا رغم شعوره البالغ بالخطورة ، ها هو يتشمم  
الحديقة التى مات أدهم حسرة عليها ، مايدو منها إلا ظلام ضارب تحت الأجم السهرة وعليها صمت رهيب يند عننه من  
آن لأن هسيس الأوراق المستجيبة للنسائم، ووجد الأرض طرية رطبية فييت فى نيته أن يخلع نعليه عند تسلله إلى البيت

آيلا يطبع على الأرض أثره.

ترى أين ينام البواب والبستاني وغيرهما من سائر الخدم؟ وزحف على أربع في حذر شديد أن يحدث صوتا متجها نحو البناء الذى بدا شبح هيكله متربعا فى الظلام، ولاقى فى رحلته نحو البيت من الارتياح ما لم يلاق فى حياته على إيلاف خوض الظلمات والمبيت فى الخلاء والخرائب ومضى يزحف لصق الجدار حتى مست يده اولى درجات السلم المفضى إلى السلامك إن صدقت الرباب، هنا دفع الجبلأوى بغدريس ليطرده خارجا، ذلك آن مصير إدريس جزاء تحديه لأمر أبيه، فما عسى أن يفعل الجبلأوى بمن يقتحم عليه داره ليسرق سر قوته؟ ولكن مهلا فإن أحدا لا يمكن أن يتوقع تسلل لص إلى البيت الذى ظل أمنا مدرعا بمهابته طيلة الأعوام الماضية، ودار زاحفا حول الدرايزين ثم أخذ يرقى فى الدرج على يديه ورآتيه حتى بسطه السلامك، وخلع نعليه وتأبطهما ثم زحف نحو الباب الجانبى الذى تقول الرباب إنه يفضى إلى المخدع، وبغثة سمع سعدة قادمة من الحديقة، فلبد أسفل الباب مرسلا ناظرية نحو الحديقة فرأى شبحا يقترب من السلامك، آتم أنفاسه لأنه خيل إليه أن اضطراب قلبه سيسمع مدويا واخذ الشبح يقترب، ومضى يرقى فى الدرج لعله الجبلأوى، ولعله يضبطه متلبسا لجريمته أما ضبط أدهم من قبل فى نفس الساعة على وجه التقريب، وبلغ الشبح بسطة السلامك على بعد ذراعين من مكنمه لكنه مضى إلى الجانب الآخر من السلامك، ورقد على شئ يشبه الفراش، خف التوتر مخلفا وراءه إعياء، ولعل الشبح لم يكن إلا خادما ذهب لقاء حاجة ثم عاد إلى مرقدده وها هو يعلو شخيره استرد شيئا من جرأته فرفع يده متحسسا موضع الآره حتى عثر عليها، وأدارها بهوادة ومضى يدفع الباب برفق حتى انفرج عن فتحة تسعه ثم زحف داخلا ورد الباب وراءه وجد نفسه فى ظلمة حالكة، فأجال يده أمامه حتى مس اولى درجات السلم وجعل يصعد فى خفة الهواء، انتهى إلى ردهة طويلة مضاءة بمصباح فى آوة بالجدار، وآنت تنعطف يمينا إلى الداخل، وتمتد يسارا بعرض البيت ويتوسطها باب المخدع مغلقا، عند ذاك المنعطف وقفت أميمة، ومن موقفه انطلق أدهم، وها هو ينطلق وراء الشئ نفسه، تراآمت على صدره الرهبة، فنادى إرادته وجرأته، وآن من السخرية ان يرجع قد يظهر خادما فى أية لحظة وقد يفيق من جنونه على يد تقبض على آتفه، فما أجدره أن يسرع، سار على أطراف أصابعه نحو الباب أدار المقبض اللامع فدار مع يده ودفع الباب فانفتح برفق، ثم تسلل رادا الباب وراءه، اسند ظهره إلى الباب فى ظلام لا يرى فيه شيئا وتنفس بجدر وآنما يضمن بأنفاسه، وعبثا حاول أن يرى شيئا، وبعد قليل شم رائحة بخور ذآية أفعمت قلبه قلنا وحرنا غريبا لم يدر له من سب ولم يعد يشك أنه فى مخدع الجبلأوى متى يألف الظلمة؟ وآيف يلم نفسه المبعثرة؟ ومن وقف موقفه هذا من قبل؟ وآيف يشعر بأنه سينهار إلى الحضيض إذا لم يستمسك بكل ما أوتى من قوة وعزم وجرأة وتوعد نفسه بالهلاك إذا لم يصب لكل حرآة حسابها الدقيق وتذآر السحب فى جريانها الذى يرسم لها أشكالا غريبة بطريقة عفوية فيرسم جبلا أما يرسم قبرا ومس الجدار بإصبعه فاتخذ منه مرشدا بطريقة عفوية فسار بجذاته متوسا حتى لمس آتفه مقعدا، لكن حرآة مفاجئة ندت من رآن الحجرآة البعيد تصلبت له شرايينه، لبد وراء المقعد متجه

العينين نحو الباب الذى دخل منه وسمع وقع أقدام خفيفة وحفيف ثوب، وتوقع أن يغمر الظلماء نور وأن يرى الجبلاوى واقفا حiale، سيسجد عن قدميه مستعظفا ويقول له إن حفيدك لا أب لى ولا هدف إلا الخير ، فافعل بى ما تشاء.

رأى رغم الظلمة شبعا يقترب من الباب ورأى الباب وهو يفتح يرفق ونور الردهة الخارجية يتسرب إلى ما ورائه، وخرج الشيخ تارآ الباب مواريا واتجه يمنة فتبينه على ضوء المصباح الخارجى، امرأة عجوز سوداء نحيلة الوجه طويلة بصورة لا يمكن أن تنسى ، ترى أهى خادم؟ وهل يمكن أن تكون هذه الحجرة من جناح الخدم؟ ونظر من جانب المقعد إلى المكان ليراه على الضوء الباهت المتسلل من الباب، فميز أشباح المقاعد والكتب وتراء له فى الصدر رسم فراش آبير ذى عمد وناموسية يليه عند قدميه فراش صغير لعله هو الذى غادرته العجوز، لن يكون هذا الفراش الفخم للجبلاوى، إنه نائم الآن هنالك غير دار بجريمته، آم يود أن يلقي نظرة عليه ولو من بعيد لولا هذا الباب الموارب الذى ينذر بعودة الذاهبة ونظر إلى يساره فلمح رسم باب الخلوة مغلقا على سرة الرهيب، هكذا تطلع إليه أدهم فى القديم فله الرحمة ، وزحف وراء المقاعد متناسيا الجبلاوى نفسه حتى صار أسفل الباب الصغير لم يستطيع مقاومة الإغراء فرفع يده حتى دس إصبعه فى ثقب المفتاح ثم ضغط إلى أسفل جاذبا إياه فأطاع، وسرعان ما رده وقلبه يرتجف انفعالا وإحساسا بالفوز، وإذا بالضوء الضئيل يختفى وتغرق الحجرة مرة أخرى فى الظلام، وسمع مرة أخرى آذل وقع الأقدام الخفيفة، ثم طقطقة فراش وشت باستلقاء العائدة، ثم ساد الصمت وانتظر متصبرا حتى تنام العجوز ومضى يعمن النظر نحو الفراش الكبير ولكنه لم ير شيئا واقتنع بانه من الجنون أن يحاول الاتصال بجده، إذ قبل ذلك ستستيقظ العجوز وتملأ الدنيا صراخا ثم يكون الوداع، ولكن حسبه الكتاب الخطير بما يتضمن من شروط الوقف وأيات السحر التى سيطر بها جده فى الخلاء والناس فى زمانه الأول إن احدا قبله لم يتصور أن الكتاب آتاب سحر لأن احدا قبله لم يمارس السحر، وعاد يرفع يده ويدس إصبعه ويجذب الباب ثم تسلل زاحفا ورده ورائه ، وقف فى حذر وهو يتنفس فى عمق ليريح شيئا ما أعصابه المرهقة لماذ ضن الجبلاوى على أبنائه بسر آتابه؟ حتى أحبهم إلى قلبه أدهم، هنالك سر بلا ريب وسينكشف السر بعد ثوان، بعد إشعال شمعه وقديما اشعل أدهم الشمعة وها هو مجهول الأب يشعلها مرة أخرى فى نفس الموقف، وسوف تغنى الرباب بهذا إلى الأبد، أشعل الشمعة فرأى عينين تنظران عليه، رغم ذهوله أدرك أن العينين لعجوز أسود يرقد على فراش فى مواجهة الداخلن ورغم ذهوله ورعبه تبين له أن العجوز يجاهد للخروج من الغيبوبة الفاصلة بين النوم واليقظة التى ربما آن أحدثها صوت حك عود الثقاب، وبجراحة غير إرادية ولا شعورية أنقض عليه فأطبق يمناه على رقبته وشد بكل قوة أعصابه، تحرك العجوز بعنف وقبض على يده فضربه بقدمه فى بطنه وضاعف من قوة الضغط على عنقه، وسقطت الشمعة من يسراه فانطفأت وساد الظلام ، وفى الظلام تحرك العجوز حراة أخيرة من أعماقه ثم همد لكن يده المخنونة لم تكف عن الضغط حتى تراخت أصابعها، وتراجع لاهثا حتى التصق ظهره بالباب ومرت الثوانى وهو فى جحيم من العذاب الصامت، وشعر بقواه تخور وبأن الزمن بات أثقل من الذنوب سيقع على الأرض أو فوق جثة ضحيته إذا لم يتغلب على ضعفه وناداه الهرب آقوة لا قبل له بها، لن

يستطيع أن يتخطى الجثة إلى الكتاب الأثرى الكتاب المشؤوم ولا شجاعة عنده ليشغل الشمعة من جديد ، العمى أحب إليه من ذلك وشعر بألم في ساعديه لعله من أثر أظافر الرجل عند المقاومة اليائسة، وارتعد جسده لتلك الفكرة ، آنت جريمة أدهم العصيان أما جريمته هو فالقتل، قتل رجل لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه على يده سببا، وهو قد جاء سعيا وراء قوة يناضل بها المجرمين فانقلب وهو لا يدري مجرما، واتجه رأسه في الظلام إلى الرآن الذى ظن الكتاب معلقا به ودفع الباب ثم تسلل وهو يرده وراءه وزحف بجذء الجدار إلى الكتاب وتريث وراء المقعد الأخير ، لا يرى فى هذا البيت إلا الخدم فأين سيده؟ ستحول هذه الجريمة بينهما إلى الأبد وشعر بالخيبة والفشل حتى أعمق أعماقه، وفتح الباب برفق فأعشى النور عينيه ويخل إليه أنه ينقض عليه فى ضوضاء صاخبة ووميض صارخ، أغلق الباب ومضى على أطراف أصابعه وهبط السلم فى ظلمة حالكة، وعبر السلامك إلى الحديقة وقد قل من الإعياء والحزن حذره، وإذا بالنائم فى السلامك يستيقظ متسائلا : من ! فلبد عرفه لصق الجدار اسفل السلامك وقد أمدته الفزع بقوة ونادى الصوت آرة أخرى فأجابت قطة بموائها، لبث فى مكمنة وهو يخشى أن يساق إلى جريمة جديدة ، ولما استقر الصمت زحف على أرض الحديقة الخلفية حتى السور، وراح يتحسس موضع الثغرة حتى عشر عليها.

ودخلها زحفا أما جاء، ولما بلغ النهاية أو آاد ارتطم بقدم، وإذا بأقدام ترآله فى رأسه بسرعة فاقت خاطره.

102

وثب على صاحب القدم فاشتبكا فى صراع لم يدم طويلا إذ ندت عن الآخر صيحة غضب آشفت عن شخصه لعرفة فهتف فى ذهول:

حنش!

تعاوننا على الخروج معا إلى سطح الأرض وقال حنش-

طالت غيبتك فدخلت لاتنسم الأخبار

فقال عرفة وهو يتنفس بمشقة

أخطأت أعادتك ولكن هلم بنا

عادا إلى الحارة المستغرقة فى النوم ولما رأته عواطف هتفت

-اغتسل .. ربا .. ما هذا الدم يسيل من يدك وعنقك.

فارتعد لكنه لم يجب ومضى ليغتسل وسرعان ما أغمى عليه، وأفاق بعد قليل وبمساعدة عواطف وحنش جلس على الكنبه بينهما وهو يشعر بأن النوم بات أبعد عنه من الجبلاوى ولن يعد يتحمل عبء سره وحده فقص عليهما ما وقع له فى

رحلته العجيبة وانتهى والأعين تحملق فيه برعب ويأس ، وهمست عواطف.

آنت ضد الفكرة من أول الأمر

غير أن حنش قصد أن يخفف من وقع الكارثة فقال

ليس في الإمكان تجنب مثل هذه الجريمة

فقال عرفة بحزن

-هيهات أن تتجه الظنون إليك.

لكنى قتلت عجوزا لا ذنب له ، ومن يدري فعله الخادم الذى أرسله الجبلاوى إلى قاسم؟

وغشيتهم فترة صمت قائمة آالسهاد المرير حتى قالت عواطف

ألا يحسن بنا أن نام ؟

فقال عرفة

نأما أنتما ، أما أنا فلا نوم لى الليلة

وانخط الصمت مرة أخرى فوق رعوسهم وإذا بحنش يسأله

ألم تلمح الجبلاوى أو تسمع صوته ؟

فهز رأسه فى ضيق قائلا

آلا- .

لكنك رأيت فى الظلام فراشه-.

أما نرى بيته

فقال حنش فى حسرة

ظننت غيابك انقضى فى محادثته- .

البيت

فقال عواطف بقلق

ما أسهل الخيال خارج

-أنت تبدو آالمحوم ومن الأفضل أن تنام.

من أين يجىء النوم ؟

لكنه شعر بصدق قولها فيما يتتابه من حرارة وذهول وعاد حنش يقول بحسرة

آنت على بعد ذراع من الوصية لكنك لم تنظر فيها!

وتقلص وجهه من الألم فقال حنش  
يا لها من رحلة شاقة وخاسرة-!

نعم

ثم بنبرة جديدة حادة

-لكنها علمتني أنه لا ينبغي أن نعتمد على شيء سوى السحر الذى بين أيدينا ألا ترى اننى غامرت برحلة جنونية جريا  
وراء فكرة ربما آنت أبعد ما يكون عن ظنى؟  
أن يكابد حال اضطراب فى العقل-.

والنفس

نعم ، لم يقل غيرك أحد أن آتابه المشهور آتاب سحر ، فقال عرفة وقد بدا آآثر من قبل  
تجربة الزجاجاة ستنجح اقرب مما تصور ، وستكون جد نافعة إذا احتجنا للدفاع عن النفس  
وأذدر الصمت المخيف بالعودة فقال حنش  
الوصول إلى البيت الكبير وصاحبه دون تلك المغامرة  
فقال عرفة بحماس

ليتك عرفت من السحر ما يمكنك من

السحر لا نهاية له، ليس بين يدي منه اليوم إلا بعض الأدوية ومشروع زجاجة للدفاع أو للهجوم، أما ما يمكن أن يوجد لا-  
يحيط به خيال

فقال عواطف فى ضجر:

دنيا أخرى، وما آنت لتفيد شيئا من محادثته لو-.

وقعت، ولعله نسى الوقف والنظارة والفتوات والأحفاد والحارة

ما آآن ينبغي أن نفكر إطلاقا فى تلك المغامرة ، جدنا من دنيا ونحن من

وغضب عرفة بلا سبب ظاهر، ولكن حالته الطارئة آآنت تبرر آل غريب، وقال بجدة:

-هذه الحارة المغرورة الجاهلة؟ ماذا تدرى من الأمر؟ لا شيء.. ليس لديها إلا الحكايات والرباب وهيهات أن تعمل بما  
تسمع ويظنون حارتهم قلب الدنيا، وما هى إلا مأوى البلطجية والمتسولين وآآنت فى البدء مرتعا قفرا للحشرات حتى حل  
بها جدآم الواقف.

وأجفل حنش على حين بللت عواطف خرقة وهمت بوضعها على جبينه ولكنه أبعد يدها بجدة وقال:

أنا عندى ما ليس عند أحد ولا الجبلأوى نفسه عندى السحر وهو يستطيع ان يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة-.



وقاسم مجتمعين

قالت عواطف بتوسل:

متى تنام؟-

عندما تحمد النار المشتعلة فى رأسى

فتمتم حنش بغشفاق

فهتف عرفة

أوشك الصبح أن يطلع.

فيلطلع ، ولن يطلع حتى يقضى السحر على الفتوات، ويظهر النفوس من عفاريتها، ويجلب من الخير ما يعجز الوقف عن-

جزء منه ويصير هو الغناء المنشود الذى آن يحلم به أدهم

وتنهذ من اعماقه ثم طرح راسه على الجدار فى إعياء فأملت عواطف أن يجئ النوم عقب ذلكن وإذا بصوت يجلجل فى

السكون بقوة هزة النفوس وتبعته أصوات صراخ وعويل وثب عرفة قائما وهو يقول برعب:

جثة الخادم آتشت!

فقالت عواطف من حلق جاف

من أدراك أن الأصوات قادمة من البيت الكبير- .

جرى عرفة إلى الخارج فتبعاه على الأثر وقفوا أمام الربع برعوس متجهة نحو البيت الكبير

آنت آخر الظلمة ترق وتشف عن إمارات الصباح وفتحت نوافذ وأطلت رعوس واتجهت جميعا نحو البيت الكبيرن وجاء رجل

من أقصى الحارة مهرولا نحو الجمالية، فلما مر بهم سأله عرفة:

ماذا جرى يا عم ؟

فأجابه دون توقف

-من بعد العمر الطويل مات الجبلاوى!

103

للّهُ الأمر

انقلب ثلاثتهم إلى البدرورم وعرفة لا تكاد تحمله قدماه فانحط على الكنبه وهو يقول:

الرجل الذى قتلته آن خادما اسود تعيس المنظر ، وآآن نائما فى الخلوة  
لم ينبس أحد منهما ودفنا نظريهما فى الأرض متحاشيين عينيه الزائغتين فقال بجدة  
أراآما لا تصدقان ! أقسم لكما أننى لم اقترب من فراشه  
فتردد حنش مليا لكنه شعر بان الكلام خير على أى حال من ترآه للصمت فقال بحذر  
لعلك لم تتبين وجهه من شدة المفاجأة ؟  
فهتف بيأس

أبدًا ، أنت لم تكن معى!  
فهمست عواطف بخوف  
-أخفت من صوتك.

وغادرهما مهرولا إلى الحجرة الخلفية وقعد فى الظلام وهو يرتجف من الاضطراب أى جنون دفعه إلى تلك الرحلة المشئومة  
!اجل آآنت رحلة مشئومة إن الأرض تميد به وتنفت من جوفها الأحران، ولم يعد له من أمل إلا هذه الحجرة العجيبة.  
وأشرق أول شعاع للشمس فإذا الناس جميعا مجتمعون فى الحارة حول البيت وتسربت الأخبار وشاعت وبخاصة عقب  
زيارة الناظر للبيت زورة قصيرة ثم عودته إلى بيته وتناقل الناس أن لصوصا سطوا على البيت الكبير من خلال نفق حفوره  
تحت السور الخلفى فقتلوا خادما أمينًا.

ولما علم الجبلاوى بالخبر تأثر تأثرا لم تحتمله صحته الواهية فى تلك الذروة من العمر ففاضت روحه، وثار الغضب بالنفوس  
حتى غطى دخانه الأسود على الدموع والصراخ، وهتف عرفة لما بلغت النبأ بزوجه وحنش:  
ها هى الأنباء الصادقة

ثم ذآر من توه أنه على أى حال تسبب فى موته فلاذ بصمت الخجل والألم ولم تجد عواطف ما تقوله فغمغمت  
فليرحمه الله  
وقال حنش

لم يمت ناقص عمر!

فقال عرفة بنبرة الرباب الحزينة

لكننى أنا سبب موته، أنا من دون أحفاده جميعا حتى الأشرار منهم وما آآثرهم  
فبكت عواطف وهى تقول  
ذهبت بنفس لا تشوبها شائبة سوء  
وإذا بحنش يتساءل فى قلق

ألا يمكن أن يستدل علينا ؟

فهتفت عواطف

فلنهرب

فأشار إليها عرفة حانقا وهو يقول

وبذلك نقدم أسطع دليل على جريمتنا!

وترامت من الطريق المحتشد أصوات متلاطمة

-يجب قتل الجاني قبل دفن الرجل.

يا ألعن جيل في حارتنا حتى آبار الأشرار احترموا هذا البيت طيلة ماضينا، وحتى إدريس نفسه علينا اللعنة إلى يوم-.

القيامة

ليس القتلة من حارتنا، منذا يتصور ذلك- . .

سوف يعرف آل شئ-.

علينا اللعنة إلى يوم القيامة

واشتد اللطم والندب حتى اهارت أعصاب حنش فقال

-وآيف نبقى في الحارة بعد اليوم.

واقترح آل جبل أن يدفن الجبلاوى في مقبرة جبل لاعتقادهم من ناحية أنهم أقرب نسبا إليه من الآخرين ولأنهم آرهوا أن

يدفن في المقبرة التى تضم إدريس فيما تضم من رفات أسرة الواقف من ناحية أخرى وطالب آل رفاعة أن يدفن في القبر

الذى دفن فيه رفاعة بيده، وقال آل قاسم إن قاسم خير أحفاد الواقف وإن قبره هو أليق قبر بجثمان الجد العظيم، وآادت ان

تقع فتنة في الحارة ولما يدفن الرجل ، لكن الناظر قدرى أعلن أن الجبلاوى سيدفن في المسجد الذى أقيم في مكان

حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير، ولاقى هذا الحل ارتياحا عاما ملحوظا وغن أسف أهل الحارة على حرمانهم من

مشاهدة جنازة الجد أما حرموا من قبل من مشاهدة الرجل في حياته وتهاشم آل رفاعة فرحين بأن الجبلاوى سيدفن في

القبر الذى دفن فيه رفاعة بيده، لكن أحدا غيرهم لم يكن يصدق تلك الحكاية القديمة، وراحوا يسخرون منهم حتى ثار

عجاج فتوهم وأوشك أن يلتحم في معرأة بالسنتورى وعند ذاك تصدى سعد الله للجميع وصاح منندرا:

-سأأسر رأس أى مكابر يحاول النيل من احترام هذا اليوم الحزين.

ولم يشهد الغسل إلا خدمه المقربين وهم الذين آفنوه وأودعوه نعشه، حملوا النعش إلى البهو الكبير الذى شهد أخطر

أحداث الأسرة آعدهه بالنظارة إلى أدهم وثورة غدريس عليه ثم دعى للصلاة عليه الناظر ورعوس جبل ورفاعة وقاسم ،

وورى بعد ذلك فى قبره والشمس تميل نحو الغروب، وفى المساء أم السرادق جميع اولاد الحارة وذهب إليه عرفة وحنش

فيمن ذهب من آل رفاعة وبدا وجه عرفة الذى لم يذق طعم النوم منذ ارتكب جريمته آوجه ميت، ولم يكن للناس من حديث إلا أجماد الجبلاوى قاهر الخلاء وسيد الرجال ورمز القوة والشجاعة صاحب الوقف والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة وبدا عرفة حزينا ولكن ما آن يدور بنفسه لم يخطر لأحد على بال، ذلك الذى اقتحم البيت غير مبال بجلاله الذى لم يتآد من وجود جده إلا عند موته الذى شذ عن الجميع ولوث يديه إلى الأبد وتساءل آيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة ؟ إن مآثر جبل ورفاعة وقاسم مجتمعة لا تكفى القضاء على الناظر والفتوات وانقاذ الحارة من شرورهم لا يكفى تعريض النفس لكل مهلكة لا يكفى تعليم آل فرد السحر وفنونه وفوائده لا يكفى شئ واحد يكفى هو أن يبلغ من السحر الدرجة التى تمكنه من إعادة الحياة إلى الجبلاوى ! الجبلاوى الذى قتله أسهل من رؤيته فلتهبه الأيام القوة حتى يضمد الجرح النازف فى قلبه، وهؤلاء الفتوات ذوو الدموع الكاذبة لكن أه ثم أه لم يأثم أحدهم أما اثم وآن الفتوات يجلسون واجمين يرآهم الخزى والهوان ستقول الحوارى إن الجبلاوى قتل فى بيته ومن حوله الفتوات الكبار يحششون لذلك تتوعد نظراتهم بالانتقام والويل والموت يطلان من عيونهم وعندما عاد عرفة إلى البدروم فى آخر الليل جذب عواطف إليه وسألها فى استغاثة يائسة:

عواطف صارحينى برأيك ، هل تريننى مجرما ؟

فقالته برقة

أنت رجل طيب أنت أطيّب من صادفت فى حياتى ولكنك أتعسهم حظا

فأغمش عينيه وهو يقول

لم يتجرع أحد قبلى الألم أما تجرعته- . .

نعم . أعرف ذلك

وقبلته بشفتين باردتين وهمست

أخشى أن تحل بنا اللعنة

فحول عنها وجهه وقال حنش

لست مطمئنا سيكتشف أمرنا اليوم أو غدا ، لا أتصور أن يعرف آل شئ عن الجبلاوى أصله، وقفه، سيرته فى أبنائه ،!

اتصالاته بجبل ورفاعة وقاسم ، وأن يجهل فقط موته

فنفخ عرفة فى ضيق وسأله:

هل عندك حل غير الهرب ؟

فلزم حنش الصمت ثم فعاد الآخر يقول

أما أنا فعندى خطة ، غير أنى أود أن أطمئن إلى نفسى قبل الشروع فى تنفيذها إذا لا أستطيع أن أعمل إن أنت مجرما-.

فقال حنش بفتور:

إنك برئ

فقال بحدة

التي ستقع عجائب وستكون ذروة

العجائب أن تعود الحياة إلى الجبالوى تأوهمت عواطف أما حنش فقال مقطبا  
سأعمل يا حنش ، لا تخف علينا ، فإن الحارة ستشغل عن الجريمة الكبرى بالأحداث  
هل جنتت ؟

فقال بصوت المحموم

-إن آلمة من جدنا آانت تدفع الطيبين من أحفاده إلى العمل حتى الموت ، موته أفة من آلماته، إنه يجب على الأبن  
الطيب أن يفعل آل شئ أن يجل محله أن يكونه ، أفهمت ؟

104

تأهب عرفة لمغادرة البدروم بعد أن سكت آخر صوت فى الحارة أوصلته عواطف حتى الدهليز محمرة العينين من البكاء  
وآانت تقول فى تسليم من لا حيلة له:

فلتحرسك العناية

أما حنش فتساءل فى اصرار

لم لا أصحبك ؟

فقال عرفة

المهرب أيسر على واحد منه على اثنين

فقال له ناصحا وهو يربت ظهره

-لا تستعمل الزجاجاة إلا عند الضرورة.

فأوما برأسه موافقا وذهب ، ألقى نظرة على الحارة الغارقة فى الظلام ثم مضى نحو الجمالية ودار دورة آبيرة شملت حارة  
الوطاويط والدراسة والخلاء فيما وراء البيت الكبير حتى انتهى إلى سور بيت سعد الله المشرف على الخلاء من ناحية  
الشمال واتجه نحو موضع فى منتصف السور وتحسس الأرض حتى عشر على حجر فأزاحه ثم غاص فى الممر الذى داب  
على حفرة - هو وحنش - ليلة بعد أخرى، زحف على بطنه حتى نهايته ثم عالج بيديه القشرة الرقيقة التى تسده ونفذ منها

إلى حديقة بيت الفتوة آمن وراء السور وألقى نظرة على المكان فرأى<sup>1</sup> في البيت نافذة مغلقة تنضح بضوء خافت أما الحديقة فقد غشيها النوم والظلم إلا نور نافذة المنظرة الساهرة، ومن المنظرة ترامت بين أونة وأخرى عربدات الساهرين وضحكاتهم الغليظة، استل من صدره خنجرا ولبث متوثبا والوقت يمر أثقل من الذنوب، لكن الغرزة انفضت عقب وصوله بنصف

ساعة، فتح بابها وخرج الرجال تباعا نحو الباب الخارجى المفضى إلى الحارة والبواب يتقدم بفانوس في يده وأغلق الباب وعاد البواب متقدما سعد الله نحو السلامك، تناول عرفة من الأرض حجرا بيسراه وتسلسل متوسا والخنجر يميناه ثم آمن وراء نخلة حتى هم سعد الله بإرتقاء أول درجة من درجات السلم فانقض عليه وأغمد خنجره في ظهره فوق القلب ندت عن الرجل صرخة ثم تقوض بتاوه التفت البواب مذعورا لكن الحجر أصاب الفانوس فأطفأه وحطمه ثم جرى عرفة مسرعا نحو السور الذى جاء منه وصرخ البواب صرخة مدوية وسرعان ما تدافعت أقدام وتلاطمت أصوات فى الداخل وفى آخر الحديقة وعثر عرفة فى جرية بقائم أنه أصل شجرة مقطوعة فسقط على وجهه وهو يحس بألم بهصرة فى ساقه وآوعه، لكنه تغلب على ألمه وقطع بقية المسافة إلى النفق زحفا وارتفعت الأصوات واشتد وقع الأقدام رمى بنفسه فى النفق وزحف بسرعة حتى خرج إلى الخلاء ونهض وهو يئن ثم اندفع شرقا وقبل أن يدور مع سور البيت الكبير التفت ورائه فرأى أشباحا تندفع نحوه وسمع صوتا يصيح " : من هنا " ، فضاعف من سرعته رغم ألمه حتى بلغ نهاية السور الخلفى للبيت الكبير وعندما عبر الفراغ الذى يفصل بين البيت الكبير وبيت الناظر لمح أضواء المشاعل وسمع ضجة فاندفع فى الخلاء متمسما سوق المقطم وشعر بأن الألم سيقهره عاجلا أو أجلا، وأن أقدام المطاردين تقترب وأصواتهم تتعالى صارخة فى السكون: "أمسك .. حلق " ، عند ذاك اخرج الزجاجاة من عبه الزجاجاة التى قضى الشهور فى تجربتها ثم توقف عن الجرى واستقبل القادمين بوجهه واحد بصره حتى تراءت له أشباحهم ثم قذف الزجاجاة عليهم وما هى إلا ثانية حتى دوى انفجار لم تعرفه أذن من قبل وتتابع صرخات وتأوهات وواصل جريه وقد آفت الأقدام عن مطاردته وعند حافة الخلاء ارتقى على الأرض وهو

يلهث ويئن لبت فى ألم وعجز وحيدا تحت النجوم ونظر ورائه فلم ير إلا ظلاما وصمتا وجعل يمسح الدم السائل على ساقه بيده وسار متمهلا نحو الدراسة وفى أول الدراسة رأى شبعا قادما فنظر نحوه بخذر وخوف ولكن القادم مر به دون أن يلتفت إليه فتنهد فى ارتياح ومضى راجعا فى نفس الدورة التى جاء بها ولما اقترب من حارة الجبلأوى ترامت إلى أذنه ضجة حارة غير مألوفة فى ذلك الهزيع من الليل خليط من الأصوات الهادرة والبكاء والصرخات الغاضبة ونذر شر تطاير فى الظلام تريد مليا ثم تقدم ملتصقا بالجدران والقى نظرة من عين واحدة عند رآن الحارة فرأى خلقا آثيرا متجمعا فى الآخر فيما بين بيتى الناظر وسعد الله على حين بدا ح قاسم خاليا مظلما وتسلسل بجذء الجدار حتى غييه الربع ، ارتقى بين عواطف وحنش ثم آشف عن ساقه الدامية فارتاعت عواطف وذهبت مسرعة لتعود بطبق القلة المملوء بالماء وراحت

تغسل الجرح وهو يعض على أسنانه حتى لا تغلت منه صرخة ألم وساعدهم حنش وهو يقول بقلق:

الغضب يشتعل في الخارج النار

فسأله عرفة بوجه منقبض

-ماذا قالوا عن الانفجار؟

وصف الذين آانوا يطاردونك ما وقع فلم يصدقهم أحدن لكنهم وقفوا ذاهلين امام الجراح التي أصابت الوجوه والأعناق.-

وآادت حكاية الانفجار تغطى على مقتل سعد الله

فقال عرفة:

قتل فتوة الحارة وغدا يبدا التناحر بين الفتوات على مكانه، ثم نظر إلى زوجته المنهمكة في تضييد جراحه برقة وقال:-

عهد الفتوات موشك على الزوال وأولهم قاتل أبيك.-

لكنها لم تجبن وظلت عينا حنش تومضان في قلق ثم أسند عرفة رأسه إلى يده من شدة الألم

## 105

في باكر الصباح طرق طارق باب البدروم ولما فتحت عواطف رأت أمامها عم يونس بواب بيت الناظر فحيته برقة ودعته إلى

الدخول لكنه قال وهو ثابت في مكانه:

حضرة الناظر يطلب عم عرفة إلى مقابلته لاستشارة عاجلة.-

ذهبت عواطف لإبلاغ عرفة دون ان تجد للدعوة العالية السرور الخليق بما في غير الظروف التي تعانيتها ومضت فترة قصيرة ثم

جاء عرفة مرتديا خير ملابسه جلبابا أبيض ولاسة منقطة ومرآوبا نظيفا غير أنه آان يتوآأ على عصا لعرج طارئ غير خاف

فرفع يده تحية وقال:

-تحت الأمر.

فسار البواب وهو يتبعه وآانت الكآابة تغشى الحارة من أولها إلى آخرها فالأعين قلقة آآنما تساءل في خوف عما سيحجى به الغد

من الكوارث وأعاون الفتوات تجمعوا في المقاهى يتشاورون على حين تتبع العويل والنواح في بيت سعد الله ودخل بيت الناظر

وراء البواب فسار في الممر المسقوف بعريشة الياسمين حتى بلغا السلامك وتخيل أوجه الشبه بين هذا

البيت والبيت الكبير فوجدها آآيرة حتى ظن ألا اختلاف إلا في الدرجة، وقال لنفسه بحنق تقلدونه فيما ينفعكم لا فيما ينفع

الناس! وسبقة البواب ليستأذن له ثم عاد ليشير إليه بالدخول فمضى إلى البهو الكبير حيث رأى الناظر قدرى جالسا في

انتظاره في أقصى المكان وقف على بعد ذراع منه وهو ينحنى احتراما حتى تقوس ظهره، وبدا لعينيه من اول لمحة طويل

القامة قوى البنيان ممتلىء الوجه باللحم والدم ولما ابتسم إليه ردا على تيحته افتر فمه عن أسنان صفرة قدرة لا تناسب  
بها منظره بحال وأشار إليه أن يجلس إلى جانبه على ديوانه لكن عرفة اتجه إلى أقرب مقعد وهو يقول:

عفوا يا حضرة الناظر

لكن الناظر أصر على دعوته فأشار إلى الديوان قائلا بلطف وأمر معا

- هنا .. أجلس هنا.

فلم يجد بدا من الجلوس إلى جانبه في أقصى الديوان وهو يقول لنفسه لاشك أنهما حالة سرية، وتآاد ظنه حينما رأى  
البواب وهو يغلق باب البهو ولبث صامتا في حال خضوع والناظر يرمقه بهدوء ثم قال الناظر في نبرة هادئة المناجاة:  
- عرفة ! لم قتلت سعد الله ؟

تحمد البصر تحت البصر وسابت المفاصل ودار آل شئ، وانقلب المستقبل ماضيا ورأى الرجل ينظر إليه بعين الواصل فلم  
يشك في أنه عرف آل شئ آالقضاء والقدر ثم لم يمهل فقال بشئ من الحدة:

لا ترتعب ! لماذا تقتلون إذا آتم ترتعبون؟ تمالك مشاعرك لتستطيع أن تجيبني وخبرني صراحة لم قتلت سعد الله ؟

وآره الصمت فقال وهو لا يدري ما يقول

سيدي .. أنا!

فقال الناظر بجدة

-يا ابن الحقيرة أحسبتي أهذا ! أو اننى أنكلم دون دليل ؟

أجبنى لماذا قتلته ؟

وهو يتمزق من الحيرة واليأس جالت عيناه في أرجاء البهو بجرآة لا معنى لها، فقال الناظر بصوت بارد آالموت

لا مهرب يا عرفة . وفي الخارج أناس لو علموا بأمرك لمزقوك بأسنانهم ولشربوا دمك- .

وآن النواح يشتد في بيت الفتوة أما أماله فقد ووريت في التراب ، وفتح فمه دون أن يقول شيئا

فقال الناظر بقسوة:

الصمت مهرب في تناول اليد، سأدفع بك إلى الوحوش في الخارج وأقول لهم هاآم قاتل سعد الله، وإن شئت أقول لهم-

هاآم قاتل الجبلاوى

هتف بصوت مبوح:

-الجبلاوى!

حافر الأنفاق وراء الأسوار الخلفية نجوت في المرة الأولى ووقعت في الأخرى، لكن لماذا تقتل يا عرفة ؟

وقال في يأس بلا قصد ولا معنى



برئ يا حضرة الناظر ، أنا برئ

فقال فى تهكم

-إذا أعلنت تهمتك فلن يطالبني أحد بدليل، فى حارتنا الإشاعة حقيقة والحقيقة حكم، والحكم هو الإعدام، ولكن خبرني عما دفعك إلى اقتحام البيت الكبير، ثم قتل سعد الله ؟

هذا الرجل يعرف آل شىء ، آيف؟ لا يدري لكنه يعرف آل شىء وإلا فلماذا صب عليه اتهامه دون أهل الحارة جميعا ؟ هل أنت تقصد السرقة ؟

غضن بصره فى يأس لكنه لم يتكلم فهتف الناظر فى غضب

انطق يا ابن الأفاعى- . .

سيدى- .

لماذا تسعى إلى السرقة وأنت أفضل حالا من آثيرين

فقال بنبرة الاعتراف اليائسة

-النفس أمانة بالسوء.

ضحك الناظر بظفر، أما عرفة فسأله نفسه فى حيرة عما جعل الرجل يؤجل الفتك به إلى الآن ! بل لما لم يفض بسرته إلى أحد الفتوات بدلا من استدعائه على ذلك النحو الغريب؟ وتراه الناظر لنفسه آأما يعذبه ثم قال:

يا لك من رجل خطير- . .

أنا رجل مسكين

أبعد فى المسآين من يجوز سلاحا آسلاحك الذى هزى بالنبايت ؟ لا ييكى ميت على فقد بصره، هذا الرجل هو الساحر حقا لا هو وجعل الناظر يتلذذ بآأسه مليا ثم قال:

انضم احد خدمى إلى مطاريدك، وآآن متأخرا عنهم فلم يصبه سلاحك ثم تبعك وحده فى هدوء فلم يشعرك بمطاردته- .

الخفية ثم عرفك عند الدراسة فلم يهاجمك خوفا على نفسه من مفاجآتك وسارع إلى فاحبرني

فقال عرفة بلا وعى:

ألا يمكن أن يخبر أحدا غيرك ؟

فقال مبتسما

إنه خادم أمين- . .

ثم بنبرة ذات معنى

-الآن حدثني عن سلاحك.

أخذت الغيوم تتكشف لناظرية الرجل يطمع فيما هو أئمن من حياتهن لكن ياسه آن محيطا، وأين المفر؟ قال بصوت منخفض:

هو أبسط مما يتصور الناس

فقسست نظرتة وتجهم وجهه وقال

في وسعى أن أفتش بيتك الآن لكنني اتحاشى لفت الأنظار إليك ألا تفهم؟

وسكت مليا ثم أردف

لن تهلك ما دمت تطيعني

آن يتكلم ونذر الوعيد تتطير من عينيه فقال عرف وقد طفت باليأس روحه

ستجدني رهن مشيئتك- . .

بدأت تفهم يا ساحر حارتنا، لو آن مقصدي قتلك لكنت الساعة في بطون الكلاب

ثم تنحنح وواصل حديثه قائلا

دعنا من الجبلاوى وسعد الله وحدثني عن سلاحك ما هو؟

فقال بدهاء

زجاجة سحرية!

فحدجة بنظرة ارتياب وقال

أفصح- . .

فقال وهو يسترد شيئا من الطمأنينة لول مرة لغة السحر لا يتكلمها إلا أهلها

ألا تفصح حتى ولو وعدتك بالسلامة؟

فضحك باطنة ولكنه قال بجذ ظاهر

ما قلت إلا الحق

فنظر الرجل إلى الأرض قليلا ثم رفع رأسه متسائلا

ألديك منها الكثير؟- . .

ليس لدى منها شئ الساعة

فعض الناظر على أسنانه هاتفا

يا ابن الأفاعى- . .

فقال عرفة ببساطة

-فتش بيتي لترى صدقي بعينيك.  
أتستطيع أن تصنع مثلها ؟  
فقال بثقة  
بكل تأييد  
فشبك ذراعية على صدره من شدة الانفعال وقال  
أريد منها الكثير  
فقال عرفة  
سيكون لك منها ما تشاء  
وتبادلا نظرة تفاهم لأول مرة وإذا بعرفة يقول بجرأة  
سيدي يريد الاستغناء عن الفتوات الملاحين ؟  
فومضت بعيني الرجل نظرة غريبة وسأله  
صارحني بما دفعك إلى اقتحام البيت الكبير؟  
فقال عرفة ببساطة  
الخدام الأمين عن غير قصد مني  
فحدجه بنظرة ارتياب وقال  
لا شيء إلا حب الاستطلاع وقد ساءني مقتل  
تسببت في موت الرجل الكبير  
فقال عرفة بحزن  
شد ما يتقطع قلبي حزنا لذلك  
فهز الناظر منكبيه قائلا  
ليتنا نحيا مثله.  
يا لك من منافق أئيم لا شيء يهملك إلا الوقف وقال:  
أمد الله في عمرك  
فعاد يسأله بارتياب  
الم تذهب إلا جريا وراء الاستطلاع ؟  
بلى

ولماذا قتلت سعد الله؟  
فقال بصراحة  
لأننى مثلك أود القضاء على جميع الفتوات  
فابتسم الرجل وقال  
إنهم شر مستحكم- .  
لكنك فى الحق تبغضهم لما يأخذون من أموال الوقف لا لشهرهم- .  
الحق نطقت يا سيدى  
فقال باغراء  
ستشرى فوق ما أنت تحلم  
فقال عرفة بمكر  
ولا غاية لى إلا ذلك  
فقال الناظر بارتياح  
-لسحرك فى حمايتى ، وسيكون آل آل ما تشتهيئه نفسك!

## 106

لا ترهق نفسك بالعمل نظير الملايم ، تفرغ  
جلس ثلاثتهم على الكنبه ، عرفة يقص ما حدث له وعواطف وحنش يتابعانه بانتباه وانفعال وفزع حتى ختم عرفة حديثه  
المثير بقوله:  
لا اختيار لنا ، إن جنازة سعد الله لم تخرج بعد ، فإما القبول وإما الإبادة  
فقال عواطف  
وإما الهرب- . !  
لا مهرب من عيونته التى تحيط بنا- .  
لن نكون فى آنفه أمنين  
تجاهل قولها أما يود أن يتجاهل أفكاره وتحول إلى حنش قائلا  
ما لك لا تتكلم ؟

فقال حنش بجذ وحزن

-عدنا إلى هذه الحارة يوم عندنا بأمال بسيطة محدودة، أنت وحدك المسئول عن التغير الذى وقع بعد ذلك، عن تعلقنا بالآمال الكبيرة وآنت أعارض طموحك بادئ الأمر ولكنى عاونتك دون تردد ، وأخذت أقتنع برأيك رويدا رويدا، حتى لم يعد لى

من أمل إلا أمل حارتنا فى الخلاص والكمال، واليوم تفاجئنا بخطة جديدة ستصبح بها آلة رهيبه لاسيدلال حارتنا ، آلة لا يمكن أن تقاوم ولا أن تبيد وإن جاز أن يقاوم فتوة أو يقتل وقالت عواطف:  
ولا أمان لنا بعد ذلك فقد ينال منك ما يريد ثم يتخلص منك بحيلة أما يدبر الآن للفتوات  
آن مقتنعا فى أعماقه بما يقولان ولا يكف عن التفكير فيه لكنه قال وآأما يحاور نفسه  
سأجعله دائما فى حاجة إلى سحرى  
فقال عواطف

ستكون على خير الأحوال فتوته الجديد

فقال حنش مؤيدا

نعم ، فتوة سلاحه زجاجة بدلا من النبوت، واذاآر مشاعره نحو الفتوات لتعرف ما ستكون عليه نحوك  
واحتد عرفة غضبا فقال

-ما شاء الله ، آأنى الطامع وآأتما الزاهدان، إنما انا الأيمان الذى أصبحتما به تؤمنان، وما سهرت الليالى فى الحجرة الخلفية وما عرضت نفسى للموت مرتين إلا لخير حارتنا، فإذا آأتما ترفضان ما فرض علينا دون اختيار فأشيرا على بما يجب فعله.

ونظر إليهما بتحد غاضب فلم ينس منهما أحد، وآآن اللم يعتصره والدنيا تبدو آابوسا خانقا لعينيه ودهمة شعور غريب بأن ما يعانيه ما هو إلا انتقام لتهجمه القاسى على جده، فازداد ألما وحزنا، وهمست عواطف بتوسل يائس:  
الهرب

فتساءل بجدة وحنق

وآيف الهرب ؟-.

لا أدرى لكنه لن يكون أصعب عليك من التسلل إلى بيت الجبلاوى

فنفخ يائسا وقال بهدوء آالرتاء

الناظر الآن بانتظارنا ، عيوننه حولنا ، آيف ندبر الهرب ؟

وآآن صمت ، يا له من صمت آصمت القبر الذى يضم الجبلاوى ، فقال بتشف

لا أريح أن اتحمل الهزيمة وحدي

فتأوه حنش قائلاً المعتذر

لا خيار لنا

ثم بحرقه

قد يلد المستقبل فرصة للنجاة

فقال عرفة بلب شارد

من يدري ؟

ومضى إلى الحجرة الخلفية وحنش في أثره وأخذوا يعيثان بعض القوارير بقطع من الزجاج والرمل وغيرهما ، وإذا به يقول

-ينبغي أن نتفق على رموز للدلالة على خطوات أعمالنا السحرية ، وأن نسجل صورها في آراسة أمينة سرية حتى لا

يتعرض جهدنا للضياع أو يكون موتى نذير النهاية لهذه التجارب، ومن ناحية أخرى أرجو أن يكون لديك الاستعداد لتعلم

السحر، فما ندري شيئاً عما يجتبه القدر لنا.

وواصل عملهما بهمة عالية وحانت من عرفة التفاته إلى صاحبه فرأه متجهما فلم يخف عليه سره لكنه قال مداراة للموقف

الغريب:

ستقضى هذه القوارير على الفتوات

فقال حنش فيما يشبه الهمس

لا لحسابنا ولا لحساب حارتنا

فقال دون أن يكف يده عن العمل

ماذا عملت رباب الشاعر؟ وجد في الماضي رجال أمثال جبل ورفاعة وقاسم، فماذا يمنع أن يجيء أمثالهم في

المستقبل؟

فقال حنش متنهدا

آدت أحسبك في بعض الأوقات أحدهم

فضحك عرفة ضحكة جافة مقتضبة وتساءل

وهل عدلت بك عن ذلك هزيمتي ؟

فلم يجب ، فعاد الآخر يقول

حارتنا، أما أنا فلا يفهمني أحد

ثم وهو يضحك

لن آون مثلهم فى ناحية واحدة على الأقل، وهى أنهم أنهم آانوا ذوى أتباع من أولاد  
آن فى وسع قاسم أن يكتسب تابعا قويا بكلمة حلوة، أما أنا فتلزمى أعوام وأعوام حتى أستطيع أن أدرب رجلا على-  
عملى وأجعل منه تابعا

وفرغ من تعبئة زجاجة فأحكم سداتها وعرضها أمام ضوء المصباح فى إعجاب ثم قال:  
-هى اليوم ترعب الأفتدة وتدمى الوجوه بالجراح، وغدا قد تقتل قتيلا ، فلت لك إنه ليس للسحر من نهاية.

107

من فتوة حارتنا؟ مضى الناس يتساءلون عنه مذ رقد سعد الله فى قبره، وأخذ آل فريق يزآى رجله فآل جبل قالوا إن  
يوسف أقوى فتوات الحارة وأوثقهم نسبا بالجبلاوى، وقال آل رفاعة إنهم حى أنبل من عرفته الحارة فى تاريخها، الرجل  
الذى دفنه الجبلاوى فى بيته ويديه، وقال آل قاسم إنهم هم الذين لم يستغلوا النصر لصالح حيهم ولكن لصالح الجميع  
فكانت الحارة على عهد رجلهم وحدة لا تجزأ يسودها العدل والإخوة، وآالعادة بدأت الخلافات همسا فى الغرز، ثم تطايرت  
فى الجو فثار الغبار وتحفزت النفوس لشئ المهالك، ولم يعد فتوة يسير بمفرده، وإذا سهر فى قهوة أو غرزة أحاط به الأتباع  
مدججين بالنباييت، وراح آل شاعر يدعو بالرباب على فتوة حيه، وتجهم أصحاب الدآآين والباعة وآدر التشاؤم وجوههم  
وتناس الناس موت الجبلاوى، ومقتل سعد الله بما رأهم من هم وتوجس للخوف، وحق لأم نبوية بياعة النابت أن تقول  
باعلى صوت:

قطعت العيشة ويايخت من آن الموت نصيبه

وذات مساء ترامى صوت من فوق سطح بحى جبل وهو يصيح

يا أولاد حارتنا اسمعوا واجعلوا العقل حكما بيننا وبينكم حى جبل أقدم أحياء الحارة، وجبل أول رجالها الكرام، فلا مذلة-  
لأحد إذا ارتضيتم يوسف فتوة لحارتكم

فتعالت أصوات الاستهزاء من حى رفاعة وقاسم مصحوبة بقذائف السب واللعن وما لبث أن تجمع الصغار أمام الربوع  
وراحوا

ينشدون:

يايوسف يا وش القملة مین قلك تعمل دى العملة

واشتدت القلوب غلظة وسوادا ولم يؤجل وقوع الكارثة إلا أن التناحر آن يقوم بين ثلاث قوى متضادة معا، وإنه آن لا بد  
من

أن يتحد حيان أو أن ينسحب من التنافس حتى مختار، ووقعت أحداث بعيدا عن الحارة ذاتها فقد التقى بائعان في بيت القاضى أحدهما من جبل والآخر من قاسم فاشتبكا في معركة حامية فقد فيها القاسم أسنانه والجبل عيننا، وفي حمام السلطان نشبت معركة أخرى بين نسوة من جبل ورفاعة وقاسم وهن عرايا في المغطس فانغرست الأظافر في الخدود والأسنان في السواعد والبطون والأيدي في الضفائر، وتتطايرت الكوز وأحجار الحك وألياف التدليك وقطع الصابون، وانجلت المعرأة عن إغماء امرأتين وإجهاض ثلاثة وبض أجساد لا حصر لها بالدم، وعند ظهيرة اليوم نفسه عقب عودة المتعارات تباعا إلى الحارة ، واستؤنفت المعرأة من جديد من فوق الأسطح واستعمل فيها الطوب والسباب الفاحش، وسرعان ما امتلأت سماء الحارة بالقذائف وارتفع صراخها إلى السحاب ، وإذا برسول من قبل الناظر يتسلل خفية إلى يوسف فتوة جبل ويدعوه إلى مقابلة الناظر، وحرص الفتوة على أن يقابل الناظر دون أن يدري به أحد، واستقبله الناظر بلطف وطلب إليه أن يعمل على تهدئة الخواطر في حيه وبخاصة أن ذلك الحى هو التالى موقعه لبيت الناظر وعندما صافحه مودعا قال له إنه يتمنى أن يستقبله في المرة الأتية وهو فتوة الحارة آلهما، وخرج الرجل من بيت الناظر ثملا بتأييده الصريح له وأمن بان الفتونه باتت في متناول يديهن وما لبث أن الزم حيه بالنظام وتهاشم الناس في حيه بما يدخره الغد لهم من سيادة وجاه وتسربت من حيهم النبأ إلى بقية الحارة فهاجت الخواطر ولم تمض أيام بعد ذلك حتى تقابل عجاج والسنطورى سرا فاتفقا فيما بينهما على القضاء على يوسف من ناحية، ثم على الاقتراع على الفتونة بعد النصر من ناحية أخرى، وعند فجر اليوم التالى تجمع الرجال من كل قاسم ورفاعة فهاجموا حى جبل، فدارت معركة شديدة ، لكن يوسف وآثره من اتباعه قتلوا وهرب الباقون وأذعن آل جبل للقوة يائسين وحدد العصر لإجراء القرعة المتفق عليها ، وعند العصر هرع القاسمية والرفاعية رجالا ونساء إلى راس الحارة أمام البيت الكبير، وامتدت جمعهم جنوبا حتى بيت الناظر وصملا حتى بيت الفتوة الذى سيصبح ملكا للفائز بالقرعة، وجاء السنطورى وعصابته أما جاء عجاج وعصابته، فتبادلوا تحيات السلام والتعاهد، وتعانق عجاج والسنطورى أمام الجميع ، وقال عجاج بصوت سمعه جميع المتطلعين:

أنا وأنت أخوان ، وسنبقى أخوين في جميع الأحوال

فقال السنطورى بحماس

-على الدوام يا سيد الجدعان.

وقف الحيان متقابلين يفصل بينهما فراغ أمام مدخل البيت الكبير وجاء رجلان - أحدهما من قاسم والآخر من رفاعه - بمقطف

ملئ بالقراطيس فوضعه وسط الفراغ ثم تقهقر آل إلى قومه، وأعلن على الجميع أن القادوم هو رمز عجاج وإن الساطور هو رمز السنطورى، وأنه وضعت نماذج صغيرة منها في القراطيس مناصفة، وجئ بغلام ليأخذ - وهو معصوب العينين - من المقطف قرطاسا ، مد الغلام يده في صمت متوتر ثم استردها بقرطاس فتحه وهو مايزال معصوب العينين وتناول ما فيه



ورفع به يده فهتف القاسمية:

السنطوري .. السنطوري

مد السنطوري إلى عجاج يده فتناولها الآخر وشد عليها باسما وتعالى هتاف حار

-يعيش السنطوري فتوة حارتنا.

ومن صفوف الرفاعية تقدم رجل إلى السنطوري مفتوح الذراعين ففتح له السنطوري ذراعيه ليعانقه لكن الآخر طعنه

بسكين في قلبه بمنتهى القوة والسرعة . سقط السنطوري على وجهه قتيلا سيطر الذهول لحظة ثم انفجر الصياح

والوعيد والغضب وتلاقى الحيان في معركة دامية قاسية، لكن لم يكن يوجد في القاسمية من يستطيع الوقوف أمام عجاج،

فسرعان ما نفذت إلى قلوبهم الهزيمة وسقط من سقط وجرى من جرى ولم يجئ المساء حتى آانت الفتونة قد تقرر

لعجاج، بينما ضجح حى قاسم بالعويل ، انطلقت الزغاريد من حى رفاعة وراحوا يرقصون فى الطريق حول فتوتهم - فتوة

الحارة - عجاج وإذا بصوت يرتفع فوق الزغاريد صائحا:

-هس ، اسمعوا ! اسمعوا يا غنم.

تطلعوا فى عجب إلى مصدر الصوت فراوا يونس بواب الناظر يسير بين يدى الناظر نفسه الذى جعل يتقدم فى هالة من

خدمه، مضى عجاج نحو موآب الناظر وهو يقول:

محسوبك عجاج فتوة الحارة وخادمكم

حدجه الناظر بنظرة ازدراء وقال فى الصمت الرهيب الذى غشى الحارة جميعا

يا عجاج لا أريد فى الحارة فتوة ولا فتونة

ذهل رجال رفاعة وماتت على شفاههم بسمات الظفر والطرب وتساءل عجاج فى دهشة

ماذا يقصد حضرة الناظر ؟

فقال الناظر بقوة ووضوح

لا نريد فتونة ولا فتوة دعوا الحارة تعيش فى أمان

فهتف عجاج ساخرا

أمان ؟

فسدد الناظر نحوه نظرة قاسية لكن الآخر تساءل فى تحد

-ومنذا يحميك أنت ؟

وإذا بالقوارير تنهال من أيدي الخدم على عجاج وأعوانه ودوى الانفجارات يزلزل الجدران وشظايا الزجاج والرمال تصيب

الوجوه

والأطراف وتفجر الدماء، وانقض الفزع على النفوس أما تنقض الحدادى على الفراخ، فطاشت العقول وسابت المفاصل ، سقط عجاج وأعوانه فأجهز الخدم عليهم وتعالى الصوت فى حى رفاعه وزغاريد الشمامة فى جبل وقاسم، وتوسط يونس الحارة داعيا الجميع إلى الإنصات حتى ساد الصمت ، ثم صاح قائلاً:  
يا أولاد حارتنا جاء آم السعد والأمان بفضل حضرة الناظر أطال الله بقاءه، فلا فتوة بينكم أو يغتال أموالكم بعد اليوم- .  
وارتفعت أصوات الهتاف إلى السماء

## 108

انتقل عرفة وأسرتة بليل من بدروم حى الرفاعية إلى بيت الفتوة على يمين البيت الكبير وبذلك أمر الناظر وليس لأمره رد ، وجدوا أنفسهم فى مأوى آالحلم وراحوا يطوفون بالحديقة الغناء والمنظرة الأنيقة، والسلامك والبهو إلى غرف النوم والجلوس والسفرة فى الدور الثانى والسطح وما يزدحم بجدرانه وأرآانه من بيوت الدجاج وبلايص الأرانب وأعشاش الحمام وارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة وتنفسوا هواء نقيا وتشمموا روائح ذآية وراح عرفة يقول:  
صورة صغرى من البيت الكبير ولكن بلا أسرار

فتساءل حنش

وسحرك ؟ ألا يعد من الأسرار

ولاح بالذهول فى عيني عواطف وهى تقول

-لا يلجم أحد بشئ آهذا.

وتغير الثلاثة منظرا ولونا ورائحة ، ولكن لم يكد يستقر بهم المقام حتى جاءهم جمع من الرجال ومن النساء قال أولهم إنه البواب وثانيهم الطاهى وثالثهم البستانى ورابعهم مربى الطيور والأخريات للدار، فعجب عرفة لهم وسألهم:  
من أذن لكم بالجئى ؟

فقال البواب إنابة عنهم

حضرة الناظر وسرعان ما دعى عرفة إلى مقابلة الناظر فذهب من فوره، ولما جلسا جنبا إلى جنب فوق الإيوان بالبهو قال قدرى

سنتقابل آثيرا يا عرفة فلا يزعجك استدعائى لك

الحق قد أقلقت المكان والمجلس والرجل لكنه قال ببشاشة

-سيدى الخير والبرآة.

الدار ؟

فقال عرفة حياء

سحرك أصل الخير آله ، ترى هل أعجلتك

هى فوق الأحلام وبخاصة أحلام قوم فقراء مثلنا، واليوم جاءنا الخدم أشكالا وألوانا

فتفرس الناظر فى وجهه وهو يقول

هم رجالى أرسلتهم إليك ليخدموك وليحموك-!

يحمونى

فقال قدرى وهو يضحك

-نعم ، ألا تعلم أن الحارة لا حديث لها إلا انتقالك إلى بيت الفتوة ويقولون فيما بينهم هو صاحب القوارير السحرية، وأهل الفتوات موتورون أما تعلم، والآخرون يموتون حسدا لذلك آله فأنت فى خطر محيط، ونصيحتى إليك ألا أمن أحد أن تسير بمفردك أو تبتعد عن دارك.

تجهم وجهه ما هو إلا سجين يحيط به الغضب والمقت واستدرك قدرى قائلا:

-لكن لا تخف فإن رجالى حولكن واستمتع بالحياة ما شئت فى بيتك وفى بيتى ماذا تخسر وراء ذلك إلا الخلاء والخرائب، ولا تنس أن أهل حارتنا يقولون إن سعد الله قتل بالسلاح الذى قتل به عجاج وأن الوسيلة التى تسلل منها القاتل إلى بيت سعد الله هى نفس الوسيلة التى تسلل منها إلى البيت الكبير من قبل، فقاتل عجاج وسعد الله والجبلأوى شخص واحد هو عرفة الساحر.

فهتف عرفة متشججا:

هذه لعنة مسلطة على رأسى

فقال الناظر فى هدوء

-لا تخف ما دمت فى آنفى ومن حولك خدمى.

أيها اللئيم الذى أوقعنى فى سجنه ما أردت السحر إلا للقضاء عليك لا لخدمتك، اليوم بمقتنى من أحبهم وأود خلاصهم

ولعل أقتل بيد أحدهم ، وقال برجاء:

وزع أنصبة الفتوات على الناس يرضوا عنك وعنا

فضحك قدرى هازئا ثم تساءل

ولم إذن آن القضاء على الفتوات ؟

وأردف وهو يتفحصه بقسوة

إنك تتلمس سبيلا إلى رضاهم ! دعك من هذا وتعود مثلى على مقت الآخرين لك ولا تنس أن ملاذك الحق هو رضاي عنك  
-

فقال في قنوط:

أنت وما زلت في خدمتك

ورفع الناظر رأسه نحو السقف آنما يتسلى بتأمل زخارفه، ثم أعاد رأسه إليه قائلا

أرجو ألا يلهيك متاع الحياة الجديدة عن سحرك

فهز رأسه بالإياب فقال الرجل

وإن تكثر ما استطعت من القوارير السحرية

فقال عرفة بجذر

لست بحاجة إلى أثر مما لدينا منها

فدارى الآخر حنقة بابتسامة وقل

-أليس من الحكمة أن ندخر منها عددا موفورا؟

لم يجب ، ودهسه يأس ، وتساءل هل جاء دوره هكذا سريعا ؟

وسأله بغتة:

سيدي الناظر إذا آن مقامى يضايقك فاسمح لى بالذهاب إلى غير عودة

فتظاهر الرجل بالانزعاج وتساءل

ماذا قلت يا رجل ؟

فقال وهو يواجهه بنظرة صريحة

أنا أعلم أن حياتى رهن بحاجتك إلى

فضحك الرجل ضحكة لا مرح فيها ثم قال

في

28

Page-لا تضننى أستهين بذاتك وأعترف لك بسلامة تفكيرك لكن آيف توهمت أن حاجتى إليك تقف عند القوارير ؟

أليس

وسع سحرك أن يصنع أعاجيب أخرى ؟

لكن عرفة واصل حديثه الأول قائلا بجفاء:

رجالك هم الذين أذاعوا سر ما قدمت لك من خدمات لست أشك في ذلك لكن يجب أن تدار آذلك أن حياتك في حاجة إلى ، قطب الناظر متوعدا لكن عرفة قال دون تردد

بعد-

غد

أنت اليوم لا فتوات لك، ولا قوة عندك إلا بالقوارير، وما لذيك منها لا يغني عنك شيئا، فإذا مت أنا اليوم تبعني غدا أو مال الناظر عليه ألوحش فجأة فطوق عنقه بيديه وشد عليه حتى ارتعد جسمه لكنه سرعان ما خفف من قبضتيه ثم سحبهما ، ثم ابتسم ابتسامة مقيته وقال:

انظر ما أنت ستدفعني إليه سلاطة لسانك بينما لا توجد لدينا دواع للخصومة، وفي وسعنا أن نستمتع بالنصر وبالحياة- في سلام

تنفس عرفة بعمق ليسترد روحه المدعورة على حين واصل الآخر حديثه قائلا:

لا تخف على حياتك مني فسأحرص عليها حرصى على الحياة نفسها ، تمتع بالدنيا ولا تنس سحرك الذى يجب أن تجنى- أزهار ثماره وأعلم بأن من يغدر منا بصاحبه فقد غدر بنفسه

-تجهم وجها عواطف وحنش وهو يعيد على مسمعيهما ذلك الحديث فى البيت الجديد وبدا أن ثلاثتهم تعوزهم الطمأنينة الحقة فى ظل حياتهم الجديدة لكنهم تناسوا أسباب قلقهم عند العشاء حول مائدة حفلة بما لذ وطاب من طعام شهى ونيذ معتق ولأول مرة ارتفع صوت عرفة وهو يضحك واهتز جذع حنش وهو يقهقه ومضيا فى حياتهما أما شاءت الظروف أنا يعملان معا فى حجرة وراء البهو أعداها للسحر ودأب عرفة على تسجيل الرموز التى اصطلحها عليها فى آراصة لم يعلم بما سواهما أحد، ومرة قال له حنش فى أثناء العمل:

يا لنا من سجناء

فقال له محذرا

اخفض من صوتك فإن للحيطان أذانا

فمد حنش بصره نحو الباب فى حقد ثم عاد يقول فيما يشبه الهمس

أليس من الممكن أن نضع سلاحا جديدا نقضى به عليه من حيث لا يدري

فقال عرفة بامتعااض

لن يتاح لنا أن تجربة سرا بين هؤلاء الخدم فهو لن يخفى عليه شئ من أمورنا، وإذا قضينا عليه قضى علينا الموتورون من-

أهل حارتنا قبل أن ندافع عن أنفسنا حيالهم

لماذا تعمل إذن بهذا الجذد آله ؟

-لأنه ليس إلا أن أعمل.

وآن يذهب عند الأصيل إلى بيت الناظر فيجالسه ويشاربه ثم يعود ليلا إلى داره فيجد حنش قد هيا له الحديقة أو المشربية غرزة صغيرة فيحششان معا، ولم يكن معدودا في الحشاشين من قبل، ولكن التيار جرفه، وطارد الملل وحتى عواطف أخذت تتلقن تلك الأشياء آن عليهم أن ينسوا الملل والخوف واليأس وإحساسا محزنا بالذنب أما آن عليهم أن ينسوا أمال الماضي العريضة ورغم ذلك فقد آن للرجلين عمل أما عواطف فما آن لها من عمل آنت تأآل حتى تتخم وتنام حتى تمل الرقاد وتقضى الساعات الطويلة في الحديقة مستمتعة بشئ ألوان جمالها، وذآرت أهما باتت تنعم بالحياة التي تحسر عليها أدهم ، ما أثقلها من حياة وآيف تعد مطلبا تذهب النفس حسرات عليه، لعلها آنت تكون آذلك لو لم تكن سجنا ولم يكن ما يحيط بها عداوة وبغضاء، لكنها ستلبث سجنا مطوقا بالكرهية ولا مهرب منه إلا حول الجمرة ومن تأخر عرفة في بيت الناظر، فخطر لها أن تنتظره في الحديقة وتقدمت قافلة الليل وراء حادى القمر وهى جالسة تصغى إلى انغام الغصون ونقيق الضفادع، وانتبهت إلى صوت الباب وهو يفتح فاستعدت للقاء القادم غير أن حفيف ثوب قادما من ناحية

البدروم لفت سمعها، ثم رأت من موقفها شبح خادمة على ضوء القمر مضت نحو الباب دون أن تدري بما وتقدم عرفة المترنح فانتحت الخادمة ناحية الجدار الممتد من السلامك فلحق بها ثم رأتهما يلتحمان وقد أخفاهما ظل الجدار من ضوء القمر.

## 109

انفجرت عواطف أما ينفجر لامرأة من حارة الجبلأوى ، انقضت على الكائن المتلاحم آاللبوة فهوت بقبضتها على رأس عرفة فترجع ذاهلا مترنحا حتى اختل توازنه فوق ، ثم أنشبت أظافرها في عنق الخادمة وانهالت على رأسها نطحا حتى مزق صراخها سكون الليل، وقام عرفة من سقطته لكنه لم يجرؤ على الدنو من المعرآة وجاء حنش مهرولا وفي أعقابه عدد من الخدم، فلما عرف الموقف على حقيقته صرف الخدم، وخلص بين المرأتين بكياسة ولباقة حتى استطاع أن يعود بعواطف إلى البيت وهى تقذف بسيل من السباب والشتم واللعنات، ومضى عرفة مترنحا إلى المشربية المطلة على الخلا وارتمى على شلته وحيدا في الغرزة ثم مد ساقية وأسند رأسه إلى جدار وهو في شبه غيبوبة ولحق به حنش بعد فترة قصيرة فأخذ مجلسه أمامه حول الجرة صامتا ورمقه بنظرة سريعة ثم عاد ينظر إلى الأرض حتى قطع الصمت قائلًا:  
آن لا بد للفضيحة أن تقع

فرغ إليه عينين خجلتين وقال ممعنا في الهرب  
-أشعل النار!

ولبثا في المشربية حتى قبيل الصباح وذهبت الخادمة فحلت محلها أخرى، وبدا لعواطف أن ذلك الجو المحيط بها يغرى بزلة بعد أخرى، وأخذت تؤول آل حراة تصدر عن زوجها تاويلا سيئا يتناسب مع ارتياها حتى أنقلبت الحياة جحيما وفقدت العزاء

الوحيد الذي آنت تتسلى به في سجنها الملىء بالمخاوف، فلا البيت بيتها ولا الزوج زوجها، سجن بالنهار وماخور بالليل، وأين عرفة الذي أحبه؟ عرفة الذي تحدى بالزواج منها السنطوري والذي عرض نفسه للهلاك مرات في سبيل الحارة حتى ظننته رجلا من رجال الرباب ، ما هو اليوم إلا وغد مث قدرى ومثلما آآن سعد الله والحياة إلى جانبه عذاب مشتعل وخوف مؤرق وعاد عرفة ليلة من بيت الناظر فلم يجد لعواطف أثرا وشهد البواب بأنه رأها تغادر البيت أول الليل ثم لم تعد، وتساءل عرفة ورائحة الخمر تتطاير من أنفاسه:

أين ذهبت يا ترى ؟

فقال حنش باشفاق

إن تكن في الحارة فهي عند جارتما القديمة أم زنفل بائعة المفتقة

فقال عرفة غاضبا

-المرأة لا تؤخذ باللين هذه حكمة آل حارتنا فلاهملها حتى تعود بنفسها ذليلة.

لكنها لم ترجع وانقضت عشرة أيام فقرر عرفة أن يذهب ليلا إلى أم زنفل متوخيا ألا يشعر بذهابه أحد، وفي الميعاد المضروب تسلل من البيت متبوعا بحنش وما آادا يقطعان خطوات حتى سمعا أقداما تتبعهما فالتفتا ورأهما فرأيا خادمين من خدم البيت ، فقال عرفة لهما:

ارجعا إلى البيت:

فأجابه أحدهما

-نحن نحرسك بأمر حضرة الناظر.

تميز غيضا لكنه لم يعقب وساروا نحو ربع قديم في حى قاسم وصعدوا إلى طابقه الأخير حيث توجد حجرة أم زنفل ، طرق عرفة الباب مرات حتى فتح عن عواطف نفسها بوجه يعلوه النعاس ولما تبينت وجهه على ضوء مصباح بيدها قطبت متراجعة فتبعها رادا ورائه الباب واستيقظت أم زنفل في رآن الحجرة وراحت تنظر بذهول نحو القادم، أما عواطف فقالت بجدة:

ماذا جاء بك ؟ ماذا تريد ؟ ارجع إلى بيتك المبارك عليك

وهمست أم زنفل بانزعاج وهي تحدق في وجهه  
عرفة الساحر

وقال عرفة لزوجته دون أن يلقي بالا إلى المرأة المترعجة  
أعقلي وتعالى معي  
فقال بالحدة نفسها

لن أعود إلى سجنك ولن أفرط في راحة البال التي أجدها في هذه الحجرة- .  
لكنك زوجتي

فارتفع صوتها وهي تقول

زوجاتك هناك بالخير والبرآة

وقالت أم زنفل في نبرة احتجاج

ارتكها لنومها وعد ف الصباح

فرماها بنظرة قاسية دون أن يوجه لها آلمة واحدة ثم نظر إلى وجهه قائلاً

آل رجل وله زلة

فهتفت

أنت نفسك زلة ولا آل الزلات

فمال نحوها قليلاً وقال محرراً ألحان الرقة في أوتار صوته

استغنى عنك- . .

لكنى انا استغنيت

فتساءل بامتعاض

عواطف أنا لايمكن أن

تبيعينى لغلطة أفلتت وأنا سكران ؟

فهتفت بتشنج

لا تعتذر بالسكر ، حياتك آلهأ أخطاء وستحتاج إلى عشرات الاعذار لتبررها، ولن أجنى من ورائها إلا المتاعب والعذاب- . .

هى على أى حال أفضل من الحياة فى هذه الحجرة

فابتسمت ابتسامة مريرة ساخرة وتساءلت

من يدرى ؟ خبرنى آيف تراك السجانون لتجئ إلى هنا ؟-!



عواطف

فقلت باصرار

-لن أعود إلى بيت لا عمل لي فيه إلا التثاؤب ومعاشرة عشيقات زوجي الساحر العظيم.

وعبثا حاول أن يثنيها عن إصرارها قابلت لينة بالعناد وغضبه بالغضب ، وسبه بالسب، فارتد عنها يائسا ثم غادر المكان متبوعا بصاحبه والخدامين وسأله حنش:

ماذا أنت فاعل؟

فقال بامتعاض

ما نفعله آل يوم

وسأله قدرى الناظر

هل من جديد عن زوجك؟

فأجاب وهو يتخذ مجلسه إلى جانبه

عبيدة آلبغل ربنا يحفظ مقامك

فقال الناظر باستهانة

لا تشغل بالك بامرأة عندك خير منها

وجعل يتفحص عرفة باهتمام ثم سأله

هل تعرف امرأتك شيئا عن أسرار عملك؟

فبادره عرفة بنظرة مريية ثم قال

السحر لا يعرفه إلا ساحر-.. .

أخشى أن-.

لا تخشى شيئا لا ظل له من الوجود

وامتد الصمت ثواني فعاد يقول في جزع

لن تمتد لها يد بسوء وأنا على قيد الحياة

فكظم الناظر غيظه وابتسم وأشار إلى الكأسين المترعتين داعيا وهو يقول

-من قال إن يدا ستمتد إليها بسوء؟

ولما توثقت الألفة بين قدرى وعرفة جعل يدعوهُ إلى سهراته الخاصة التي تبدأ عادة عند منتصف الليل شهد عرفة سهرة عجيبة في البهو الكبير حفلت بكل ما ل وطاب من مآل ومشرب ورقصت فيها نساء جميلات وهن عرايا حتى آاد عرفة يجن من الشراب والمنظر في تلك السهرة ن رأى عرفة الناظر يعربد بلا حدود، مثل وحش مجنون ودعاه إلى سهرة في الحديقة في خميلة يحرق بها مجرى ماء مضاء الوجه بنور القمر وآان بين أيديهما فأآهة ونبيد وأمامهما مليحتان إحداهما لخدمة المجرمة والأخرى لخدمة الجوزة وهب نسيم الليل يحمل عزف الأزهار ونغم عود وأصوات تغنى.

يا عود قرنفل في الجنيبة منعنع يعجب الجدعان الحشاشة المجدع  
آآنت ليلة بدرية يلوح قمرها مكتملا إذا مال غصن التوت الريان مع النسيم أو يبدو أعينا من الضياء خلال شبكة من الأغصان

والأوراق إذا رجع الغصن إلى مستقره وسرت في يد المليحة والجوزة نشوة إلى رأس عرفة فدار مع الأفلاك وقال:  
رحم الله أدهم

فقال الناظر باسم

ورحم الله إدريس ، ماذا ذآرك به ؟-

مجلسنا هذا-

آآن ادهم يجب الأحلام ولا يعرف منها إلا ما أدخله الجبلاوى في رأسه  
ثم وهو يضحك

الجبلاوى الذى أرحته آآنت من عذاب الكبر

انقبض قلب عرفة وانطفآت نشوته فغمغم محزونا

لم أقتل في حياتى إلا فتوة مجرما- .

وخادم الجبلاوى-

على رغمى قتلته

فقال قدرى هازئا

-آآنت جبان يا عرفة.

فهرب إلى القمر ينظر غليه خلال الغصون تارآا الغرزة لأنغام العود ثم جعل يسترق النظر إلى يد المليحة وهى ترص الحجر  
وغذا بالناظر يهتف به:

آآين أنت يا ابن المذهول ؟

فالتفت نحوه باسماء وهو يسأل  
أتسهر وحدك يا حضرة الناظر؟-  
لا أحد هنا يليق بمساهرتي-  
وحتى أنا لا سمير لي إلا حنش  
فقال قدرى باستهانة  
عند درجة من السطول لا يهملك أن تكون وحدك  
تردد عرفة قليلا ثم تساءل  
ألسنا في سجن يا حضرة الناظر؟  
فقال الآخر بجدة  
ماذا تريد ما دمنا مطوقين باناس يمقتوننا-  
وذآر آلمات عواطف وآيف فضلت مسكن أم زنفل على بيته  
فقال متنهدا:  
يا لها من لعنة-  
أحذر أن تفسد علينا صفونا  
فتناول الجوزة وهو يقول  
لتصف الحياة إلى الأبد  
فضحك قدرى قائلا  
إلى الأبد؟ حسينا أن نضمن نفحة من نفحات الشباب مدى عمرنا بفضل سحرك  
فملاً صدره من عبير الحديقة المتطيب بنداوة الليل العميق ثم قال  
من حسن الحظ أن عرفة لا يخلو من فوائدا!  
ترك الناظر الجوزة ليد المليحة وهو يزفر دخانا آثيفا بدا مفضضا في ضوء القمر ثم قال بحسرة  
لم يدرآنا الهرم؟ ألد الطعام نآآله وأهجم الشراب نشربه وأطيب العيش نمأ به لكن المشيب يزحف في أوانه لا يردده شئ-  
آآنه الشمس أو القمر  
لكن أقراص عرفة تحيل برودة الشيخوخة حرارة.  
ثمآ شئ تقف أمامه عاجزا  
ما هو يا سيدى؟

بدا الناظر حزينا فى ضوء القمر وتساءل

ما ابغض الأشياء إلى قلبك ؟

لعله السجن الذى وضع فيه، لعلها الكراهية المحدقة به لعله الهدف الذى تنكب عنه لكنه قال

ضياح الشباب.

آلا ، لا خوف عليه من ذلك

آيف وزوجى غاضبة؟-.

سيجدن دائما سببا أو آخر للغضب

واشدد هبوب النسيم مرة فارتفع حفيف الغصون وتوهجت الجمرات فى الجمرة وتساءل قدرى

لماذا نموت يا عرفة ؟

فرمقه بكآبة ولم ينبس فأردف الآخر

حتى الجبلاوى مات

آن إبرة إنغرزت فى قلبه ، ولكنه قال

آلنا أموات وأبناء أموات

فقال فى ضجر

لست فى حاجة إلى تذآيرى بما قلت- . .

ليطل عمرك يا سيدى-.

طال أو قصر فالنهاية هى تلك الحفرة التى تعشقها الديدان

فقال عرفة برقة

-لا تدع الأفكار تكدر صفوك.

إنها لا تفارقنى ، الموت . . الموت ، دائما الموت يجئ فى آيه لحظة ولآتفه الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق ، أين-.

الجبلاوى؟ أين الذين تتغنى بأعمالهم الرباب؟ هذا قضاء ما آن ينبغى أن يكون

ولحظه عرفة فرأى وجهه شاحبا وعينيه تنطقان بالفزع فبدا التناقض صارخا بين حاله وبين مجلسه فداخله قلق وقال برقة:

-المهم أن تكون الحياة أما ينبغى فلوح بيده غاضبا وقال بجدة نعت الصفو نعيًا.

-الحياة أما ينبغى وأحسن لا ينقصها شئ حتى الشباب تعيده الأقراص ولكن ما جدوى ذلك آله والموت يتبعنا آالظل ؟

آيف أنساه وهو يذآرنى بنفسه آل ساعة؟

سر لعذابه لكنه سرعان ما سخر من مشاعره وتابع يد الحسناء بشوق وحنان وتساءل فى سره مندا يضمن لى أن أرى

القمر ليلة أخرى ، ثم قال:

لعلنا في حاجة إلى مزيد من الشراب- . .

سنفيق في الصباح

وجد نحوه ازدرء وظن أن ثمة فرصة متاحة فأراد أن يخطفها فقال

لولا حسد المحرومين من حولنا لتغير مذاق الحياة في أفواهنا

فضحك الناظر ضحكة ساخرة وقال

قول بالعاجز أجدر ! هبنا استطعنا أن نرفع حياة أهل حارتنا إلى مستوى حياتنا فهل يقلع الموت عن اصطيانا؟

فهز عرفة رأسه في تسليم حتى خضت حدة الرجل ثم قال

الموت يكثر حيث الفقر والتعاسة وسوء الحال- . .

وحيث لا يوجد منا شيء يا أحمق

فقال وهو يتتسم

نعم ، لأنه معد مثل بعض الأمراض

فضحك الناظر قائلاً

هذا اغرب رأى تدافع به عن عجزك

فقال متشجعاً بضحكة

نحن لا ندرى عنه شيئاً فلهله أن يكون آذلك ، وإذا حسنت أحوال الناس قل شرده فازدادت الحياة قيمة وشعر آل سعيد- .

بضرورة مكافحته حرصاً على الحياة السعيدة المتاحة

ولن يجي ذلك فتيلاً- . .

بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت بل سيعمل بالسحر آل قادر، هنالك يهد الموت الموت

وندت عن الناظر ضحكة عالية ثم اغمض عينيه مستسلماً للحلم، وتناول عرفة الجوزة وشد نفساً طويلاً حتى اشتعل

الحجر، وعاد العود بعد انقطاع يترنم وغنى الصوت الحنون " : طول يا ليل " فقال قدرى:

أنت حشاش يا عرفة لا ساحر

فقال عرفة ببساطة

-بذلك نقتل الموت.

لم لا تعمل أنت وحدك؟- .

إن أعمل آل يوم ولكن ما أعجزني وحدى أمامه

واستمع الناظر إلى الغناء مليا دون حماس ثم سأله  
آه لو تنجح يا عرفة ! أى شئ تفعله لو نجحت ؟  
فقال وأتما أفلت منه القول  
أرد إلى الحياة الجبلأوى  
فلوى الرجل شفثيه بفتور وقال  
هذا شأن يعنك بصفتك قاتله!  
فقطب عرفة متألما وغمغم بصوت غير مسموع  
-آه لو تنجح يا عرفة!

## 111

وعند الفجر غادر عرفة بيت الناظر آن من السطل فى عالم مسحور غائم المسموعات والمرئيات ولا تكاد تحمله قدماه ،  
مضى ناحية بيته فى حارة غارقة فى النوم مفروشة الأديم بضوء القمر ، وعند منتصف المسافة بين بيت الناظر وبيته - أمام  
البيت الكبير - اعترضه شبح لم يدر من أين أتى، وقال له فيما يشبه الهمس:  
-صباح الخير يا معلم عرفة.  
دهمه خوف لعله من المفاجأة انبعث لكن تابعيه انقضا على الشبح وأمسكا به، وتفرس فيه فوضح لعينيه رغم ذهولهما أنه  
شبح امرأة سوداء مرتدية جلبابا أسود يلفها من العنق حتى القدمين أمر خادميه أن يترآها فترآها ثم سألها:  
ما لك يا ولية ؟  
فقال بصوت آاد أنها سوداء  
-أريد أن أحدثك على انفراد.  
لم ؟-  
مكروبة تشكو إليك آرهما  
فقال بضجر وهو يهيم بالذهاب  
الله يحن عليك- .  
فقال بضراعة نافذة  
-وحياة جدك الغالى ألا ما سمحت لى.

فحدجها بنظرة غاضبة لكنه لم يحول عن وجهها عينيه تساءل أين ومتى رأى ذلك الوجه، وإذا بقلبه يخفق خفقة اطارت السطل من رأسه ، هذا الوجه الذى رآه على عتبة حجرة الجبلاوى وهو محتف وراء المقعد فى الليلة المشثومة، وهذه هى خادمة الجبلاوى التى آنت تشارآه حجرته ورآبه خوف تخلخلت له مفاصله فحملق فى وجهها فرعا.

وساله أحد الخادمين:

نطردها ؟

فخاطبهما قائلا

-اذهبا إلى باب البيت وانتظرا.

انتظر حتى ذهبا فخلا لهما المكان أمام البيت الكبير وراح يتفرس فى وجهها الأسود الناحل وجبينها الضيق العالى وذهنها المدبب والتجاعيد المحدقة بفيها وجبينها ، وقال يطمئن نفسه إنها من المؤآد لم تره تلك الليلة ولكن أين آنت منذ وفاة الجبلاوى وماذا جاء بها ؟ وسألها:

نعم يا ستى ؟

فقالت بهدوء

-لا شكوى لى ، وإنما أردت أن أخلو إليك لأنفذ وصيته!

أية وصية ؟

فمال رأسها نحوه قليلا وهى تقول

آنت خادمة الجبلاوى وقد مات بين يدي-!! !

آنت-.

نعم أنا فصدقنى

ولم يكن فى حاجة إلى دليل فسألها بصوت مضطرب

آيف مات جدنا ؟

فقالت المرأة بنبرة حزينة

به التأثر عقب آتشاف جثة خادمه ، وبغثة احتضر فسارعت إليه لأسند ظهره المختلج ! ذلك الجبار الذى دان له-.

الخلاء

اشتد

زفر عرفة بصوت حار آدر سكون الليل وانخفض رأسه فى حزن آانما يداريه عن ضوء القمر ، وإذا بالمرأة ترجع إلى حديثها

الأول قائلة:

جئتكَ تنفيذًا لوصيته  
 فرفع رأسه إليها مرتعشا متسائلا  
 ماذا عندك ؟ تكلمي  
 فقالت بصوت هادئ أنور القمر  
 قال لى قبل صعود السر الإلهى " : اذهبي إلى عربة الساحر وابلغية عنى أن جده مات وهو راض عنه "  
 فانقض عرفة المالدوغ وهتف بها  
 يا دجالة ! ماذا تمكرين ؟- .  
 سيدى ، حفظتك العناية- .  
 خبرينى أى لعبة تلعبين  
 فقالت ببراءة  
 لا شئ غير ما قلت والله شهيد  
 فسألها بارتياح  
 ماذا تعرفين عن القاتل ؟  
 لا أدرى شيئا يا سيدى ، منذ وفاة سيدى وأنا طريحة الفراش وأول ما فعلت بعد شفائى أن قصدتك  
 ماذا قال لك ؟- .  
 أذهبي إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى ان جده مات وهو راض عنه  
 فقال عرفة بتحد  
 آذبة ! أنت تعرفين يا ماآرة أننى ) ثم مغيرا نبرته ( آيف عرفت بمكانى ؟- .  
 سألت عنك أول ما جئت فقالوا لى إنك عند الناظر فلبثت انتظر- .  
 ألم يقولوا لك إننى قاتل الجبلاوى  
 فقالت بارتياح  
 ما قتل الجبلاوى أحد وما آان فى وسع أحد أن يقتله- . .  
 بل قتله الذى قتل خادمه  
 فهتفت بغضب  
 آذب وافترء ، لقد مات الرجل بين يدى  
 وجد عرفة رغبة فى البكاء لكنه لم يسفح دمعة واحدة ورننا إلى المرأة بطرف منكسر فقالت ببساطة



أفوتك بعافية

فسألها بصوت غليظ متحشرج أنه صوت ضميره المعذب

أتقسمين على أنك صادقة فيما قلت ؟

فقال بوضوح

-أقسم بربي وهو شهيد.

ومضت وألوان الفجر تخضب الأفق فأتبعها ناظريه حتى اختفت ثم ذهب وفي حجرة نومه سقط مغشيا عليه، وأفاق بعد

دقائق فوجد نفسه متعبا لحد الموت فنام لكن نومه لم يستمر أكثر من ساعتين ثم أيقظه القلق الباطني، ونادى حنش

فجاءة الرجل فقص عليه قصة المرأة والآخر يحملق في وجهه المترعج فلما فرغ من قصته ضحك حنش قائلا:

هنيئا لك سطل الأمس

فغضب عرفة وهتف به

حقيقة لا شك فيها

فقال حنش برجاء

لم يكن ما رأيت سطلا، ولكن

-نم أنت في حاجة إلى نوم عميق.

ألا تصدقني؟-

آلا طبعاً ، وإذا نمت أما أود واستيقظت بعد حين فلن تعود إلى هذه القصة-.

ولم لا تصدقني

فضحك قائلا

وقفت قليلا أمام باب البيت الكبير ثم-.

واصلت السير يتبعك خادماك

أنت في النافذة وأنت تغادر بيت الناظر فرأيتك وأنت تقطع عرض الحارة نحو بيتكن

فوئب عرفة واقفا وهو يقول بظفر:

إلى بالخادمين

فأشار حنش إليه محذرا ثم قال

آلا ، وإلا شكاً في عقلك

فقال بإصرار

سأستشهد بهما على مسمع منك

فقال حنش متوسلا

لم يبق لنا إلا شئ من الكرامة حيال الخدم فلا تبدده

فلاحت في عيني عرفة نظرة جنونية وراح يقول ذاهلا

لست مجنونا وليس هو بالسلط ، مات الجبلاوى وهو عنى راض.

فقال حنش بعطف:

فليكن ولكن لا تدع أحدا من الخدم- .

إذا وقعت آثرته فستقع أول ما تقع فوق رأسك

فقال بحلم

لا سمح الله ، فلندع المرأة لتحدثنا بنفسها ، أين ذهبت؟

فقطب متذآرا ، ثم قال بإشفاق

نسيت أن أسألها عن مسكنها- !

لو آآن حقيقة ما رأيت لما ترآآها تذهب

فهتف عرفة بإصرار

آآن حقيقة ، لست مجنونا، وقد مات الجبلاوى وهو عنى راضى

فقال حنش بعطف

-لا تجهد نفسك فأنت فى حاجة إلى لراحة.

واقترب منه فربت رأسه ن وحنو دفعه نحو الفراش وما زال به حتى أرقده اغمض الرجل عينيه أعياه وما لبث أن نام نوما

عميقا.

112

قال عرفة بهدوء وتصميم:

-قررت أن أهرب.

فدهش حنش دهشة فوق مايطبق حتى توقفت يداه عن العمل، ونظر بجذر فيما حوله ورغم أن حجرة العمل آآنت مغلقة

إلا أنه بدا خائفا ولم يكثر عرفة لدهشته ولم تكف يداه عن العمل وراح يقول:

هذا السجن لم يعد بمدني إلا بأفكار الموت، وآآن الطرب والراقصات ليست إلا ألحان الموت، وآأني أشم رائحة-  
القبور في أصص الأزهار  
فقال حنش بقلق:

لكن الموت نفسه ينتظرنا في الحارة-.

سنهرب بعيدا عن الحارة

ثم وهو ينظر في عيني حنش

وسنعود يوما لنتنصر-!

إذا استطعنا الهرب-.

اطمأن لنا الأوغاد فلن يعجزنا الهرب

وواصل العمل مليا في صمت ثم تساءل عرفة

اييس هذا ما آنت تود؟

فتمتم حنش في حياء

آدت أنسى ولكن خبرني ما الذي دعاك اليوم إلى هذا القرار؟

ابتسم عرفة وهو يقول-.

إن جدى أعلن رضاه عنى رغم اقتحامى بيته وقتلى خادمه

فعدت الدهشة وجه حنش وهو يتساءل

-أتغامر بحياتك لحلم رأيتة في السطل؟

سمة بما تشاء، لكنى واثق من أنه مات وهو عنى راض، لم يغضبه الاقتحام ولا القتل لكن لو اطلع على حياتى الراهنة-.

لما وسعته الدنيا غضبا

ثم بصوت خافت:

لذلك نبهنى بلطف إلى سابق رضاه

فقال حنش وهو يهز رأسه عجبا

لم يكن من عادتك أن تتحدث عن جدنا باحترام-.

آن ذلك في الزمان الؤل وأنا آثير الارتياب أما وقد مات فحق للميت الاحترام

اللله يرحمه

تيسر لى النجاح فلن نعرف-.

الموت

وهيئات أن أنسى اننى المتسبب فى موته لذلك فعلى أن أعيدته إلى الحياة إذا استطعت وإن فرمقه حنش باسى وقال:

لم يسعفك السحر حتى اليوم إلا باقراص منشطة وقارورة مهلكة- .  
نحن نعرف من أين يبدأ السحر لكن لا نستطيع أن نتخيل أين ينتهى  
وأجال بصره فى الحجرة قائلاً

-سنتلف آل شئ إلا الكراسية يا حنش ، فهى آنز للأسرار، وساجعلها فوق صدرى ولن نجد المهرب عسيرا أما تتوهم.  
ومضى عرفة أعادته مساء إلى بيت الناظر وقبيل الفجر عاد إلى بيته وجد حنش مستيقظا فى انتظاره فلبثا فى حجرة النوم ساعة حتى يطمئنا إلى نوم الخدم وتسلا معا إلى السلامك فى خفة وحذر، وآآن شخير الخادم النائم فى شرفة السلامك يتصاعد فى انتظام، فهبطا السلم، واتجها نحو الباب ومال حنش إلى فراش البواب فرفع بيده هراوة وهوى بها عليه لكنها أصابت جسما قطنيا فارغا وأحدثت صوتا مزعجا فى سكون الليل، ثبت لهما أن البواب ليس فى فراشه وخافا أن يكون الصوت قد أيقظ أحدا فلبثا وراء الباب بقلب خافق، ورفع عرفة المزلاج وفتح الباب على مهل ثم خرج وحنش فى أثره ورد الباب وسارا لصق الجدران نحو ربع أم زنفل يجترقان ظلمة صامته واعترضهما فى منتصف الحارة آلب رابض فوقف مستطلعا وجرى نحوهما متشمما وتبعهما خطوات ثم توقف وهو يتشاءب ولما بلغا مدخل الربع قال عرفة همسا:  
ستنتظرني هنا ، وإذا رابك شئ فصفر لى واهرب إلى سوق المقطم، دخل عرفة الربع فاجتاز الدهليز إلى السلم ورقى فيه حتى غرفة أم زنفل ونقر على الباب حتى سمع صوت زوجته وهى تسأل عن الطارق فقال بسرعة وحرارة  
أنا عرفة افتحى يا عواطف

فتحت الباب فطالعه وجهها الشاحب من أثر النوم على ضوء مصباح صغير بيدها قال مباشرة

اتبعيني سنهرب معا

وقفت تنظر إليه فى ذهول على حين ظهرت وراء آتفها أم زنفل فقال

سنهرب من الحارة سنعود أما آنا ، اسرعى

ترددت قليلا ثم قالت بنبرة لم تخل من غيظ

ما الذى ذآرك بى ؟

فقال بلهفة ولهوجة

دعى الملام لحينه فللدقيقة الآآن ثمها

وإذا بصفير حنش ينطلق وضجة تترامى فهتف فى فزع

الكلاب ضاعت الفرصة يا عواطف

وثب إلى رأس السلم فرأى في فناء الربع أضواء وأشباحا فارتد يائسا ، وقالت عواطف

ادخل

فقال أم زنفل بخشونة دفاعا عن نفسها

لا تدخل

وما فائدة الدخول؟ وأشار إلى نافذة صغيرة بدهليز المسكن وسأل زوجته بسرعة

علام تطل ؟

المنور

فاستخرج الكراسية من فوق صدره واندفع نحو النافذة منحيا عن سبيله أم زنفل ثم رمى بها وغادر المسكن مسرعا فأغلق

الباب وراه وصعد درجات السلم القليلة المؤدية إلى السطح وثبا أطل من فوق السور على الحارة فرأها تعج بالأشباح

والمشاعل وترامت إلى أذنيه ضجة الصاعدين إليه وجرى إلى السور الملاصق لأحد ربوع الرفاعية فرأى من خلال باب

سطحه أنوار للربيع المجاور من ناحية الجمالية فرأى أشباحا تسبقه إليه وراء حامل مشعل ارتد إلى السور مشاعل قادمة،

وتملكه يأس خانق وخيل إليه أنه سمع صراخ أم زنفل ترى هل اقتحموا مسكنها؟ هل قبضوا على عواطف؟ وإذا بصوت عند

باب السطح يصيح به:

سلم نفسك يا عرفة

وقف مستسلما دون ان ينبس بكلمة ، لم يتقدم منه أحد لكن الصوت قال

إذا رميت بزجاجة أهالت عليك الزجاجات

فقال

لا شئ معى

انقضوا عليه فطوقوه ورأى بينهم يونس بواب الناظر الذى اقترب منه وصاح به

يا مجرم .. يا لثيم .. يا آفرا بالنعمة- . .

وفى الحارة رأى رجلين يسوقان أمامهما عواطف فقال بتوسل حار

دعوها فلا شأن لها بي- . .

لكن لظمة الموت هوت على صدغه فأسكنته

أمام الناظر الغاضب وقف عرفة وعواطف مقيدى اليدين إلى ظهريهما أهمال الناظر لظما على وجه عرفة حتى آلت يدها وصاح به:

أنت تناديني وأنت مبيت الغدر يا ابن الزانية؟

فقال عواطف بأعين دامعة

ما جاعني إلا ليصالحني

فبصق الناظر على وجهها وصاح

اخرسى يا مجرمة

فقال عرفة

إنها بريئة ولا ضلع لها في شيء.. .

بل شريكك في قتل الجبلاوى وسائر جرائمك

ثم وهو يهدر

-أردت الهرب وسأهربك من الدنيا أها.

ونادى رجاله فجاءوا بجوالين دفعوا عواطف فسقطت على وجهها فسرعان ما قيدوا قدميها وأدخلوها في الجوال وهي تصرخ

ثم ربطوا فوهته ربطا محكما وصاح عرفة بانفعا جنونى:

اقتلنا أما تشاء.. . سيقتلك الحاقدون غدا

فضحك الناظر ضحكة باردة وقال

عندى من القوارير ما يحميننا إلى الأبد

فصاح عرفة

-حنش هرب بكل الأسرار، هرب وسوف يعود يوما بقوة لا تقاوم فيخلص الحارة من شرك.

فرآله في بطنه فسقط يتلوى وانقض عليه الرجال ففعلوا به ما فعلوه بزوجته ثم حملوا الجوالين خارجا، ومضوا بهما نحو

الخلاء، وما لبثت عواطف أن أغمى عليها ولكن بقى هو يعانى العذاب إلى أين يسرون بهما؟ وماذا أعدوا لهما من ألوان

الموت؟ أقتلونهم ضربا بالنباييت؟ بالحجار؟ بالنار؟ أم رميا من فوق الجبل؟ يا لهذه الدقائق الأخيرة من الحياة المشحونة

بأفطع الآلام! حتى السحر لا يستطيع أن يجد لهذا المأزق الخانق مخرجا، إن رأسه المتورم من لطمات الناظر يرقد أسفل

الجوال فيكاد أن يخنق ولم يعد له من أمل فى الراحة إلا بالموت، سيموت وتموت الآمال وربما عاش طويلا ذو القهقهة

الباردة وسيشمت به الذين ود لهم الخلاص، ولنه يدرى أحدا ماذا سيفعل حنش والرجال الذين يحملونه إلى الموت

صامتين، لا تند عن أحدهم آلمة فليس ثمة إلا الظلام وليس وراء الظلام إلا الموت وخوفا من هذا الموت انطوى تحت جناح الناظر فحسر آل شئ وجاء الموت، الموت الذى يقتل الحياة بالخوف حتى قبل أن يجئ لو رد إلى الحياة لصاح بكل رجل.. لا تخف .. الخوف لا يمنع من الموت ولكنه يمنع من الحياة، ولستم يا أهل حارتنا أحياء ولن تتاح لكم الحياة ما دمتم تخافون الموت.

وقال رجل من القتلة:

هنا.

فقال آخر من القتلة معترضا

-هناك الأرض طرية.

ارتعد قلبه رغم أنه لم يفهم للكلام معنى، لكنها آنت لغة الموت على أى حال، واشتد به عذاب المتوقع حتى أوشك أن يصيح بهم إن اقتلونى ولكنه لم يفعل، وفجأة هوى الجوال إلى الأرض فشقق وارتطم رأسه بالأرض فهصر الألم عنقه وعموده الفقري، وانتظر بعد لحظة وأخرى انقضاى النبائيت أو ما هو أفض ولعن الحياة آها من أجل الشر حليف الموت، وسمع يونس وهو يقول:

-احفروا بسرعة حتى نعود قبل الصبح.

لم يحفرون القبر قبل القتل؟ وخيل إليه أنه يحمل المقطم فوق صدره وسمع أنينا ما لبث أن ميز فيه نيرة عواطف فندت عن جسده المقيد حراة عنيفة ثم ملأت دقات الحفر أذنيه فعجب من غلظة آباد الرجال ، وإذا بيونس يقول:

-سيلقى بكما إلى قعر الحفرة ثم يهال عليكما التراب دون أن يمكما إنسان بسوء.

فصرحت عواطف رغم إعياها وهتفت أعماقه بلغة لم يدرها أحد ورفعتهما أيد شديدة ثم رمت بهما إلى قعر الحفرة، فانهال التراب وارتفع الغبار فى الغسق.

114

انتشر خبر عرفة فى الحارة ، لم يعرف أحد أسباب مصرعه الحقيقية، ولكن بالتخمين عرفوا أنه أغضب سيده فدفعه هذا إلى مصيره المحتوم، وذاع حينما ما أن عرفة قتل بنفس السلاح السحرى الذى قتل به سعد الله والجبلاوى، وفرح الجميع لقتله رغم مقتهم للناظر، وآثر الشامتون من أهل الفتوات وأنصارهم ، فرحوا لمقتل الرجل الذى قتل جدهم المبارك وأعطى ناظرهم الظالم سلاحا رهيبا يستذلهم به إلى الأبد، وبدا المستقبل قائما أو أشد قتامة مما آان بعد أن ترآزت السلطة فى يد واحدة قاسية، واختفى الأمل فى أن ينشب بين الرجلين نزاع فيفضى إلى أضعافهما معا ولجوء أحدهما إلى أهل

الحارة وبدا أنه لم يبق لهم إلا الخضوع، وأن يعتبروا الوقف وشروطه وآلمات جبل ورفاعة وقاسم أحلاما ضائعة قد تصلح  
ألحانا للرباب لا للمعاملة في هذه الحياة.

ويوما اعترض رجل أم زنفل وهي ذاهبة إلى الدراسة فحياها قائلاً:

مساء الخير يا أم زنفل

فرمقته بنظرة فما عتمت أن قالت بدهشة

حنش!

فاقترب منها باسمًا ثم سأها

ألم يترك المرحوم شيئاً في مسكنك ليلة القبض عليه؟

فقالت بلهجة من يقصد دفع الشبهة عن نفسه

لم يترك شيئاً ، رأيته يرمى بأوراق إلى المنور، فتسللت إليه في نهار اليوم التالي فعثرت بين القاذورات على آراسة لا-

فايدة منها ولا عايذة فترآتها ورجعت

التمعت عينا حنش بنور عجيب وقال برجاء:

مدى لى يدك حتى أأثر على الكراسية

فأجفلت العجوز وهي تهتف

-ابعدوا عني، لولا رحمة ربنا لهلكت في المرة الماضية.

فأودع يدها قطعة من النقود حتى سكن فرعها، وواعدها آخر الليل حين تنام العيون، وفي الموعد المضروب تسلل

بارشادها إلى أسفل المنور وأشعل شمعة وجلس القرفصاء بين أآوام الزبالة وراح يفتش على آراسة عرفة ، فرز الأآوام

ورقة ورقة وخرقة وخرقة ، وتخللت أصابعه الرماد والتراب وبقايا المعسل وفتات الأطعمة المنتنة لكنه لم يعثر على ضالته،

وصعد إلى أم زنفل فقال لها بيأس غاضب:

لم أجد شيئاً- . .

فهتفت المرأة ساخطة

لا شأن لى بكم ! إنكم تجيئون ثم تتبعكم المصائب.

حلمك يا أمى

لم تترك لنا الأيام حلماً ولا عقلاً، خبرين ماذا يهملك في تلك الكراسية؟

فتردد حنش قليلاً ثم قال

إنها آراسة عرفة- . .



عرفة ! الله يسامحه قتل الجبلاوى، ثم أعطى الناظر سحره وذهب

فقال حنش بجزن

آن من أولاد حارتنا الطيبين لكن الحظ خانه ، آن يريد لكم ما أراد جبل وعرفة وقاسم، بل وأحسن مما أرادوا

فحدجته المرأة بنظرة ارتياب ثم قالت بغية التخلص منه

لعل الزبال أخذ الزبالة التي ترأت الكراسية فيها ففتش عنها فى مستوقد الصالحية

وذهب حنش إلى مستوقد الصالحية وسأل عن زبال حارة الجبلاوى ثم سأله عن زبالة الحارة ، فسأله الرجل

تبحث عن شئ ضائع ! ما هو ؟-

آراسة-

فلاحت فى عين الزبال نظرة مريبة لكنه قال وهو يشير إلى رآن فى الحجرة الملاصقة للحمام

-أنت وحظك ، فإما تجدها عندك وإما تكون فى النار.

ومضى حنش يفتش فى الزبالة بصبر وأمل ، لم يبق له من أمل فى الحياة إلا تلك الكراسية، هى أمله وأمل الحارة ، قتل

عرفة السئ الحظ مغلوبا على أمره، لم يترك وراءه إلا الشر وسوء السمعة، فهذه الكراسية جديرة بإصلاح أخطائه والقضاء

على أعدائه وبعث الآمال فى الحارة المتجهمة ، وإذا بالزبال يسأله:

ألم تعثر على مطلوبك؟-

أمهلنى ربنا يكرمك

فهرش الرجل إلبطيه متسائلا

ما اهمية الكراسية ؟

فقال حنش دفعا للقلق الذى انتابه

فيها حسابات المحل وستراها بنفسك

وواصل بحثه رغم تزايد مخاوفه حتى سمع صوتا غير غريب عنه يقول

-أين قدرة الفول يا متولى ؟

ارتعدت فرائصه لدى سماع صوت عم شنكل يبيع الفول بالحارة ، لم يلتفت نحوه ولكنه تساءل فى جزع، ترى هل لمح

الرجل؟ وهل يحسن به أن يهرب؟ وزادت سرعة يديه فى التفتيش حتى بدا آلأرنب الذى يحفر مأوى له.

وعاد عم شنكل إلى الحارة ليقول لكل من يصادفه إنه رأى حنش رفيق عرفة فى مستوقد الصالحية مكبا على التفتيش

فى الزبالة عن آراسة أما أحبره الزبال، وما أن بلغ الخبر بيت الناظر حتى ذهبته قوة من الخدم إلى المستوقد ولكنها لم

تجد لحنش أثران ولما سئل الزبال قال إنه ذهب لبعض شأنه، ولما عاد آن حنش قد ذهب، ولم يدر إن آن عثر على ضالته

أم لا ن ولا يدري أحد آيف اخذ الناس يتهايمسون فيما بينهم بأن الكراسية التي أخذها حنش ما هي إلا آراسية السحر التي أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته، وإلها ضاعت أثناء محاولته الهرب فحملت في الزبالة إلى مستوقد الصالحية حيث عثر عليها حنش وانتشرت الأخبار من غرزة إلى غرزة بأن حنش سيتم ما بدأه عرفة ثم يعود إلى الحارة لينتقم من الناظر شر انتقام، وأآد الأقوال والظنون أن الناظر وعد من يجيء بحنش حيا أو ميتا بمكافأة آبيرة آما أعلن ذلك رجاله في المقاهي والغرز، فلم يعد أحد يشك في الدور المنتظر أن يلعبه حنش في حياتهم، وارتفعت في الأنفس موجه استبشار وتفآؤل قذفت بعيدا بزبد القنوط والخنوع وامتأأت القلوب عطفآ على حنش في مهجره المجهول، بل امتد العطف إلى ذآرى عرفة نفسه وتمنى الناس لو يتعاونون مع حنش في موقفه من الناظر لعلهم يحرزون بانتصاره عليه نصرا لهم ولحارتهم وأمنا لحياة خير وعدالة وسلام وصمموا على التعاون وجدوا إليه سبيلا باعتباره السبيل الوحيد إلى الخلاص، إذا آآن من المسلم به أنه لا يمكن التغلب على القوة السحرية التي يحوزها الناظر إلا بقوة مثلها مما قد يعدها حنش، ونما إلى علم الناظر ما الناس يتهايمسون به فأوحى إلى شعراء المقاهي أن يتغنوا بقصة الجبلاوى وبخاصة مقتله بيد عرفة، وآيف أن الناظر اضطر إلى مهادنته ومصادقته خوفا من سحره حتى تمكن منه فقتله انتقاما للجد الكبير.

ومن عجب أن تلقى الناس أآذيب الرباب بفتور وسخرية وبلغ بهم العناد أن قالوا " : لا شأن لنا بالماضى، ولا أمل لنا إلا في سحر عرفة، ولو خيرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر."

ويوما بعد يوم مضت حقيقة عرفة تتكشف للناس، لعلها تسربت من ربع أم زنفل التي علمت بالكثير عنه من عواطف على عهد إقامتها عندها، ولعلها جاءت عن طريق حنش نفسه فيما آآن يعرض البعض عن مقابلته في الأمان النائبة، المهم أن الناس عرفوا الرجل، وما آآن ينشده من وراء سحره للحارة من حياة عجيبة آالأحلام الساحرة ووقعت الحقيقة من أنفسهم موقع العجب فأآبروا ذآراه ورفعوا اسمه حتى فوق أسماء جبل ورفاعة وقاسم، وقال أناس إنه لا يمكن أن يكون قاتل الجبلاوى آما ظنوا ، وقال آآرون إنه رجل الحارة الأول والأخير ولو آآن قاتل الجبلاوى وتنافسوا فيه حتى أدعاه آل حى لنفسه.

وحدث أن أخذ بعض الشبان من حارتنا يجتفون تباعا، وقيل في تفسير احتفائهم إهم اهدوا إلى مكان حنش فانضموا إليه، وأنه يعلمهم السحر استعدادا ليوم الخلاص الموعود، واستحوذ الخوف على الناظر ورجاله فبثوا العيون في الأركان، وفتشوا المساآن والدآآين، وفرضوا أقصى العقوبات على أتفه الهفوات، واهالوا بالعصى للنظرة أو النكتة أو الضحكة حتى باتت الحارة في جو قائم من الخوف والحقد والإرهاب، لكن الناس تحملوا البغى في جلد، ولاذوا بالصبر واستمسكوا بالأمل ، وآآنوا آلما أضر بهم العسف قالوا : لا بد للظلم من آخر، ولليل من نهار، ولنرين في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب.

## أعمال نجيب محفوظ

قدم نجيب محفوظ عددا كبيرا من الروايات والأعمال الأدبية منذ بدايات القرن العشرين، وحتى وقت قريب، واستطاعت هذه الأعمال الأدبية أن تصور التاريخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لمصر خلال القرن الماضي الذي يعد أهم القرون التي عاشتها مصر، وتركت بصمتها الواضحة على الشخصية المصرية.



### أولاً: الروايات:

1- مصر القديمة تأليف جيمس بيكي (ترجمة الانجليزية) 1932

2- عبث الأقدار 1939

3- رادوبيس (1943)

4- كفاح طيبة (1944)

5- خان الخليلي (1945)

6- القاهرة الجديدة (1946)

7- زقاق المدق (1947)

8- السراب (1949)

9- بداية ونهاية (1951)

10- بين القصرين (1956)

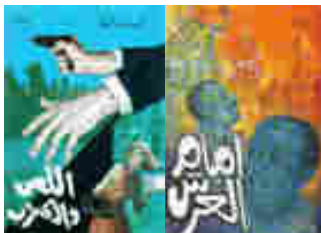
11- قصر الشوق (1956)

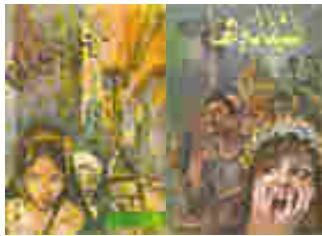
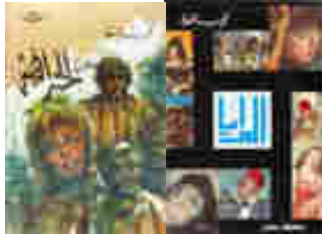
12- السكرية (1957)

13- أولاد حارتنا (1959)

14- اللص والكلاب (1961)

15- السمان والخريف (1962)





16-الطريق (1964)

17-الشحاذ (1965)

18-ثرثرة فوق النيل (1966)

19-ميرامار(1967)

20-المرايا (1971)

21-الحب تحت المطر (1973)

22-الكرنك (1974)

23-حكايات حارتنا (1975)

24-قلب الليل (1975)

25-حضرة المحترم (1975)

26-ملحمة الحرافيش (1977)

27-عصر الحب (1980)

28-أفراح القبة (1981)

29- ليالي ألف ليلة وليلة (1982)

30-الباقي من الزمن ساعة (1982)

31-أمام العرش (1983)

32-رحلة ابن فطوطة (1983)

33-التنظيم السري (1984)

34-العائش في الحقيقة (1985)

35-يوم مقتل الزعيم (1985)

36-حديث الصباح والمساء (1987)

37-صباح الورد (1987)

38-قشتمر (1988)



## ثانيا: القصص القصيرة:

1- همس الجنون (1948)

2- دنيا الله (1963)



3- بيت سيئ السمعة (1965)

4- خمارة القط الأسود (1969)

5- تحت المظلة (1969)

6- حكاية بلا نهاية ولا بداية (1971)

7- شهر العسل (1971)



8- الجريمة (1973)

9- الحب فوق هضبة الهرم (1979)

10- الشيطان يعظ (1979)



11- رأيت فيما يرى النائم (1982)

12- الفجر الكاذب (1988)

13- أهل الهوى (1988)





### ثالثاً: المسرحيات:

لنحب محفوظ عدد من القطع الحوارية مستلهمة من الواقع في مجاميعه القصصية:

#### وهي:

- "خمارة القط الأسود".
- "تحت المظلة".
- "الشیطان يعظ".
- "يحيي ويميت".
- "المهمة".
- "التركة".
- "الحبل".
- "النجاة".
- "الشیطان يعظ".
- "مشروع للمناقشة".

2.....	افتتاحية
4.....	أدهم
81.....	جبل
153.....	رفاعة
224.....	قاسم
322.....	عرفة
402.....	أعمال نجيب محفوظ
402.....	أولاً: الراويات:
404.....	ثانياً: القصص القصيرة:
405.....	ثالثاً: المسرحيات:
406.....	الفهرس